فريد حسن

شاي أخضر في تلال شنقيط

مذكراتي في بلاد المليون شاعر

منشورات خديجة بنت عبد الحي

©
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
ISBN: 978-2-37711-095-7

تعريف بالكتاب:

هذا الكتاب يعرض حياتي الفنية والأعمال الفنية التي قمت بها في موريتانيا.

أتحدث عن الشعراء والكتاب الذين تعاملت معهم، والفنانين الذين أعطيتهم ألحاني أو غنوا معي أغاني مشتركة، وعن زياراتي للمدن والولايات والوديان والواحات والأرياف في موريتانيا، وعن الأحداث التي رافقت تلك الفترة في شتى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

أملي أن تجد أخي القارئ المتعة والفائدة في هذا الكتاب.

الفنان فريد حسن

1

في صباح اليوم التالي لوصولنا إلى نواكشوط حيث نزلنا في فندق النواب ضيوفا على الدولة الموريتانية، كان معي في الغرفة نفسها زميل رافقني من دمشق حيث مررنا بليبيا وتونس والجزائر في اليوم نفسه و الطائرة نفسها مع توقف في كل منها، وأخيرا توقفنا في {الدار البيضاء} وبتنا فيها ثلاث ليال وانتقلنا إلى نواكشوط.

وفي مطار نواكشوط استقبلنا الملحق الثقافي والقائم بأعمال السفارة والقنصل ولم يكن وصفهم للواقع مفرحا فزاد من قلقنا وألم فراقنا للأهل والوطن.

نزلنا إلى السوق أنا وزميلي محمد الخطيب وهو سوري من أصل فلسطيني لنشتري بعض أدوات الطبخ وبعض الطعام وبينما نحن في السوق الشعبي الذي سبق السوق الكبير الذي بني بعد سنتين أو أزيد حيث حُرِق أو احترق السوق القديم والذي كان من الخشب أو التوتياء والخيش كل حسب إمكاناته.

وبينما نحن في السوق سمعت دندنة بآلة موسيقية تبعها المذيع يقول إذاعة الجمهورية الإسلامية من نواكشوط تقدم نشرة أخبار الظهيرة.

كل المشاهد كانت تؤلمني: الرمل والأتربة والغبار والطاولات التي عليها القليل من الخضروات والوجوه المغبرة وهذه المقدمة لنشرة الأخبار كانت أكثر إيلاما.

قلت لصاحبي هل سمعت هذه المقدمة لنشرة الأخبار؟ قال: نعم. قلت: إن حلمي أن أضع بدلا منها مقدمة موسيقية تواكب العصر ولا تقل عن موسيقى أية دولة أخرى.

تعجب صاحبي من قولي وقال: وأنت ما علاقتك بالأمر؟ قلت له: الحق معك فنحن أصحاب من أربعة أيام ولم نتحدث إلا في أمور سفرنا وطعامنا وغربتنا وعن

الغريب الذي نراه في تجوالنا. قال: هل هناك جانب يتعلق بالموسيقى في حياتك لم تخبرني به؟

قلت: نعم فأنا خريج الشعبة الموسيقية في دار المعلمين في حلب وقد بدأت التلحين وأنا طالب فيها، وكان عمري حينئذ ستة عشر عاما وسجلت أول لحن في إذاعة حلب وأنا ابن اثنتين وعشرين ثم تابعت تسجيل الألحان في إذاعة حلب وبلغ عددها عشرا نال كثيرٌ منها جوائز.

عندها عرف صاحبي أني لم أنطلق من فراغ عندما قلت:(حلمي وضع مقدمة لنشرة الأخبار) والذي تحقق بعد ستة عشر شهرا.

وإلى اللقاء في فقرة قادمة أنتقل فيها إلى طريقة البدء العملي في طريق الفن في موريتانيا.

××××

2

بعد أيام من وصولنا وبينما نتناول الشاي الأحمر ظُهرا أنا وصاحبي الذي شاركني سفرة دمشق نواكشوط وشاركني السكن في غرفة فندق النواب، كان الباب مفتوحا بسبب الحرارة إذ برجل في أواخر الأربعينات من عمره يلبس لباسا نصرانيا، كما كان يقال حينها، (حيث كان كثير من الأطفال يوجهون لنا هذه العبارة فيصيحون: نصراني)، وقف الرجل أمام غرفتنا ينظر إلينا متبسما بعد أن أخرج غليونه من فمه علما أني لم أر طول فترة بقائي في موريتانيا واحدا يدخن الغليون (البايب) غيرَه.

"السلام عليكم شباب !" قالها بهذا الشكل ثم تابع: "منين الشباب؟" باللهجة السورية وعرفنا أن له علاقة ببلاد الشام. قلنا له: "نحن سوريان" فقال بلهجتنا: "والنعم" يعني (وخرت) فقلنا له: "تفضل إشرب معنا الشاي." لم يرفض دعوتنا بل لبّاها وجلس على سرير ثالث حيث كان في الغرفة أربعة أسرة، وبدأ يحدثنا عن موريتانيا وأنا أنصت لأستزيد من معلومات مكثفة هي خلاصة تجربة هذا الإنسان المبتسم دائما والمرح والمحب للفن والطرب. كان شعلة من ذكاء. سألته عن عمله فقال موظف في الخارجية. سألته عن اسمه قال: "محمد الراضي البيضاوي." سألته من أين تعلم لهجة بلاد الشام: قال: " لأنني أُرْدُني ووالداي من موريتانيا من تجاكانت." وهو مستشار للملك حسين بن طلال.

قلت له: "لقد تشاءمنا من حديث ملحقنا الثقافي في توصيف الوضع الموريتاني." لقد استطاع أن يقلب لنا أفكارنا التي تكونت من آراء لمدرسين سوريين ثلاثة كانوا قد سبقونا في أشهر، علما أننا في تلك السنة كنا أول دفعة مدرسين سوريين تأتي إلى موريتانيا.

قال لي البيضاوي من بين ماقال: "إن الموريتانيين اجتماعيون، لكنهم لا يرضون أن يتعالى عليهم أحد أو يظهر لهم أنه ليس موافقا على بعض عاداتهم." فقلت له: "هذا بديهي فنحن أيضا لا نرضى لزائر أو ضيف أن يفعل ذلك عندما يكون بين ظهرانينا."

سألنا عن المواد التي يدرسها كل منا وأجبناه. ومن حديث لآخر قلت له: "إننا نمل لأن مدير مدرسة تكوين المعلمين لم يخصص لنا إلا ساعات قليلة والوقت طويل وممل وأنا أجيد العزف على العود وأغني وألحن لكنني لم أحضر عودي معي خوفا من كسره أو مصادرته لأنهم قالوا لنا في سوريا: هذه الجمهورية

الإسلامية الموريتانية فإياك أن تأخذ العود معك" قال لي: "هنا لا توجد أعواد للبيع لكنني أعرف شخصا ذهب للدراسة في العراق وأحضر معه عودا وهو لا يستخدمه كثيرا." فقلت له: "هل يعيرنا إياه؟" قال: "نجرب."

ذهبنا ظهر اليوم التالي إلى بيت هذا الشخص الذي أصبح فيما بعد من أعز أصدقائي الفنانين وهو المرحوم سيمالي ولد همد فال وقد كان وقت الغذاء وتناولنا معه الطعام وقال لي: "أبشر سأعيرك العود ليبقى عندك حتى تحضر عودك." وكنا في أول نيسان ولم يبق لانتهاء المدارس إلا شهران ونيف. شكرناه وودعناه وأخذنا العود إلى الفندق وبدأت في دوزانه (أي تنسيق أوتاره وجعلها متجانسة) غنيت لأسلِّيَ نفسي أولا وليستمع من كان من زملائنا المدرسين السوريين وبعض العراقيين. وكان أفضلهم فهما للفن وحبا له وإنصاتا بل انبهارا وتعلقا الراضي البيضاوي وكان هذا كله من حسن حظي ليتعلق بي ويجلس ليستمع إلى عزفي وغنائي.

وسألته عن الفن في موريتانيا والفنانين وإذا ما كان بإمكاننا زيارة بعضهم والتعرف إلى طريقة وأسلوب الغناء هناك وإلى الآلات الموجودة.

اتفقنا أن نذهب في الغد إلى بيت فنانة تدعى ديمي بنت أب.

ذهبنا دون موعد لأنه لم تكن حينها الهواتف النقالة موجودة بل كان من النادر أن يكون الهاتف العادي موجودا إلا عند قلة من الناس الذين يحتاجونه في عملهم الخاص مثل كبار التجار وكبار الموظفين والمسؤولين.

لم نجدها في البيت وقال لي: "هناك أسرة فنية بالقرب من هنا." فقلت: "من هم؟" قال: "أهل النانة."

ذهبنا عندهم وسهرنا معهم وسمعت مالديهم من غناء وكان قريبا من بيتهم فنان عظيم يدعى سيد أحمد البكاي ولد عُو سمعته وأمعنت في سماعي له فوجدت في غنائه قربا شديدا أوجذورا لها صلة بالموشحات الأندلسية وسألته عن النغمات في الموسيقى الموريتانية وعن الإيقاعات وكان الرجل يبلغ السبعين من عمره آنذاك.

كان موسوعة في الثقافة الموسيقية الموريتانيةو كان متواضعا رحمه الله، إنسانا طيبا يحب ويحترم الآخر. كنت في سهراتي هذه أسجل في ذهني تسجيلا دقيقا ما كنت أسمع من فن، وفي يوم ثان زرنا أسرة أخرى من أهل النانة فالأسرة الأولى كانوا تقليديين أما هذه الثانية فكانت لديهم مسحة معاصرة، ولديهم آلة

الكمان التي لم تكن عند غيرهم، وكانت والدتهم هي التي تعزف عليها!
وفي يوم ثالث جئنا إلى ديمي عليها رحمة الله فوجدناها في البيت وغنت لنا من أغانيها التقليدية والحديثة ثم غنت لأم كلثوم فوجدت ضالتي فقلت في نفسي : "إذا لحنت لها أغنية فإنها ستبدع فيها ويمكن أن أصنع منها معجزة لأنها تمتلك حنجرة ذهبية لا يمكن أن تتكرر إلا بعد عقود من الزمن. وطلبت من البيضاوي رحمه الله أن يأخذني إلى شعراء وفي حلقة أخرى نتابع.

××××

3

التقيت بديمي وأسمعتني أغانيها وأغاني أم كلثوم وغيرها من المطربات.
اقترح الراضي البيضاوي أن نشكل فرقة اسمها فرقة الرشيد للغناء والنشيد بقيادة ديمي والأستاذ فريد.
وافقناه أنا وديمي وبدأنا العمل وكانت أول حفلة في فندق شنقيط، وكان الاتفاق على النحو الآتي: نحن لا نقبض والفندق لا يقبض منا والدخول مجاني والفندق يربح من الطعام والشراب وكان هذا كله باتصالات البيضاوي مع الفندق وكثير من الأشخاص المهتمين بالفن.
قام البيضاوي بطبع بطاقات وإرسالها إلى كثير من الناس.
أما فرقة الرشيد فتضم فنيا فريدا وديمي وتنظيميا تضم المختار بوبكر والمهندس فيليب وهو فرنسي وإداريا كان الراضي مدير أعمال الفرقة. وكان يوم الحفلة وقدمنا أغانيَ رائعة منفردة لديمي ولي ومشتركة بيننا وقد اعترف الحاضرون بأن الحفلة كانت من أروع الحفلات التي شهدتها نواكشوط
وقد شكل هذا دافعا قويا لنا أنا وديمي. كما قدَّمنا حفلا آخر في صالون كبير كان يتواجد فيه نخبة من وجهاء نواكشوط.
في ليلة لاحقة اتفقنا أن نذهب إلى بيت أصدقاء للبيضاوي في الاكصر(القصر). كان المختار معنا وكان المهندس فيليب يقود سيارته الجيب المكشوفة الصفراء وكذلك كان معنا قائد الرحلة البيضاوي طبعا.
كانت سهرة بيضاوية بامتياز. كان العود برفقتنا. أسمعت الحاضرين نماذج من ألحاني في إذاعة حلب ومن التي لم أعطها لأحد من أشعار القباني وغيره.
وهناك تعرفت على موظفة في البنك تحب الفن وقالت لي كلاما كنت أبحث عنه كما قاله كثيرون قبلها.
قالت لي: "لماذا لا تلحن أغاني باللهجة الموريتانية؟" قلت لها: "أنا موافق إذا وجدت كلمات مناسبة ألحنها."

كان حديثنا جانبيا بيننا نحن الاثنين حيث أخرجتْ ورقة بيضاء من حقيبتها وكتبت أغنيتين، إحداهما كانت "درسك يا غلانه" والأخرى "ما ننسى وأنتِ ما تنساي ذوك الأيام الجميلة."
ولما عرفت أن الأغنية الثانية لها صاحب فتركتها جانبا وقررت تلحين "درسك ياغلانه".
لذلك ركزت عليها وسألت عن معاني الكلمات وطريقة لفظها فأنا في أيام وجودي الأولى في موريتانيا

(أقل من شهر).
انتهت السهرة وأَوْصَلَنا فيليب إلى فندق النواب (الديبيتي) وذهب هو إلى بيته. صعدنا أنا ومختار إلى غرفتي بعد أن صار لي غرفة خاصة بي وفي الغرفة عدة أَسِرَّة وذهب البيضاوي إلى غرفته لأن زوجته كانت فيها بانتظاره.
كنا مُتْعَبين وكان الوقت متأخرا ولم يكن عندي دوام في اليوم الموالي ونمنا دون هَزٍّ كما يقال. استيقظت باكرا كعادتي. أمسكت العود وبدأت أدندن والورقة أمامي وانهالت علي الألحان كما ينهمر المطر الغزير وما هي إلا دقائق حتى كانت المقدمة الموسيقية جاهزة، أما الكلمات فقد فعلت أمرا لا يمكن لأي موسيقي وخاصة في موريتاتيا فعله، فالقيفان وزنها في الأغنية خمسة خمسة، وهذا يجب أن يكون من أول الأغنية إلى آخرها. وما قمت به له سبب فقد قيل لي من بين ما قيل عن الفن والفنانين أن الواحد منهم يلحن أغنية وفي الغد يحفظها الآخر ويغنيها ولا تعرف من هو صاحبها الفعلي، فقد يأتيني بعد يومين أحد ويدعي أنه صاحبها، وهذا ما حصل معي ذات يوم وسأتطرق إليه في حينه.
ماذا فعلت؟ إليكم ما فعلت في الأغنية: "درسك يا غلانه، يا اللي تلهينا فيه الطازانا، وفيه التقرينا، نبغي ظرك أتاي، زين على فشاي، ويجينا القراي، (يابا)، هون يقرينا." وهنا أولا إضافة لكلمة سورية من عندي وهنا ينكسر الوزن فيصبح سبعة خمسة على غير العادة. "نفيسه ختنا، هي التلهينا، مرة تضحكنا، ومرة تبكينا، (ياعيني)" وكلمة سورية أخرى. لينكسر الوزن ثانية وليصبح خمسة ثمانية هذه المرة وهذا أكيد لم ولن يحصل في موريتانيا،من قبل أو من بعد.
كما أن خمسة خمسة لا يُغَنَّى في الكحال وأنا غنيته في الكحال والذي نسميه في المشرق مقام الرست. قد يعتبر البعض كل هذه التفصيلات خروجا عن الموضوع ومللا مفروضا. لا! فأنا أحترم قارئي وسامعي كثيرا.
أعود لتلحين "درسك ياغلانه" فقد انتهيت من تلحينها في نصف ساعة مع هذه الحجيرات التي وضعتها في بناء الأغنية وشبهتها ببناء سِنِمَّار الذي بنى قصرا للخليفة وقال له: "جعلت لك فيه حجرا إذا نزعته سقط كل البناء." وكذلك أنا فعلت بإضافة "يابا ويا عيني" السوريتين واللتين تخسران الوزن.

المهم أني انتهيت من التلحين لكن خفت أن أنسى اللحن فأيقظت المختار وأسمعته اللحن، وتستطيع القول أن المختار حضر ولادتها وهو أول من سمعها.
سألت المختار: " أليس عند البيضاوي مسجلة؟ " فقال:"نعم، توجد." وذهب يطرق الباب عليه ليوقظه ويحضر المسجلة وسجلت الأغنية ولم أنسها بعدها، وفي حلقة قادمة نتابع مسيرتي الفنية ضمن مذكراتي في موريتانيا.

××××

4

نتابع في "درسك يا غلانه" يوم ولادتها.

استيقظ البيضاوي وجاء ليسألنا عن سبب إيقاظه مبكرا لنأخذ المسجلة. قلت له: "اسمع !"سمع الأغنية وكان هو الثاني الذي سمعها بعد المختار وكان هذا قبل إذاعتها.

أعجب بها إعجابا كبيرا وقال: "اليوم لدينا مشوار مهم." قلت" " إلى أين؟" قال: "إلى أهل آب."

أخذنا الشريط معنا وذهبت مع البيضاوي لنُسْمِع ديمي اللحن. أُعْجِبَت به إعجابا كبيرا وكان للبيضاوي عمل مستعجل فاستاذن وانصرف.

كانت ديمي قد اشترت سيارتها رينو(5) منذ أيام. وضعت الشريط في مسجلة السيارة واتجهت إلى شاطئ البحر. لم أتوقع أنها ستحفظ الأغنية في ذهابنا إلى البحر وعودتنا منه فقلت لها بأن نحضر العود من الفندق ونذهب إلى صالون كبير لصديق لي عرفني عليه البيضاوي أيضا حيث يجتمع عنده مساء كل يوم كبار شخصيات نواكشوط وحضر معنا البيضاوي من الفندق حيث جاءت ديمي لتأخذني مع العود بسيارتها وغنيناها سويا وأعجب الحاضرون أيما إعجاب. وهذا ما دفعنا إلى تحديد موعد في الغد مع ديمي للذهاب إلى الإذاعة حيث كنا قبل أيام بصحبة البيضاوي، وقد التقينا يومها بالحسن ولد مولاي علي وكان وقتها مديرا للبرامج العربية وهو أيضا ممن عرفني البيضاوي عليهم، وهكذا أعترِف بأني مَدين لهذا الإنسان الذكي والمحب لمساعدة غيره بحماس نادر، فهو يصل إلى نتائج رائعة بمجهود بسيط.

ودار حديث قصير بيني وبين الحسن ولد مولاي علي، حيث عرفته فيه على إمكانياتي الموسيقية ورغبتي في مساعدة هذا القطر النائي (المنسي يومها من كل العرب).

قال لي الحسن: "أنا أرحب بك في أي وقت تشاء." واتصل بأحد الأشخاص طالبا منه أن يكتب لي بطاقة دخول إلى الإذاعة في أوقات الدوام وخارجها. قلت له: "إن راتبي الذي آخذه من وزارة التربية يكفيني ولن أكلفكم شيئا."

أعود إلى ديمي و"درسك يا غلانه" (وفيما بعد عرفت أن الأغنية هي "كرسك يا غلانه") والسبب كان أولا: وقتي المحدود والقصير منذ قدومي إلى موريتانيا إلى ذلك الوقت الذي لم يكن يمضي شهر على وصولي إليها. لقد كتبتها لي الأخت التي حدثتكم عنها في حلقة سابقة بشكل قرأتها أنا فيه (درسك)، ثم لأن الجمل التي تلي بعدها (ويجينا القراي هون يقرينا) فربط ذهني بين القراي وبين الدرس لكن لا أظن أنها أضاعت شيئا من المعنى بل جددت وأعطت للإخوة العرب بداية مفهومة لهم وكنت ترى المدرسين السعوديين والعراقيين والتونسيين يسجلونها ويذهبون بها في العطلة الصيفية إلى بلادهم.

جاء الموعد الذي حددناه أنا وديمي وجاءت وأخذنا العود واتجهنا إلى الإذاعة حيث لم يأخذ منا تسجيلها أكثر من نصف ساعة لنسختين، واحدة منهما احتياط. لقد كانت رحمها الله مثل عودي الذي يرافقني فلا يتجاوزني ولا يتخلف عني. قد كانت مبدعة في الحفظ وسرعته، مبدعة في الأداء، مبدعة في المرافقة.

لم يكن وقتها معها الأردين لترافقني في ضبط الإيقاع. وبسرعة البديهة التي كانت تمتلكها، أخذت علبة الشريط المصنوعة من الألمنيوم ورافقتني. وعند انتهاء التسجيل استمعنا إليها ولم نجد ولو خطأ صغيرا، بل كان الحاضرون في استوديو التسجيل مجموعة كبيرة من موظفي الإذاعة، وكانت عيونهم تلمع فرحا وقلوبهم ترقص (لست أمدح نفسي بهذا بل أستعرض الحقائق التي تبعت ذلك لتؤكِّد ما قلت.)، حيث قدمها أحد الإخوة المذيعين مساءً وكان قبل الأحد بيومين على ما أذكر.

وكان برنامج "طلبات المستمعين" يذاع يوم الأحد حيث كان عطلة نهاية الأسبوع وقتها فطلبها الجمهور الذي سمع الأغنية في ذاك البرنامج وكان العدد كبيرا إلى حد ما.

أمـا الأسـبوع الـذي تـلا فقـد كانـت الأسمـاء تأخـذ ربـع وقـت الـبرنامج. هـذه حكايـة "درسك يا غلانه"وإلى حلقة أخرى من مذكراتي في موريتانيا، أستودعكم الله.

××××

5

اللقاء الصحفي الأول:

بعد أيام من إذاعة الأغنية الأولى"درسك يا غلانه"، بينما أنا في معهد تكوين المعلمين في جلسة مع المدير، إذ بأحد الطلاب يقول: "إن ضيفا يبحث عنك في الخارج يا أستاذ." استأذنت المدير وذهبت لأرى من هو ضيفي. أوصلني الطالب إلى حيث يوجد الضيف، فسلمت عليه وسلم علي وعرفني على نفسه بأنه مندوب جريدة "الشعب" والتي كانت الجريدة الوحيدة في موريتانيا حينئذ والناطقة باسم الدولة وباسم حزب الشعب الموريتاني.

أخبرني أنه جاء لنحدد موعدا من أجل إجراء مقابلة صحفية، وقد اتفقنا على الزمان والمكان، وكان المكان بيتي في حي ب م د 42 في نواكشوط. جاء في الموعد ومعه مصور التقط لنا أكثر من صورة. وكان اللقاء ملأ صفحة كاملة من أصل ثماني صفحات كانت عدد صفحات مجلة الشعب حينها.

بائعو الأشرطة:

صار كثير من بائعي الأشرطة يسجل الأغنية ويكررها حتى يمتلئ الشريط فيبيعه بمئات الأوقيات وهناك من قال لي إنه اشترى شريطا بألف أوقية حينها. كنت أفرح عند سماع مثل هذا لأنه دليل آخر على حب جمهوري لما قدمت له.

زيارة عابرة للإذاعة:

في طريق عودتي من معهد تكوين المعلمين الذي لم تكن تفصله عن الإذاعة لحسن حظي سوى المدرسة الوطنية (ليسيه)، يعني أقل من مائة متر، دخلت لأُسلِّم على أصدقائي في القسم العربي والذين دخلوا قلبي وأنا على يقين أني دخلت قلوبهم، لأني كنت ألحظ ذلك من حسن استقبالهم لي ومن الوجوه الباشة الفرحة بي.

وفي جلسة مع أخي وصديقي الحسن ولد مولاي علي وَجَدْتُه قد جهز لي عَقدا لأوقع عليه من أجل أخذ حصتي من أرباح قيمة طلبات المستمعين التي كانت مأجورة حيث يدفع الطالب للأغنية أربعين أوقية نصفها للإذاعة ونصفها الآخر للمطرب وفي حالة "درسك يا غلانه"، ولأننا اثنان: أنا وديمي، فيأخذ كل منا الربع لهذه الأغنية.

سألته: "ألم نتفق أنني لن آخذ نقودا؟" قال: "هذا حقك لأنها من طالبي الأغاني وليست من الإذاعة." قلت له: "لا بأس." ووقعت العقد وقال لي: "هناك أمر آخر أريد التحدث معك بخصوصه." قلت : "وما هو ؟" قال: "إن هناك برنامجا دوريا يبث على الهواء مباشرة اسمه "لقاء الجمهور" في دار الشباب. ما رأيك أن تشارك فيه؟"

قلت له: " أستاذ حسن .كما أنك أعطيتني بطاقة مفتوحة لدخول الإذاعة متى شئت، فإني أعطيك بطاقة مفتوحة. فأنا وضعت نفسي وإمكانياتي لخدمة هذا البلد في أي خدمة يمكنني أن أقدمها."

أضاف: "هناك موضوع آخر." قلت: "وما هو؟" قال: "هناك نشيدان من كلمات محمدن ولد سيدي إبراهيم." وأخرجهما من الدرج مكتوبين على ورق شفاف بالآلة الكاتبة حينها، كما أذكر جيدا، فقلت بعد اطلاع سريع: "أيمكنني التقاء الكاتب؟" أرسل في طلبه فطلبت منه أن يقرأ لي النشيدين ويشرح لي المعاني وطريقة اللفظ فإن شهرا ونيفا (هو فترة وجودي في موريتانيا) لا يمكِّنني من استيعاب الكثير من اللهجة الحسانية. وبعد قراءته وشرحه حاولت أنا القراءة وكان يتخللها وقفات تصحيح من قبل محمدن حتى تأكدنا من صحة لفظي لكلمات كلا النشيدين.

تجهيز النشيدين:

ذهبت إلى البيت وبدأت أعمل ليلا نهارا في تلحين النشيدين ولإعجابي الشديد بكلمات " تقو ياجلال كتائب موريتان" ولوزنه الأخف، كان هو الأول إنجازا،

والأكثر ضخامة، وكنت كلما كررته مرة أخرى أحببته أكثر، وتوقعت له أن يكون إما شارة لنشرة الأخبار أو النشيد الوطني للبلاد، فقد عرفت أن النشيد الوطني لحنه فنان فرنسي؛ ذاك الذي يُعزف عند حديث رئيس الدولة، أو عند استقبال الرئيس لرئيس أو استقبال رئيس آخر له. وانتهيت من تلحين النشيد الثاني "افريقيين وعرب الاثنين في العالمين همزة وصل".

أيام قليلة وكان النشيدان جاهزين ومررت في طريق العودة من تكوين المعلمين إلى الإذاعة وأخبرت الأستاذ حسن ولد مولاي علي بأن النشيدين أصبحا جاهزين وبأنني أفضل أن يغنيهما مجموعة أو كورس يردد خلفي فقال:"إن هناك مطربا ومطربة سيغنيان معك." قلت: "ومن هما؟ قال: "سدوم ولد إيدة والمحجوبة بنت الميداح." قلت: "هل هناك فرقة نحاسية؟" قال: "هناك فرقة الجيش فقط." سألته ما إذا كنا نستطيع أن نطلب مساعدة منهم فقال: "نحاول." وفعلا أخذ وعدا بإرسال عازف ترومبيت وعازف طبل وسدوم يعزف على الكيتار وأنا أعزف على العود واتفقنا على مواعيد للتدريب في صالة بيتي في (ب م د ، 42) وفي عدة بروفات كان الجميع قد حفظ النشيدين فكلامهما سهل، لكن الواقع أن جهودا مضنية بُذلت، خاصة مع سدوم والمحجوبة والبنتين لأنهم للمرة الأولى يغنون ألحانا لم يألفوها.

يوم التسجيل:

وجاء يوم التسجيل وبوقت ليس بالطويل تم بنجاح تسجيل النشيدين وكان مُعِدُّ برنامج الصحراء حاضرا فقال: "سأستخدمهما في برنامجي اليومي الذي يُذاع مساء."

استمعت للبرنامج لأسمع النشيدين بالشكل المبثوث على الهواء لأن الملحن أوالفنان يشعر بسعادة بالغة لا يمكن وصفها عندما يقطف ثمرة جهده وإبداعه، شعور

شعرت به في إذاعة حلب عندما سمعت لحني الأول وأنا ابن اثنين وعشرين وكان من شعر نظمي عبد العزيز الذي جاء في بيته الأول:

حديث الليالي حبيبي لنا سيبقى ربيعا في عمر المنى.

أو قصيدة "لا تغضبي" من شعر نفس الشاعر:

لاتغضبي إني أخاف على العيون السود من مطر الدموع.

أو أغنية: "كبرتِ علينا بيلبق لك صار لك سيارة؟وعرفتِ تنقي الموقف على راس الحارة؛" من كلمات توفيق عنداني وغيرها العديد من الأغاني والأناشيد والقصائد الشعرية. لكن أكبر فرحة فرحتها لأغانيَّ في حلب كانت لأغنية "الاتحاد" حيث طلبت الإذاعة مني ومن صديقي المطرب فارس موصللي أن نقدم أغنية بالغد عن اتحاد الجمهوريات العربية : مصر وسورية وليبيا والتي انضم إليها لاحقا السودان، حيث كان فرحي الوطني يترجم فرحا بنجاح فني. ذهبت يومها لبيت صديقي الشاعر الفلسطيني محمود علي السعيد الذي كنت قد لحنت له قصيدة "مولود يافا":

أبحرت بدونك يا وطني — في درب لا إنسانيه

الريح تراقص أيامي — فيها بسواعد ناريه

يافا يا أمي ضميني — ضميني ضمة حنية

يافا لو حرفا أغزله — في الغربة ذكرى ووصية

لو حبة زيتون كلمى — لو ضمة ورد برية

وهي من أجمل الأغاني والقصائد التي غنيت لفلسطين باعتراف النقاد كلاما ولحنا وغناء حيث كان وفاق وانسجام بين المكونات الثلاث: الكلام واللحن والغناء.

حدثته بطلب الإذاعة وقلت له: "هل تستطيع هذه المرة أن تجعل شِعرك زجلا (قيف إن)؟" قال: "تجلس ولنحاول." وكان هو مثلي فرحا بالمناسبة العظيمة حيث كان يوم الغد هو الاستفتاء على "الاتحاد" في الأقطار الثلاثة عكس ما يحصل في أيامنا هذه. وفي نصف ساعة كان الكلام جاهزا:

طلعت شمس الوحده الكبرى بأجمل أنوارها

غطت وجه الوطن العربي ضحكت أزهارها

أخـــذت الكـــلام إلى البيـــت ولم أتنـــاول طعـــام الغـــذاء حـــتى انتهيـــت مـــن تلحينـــه وذهبـــت عصـــرا لصـــديقي المطـــرب وحفَّظتـــه اللحـــن وفي الصـــباح البـــاكر ذهبـــت إلى الإذاعـــة وتـــدربت الفرقـــة مـــع المطـــرب وتم التســـجيل، وقبيـــل الظهـــر كانـــت الأغنيـــة تُبَـــث في مكـــبرات الصـــوت في كـــل شـــوارع حلـــب، وكانـــت لإِذاعـــة حلـــب فـــترةٌ محـــددة مـــن الثالثـــة ظهـــرا حـــتى السادســـة مســـاء، وبمجـــرد قـــول المذيعـــة: "هنـــا حلـــب، إذاعـــة الجمهوريـــة العربيـــة السورية "كان المخرج يذيع النشيد مباشرة لأنه أصدق تعبيرا من كل شيء.

أعتـــذر إلـــيكم أصـــدقائي لأني خرجـــت عـــن موضـــوعي لكنـــني أكتـــب لكـــم أحاسيســـي بدقة وصدق.

فقـــد كـــان إحساســـي يـــوم سمعـــت نشـــيدي: "كتائـــب موريتـــان وأفـــريقيين وعـــرب التنـــين" وقبلهمـــا "درســـك يا غلانـــه" مشـــابها لأحاسيســـي عنـــدما سمعـــت صـــدى ألحـــاني في حلـــب من قبل. إنه شعور يشبه فرحة الأم عندما تشاهد وليدها أول مرة.

وهكـــذا صـــار الـــبرنامج المســـائي عـــن الصـــحراء مكـــونا مـــن عنصـــرين همـــا: عنصـــر الكـــلام والأخبار والذي يتخلله أحد النشيدين كوقفات للاستراحة.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله.

××××

-6 -

خــلال التــدريبات الــتي كنــت أقــوم بهــا للفرقــة الــتي كنــت أدربهــا علــى نشــيديْ "كتائــب موريتــان وأفــريقيين وعــرب الاتنــين" مــن كلمــات الأديــب الشــعبي محمــدن ولــد ســيدي إبــراهيم، الفرقــة كانــت مكونــة مــن ســدوم ولــد ايــده والمحجوبــة بنــت الميــداح وطفلتــين كانتــا تحضــران معهــا وتتــدربان علــى غنــاء النشــيدين. لســت متأكــدا إن كانتــا كلتاهمــا ابنتيْهــا أو إحــداهما لكنهمــا كانــت تأتيــان وتــذهبان مــن وإلى بيــتي معهــا إضــافة إلى عــازف المزمــار الــذي اســتبدله يــوم التســجيل بالترومبيــت (نــوع مــن أنــواع الأبــواق النحاسية التي تستخدم في الفرق الموسيقية العسكرية).

وخــلال التــدريب ســألتني المرحومــة محجوبــة إن كنــت لا أمــانع في التلحــين لهــا لأغنيــة تغنيهــا معــي كمــا فعلــتُ وديمــي. قلــت لهــا : "علــى الرحــب والسـعة فــإن ألحــاني لكــل الموريتانيين ولكل صوت جميل."

في الأيام التالية أحضرتْ لي كلمات جميلة جدا تقول:

عيبت اللي نقصد ×× ما بي أنا عيب
ولا كالو عن حد ×× عيب حد يجيبو
من متن تعاكيسو×× ومن متن تعاكيبو
ما كديت نكيسو×× وما كديت نجيبو

وهي من كلمات صديقي الشاعر بابا ولد هدار.

شــرحت لي الكــلام وقالــت إن موضــوع الأغنيــة يرتكــز أساســا علــى مثــل شــعبي يقــول (عيــابينهم، جيــابينهم) وشــرحت لي معــنى المثــل وكيــف أن كثــيرا مــن الشــباب أو البنــات عنــدما يعيــب واحــد واحــدة أو العكــس تــراه بعــد وقــت مــن الــزمن يصــبح حبيبــه أو زوجــه، أحببــت الكلمــات وأحببــت وزنهــا الخفيــف والــراوي الــذي يطــرب الســامع وأحببت فكرة الأغنية كونها تنطلق من المثل الشعبي.

قلت للفنانة المرحومة: "غدا سيكون عندك أغنية رائعة." لم أنم ليلتي حتى كان اللحن ناضجا. لحن خفيف مثل الكلام، رائع مثله، لكنه يُرقص من سمعه. وهنا أقول لأصدقائي المتابعين في موريتانيا بل في أي مكان في الوطن العربي أو خارجه: "إذا أردت أن تحكم على أغنية ما بالجمال والقوة فانظر كم من الوقت عاشت. فكلما عاشت طويلا تستطيع أن تقول عنها ما شئت من عبارات المديح. والعكس صحيح كلما أصبحت مملة ممجوجة منسية في وقت قصير كلما حق لك القول إنها لم تك شيئا، وهذا ما جعل الناس لا تأبه بها.

جاء اليوم التالي وجاءت الفرقة وقبل بدء التدريب سألتني المرحومة هل أنجزت تلحينها؟

قلت: "نعم وسأُسمعك إياها بعد التدريب" وفعلا بعد انتهائنا من التدريب أسمعتها اللحن فطارت به فرحا وبتكراره عدة مرات كانت قد حفظت اللحن وقررنا سويا أن نضيفه إلى الفقرات التي سنقدمها في لقاء الجمهور إضافة إلى "درسك يا غلانه" والطاولة المستديرة التي سيتحلق حولها كبار الأدباء والشعراء والمثقفين لمناقشة عملية تطوير الفن الموريتاني.

اقترب وقت لقاء الجمهور وانتهينا من التدريبات وأصبحنا جاهزين للحفل لكن سقوط بعض قذائف الهاون على نواكشوط تسببت في تأجيله فترة، في هذه الفترة تابعت تواصلي مع صديقي الحسن ولد مولاي علي، مدير البرامج في الإذاعة.

وفي مجلس من مجالس أتاي كان يحضره معي صديقي المذيع وقتها أحمدو ولد مياح الذي أسمعني يومها كلمات جديدة لأغنية كنا قد اتفقنا أن يؤلفها لي كي ألحنها.

فأسمعني أغنية :

دوم يالله ذي الحيله أنا والنخير

فن زله وذي الدخيله وفنو به وشهير

ويجينا بوجير ليله ويجيهم بوجير

وبوجير اسم راعٍ كان يعمل ساعي بريد بين الحبيب وحبيبته.

ولحنتهـا بعـد أيام في الكحـال، البيـات في الموسـيقى الشـرقية، لكـن مـن مقـام غـير مسـتخدم هنـا في موريتانيـا، لأنـني كمـا ذكـرت في الحلقـة الأولى مـن مـذكراتي أني التقيـت بكبـار الفنـانين سـيد أحمـد البكـاي ولـد عُـو، وسـيداتي ولـد آب، وأهـل النانـة الـذين يقـع بيـتهم قـرب السـوق، وأهـل النانـة القـريبين مـن أهـل آب إضـافة إلى سـدوم ولـد ايـده والحضـرمي بـن الميـداح وسـيمالي ولـد همـد فـال وديمـي ومحجوبـه. واطّلعـت علـى المقامـات الموسـيقية الموريتانيـة والإيقاعـات أيضـا وكـذلك الآلات الموسـيقية المسـتخدمة في الموسيقى الموريتانية.

فبينمـا "درسـك يا غلانـه" في الكحـال، الراسـت في الموسـيقى الشـرقية، والكحـال هـو المقـام المشـترك بـين الموسـيقى الموريتانيـة والمشـرقية، وكـل المقامـات المشـرقية تعتـبر كحـالا عنـد الفنـانين الموريتـانيين، فـإنّ كـر وسـيني وفـاقو والبيـاض والـزراك إلخ مقامـات مشـتركة بين الموسيقى السودانية والإفريقية بل حتى الصينية واليابانية وجنوب شرقي آسيا.

وكـل ألحـاني كانـت في مايسـمى الكحـال عنـد الفنـانين الموريتـانيين حيـث لحنـت في الراسـت وهـو الـذي يتطـابق 100% مـع الكحـال الموريتـاني ولحنـت في البيـات وهـو قريـب جـدا مـن الكحـال ولحنـت في الصـبا والحجـاز والعجـم وسـأتحدث عنـد وصـولي إلى كـل أغنيـة فـأذكر مقامهـا، لحنـت "دوم يالله" الـتي ألفهـا أحمـدو ولـد ميـاح لأغنيهـا في لقاء الجمهور مع أغنية هي الوحيدة من تأليفي:

أنتِ موريتانيه وأنا من حلب   برمي بأيدي ميه رميتيني عجب

ولما حاكيتيني بلطفك غلبتيني   سبحان اللي عمره بالحب منغلب

الأغنية التي أردت أن أعبر من خلالها بكلماتي السورية عن أحاسيسي ومشاعري.

إلى لقاء قريب وحلقة أخرى من مذكراتي في موريتانيا إن شاء الله. دمتم بخير.

××××

-7-

"لقــاء الجمهــور" هــو اســم لــبرنامج إذاعــي كــان في الفــترة الــتي وصــلت فيهــا إلى موريتانيــا. كــان مقــر الــبرنامج في دار الشــباب وببطاقــة دخــول شخصــية قــدرها مائتــا أوقيــة، وكــان برنامجا مفيدا مسليا تناقش فيه مواضيع يهتم بها الناس في حينه.

و"لقــاء الجمهــور" هــذا كــان أول لقــاء لي بجمهــوري وجهــا لوجــه، رغــم لقــاءاتي الأســبوعية بــل واليوميــة في بــرنامج "طلبــات المســتمعين" ظُهــر يــوم الأحــد، ويوميــا مســاء في نشــيديْ "كتائــب موريتــان وأفــريقيين وعــرب الاتنــين"، وســهرات محــدودة كســهرة فنــدق شــنقيط الــتي كانــت مــن بنــات أفكــار البيضــاوي عليــه رحمــة الله مــع فرقــة الرشــيد للغنــاء والنشــيد بقيــادة ديمــي والأســتاذ فريــد، وســهرات خاصــة في صــالونات كابيتــال والاكصــر الــتي كانــت معــدودة علــى أصــابع اليــد، بالإضــافة إلى طــلابي في تكــوين المعلمــين وبعــض النــاس الــذين ألتقــي بهــم هنــا وهنــاك في تعامــل مــا فيعرفــون أن هــذا الــذي يشــتري مــنهم أو يــراجعهم في أمــر حكــومي(وزارة التعلــيم) أو (البنــك) هــو فريــد حســن الــذي يسمعونه في الإذاعة أو يقرؤون عنه في الجرائد.

إذا في بــرنامج لقــاء الجمهــور ســيكون لقــائي الأول مــع جمهــوري الحبيــب وجهــا لوجــه في غناء وعزف وتفاعل متبادل بين الفنان ومُحبِّيه.

كــان اللقــاء أواخــر آيار عــام 1977م، أي بعــد وصــولي إلى موريتانيــا بشــهرين وأزيــد بأيام قليلــة. وســرعة انتشــار اسمــي وفــني كــان مفخــرة ووبالا. مفخــرة لي لأنــني في شــهرين لحنــت وغنيــت: "درســك يا غلانــه" و"كتائــب موريتــان"، و"افــريقيين وعــرب الاتنــين"، و"أنــتِ موريتانيــه وأنا مــن حلــب"، و"عيبــت اللــي نقصــد"، و"دوم يالله ذي الحيلــه". مــا شــاء الله وتبــارك الله ! أمــر عنــدما أفكــر فيــه الآن أقــول: "هــل يمكــن لأي إنســان أو فنــان أن يفعلــه مهمــا بلغــت قدرتــه؟" كــان مفخــرة لي ولمحــبيّ ولســورية إذ كلمــا ذكــر اسمــي، ذكــر قبلــه الأســتاذ الســوري. وكــان هــذا النجــاح الســريع وبالا لأن بعــض زملائــي الســوريين وأفــراد مــن الجاليــة الســورية رغــم ضــرورة افتخــارهم وفخــرهم الظــاهري، فبعضــهم كــان موجــودا لســنوات في موريتانيــا ولم يســمع النــاس باسمــه، إلا أنــني لمســت مــنهم غــيرة

وحسدا. ففي سهرة عشاء مثلا عند أحد التجار السوريين، وكانت الجالية السورية كلها مدعوة، سألتْ إحدى النساء زوجةَ سفيرنا: نحن نسمع بالأستاذ السوري في الإذاعة لكننا نحن سوريون ولا نعرفه! عرفونا عليه.

انبرى أحد الحاضرين، وكان يقيم منذ سنوات في العاصمة، ودنا مني وأمسك بيدي طالبا مني الوقوف، مشابكا يدي بيده وقائلا: هذا فريد حسن الذي سيمشي بعد فترة في الشارع مع رئيس البلاد فيقول الناس: "من هذا الذي يرافق فريد حسن؟" ويظهر من كلامه السخرية والحسد في آن معا. فبدلا من اعتزازه، أظهر غيرته وسخريته. وكعادتي ألّا أسكت على ضيم، قلت له رادا على استهزائه: "إن هذا لن يحصل لكن أمرا آخر حاصل الآن." اضطر للسؤال عن هذا الأمر فقال: "وما هو هذا الأمر؟" قلت له: "أنك لو مشيت الآن معي لقال الناس: من هذا الذي يمشي مع فريد حسن؟" اصفر واحمر واشتاط غضبا وقال لي: "هكذا تحرجني يا فريد؟" قلت له: "المثل السوري الحلبي يقول (من دق الباب وجد الجواب)." والوبال جاءني من بعض المتضررين من نجاحي حتى قال أحدهم: "إن في ريشة فريد سحرا سحركم به." وهو جاد فيما يقول. ولن أعود للموضوع فقد سبب لي ذلك في حينه الكثير الذي سأذكره في الوقت الذي يتوافق مع المرحلة والموضوع الذي نتحدث فيه.

نعم إنه اللقاء الأول بيني وبين جمهوري يوم جاءت سيارة الإذاعة لتقلني مع عودي الحبيب إلى دار الشباب حيث كانت المرحومة المحجوبة قد وصلت مع الطفلتين المشاركتين في الحفل. كانت الصالة شبه ممتلئة وما هي إلا دقائق حتى نفدت الأماكن واضطر المسؤولون للسماح بقطع التذاكر لمن لا يمانع في الدخول واقفا فامتلأت إلى جانبي المقاعد من اليمين واليسار حتى لم يعد مكان للمرور من وإلى المسرح.

أعلن عريف الحفل وذكر أنه كان أحمدو ولد مياح عند بدء الحفل وكانت أغنية "درسك ياغلانه" هي البداية، وختم الحفل بالتصفيق الحار. كنت أتمنى أن يكون شريط تلك الحفلة والذي احتفظت به في حلب ضمن مئات الأشرطة التي لم أتمكن

مـن إحضـارها كـي أضـعه في نهايـة هـذا الفصـل. ثم علمـت فيمـا بعـد أن محتـويات البيـت كلهـا سـرقت بمـا فيهـا كـل الـذكريات. وكانـت الأغنيـة التاليـة:"أنتِ موريتانيـة وأنا مـن حلـب"، والأغنيـة الثالثـة "دوم يالله ذي الحيلـة" يسـبقها قصـيدة مسـكين الـدارمي "قـل للمليحـة في الخمارالاسـود". وكانـت الأغنيـة الرابعـة: "عيبـت اللـي نقصـد مـا بي أنا عيـب" الـتي غنيتهـا بمشـاركة المرحومـة المحجوبـة بنـت الميـداح والـتي نالـت إعجـابا كبـيرا، ممـا دفعنـا بعـد الحفلـة أن نقـرر تسـجيلها في الإذاعـة بعـد عـودة المحجوبـة مـن سـفرها إلى الشـرق. (لكـن أنـت تريـد وأنا أريـد والله فعـال لمـا يريـد) فقـد كانـت إرادة الله أن لا تعـود المرحومة من سفرتها تلك ويكون ذاك هو لقاءنا الأخير.

كانـت الفقـرة التاليـة في "لقـاء الجمهـور" هـي الطاولـة المسـتديرة الـتي تحلـق حولهـا نخبـة مـن شـعراء وأدباء موريتانيـا ومثقفيهـا أذكـر مـنهم الحسـن ولـد مـولاي علـي ومحمـدن ولـد سـيدي إبـراهيم وقامـات أخـرى أتأسـف لعـدم تـذكري لأسمـائهم فقـد كـانوا مـن خـارج الإذاعـة وكنـت جديـدا في البلـد، علمـا أني حاولـت خـلال كتـابتي لهـذا الفصـل أن أتَّصـل بصـديقي الحسـن ولـد مـولاي علـي أرى إن كـان يـذكر أسمـاء مـن شـاركوا في تلـك الطاولة غير من ذكرت، لكني لم أوفق في مهمتي.

كـان موضـوع الطاولـة المسـتديرة الفـن الموريتـاني وآفـاق تطـويره كـي يكـون موائمـا للعصـر. وقـد اتفـق الحاضـرون بالإجمـاع علـى ضـرورة التطـوير لكـن الخـلاف كـان في طريقـة التطـوير والأسـلوب. وقـد كـان لتلـك الطاولـة صـدى كبـيرٌ في البلـد تـدخلت في أعماقـه السياسـية الخفيـة، حيـث كـان القوميـون والعروبيـون مـع التطـوير تجـاه الفـن العـربي وكـان الراغبـون في ابتعـاد موريتانيـا عـن جـذورها العربيـة مـع الموقـف الـرافض لـذلك ودون إعطـاء البـديل وكـان مـوقفهم ضـعيفا. وقـد حملـتْ عشـرات الأعـداد مـن جريـدة الشـعب الـتي احتفظـتُ بأكثرهـا مواضـيع عـن هـذا الجـدل في صـفحة كاملـة بـل وأحيـانا في صـفحتين ممـا اضـطر وزيـر الإعـلام حينهـا للتـدخل والقـول : " ألم يبـق موضـوع آخـر نتحدث فيه غير الفن؟"

بقي الموضوع دون حسم، لكن الناس أدركت تلك الحقيقة التي كانت نائمة حتى عام 1977م ولي الشرف أن أيقظتها وكنت أتمنى لو كانت العوائق أقل من ذلك لأحقق حلما كنت أسير نحوه وهو اصطحاب ديمي إلى دمشق أو القاهرة بعد تجهيز العديد من الألحان لها وتسجيل تلك الألحان في استديوهات ضخمة فتضطر باقي الفنانات لمجاراتها وكذلك سيفعل باقي المطربين أيضا.

لقد كانت ديمي توافقني في كل ما كنت أرغب في فعله لكن رَفْضَ كثير من الأسر الفنية دفعها وأهلها للتخفيف من اندفاعها وسأتحدث في حلقة قادمة عن الكثير من نضالي من أجل دفع الفن الموريتاني نحو الأفضل. إلى لقاء قادم بمشيئة الله. دمتم بخير.

××××

-8-

بعد لقاء الجمهور وما حصل فيه من نجاح على مستوى الأغاني التي غنيت، وماجرى من حوار ساخن حول الطاولة المستديرة عن تطوير الفن الموريتاني، طلب مني مندوب جريدة الشعب أن يجري معي لقاء آخر. جريدة الشعب التي كان عدد صفحاتها ثماني صفحات من القطع المتوسط أجرت لقاء ثانيا معي وكان ذلك في بيتي يومها. وصدر اللقاء في عدد اليوم التالي وكان صفحتين تامتين وكان عنوان اللقاء "فنان عربي يعزز وشائج القربى بين موسيقانا والموسيقى العربية".

لم أكن من اختار العنوان بل اختاره محرر الجريدة. وهنا بدأ جدل يومي في الصحيفة استمر طوال ذلك الصيف: هذا مع التطوير للفن الموريتاني وذاك ضده، إلى أن تدخل وزير الإعلام حينها قائلا: "ألم تبق مواضيع أخرى تتحدثون فيها غير هذا الموضوع؟" وكان معه الحق في ذلك. وقد احتفظتُ بغالبية هذه الأعداد من الجريدة ضمن ذكرياتي الشخصية.

كنت قد انتهيت من إجراءات الراتب التي استمرت أشهرا وكان راتبنا لتلك الدفعة من المدرسين من موريتانيا ولم نكن نتقاضى أي مبلغ من سوريا، وكانت تلك الدفعة خمسة مدرسين. كانت هناك اتفاقية بين سفارة موريتانيا بدمشق وبيننا كأشخاص طبعا بوساطة وزارة التربية السورية، دون إعطائنا أية حقوق من سورية. ثم تم تعديلها في العام بعد القادم وقتئذ (بعد عامين من ذلك؟)، كما أنهيت موضوع بطاقات الطائرة لي ولزوجتي ولستة أولاد حينها وسافرت راجعا إلى سورية لإحضار أسرتي بعد أن حصلت على سكن مفروش جيد.

وكان أمامي في الواقع وقت قصير حيث غادرت في منتصف تموز/ يوليه على أن أعود في أيلول/ سبتمبر. كان ينتظرني الحجز لثمانية أشخاص وهي مهمة ليست بالسهلة. وكان ينتظرني إخراج جوازات السفر لزوجتي وأولادي أيضا. انتهيت من هذه الإجراءات ووجدت أن عندي متسعا من الوقت لمهمة خطّطتُ لها قبل سفري إلى حلب وهي أن أسجل أغنية "درسك يا غلانه" وأغنية "دوم يالله" في إذاعة

حلب فأكون قد أطلعت الناس في سورية هناك على اللهجة الحسانية، والأهم من ذلك أن أحصل على نسخة أنقلها إلى إذاعة نواكشوط.

وذهبت إلى إذاعة حلب التي كنت قد سجلت فيها عشرة ألحان منذ عام 1968م، حتى 1971م مجانا ودون مقابل والسبب أن مديرا لها كان يعيد الأموال لإذاعة دمشق مبررا عمله بأن هذه الأموال يحتاج إليها المجهود الحربي أكثر من غيره. وقد ترك قسم كبير من الفنانين العمل والنشاط فيها متجهين إلى دمشق أو القاهرة، ولم يبق فيها سوى الموظفين الذين يتقاضون رواتبهم سواء عملوا أو لم يقوموا بأي عمل.

وقد سجلت كل ألحاني تلك الفترة دون وجود منافس واحد لأنه لا يوجد من الملحنين من يوافق على التسجيل مجانا غيري. وقد كانت لي محاولة أولى في الإذاعة وأنا ابن سبعة عشر عاما عندما لحنت لحني الأول وكان مقطوعة موسيقية اسمها "نشيد الكيتار" تتضمن "هارموني" في كثير من جملها، و"الهارموني" هو عزف عدة أصوات في آن معا على أن تكون متوافقة منسجمة، والعملية تستند إلى أصول وقواعد لو حصل أي خلل فيها يكون الناتج عكسيا. وقد كان أحد أساتذتنا المصريين (حيث كنا في الزمن الجميل زمن الوحدة بين مصر وسورية) قد نقحها لي وأكد جمالها والإبداع فيها. لكن مدير القسم الموسيقي في الإذاعة وقتها قال لي كلمة يجب أن لا يقولها فنان حيث قال: "إننا هنا عدة ملحنين نعيش من الفن ولا نسمح لغريب عن الإذاعة أن يقاسمنا لقمتنا." وقد جرت ملاسنة بيني وبينه بسبب كلامه المتعالي والمستبد، وأنا في مرحلة المراهقة أو بداية الشباب، فقلت له كلمة عاتبت نفسي عليها فيما بعد : "سأسجل في هذه الإذاعة في حضورك أو بعد موتك فأنا في السابعة عشرة وأنت في الستين" وهنا وبعد خمس سنوات وبعد أن سجلت خمسة ألحان كان وقتها مسافرا إلى خارج سورية، علمت أنه سيحضر في هذه الجلسة لسماع اللحن وكنت متخوفا جدا من رفضه له ورفض كل ألحاني من بعده بسبب ما حصل بيني وبينه منذ خمس سنوات. لذلك قلت للمطرب الذي سيغني لحني: "أنا لن أحضر وهو لن يتذكر اسمي لكنه حتما لن ينسى شكلي." وعند دخوله غرفة

الهندسة لسماع اللحن تحرك الشريط وصديقي المطرب يحدق في عينيه. كلما سمع فقرة صغيرة طلب إعادتها وهكذا كان الناس يتوقعون منه الرفض حتما كعادته، فإنه من النادر جدا أن يوافق على لحن دون أن يطلب تصحيحا لبعض الأخطاء الفنية فيه أو الكلمة أو الغناء أو التسجيل.

انتهى من السماع ورفع إبهامه الأيمن إلى الأعلى مؤكدا الموافقة على اللحن ومهنئا المطرب على الأغنية وسائلا: "من أين أتيت بهذا اللحن؟" فقال: "من هنا من حلب." قال له: "أنا أعرف كل ملحني حلب وأسلوب تلحينهم. هذا اللحن من مصر أو لبنان." قال له المطرب : "إنه من حلب وملحنه إنسان مغمور لم تسمع به" وكنت وقتها معلما في المرحلة الابتدائية وفي السنة الثالثة دراسة حرة في جامعة دمشق.

قال له: "أنا لن أصدقك حتى أراه." فقال له صديقي المطرب والورقة التي وقعها كل الأعضاء عداه، بين يدي رئيس اللجنة: "أستاذ، وقِّع الورقة وسأناديه فهو في الخارج." وقع الورقة وجاءني يطير من الفرح : "أمر لا يصدق فهو الذي يرفض كل الألحان مرة واثنتين وثلاثا فقد وافق على اللحن من المرة الأولى، بل سُرَّ به، بل يريد أن يهنئك ويتعرف عليك !"

قلت له: "لقد بات الموقف محرجا فهو سيعرفني وهو أمر مخجل." قال لي صديقي: "لا مفر من لقائه فقد طلبك بنفسه." ذهبت وكلي قلق وخجل وفرح واعتزاز بالنصر لما قلته قبل خمس سنوات. خليط من هذه المشاعر المتناقضة. وصلت عنده وسلمت عليه وأنا على هذه الحالة من القلق والمشاعر المختلطة. شد على يدي قائلا: "تهاني يابني." فهو في الخامسة والستين وأنا في الثالثة والعشرين. كان ينظر إلي ولا أعرف إن كان قد تذكرني أم أنه لا يصدق أن يكون هذا الشاب الصغير هو ملحن هذه الأغنية التي تتكون من صفحتي نوطة كبيرتين. قلت في نفسي : "لقد حان وقت الاعتذار فالرجل أكبر سنا من والدي وقد أسأت إليه في حالة غضب." قلت له: "أستاذ أنا خجل منك كثيرا وأنتهز هذه الفرصة لأقدم لك اعتذاري الشديد." قبل

هذا لم يكن قد تذكرني. هنا قال لي: "أهذا أنت؟" قلت: "نعم، لقد كنت في سن الطيش أستاذي والمسامح كريم." وانتهى الأمر صداقة بيننا واحتراما متبادلا.

إذا توجهت إلى الإذاعة في حلب حيث كل الموسيقيين والمسؤولين عن الفرقة والاستوديو والإدارة من أصدقائي فهنؤوني بالسلامة والنجاح الفني الذي حققته في موريتانيا في فترة قياسية. قلت لهم: "سأطلب منكم مساعدتي في عمل خارج إذاعتكم." وشرحت لهم الموضوع فرحبوا بطلبي قائلين: "من قدم ألحانه الرائعة لإذاعتنا دون مقابل له علينا أن نساعده ونكافئه." وحددنا موعدا قريبا للتسجيل وقد اتصلت بعدة موسيقيين من الدرجة الممتازة من خارج الإذاعة ليكونوا عونا للفرقة فكلما كان عدد المبدعين أكبر كلما كان العمل ضخما وناجحا.

حان موعد التسجيل وسجلنا اللحنين في يوم واحد والناس يتمايلون طربا وقدمت نسخة من كل أغنية هدية لإذاعة حلب وأخذت شريطين لكل منهما: واحد للإذاعةالموريتانية والآخر للاحتياط !

جاء موعد السفر إلى موريتانيا والذي كنت قد أخبرت به بعض أحبتي هناك، لكن ظرفا قاهرا منعني من السفر في الوقت المحدد. كانت السفارة السورية والجالية السورية على علم بتاريخ قدومي ذاك وكذلك أصدقائي الموريتانيون. حضر الجميع إلى المطار ولكنني لم أكن في الطائرة عند وصولها. خرج كل الركاب وخرج مستقبلوهم فسأل أصدقائي الموريتانيون بعضا من أفراد الجالية السورية : "هل أنتم هنا لاستقبال فريد؟" قالوا : "نعم." فقال الموريتانيون وكانوا أضعاف الجالية السورية التي كانت بانتظاري: "ونحن أيضا جئنا من أجل ذلك." وكانوا قد ذبحوا كبشا فرحا بقدومي. قالوا لأفراد الجالية: "تفضلوا نذهب إلى بيت فريد لنأكل الطعام الذي أعددناه فإن الطائرة الموالية لن تكون في فترة قريبة." تعجب السوريون من هذه الأعداد الكبيرة وهذه الحفاوة وقالوا لي عند عودتي: "يا أخي ما هذه الشعبية التي لك؟"

بالله عليكم، جمهور كهذا إلا يستحق أن يُحَبَّ ويُقَدَّر ويُرَدَّ له الجميل؟ إن قصة حبي لجمهوري في موريتانيا وحبه لي لا يكفيها مجلدات. هناك من يسألني أو يتساءل مع

نفسه أو يسأل الآخرين: "لماذا كل هذا الحب المتبادل من الطرفين؟" إن الأصيل لا يمكن له أن ينكر الجميل فقد بادلني هذا الشعب حبا بحب.

سأذكر مواقف قدمها لي أحبتي في موريتانيا ولن أتباهى بذكر ما قدّمتُ بل سأسرده من أجل التاريخ، من أجل من يريدون أن يوثِّقوا. إن الفن جزء من الحياة لا يقل أهمية عن كثير من جوانبها الثرة. إن إدخال السعادة إلى النفس عمل جبار،كما أن إدخال الحماسة في أناشيد فرحة العيد: "كتائب موريتان"، "أفريقيين وعرب"، "نشيد تموز" للمرحوم فاضل أمين، "نشيد نهر صنهاجة" لأحمدو ولد مياح وقصائد للخليل ولد نحوي وكابر هاشم. إن موسيقى نشيديْ "أفريقيين وعرب وكتائب موريتان" أصبحا معزوفات للفرقة العسكرية الوطنية و"نشيد كتائب موريتان" أصبح مقدمة لنشرة الأخبار لسنوات؛ وعشرات الأناشيد لأطفال هم الآن الرجال في موريتانيا. لقد قدمت بفرح وفخر ولم أبخل بجهدي أو وقتي أو إبداعي لمن بادلوني التحية بأحسن منها. هذه قصة حبي وهذا نزر يسير مما أتذكره، فالقصة أوشكت أن تكون أربعين سنة من عمري وليس أمامي من الوثائق شيء. حتى المكتوبة منها بقيت مع كل ما أملك في سورية الحبيبة الجريحة. هذا ما أستطيع استعادته وأنا الآن، بعد ثلاث سنوات من كتابة اهذا الفصل، تأكدت من أن كل شيء بات في مهب الريح حيث سرق ما سرق وحرق ما حرق وبيع ما يمكن بيعه.

معذرة عندما أخرج عن الموضوع قليلا فأنتم لستم داخل ذهني، لذلك ولأني أحبكم وأريد أن أنقل لكم كل أحاسيسي ولو كانت في بعض الأحيان مشوَّشة. هناك من لا يقرأ ما أكتب وأنا أحترمه، لكن شخصا دخل على أناس يتحدثون في قضية ما، في منتصفها أو في آخرها، لن يكون حتما قادرا على نقاش مجدٍ كما لو تابع النقاش من أوله، وإلى لقاء قريب قادم إن شاء الله، دمتم بخير.

××××

-9-

انتهينا من تسجيل أغنيتيْ "درسك يا غلانه" و"دوم يالله" وأصبحت جاهزا للعودة إلى نواكشوط مع زوجتي وأولادي الستة حينها، و قد وجدت صعوبة بالغة للحجز، خاصة وأن الموسم موسم عودة كل المدرسين السوريين إلى الجزائر وكانوا بالآلاف لأن المرحوم هواري بومدين قام بعمل يعجز عنه الرجال والحق يجب أن يقال والمعروف يجب أن لا ينكر.

عمل بصمت وبنى الجزائر التي خطط المستعمرون لضمها نهائيا لفرنسا التي كانت تدعي أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا وهي متصلة معها جغرافيا من تحت مياه البحر. استقلت الجزائر بعد استعمار طويل ولم تكن إلا قلة نادرة من الشعب الجزائري تتكلم العربية. وكان للمعلمين والمدرسين السوريين الدور الأكبر في عملية تعريب التدريس في الجزائر وكلامي هذا تاريخ مجرد عن السياسة، لكنه الواقع الذي يعترف به الأعداء قبل الأصدقاء. أعود لموضوعي وهو حجز بطاقات الطائرة، فعدا المدرسين الذاهبين للجزائر، كانت هناك أعداد كبيرة من المدرسين؛ ولو كانوا أقل من الذاهبين إلى الجزائر، ذاهبين إلى المغرب، أي على نفس الخط الذي سأذهب فيه وأنا سأحجز ثمانية مقاعد: من دمشق إلى الدار البيضاء مع توقف ليلة في باريس، ثم إلى موريتانيا مباشرة، أو الدار البيضاء، لاسْ بَالْمَاس، نواديبوا، نواكشوط.

وبعد تمكني من الحجز حصل معي ظرف خاص اضطرني إلى تأجيل السفر أسبوعا. لقد استغرق موضوع الحجز في المرة الماضية أكثر من شهر فإذا أردت الحجز الكامل، أي حتى نواكشوط، فقد أتأخر في ذلك شهرا جديدا، وهذا لا يجوز أن أفعله لأن المدارس افتتحت أبوابها مما اضطرني أن أسافر بحجز أكيد على خط: دمشق، باريس، الدار البيضاء، مع نوم ليلة في فندق مِيرِيدْيان بباريس، على حساب الشركة طبعا، لأن مبيت ثمانية أشخاص لليلة حينها في فندق ميريديان يعني راتبي لعدة أشهر، وفي صباح اليوم التالي تابعنا إلى الدار البيضاء (كازَابْلاَنْكا) أما

بعد كازابلانكا، فإنني لم أجد حجزا أكيدا منها إلى نواكشوط حيث وجدت حجزا على لائحة الانتظار فقط وقلت في نفسي: "نجرب عسى أن نوفق."

نزلنا في المطار وطلبنا سيارتيْ أجرة لأن معنا ثماني حقائب كبيرة فيها ألبسة العائلة ومؤونتها من الأطعمة وبعض أدوات الطعام الرخيصة جدا في سورية والغالية جدا في موريتانيا أو التي كانت غير متوفرة حينها كالبرغل والفريكة والزعتر ودبس الطماطم الحلبي وصابون الغار الذي تشتهر به حلب عن كل الدنيا وكذلك الشاي الأحمر غير المعلب وبعض الأدوية وألعاب الأولاد. وقسمنا العائلة قسمين وسارت السيارتان وقلت للسائق: "خذني إلى فندق شعبي لأن إقامتي قد تطول فيه." وقفت السيارتان أمام فندق لا بأس به. أخرجنا الحقائب في درج للأعلى. نمنا ليلتنا. وفي اليوم التالي أيضا أحضرت سيارتين للانتقال ثانية إلى المطار. وصلنا المطار فوجدت العشرات غيري هناك ينتظرون على لائحة الانتظار فعرفت قبل أن أسأل أحدا أنني لن أسافر اليوم، ورغم ذلك حاولت السؤال؛ فقيل لي: "لو كنت وحدك أو أنت وزوجتك كان بالأمكان أن نجد لك مكانا. أما لثمانية أشخاص فمستحيل وننصحك أن لا تأتي مرة أخرى إلا بعد تأكيد الحجز لأنك ستضيع وقتك ومالك سدىً."

عدنا أدراجنا إلى الفندق الذي كنت قد أعلمته بأنني ذاهب في محاولة المتوقع فيها الفشل، وأن يترك لي الغرفة نفسها بُعيد موعد إقلاع الطائرة بوقت يقدّر بالانتقال من المطار إلى المدينة. وبالفعل كانت غرفتنا ما زالت بانتظارنا لنبدأ صفحة جديدة مع مكاتب شركات الطيران وكانت أعداد الرحلات من الدار البيضاء قليلة جدا؛ رحلة أورحلتان أسبوعيا، لا أذكر جيدا، لكن الذي أذكره أنني لم أجد رحلة قبل عشرة أيام، وليس مباشرة من الدار البيضاء إلى نواكشوط، بل من الدار البيضاء إلى لاسْ بَالْمَاس ومبيت ليلة في جزر الكنَارِيي ثم الانتقال إلى نواديبو في اليوم الثاني. لم يكن هنالك بين الدار البيضاء ونواكشوط خطوط طيران غير الطيران المغربي والطيران الإفريقي، وكل الناس يتنقلون من موريتانيا وإليها بهذه الوسيلة الوحيدة: الطلاب والتجار ومراجعو الاطباء وطلاب ضباط من المدارس العسكرية حيث كانت المغرب

الدولة المجاورة الصديقة الهامة لموريتانيا وكانت موريتانيا في طور التأسيس وتفتقر لكل شيء، ولم تكن هنالك علاقة طيبة في تلك الفترة مع الجزائر بسبب حرب موريتانيا ضد البوليساريو المدعومة من الجزائر، وهذا ما كان يسبب الازدحام على الطائرة المغربية.

كانت العشرة أيام فترة طويلة لي وللعائلة. الجميع يقضي وقته في الفندق فقط عدا مرة واحدة حاولنا فيها الخروج بالجميع من الفندق، فالكبير من الأولاد كان في التاسعة من عمره وأصغرهم تبلغ سنة من عمرها. وخوفنا عليهم من الضياع أو الدهس بالسيارات أو الدراجات النارية أو الهوائية كان يحد من خروجنا بهم حيث اصطحبناهم إلى حديقة قريبة من الفندق مرة واحدة وكنت آخذ واحدا منهم دوريا معي لنشتري بعض الطعام من سوق مسقوف قريب من الفندق. ولأنني من عشاق السمك وكذلك كل أولادي وهو ما تعلموه مني، كنت في أكثر الأحيان أشتري لهم السمك المقلي الخالي من الحسك (الشوك) الذي لا مثيل له في سورية، مع بعض الخضر والفواكه والخبز، وكانت الأسعار حينها في المغرب أقل من الأسعار في سورية.

وجدت أنني في فرصة لا تتكرر دائما فأنا قريب من الرباط العاصمة وقد أصابني الملل بطول المكث في الفندق فقلت أذهب إلى إذاعة الرباط مصطحباً معي أشرطتي الإذاعية التي سجلتها لموريتانيا وأتعرف على عاصمة المغرب، هذه المدينة العريقة. حجزت في حافلة وفي وقت ليس بالطويل وصلت الرباط. أخذت سيارة أجرة (طاكسي صغيرا) كما كانوا يسمونها في ذلكم الحين عندهم، قاصدا الإذاعة. دخلت الإذاعة وعرفتهم على نفسي فرحبوا بي وانتهز أحد معدِّي البرامج الفرصة وطلب مني إجراء مقابلة أتحدث فيها عن تجربتي الفنية في سورية ثم موريتانيا وأدخل الأغنيتين على مرحلتين ضمن اللقاء الفني. وفي آخر اللقاء قدمت الأغنيتين هدية إلى إذاعة الرباط لتبثهما لموريتانيا فيسمعها أيضا شعب الصحراء الموجود في المغرب والصحراويون في ساقية الذهب وتيندوف وتشله والعيون.

قبل المغيب كنت قد وصلت الدار البيضاء عائدا من رحلة فنية موفقة أصبت فيها عدة عصافير بحجر واحد. فقد رفهت عن نفسي وتعرفت على مدينة الرباط، والشباب في مقتبل العمر يكونون شغوفين بالتعرف على بلدان جديدة وقد كنت مفتونا بهذا، أما العصفور الآخر فقد كان تسجيل الأغنيتين في إذاعة عربية مرموقة، أما العصفور الأخير فكان المقابلة الإذاعية التي ستذاع بعد يومين. مضت الأيام العشرة وجاء موعد السفر إلى لاس بالماس في جزر الكناري وما كان يطلق عليها العرب: الجزر الخالدات، ولا أعرف مبرر التسمية تلك لكني أظن أن السبب هو جمال طبيعتها الخلابة واعتدال مناخها صيفا وشتاء وتنوع فاكهتها وتغريد طائر الكناري بكثرة وفي كل الأمكنة. ولي حكاية لن أنساها مع مئات من طيور الكناري، حيث كنت في رحلة مع صديقين أحدهما موريتاني والآخر صحراوي في وقت لاحق. كان معنا طعامنا والشاي الأخضر والعود حبيبي الذي لا يفارقني ومسجلة لكل من الصديقين اللذين أرادا أن يكون شريط من أغانيَّ عند كل واحد منهما. كنا جالسين تحت شجرة رغم عدم الحر وعدم المطر، لكننا هكذا تعودنا في بلادنا: نستظل بظلها من الشمس أو نحتمي بمظلتها من المطر. عندما بدأت العزف والغناء، كان على الشجرة من الكناري ما يعد على أصابع اليد الواحدة. كنت أسمع واحدا يحاكيني ثم يسكت ثم يبدأ غيره وأنا مستمر في الغناء والمسجلتان تتابعان التسجيل. وقبل أن يقلب صديقاي الشريط لتسجيل الوجه الثاني منه قال أحدهما: "ألا ترى أن صوت الكناري قد غلب على الغناء والعزف؟" تابعنا التسجيل خوفا من قدوم المطر لأنه كان يوما غائما. انتهينا من تسجيل الوجه الثاني من الشريط، وكعادتي في الرغبة لسماع الشريط كي أتأكد أنه تم التسجيل بنجاح، وضعنا الشريط الأول لنستمع إليه. كم كانت مفاجأة لا أستطيع وصفها وكلما تذكرتها أندم لأنني لم أطلب من أحدهما أن ينسخ لي نسخة من الشريط؛ لأنه كان سيمفونية لا أجمل ولا أرق فلا سيمفونيات بيتهوفن ولا موتسارت ولا تشايكوفسكي أروع منها. فالشجرة كبيرة وعالية والكناري تجمع شيئا فشيئا حتى صار بالمئات. هذا الجمع غير المعتاد لا

شك أن وراءه أسرارا فإما أنه أحب العود أو أحب صوتي أو أنه اعتبرني متحديا له لأني دخلت مملكته ونازعته في عمله فقبل التحدي ليتغلب علي. أنا لم أستسلم فقد أكملت الشريطين وهو لم يستسلم وكانت النتيجة التعادل في صنع سيمفونية لم أسمع أجمل منها في عمري لافي الغرب ولا في الشرق.

وعذراً لهذا الخروج عن الموضوع لكن أعتقد أنه كان ذا نكهة عطرة. نعود إلى مجيء موعد السفر إلى الجزر الخالدات (لاس بالماس) والتي وصلناها في أول الليل وهذه المرة وجدت سيارة واسعة أميركية تستطيع أن تحمل ثماني حقائب وطلبت من السائق أن يوصلني إلى فندق عادي وفعل ذلك وأنزلنا الحقائب والأولاد ودخلنا غرفتنا ونمنا بعد إعطاء الأولاد بعض الطعام السفري لأننا سنستيقظ باكرا في الغد موعد السفر. وفي الصباح أعدنا حمل أغراضنا إلى المطار وتوجهنا إلى البوابة التي تتجه طائرتها إلى نواديبو. نزلنا إلى ساحة المطار دون باب أكورديوني. كانت الحقائب أكثر من عدد الركاب بكثير فالعادة أن يكون لكل راكب حقيبة على الأكثر لكن الناس هنا جاءوا إلى لاس بالماس للتجارة وهم مستعدون لدفع مبالغ إضافية بدلا من العودة مرة أخرى فينفقوا وقتا ومالا إضافيين. طال الانتظار في مدرج المطار ولم أعرف سبب هذا التأخير، كنت إلى جوار النافذة، كنت أرى الحقائب ما تزال على الأرض لم تحمل على الطائرة. وبعد مباحثات عرفنا فيما بعد أنهم تركوا قسما كبيرا من الحقائب في أرض المطار ليحضروها في طائرة أخرى تستطيع حملها فطائرتنا كانت من تلك التي لها مروحة على كل جناح.

كان طقس ذلك اليوم فيه تداخل بين مرتفع جوي ومنخفض جوي، والطائرة رغم أنها تركت نصف الحقائب لكن هرمها وزيادة الوزن فيها وتداخل منخفضين أو مرتفعين جويين جعل الجميع يكثرون من الدعاء لعل الله يوصلنا بالسلامة بسبب ما يسمى بالمطبات الهوائية. وفعلا وصلنا بالسلامة إلى نواديبو وكانت غالبية الركاب قادمة إلى نواديبو حيث نزلوا من الطائرة وذهبوا إلى بيوتهم، أما أنا وأسرتي وعدد قليل آخر من الناس فبقينا في صالة المطار لا نعرف ماذا يحصل لأن أحدا لم يخبرنا بذلك.

جاءت سيارة أقلتنا إلى فندق قريب من المطار وهو فندق جميل استرحنا فيه وتغدينا وقيلنا لأننا الليلة الماضية لم نأخذ كفايتنا من الراحة والنوم فعوضنا ما فاتنا حتى مللنا من النوم والانتظار. وبعد صلاة العشاء بوقت طويل جاءت سيارة لتعيدنا إلى المطار لأن الطائرة قد جاءت. ركبنا الطائرة وكانت مزدحمة، وبعض الأطفال واقفين لعدم توفر المقاعد لهم وما لفت نظر أولادي، جديٌ صغير وسألني ولدي: "كيف يركبون الماعز معنا يا بابا؟ "قلت له: "هذا لا يضر." (وهي المرة الوحيدة التي رأيت فيها ماعزا في الطائرة في موريتانيا).

حلقت الطائرة في الجو ولم تمض ساعة إلا وكنا في مطار نواكشوط، لكن هذه المرة لا أحد يستقبلنا أو ينتظرنا.

انتظرت الحقائب مثل باقي الركاب لم أجد إلا اثنتين. سألت عن البواقي. قيل لي في الصباح إن شاء الله. لم أحزن لأنها لو كانت جميعها معي في هذا الليل، ونحن سنذهب إلى أسرة من أصدقائي لأن مفتاح الدار عندهم وهم من جهزوا البيت وذبحوا الكبش في المرة السابقة وتساءلوا مع أفراد السفارة السورية عن سبب عدم مجيئي. أخذت الحقيبتين وبقي لي عندهم ست حقائب. قلت لسائق التكسي: كابيتال (قلب العاصمة) يمين، يسار، بالفرنسية (أكوش، أدروات) لعدة مرات وكنا أمام دار أصدقائي. كان الجميع نياما لكن الجميع استيقظ، كبيرهم مع صغيرهم، وكانت فرحتهم وترحيبهم بنا كبيرين. سردت لهم بسرعة سبب تأخيرنا في المرة السابقة وعدم حضورنا في الموعد الذي أخبرتهم به في رسالة خاصة لكنه لم يتم حينها وكانوا قد ذهبوا مع العشرات إلى المطار. بتنا ليلتنا عندهم وفي الصباح ذبحوا لنا كبشاً جديداً وبدأت الأحاديث حول موائد الطاجين وأتاي إلى أن حان موعد الغذاء فتغذينا وأوصلونا إلى دارنا.

وذهبت إلى المطار لأجد أربع حقائب قد وصلت ليصبح العدد ستة من أصل ثمانية وتصل السابعة بعد أيام وتبقى الثامنة مفقودة.

انتهـــت رحلـــة المشـــقة الممتعـــة لنبـــدأ رحلـــة العطـــاء في العلـــم لطـــلاب معهـــد تكـــوين المعلمين، وفي الفن لكل جمهوري الموريتاني الحبيب.

وإلى حلقة أخرى عن مذكراتي في موريتانيا إن شاء الله. أستودعكم الله.

-10-

كيف نطور الموسيقى الموريتانية ؟

كلام قديم جديد. قديم لأننا تناقشنا فيه منذ نيف وأربعين سنة وبعد إدخال السياسة في الموضوع وهذا دأب بعض السياسيين الذين يجعلون أي أمر مشكلة سياسية. ولن أتحدث في الموضوع حتى لا أفعل ما فعله خطيب جامع في بلد من البلدان التي عُرف عن أهلها كثرة الحلف بالطلاق وذلك في البيع والشراء أو للتأكيد على صحة أمر ما من عدمه أو وجود صفة أو نفيها. ترى الرجل يحلف بالطلاق أو الحرام. أقول إن هذا الخطيب وفي خطبة للجمعة كان يعظ فيها المؤمنين في هذا المجال وفي انفعال في سياق الخطبة أراد التأكيد على صحة ما يقول فقال: "علي الطلاق من يحلف بالطلاق فإن زوجته تطلق منه !" لذلك لن أتكلم فيما قالوه عن الفن الموريتاني لأن البلد فيها ما يكفيها من أحاديث تكاد تبعد الأخ عن أخيه وهذه رغبة أعدائنا الأولى والأخيرة.

أعود لموضوع الموسيقى الموريتانية التي تحدث فيها الجميع، وكنت حينها من بين المتحدثين، لأن الموضوع علم بحت وقد يكون للعادات والتقاليد دور فيه، وسأبدي لكم رأيي فيه وأرحب بكل رأي واع مثقف بعيد عن التعصب والجمود والانحياز والسفسطة.

فكما أن للبناء أركانا، بدءا بالترخيص، إلى مخطط البناء الذي يضعه مهندس خبير، ثم حفر الأساسات، ثم البناء، وترك نوافذ وأبواب، ثم السقف، ثم طلي الجدران، ثم البلاط، ثم النجارة ليكون بيتا يعيش فيه الإنسان بسعادة، فما هي عناصر الفن الموسيقي في أي بلد من بلدان العالم من شرقه إلى غربه؟

علم الموسيقى هو كغيره من علوم الطب والفلك والفيزياء لابد من دراسته أكاديميا ودعمه بما يأتي:

- مدارس ومعاهد وجامعات تعلم هذا العلم للأجيال.

- موسيقيين تخرجوا من هذه المؤسسات التعليمية تَخَصَّصَ كل منهم في مجال من مجالات الموسيقى الكثيرة.
- آلات موسيقية متنوعة تعد بالمئات فالكمان بأنواعه وأحجامه، والآلات النحاسية النفخية بأنوعها وأحجامها وأشكالها، والكلارينيت بأنواعها، والبيانو، والأورغ بأشكاله، والكيتار العادي والكهربائي، والعود، والماندولين وعائلته، والآلات الإيقاعية التي تعد بالعشرات، وموسيقى القرب، والقانون، والأكورديون بأنواعه، عدا عن عشرات الآلات المحلية لكل بلد حيث يمكن إضافتها للمقطوعات الموسيقية لتعطي نكهة خاصة بلون البلد.
- استديوهات تسجيل متخصصة ومجهزة.
- مهندسين متخصصين بهندسة الصوت للآلات الموسيقية.
- قادة فرق موسيقية مؤهلين وملمين بطبيعة كل آلة.
- موزِّعين موسيقيين لتوزيع العمل على كل آلة فليست كل الآلات تعزف في نفس الوقت لأن جمال الموسيقى في توزيعها.
- كُتَّاب لكلمات الأغاني من شعراء أو مؤلفين للزجل (القيفان)
- وعلى رأس هؤلاء يأتي الملحنون الذين يكتبون لحن الأغنية أو النشيد أو المقطوعة الموسيقية أو السيمفونية أو الأوبرا أو الأوبريت أو السْكَتش أو غناء الكورال.

من هو الملحن؟ حتى نعرف من هو الملحن لا بد من معرفة العمل الذي يقوم به وهو وضع اللحن.

ما هو اللحن؟ هو نغمة يضيفها الملحن للكلمات فتصبح جميلة ويضع قبلها مقدمة موسيقية كما يضع جملا موسيقية بين الجمل والكلمات؛ هذا بالنسبة للموسيقى المغناة. أماالصامتة فهي موسيقى صرفة ليس فيها صوت إنساني ولها أنواع كثيرة بدءا من المقطوعة الموسيقية وانتهاء بالسيمفونية. وهي أرقى أنواع الموسيقى ويختص

الملحن بأنواع تتناسب مع قدراته الموسيقية فتلحين السيمفونية يحتاج إلى مستوى عال من الدراسة والنبوغ أقل بكثير مما تحتاجه مقطوعة صغيرة.

متى يكون اللحن ناجحاً؟ قبل كل شيء يجب أن يكون جميلا يَسُرُّ السامع ويخلق عنده شعورا متميزا بقيمة اللحن. وفي نفس الوقت يجب أن يكون جديدا وليس تكرارا لعمل سابق له أو لغيره وعبارة "لغيره" هي الخطيرة لأنها تعني السرقة. فإن سَرَقَ من نفسه يقال عنه إنه فارغ وبذلك يعيد ويكرر ما كان عنده. أما سرقة الغير فهي محرمة وممنوعة تعاقب عليها القوانين عندما تتجاوز حدا معينا متعارفا عليه عند الملحنين وهو أربعة مقاييس موسيقية.

هناك من يلحن لحنا جديدا لا يشبه ألحانا سابقة لكن لحنه بلا طعم ولا لون ولا رائحة. وهنا يفشل اللحن وهكذا يقوم الملحن باختيار جمل موسيقية جديدة وجميلة في آن معا. وكلما أبدع في ذلك حكمنا عليه بالقوة والإبداع والعظمة. ويتفاوت الملحنون بين العادي جدا والذي لا يفيد نفسه ولا الآخرين في إبداعه وبين من يسجل التاريخُ اسمه لجمال ما أعطى وجودته وجِدَّته.

وأذكر هنا ما حصل معي أول قدومي إلى موريتانيا. فقد نبهني بعض الإخوة أن الفنانين يقلدون بعضهم فأي أغنية غناها أحدهم يبدأ غيره بغنائها ويدعي الكل أنها له وخاصة الألحان. فالجميع يغنونها ويكررونها فقط بتغيير الكلمات عدا البعض القليل الذي يدخل شيئا جديدا من الأنغام على ما غنى.

بعد هذا التوضيح المقتضب عن مقومات الموسيقى، بإمكان القارئ الكريم أن يستعرض ما يوجد وما لا يوجد فيحدد بنفسه الوسيلة التي يمكن بها تطوير الموسيقى الموريتانية!

ففي مجال العلم، لا بد منه. وفي مجال المؤسسات التعليمية، لا مانع أن تكون على مستوى معهد على الأقل ثم يطور ليصل إلى مرحلة الجامعة. وفي مجال الموسيقيين والعازفين ،كلما كانوا ملمين بالموسيقى أعطوا أكثر. وفي مجال الآلات الموسيقية، ليس من الضروري اقتناؤها وتوفيرها كلها منذ البداية لكن على الأقل تكون هناك

فرقة موسيقية تحتوي على عدة كمانات، وعود، وأكورديون، وأورغ، وقانون، وكونترباص، وإيقاع، وناي، وهذه تكفي مبدئيا. أما القاعات والمسارح فموجودة في موريتانيا. وأما قائد فرقة فلا يوجد والملحن لا يوجد والمؤلفون موجودون فكل الناس يقولون القيفان، شعراء موريتانيا بلد المليون شاعر. أما بالنسبة لاستديوهات التسجيل فيمكن الاستعانة باستوديو الإذاعة أو التلفزيون مؤقتا.

إذا تحدثنا أعلاه في المجالات سهلة التطوير والتي يمكن أن تنجز خلال سنوات قليلة فتكون موريتانيا أو أية دولة أخرى في وضعها، وأغلب دول الخليج حتى الستينيات من القرن الماضي كان وضعها يشبه الوضع في موريتانيا. والآن سأتحدث عن جانب هام جدا في الموضوع وهو جوهره:

نسبية النبوغ وما تعنيه هذه النظرية الاجتماعية في كل مجال من مجالات الحياة في العمل والعلم والفن والقيادة والسياسة والاقتصاد والرياضة والتجارة إلخ. هناك الإنسان العادي والذي يكون عمله مشابها لعمل الآلة بل في كثير من الأحيان يتخلى عنه صاحب العمل ويستبدله بآلة لأنها ليست فقط تقوم بعمله بل لأنها تقوم به أفضل منه.

ولن أتعمق في هذا الكلام حتى لا يقال عني إني لست مع تلك الفئة التي فرض عليها قدرها أن تكون في هذا العمل بين سكان هذا البلد، بل أنا في الحقيقة مع كل البشر لأنهم جميعا إخوتي (كلكم لآدم وآدم من تراب) لكنه أمر واقع فإنك ترى المبدع يخترع لنا أشياء تقدم للبشرية إنجازات وسعادة وحلا لمشاكل عانتها البشرية قرونا عديدة.

من الذي يفعل ذلك؟ إنهم النوابغ. هل يمكن للأهل أو للإنسان نفسه أو للدولة أن تكوّن النوابغ؟ بالطبع لا ! يمكنها فقط أن تحسن من أداء العامل فتدفعه خطوات إلى الأمام وأن تكتشف النوابغ إذا كانت الدولة متطورة، وكثير منها تستقدمه بالمغريات لأنه أغلى من كل نفائس الدنيا وهذا مايسمى شراء العقول أو الأدمغة.

وفي الـــدول المتخلفـــة كـــم يولـــد مـــن هـــؤلاء النوابـــغ ويعيشـــون مـــع ذلـــك المجتمـــع المتخلـــف ويدفنون كما تدفن الكنوز دون أن يستفيد منها أحد !

كـــم هـــو عـــدد المبـــدعين في أي مجتمـــع؟ هنـــاك إحصـــائيات دقيقـــة تعطيـــك نســـبة المبـــدعين في المجتمـــع ففـــي بعـــض مجـــالات الحيـــاة قـــد تكـــون واحـــدا بالمائـــة ألـــف، وفي مجـــال آخـــر واحدا بمائتي ألف وهكذا، لكنها ليست حتما واحدا بالمائتين أو واحدا بالألفين.

وإذا عـــدنا لموضـــوع بحثنـــا، تطـــوير الفـــن الموريتـــاني، لنفـــرض أن كـــل مائـــة ألـــف ينبـــغ مـــنهم ملحـــن، وقـــد أعطيـــت رقمـــا متفـــائلا. إذا نظـــرنا إلى مصـــر الـــتي عـــدد ســـكانها بعشـــرات الملايـــين كـــم ملحنـــا فيهـــا؟ ولنفـــرض أنهـــم ألفـــان علـــى ســـبيل المثـــال يعـــني أن نســـبتهم إلى المجتمـــع 100000/2 وأنا افترضـــت الملحـــن العـــادي، أمـــا المبـــدعون فيعـــدون علـــى أصابع اليدين ليس سنويا بل في الجيل الواحد.

طبعـــا عمليـــة التطـــوير يكفيهـــا ملحـــن قـــادر علـــى تلحـــين أغنيـــة أو قصـــيدة يتحقـــق فيهـــا شـــرطا التلحـــين: الجـــودة والجِـــدة اللـــذان تحـــدثنا عنهمـــا في بدايـــة بحثنـــا، وهـــذا لا بـــد مـــن إرساله لدراسة الموسيقى والحصول على شهادة جامعية لا على دورة اطلاعية.

وحـــتى نطبـــق هـــذا الكـــلام لابـــد أن يكـــون كـــل المجتمـــع داخـــلا في الإحصـــائية أي عنـــدما يكـــون كـــل المجتمـــع مشـــاركا في التطـــوير. لكـــن عنـــدما تقتصـــر المشـــاركة علـــى 1000/1مـــن الســـكان وهـــي نســـبة عـــدد الفنـــانين في الأســـر الفنيـــة علـــى أكـــبر تقـــدير فإنـــك يجـــب أن تقســـم النســـبة المئويـــة للنبـــوغ علـــى ألـــف وســـيكون الاحتمـــال ضـــعيفا جـــدا للحصـــول علـــى نابـــغ واحـــد. وبالمناســـبة هـــذا ينطبـــق علـــى كـــل مجـــالات الحيـــاة الـــتي كـــان المجتمـــع الموريتـــاني يترفـــع عنهـــا مـــن صـــناعة أو زراعـــة أو حِـــرف. وهنـــا الخطـــاب للشـــباب أن يكونـــوا قـــدوة في كســـر قيـــود اللاموضـــوعية والبعـــد عـــن الواقـــع وهـــو احـــترام العمـــل أيا كـــان، طالمـــا أنـــه ضـــمن حـــدود القـــيم العربيـــة والإنســـانية الـــتي عاشـــتها وتعيشـــها كـــل شـــعوب العالم.

وإلى لقاء قريب في حلقة أخرى بإذن الله. دمتم بخير إن شاء الله.

××××

-11-

نسبية النبوغ وعلاقتها بالتقدم والحضارة عامة والفن خاصة :

وكـي لا يشـعر صـديقي القـارئ بالملـل أفـردت للموضـوع فصـلا خاصـا أتحـدث فيـه عـن النبـوغ في كـل العلـوم والفنـون والمهـن والحـرف والسياسـة والقيـادة والرياضـة والـدين وجميـع أشكال الفعاليات والمؤثرات في المجتمع الإنساني.

تعريـــف النبـــوغ: للنبـوغ تعريفـات كثـيرة بعـدد الـذين تطرقـوا لدراسـته وكلهـا في النتيجـة تـؤدي إلى مفهـوم التفـوق الشـديد في مضـمار أو أكثـر لكـن الأكثـر شـيوعا التفـوق في المضـمار الواحـد لأن بعـض النوابـغ كفلاسـفة العـرب أو اليـونان كـانوا نوابـغ في أكثـر مـن مجـال، وكلمـا اقتربنـا مـن العصـر الحـديث صـار الغالـب أن يكـون النـابغ متخصصـا في مضمار واحد بل في جانب صغير منه كي يكون أكثر إلماما به.

والنبـوغ أمـر رباني لا يهبـه الله إلا لقلـة قليلـة مـن النـاس، وحصـوله لفـرد مـا لا يأتي لا بالوراثـة ولا بالتربيـة فـابن النابغـة حتمـا لـيس بنابغـة بـل قـد يكـون والـد النابغـة إنسـانا بسـيطا، ولا الإصـرار علـى خلـق النابغـة عـن طريـق التربيـة يخلـق نابغـة وأنا أعـرف حـادثتين لمـراهقين اثنـين انتحـرا وكـل منهمـا في مكـان وزمـان مختلـف، بسـبب رغبـة الأهـل في صـنع نابغـة مـن أولادهمـا، وقـد كتبـت في كلتـا الحـادثتين بحثـا في جريـدة سورية.

إن النبـوغ طفـرة كمـا هـو حـال الطفـرات السـلبية كمـرض المنغوليـة أو التوحـد أو كثـير مـن التشـوهات الـتي لا يُعـرف سـببها، أو كـالطفرات الـتي تُوَلّـد قـوة خارقـة في حاسـة مـا أو في الجسم في مجال ما إلخ.

ونعـود للنبـوغ: فقـد يكـون نبوغـا عاليـا فيبـدع المبـدع مـا يسـتحيل للأشـخاص العـاديين فعلـه، وفي أقـل الحـالات أن يـؤدي أعمـالا يقـوم بهـا الأشـخاص العـاديون لكـن بسـرعة غـير اعتياديـة، أو بكميـات كبـيرة، أو بنوعيـة لا مثيـل لهـا. إن كـل نبـوغ يـتم بشـكل نسـبي فبـين كـل عـدة آلاف يظهـر مبـدع مـن نـوع مـا مـن الإبـداع، أي أن النسـبة باتـت

معروفة في أنواع الإبداع حيث يتم هذا كله وفق نسبية معينة لكل شكل من أشكال النبوغ والإبداع وذلك بعد الدراسات التي أجريت لكل منها.

عندما يتيح المجال لألف من الناجحين في الدراسة الثانوية دراسة مادة معينة كالطب على سبيل المثال، وهؤلاء الآلاف أصلا لا بد أن يكونوا قد أتوا من بين عشرات الآلاف من الذين تقدموا للثانوية، كم مبدعا تتوقع بين الآلاف الذين درسوا ثم تخرجوا؟ سيكون 950 منهم أطباء عاديين وسيكون 45 متميزين بتفوقهم والخمسة الباقون قد يكون بينهم مبدع يضيف إلى علم الطب شيئا وقد لا يكون. وهذا ينطبق على كل المهن والحرف والفنون والنشاطات الاجتماعية المتنوعة، فالشاعر، والإعلامي، والسياسي، والقائد، والمغني، والرسام، واللاعب، والنحات، والمصور، والسائق، والدراج، والملحن، والطبيب، والمهندس، والفيزيائي، والكيميائي والنساج إلخ من فعاليات بالمئات بل بالآلاف في المجتمع، متدرجة في الجودة من فاشل وغير معروف إلى عادي، إلى أكثر من عادي، إلى متفوق، إلى مبدع، إلى نابغة وتسمياتي هذه للمستويات ليست أكاديمية لكنها للتوضيح ليس إلا.

وكلما كان المسموح لهم بدخول مضمار السبق في فعاليات المجتمع مفتوحا، كلما توقعنا نتائج أفضل، وكلما حالت دون ذلك أمور كالفقر، أوالجهل، أو العادات والتقاليد (وهو الحاصل في موريتانيا في التقاليد في أكثر من مجال وعلى رأسها الفن الموسيقي)، وبذلك نكون قد أبعدنا فرص التفوق والنبوغ في هذا المجال، وهنا قد يقول قائل (وقد قيل مثل هذا القول فعلا في السبعينيات): "إننا سعداء بموسيقانا." بل أضاف أحدهم: "إذا كان غيرنا لا يحب أو يفهم أويتذوق موسيقانا فهذا أمر يعود إليه ولا ذنب لنا في ذلك." إن أي فن أو إبداع يحكم عليه بالجودة العالم كله وليس أصحابه فقط، والتفاعل بين الدول والشعوب هو الذي يحدد روعته أو جماله أو غير ذلك. لقد آن الأوان أن يفكر الشباب بجدية ملحة في مراجعة كثير من العادات والتقاليد التي أثبت الواقع عدم صلاحيتها. لاشك أن هنالك كثيرا من العادات والتقاليد الأصيلة في موريتانيا والتي نعتز ونتفاخر بها أمام الأمم، وأنا لست

حتمـا مـع المسـاس بهـا، لكـن تلـك الـتي تعيـق التقـدم مـن عـدم احـترام لـبعض المهـن أو الحـرف أوالفنـون والتهافـت علـى أنـواع محـددة، والبقـاء بعيـدا عـن غيرهـا، تلـك هـي الـتي أعني.

وفي مجـال الموسـيقى تحديـدا: في كـل أسـبوع نجـد أغنيـة جديـدة في لبنـان، ولحنـا ينتشـر في كـل أنحـاء الـوطن العـربي، وضـربت لبنـان مثـالا لأن عـدد سـكانه يماثـل عـدد سـكان موريتانيـا. ففـي كـل شـهر يظهـر مطـرب جديـد، المـؤتمرات الفنيـة والشـعرية متواصـلة تحقـق أرباحـا ماديـة للبلـد إضـافة لفوائـدها الحضـارية والمعنويـة. طبعـا هـذا ينطبـق علـى كـل البلـدان العربيـة، أسـتثني منهـا السـاخنة أمنيـا الآن فقـد تكـون تراجعـت في عطائهـا في هذا المجال.

إن الموسـيقى جانـب حضـاري هـام يـدخل في كـل مجـالات الحيـاة بـدءا مـن الطـب والإعـلام والسـينما والـدين والتعلـيم وانتهـاء بالزراعـة والصـناعة والحـرب. فالطـب النفسـي يعتمـد بشـكل أساسـي عليهـا، ولا يمكـن لفـيلم أو بـرنامج تعليمـي أو وثائقـي أو... أن يسـتغني عـن الموسـيقى، وإن كانـت حاجتنـا للموسـيقى في قـرون مضـت لم تتطلـب منـا الخـروج خـارج مـا لـدينا منهـا، لكننـا الآن بعـدما أصـبح العـالم قريـة صـغيرة، فـإن فعلنـا ذلك فإننا سنكون مغالطين لأنفسنا.

احثـوا عـن النوابـغ فـيكم فـإنهم هـم صـانعو الحضـارة: فقائـد مبـدع كخالـد بـن الوليـد أو صـلاح الـدين مـثلا أعطـى لشـعبه مـا لم تعطـه ملايـين مـن النـاس العـاديين، وسياسـي مبـدع مثـل غانـدي أو مـاو تسـيتونغ كـذلك أعطـى لشـعبه مـا لم تعطـه الملايـين، وكـذلك إنشـتاين أو الخـوارزمي أو سـقراط أو ابـن سـينا في العلـم. وفي الموسـيقى الفـارابي، وبيتهـوفن، وتشايكوفيسـكي أعطـى كـل مـنهم مـن الفائـدة مـا لا يعطيـه الملايـين مـن النـاس العـاديين! وهـذا ينطبـق علـى كـل المبـدعين في شـتى مجـالات الحضـارة فمـن صـنع المطبعـة أو الحاسـوب أو المـذياع أو الكهـرباء أو قـانون الجاذبيـة، لقـد كـان لهـم دور يساوي مئات الملايين من الناس العاديين بل جيلا بأكمله.

إن مـــا أعطـــاه ســـيد درويـــش أو محمـــد عبـــد الوهـــاب وفريـــد الأطـــرش وأم كلثـــوم وفـــيروز والرحابنـــة للموســـيقى العربيـــة يســـاوي بـــل يزيـــد علـــى مـــا أعطـــاه مئـــات الآلاف مـــن الفنانين العاديين. ابحثوا عنهم فإنهم كالجواهر والماس والذهب بين الصخور والمعادن.

وقـــد تنبهـــت إلى ذلـــك الـــدول المتحضـــرة فعمـــدت إلى اســـتجلاب هـــذه العقـــول والأدمغـــة، وهـــي الـــتي تســـيّر بهـــا العـــالم الآن وتـــديره، فـــتربح كـــل شـــيء، دون أن تخســـر أي شـــيء، وتَسِـــير ببلادهـــا بخطـــى في شـــهر واحـــد، مـــا لا نســـيره نحـــن في عقـــود، وكثـــير مـــن هـــذه الأدمغـــة مـــن بلـــدان لم تعـــرف قيمتهـــا فغـــادرت حيـــث تجـــد مـــن يقـــدرها حـــق قـــدرها هناك!

××××

-12-

في الحلقة التاسعة، كنا قد انتهينا من رحلة المشقة ووصلنا بخير وسلامة إلى بلاد شنقيط في تشرين الأول / أكتوبر عام 1977م بعد افتتاح المدراس بعدة أيام. وقد استقبلني مدير معهد تكوين المعلمين بكل حفاوة دون أن يتطرق لسبب تأخري، لكنه يعرف أنني في العام الماضي كنت أدرس ساعات عديدة أسبوعيا أكثر من نصابي المخصص لي دون مقابل مادي وبناء على طلبي.

في أول يوم دوام، بعد الانصراف من المعهد وفي طريق العودة إلى البيت، مررت بالإذاعة كعادتي لأسلم على الزملاء والأصدقاء بعد غياب شهرين ونيف، وقد اتفقت مع المسؤولين عن استوديو التسجيل على الحضور في الغد لتسجيل الأغنيتين. وبعيد العصر اتجهت إلى بيت أهل آب لأسلم على المرحومة ديمي، وقد كان اللقاء في أكثره عن الأغنيتين اللتين سجلتهما في إذاعة حلب: "درسك يا غلانه"، و"دوم يالله"، واتفقنا أن نذهب في الغد لتسجيلهما في الإذاعة.

في الغد التقينا في الإذاعة ودخلنا الاستوديو وشرحت لمهندس الصوت الطريقة التي سنسجل بها ولم يقتنع بإمكانية دمج صوت الشريط القادم من حلب والمسجل عليه صوتي مع الفرقة الموسيقية مع صوت ديمي حيث قال: "إن صوت ديمي سيمسح الموسيقى وصوتي المسجلين من قبل." قلت له: "إننا نقوم بذلك دائما في إذاعة حلب ويتم ذلك بنجاح." وضعنا الشريط في مسجلة لبث الأغنية، وتسمع ديمي فتغني برفقته وكأنها معي وينقل صوتها مع صوت المسجلة الأولى إلى شريط جديد في مسجلة ثانية للتسجيل ومع انتهاء الأغنية "درسك يا غلانه" وللمرة الأولى من التجريب كان التسجيل رائعا ولاحاجة لإعادته وذلك يعود طبعا لذكاء المرحومة ديمي وموهبتها في المرافقة مع الغناء والذي لا يمكن لكثير من المطربين فعله، رغم أنها لم تدرس الموسيقى والإيقاع والأنغام لكنها بمرافقتي على أرض الواقع وغنائها معي قد أتقنت المهمة إتقانا قل نظيره. لقد كانت رحمها الله موهبة نادرة في جمال الصوت ورخامته، إضافة لسرعة الحفظ التي لم أر مثيلا لها، إضافة إلى سرعة البديهة في كل

مـــا يتعلـــق بالغنـــاء واللحـــن وإخـــراج أحـــرف الكلمـــات مـــن مخارجهـــا ونطقهـــا بشـــكل واضح وصحيح.

انتقلنـــا للأغنيـــة الثانيـــة وبـــنفس الطريقـــة وبســـرعة مماثلـــة تم تســـجيلها بنجـــاح، لم يكـــن يتصـــوره مهنـــدس الصـــوت ولا ديمـــي ولا كـــل الحاضـــرين لعمليـــة التســـجيل في الاســـتوديو. بـــل كـــان تعجـــب المســـتمعين عـــبر الأثـــير عنـــدما أذيعـــت في بـــرنامج طلبـــات المســـتمعين "درســـك يا غلانـــه" حيـــث قـــال المـــذيع مقـــدما إلى طـــالبي " درســـك يا غلانـــه": "أنـــتم معهـــا لكـــن بصـــبغتها الجديـــدة ومـــع فرقـــة إذاعـــة حلـــب."، لم يصـــدق النـــاس أن ديمـــي رحمهـــا الله لم تكـــن معـــي بـــل تـــداول كـــل النـــاس فكـــرة أن ديمـــي كانـــت معـــي وأننـــا ســـجلناها هنـــاك في حلـــب ســـوريا، وفي نهايـــة بـــرنامج طلبـــات المســـتمعين قـــدم معـــد الـــبرنامج الأغنيـــة الثانيـــة هديـــة للمســـتمعين وكانـــت هـــاتان الأغنيتـــان مـــن الأغـــاني المعـــدودة في موريتانيـــا الـــتي يشـــارك المطـــرب فيهـــا فرقـــة موســـيقية عصـــرية، فقـــد ســـبقهما فقـــط أغنيـــة "ريشـــة الفـــن" لـــديمي، وأغنيـــة "في الجمـــاهير" لأبـــتي بنـــت شـــويخ وكلاهمـــا مـــن شـــعر الشـــاعر الكبـــير أحمـــدو ولـــد عبـــد القـــادر حيـــث كانتـــا أول أغنيتـــين ترافـــق فيهمـــا فرقـــة موســـيقية لمطـــرب موريتـــاني، فكانـــت "درســـك يا غلانـــه" و"دوم يالله" ثالـــث ورابـــع أغـــانيَّ مـــع فرقـــة موسيقية عصرية في إذاعة نواكشوط.

أنتقـــل إلى حكايـــة أغنيـــة "بالي حـــالف يمـــين مـــا يغفـــر لحبيبـــه، ذا مـــن فليـــاح العـــين وتشـــله ونواديبو" وكيف كانت ولادتها ؟

بعـــد غنـــاء المرحومـــة المحجوبـــة بنـــت الميـــداح معـــي في بـــرنامج "لقـــاء الجمهـــور" لأغنيـــة: "عيبـــت اللـــي نقصـــد مـــابي أنا عيـــب، ولا كـــالوا عـــن حـــد عيـــب حـــد يجيبـــو" والنجـــاح الـــذي لاقتـــه يومهـــا في الـــبرنامج مـــن تصـــفيق واستحســـان وكنـــا قـــد قـــررنا أنا والمحجوبـــة عليهـــا رحمـــة الله أن نســـجلها بعـــد عودتهـــا مـــن رحلـــة إلى مـــالي، لكـــن إرادة الله كانـــت غـــير ذلـــك، حيـــث غيبهـــا القـــدر إثـــر حـــادث مـــروري، وعنـــد عـــودتي ومـــرور أشـــهر علـــى وفـــاة المرحومـــة المحجوبـــة، عرضـــت الأغنيـــة علـــى الفنانـــة أبـــتي بنـــت شـــويخ فأعجبـــت بهـــا لكنهـــا عنـــدما عرفـــت اســـم مؤلفهـــا قالـــت إنهـــا لا تســـتطيع أن تغنيهـــا لأن هنـــاك ســـوء تفـــاهم

بينها وبين مؤلفها، فعرضت الأمر على صديقي المذيع أحمدو ولد مياح والذي سبق أن كتب لي أغنية "دوم يالله" قبل سفري إلى حلب، و في غرفة المذيعين في إذاعة نواكشوط وبجلسة واحدة كانت أغنية "بالي حالف يمين" جاهزة والتي صاغها أحمدو ولد مياح على نفس الوزن ونفس الروي وبقوة وجمال لا يقل عن الأغنية الأصليةإ ذا لم يزد عليها. ثم ذهبت في أحد الأيام التالية إلى بيت أبتي وسجلت لها الأغنية ودربتها عليها واتفقنا على موعد آخر لنذهب فيه إلى الإذاعة وجاء اليوم الذي سنسجل فيه وحضرت ومعها الكيتار وسجلنا الأغنية على العود والكيتار الكهربائي والإيقاع فقط. وأذيعت الأغنية يوم الأحد في برنامج طلبات المستمعين هدية للمستمعين. وبدأ المستمعون يطلبونها بأعداد كبيرة تنافس طلبات "درسك يا غلانه".

أغنية قصيدة فرحة العيد : في زيارة إلى وزارة الثقافة صحبة صديقة لي عرفتني على الشاعر أحمدو ولد عبد القادر وبدأت صداقة بيننا كنت أزوره في بيته ويزورني في بيتي وكان هو مموّلي بريش النسر الذي يحضره لي من البادية والذي أستخدمه في العزف على العود والمتميز بالمرونة الشديدة وما زال بعض هذا الريش في بيتي في حلب حتى الآن. وفي جلسة فنية شاعرية كنا نتبادل أطراف الحديث عن شعر الأستاذ أحمدو وإذا ما كان لديه من القصائد المشابهة ل"ريشة الفن" و"في الجماهير تكمن المعجزات" فقال: "إن هناك قصيدة "قصة شعب" مقدمتها "فرحة العيد أيقظت ذكرياتي". فأعجبت بها إعجابا شديدا فكتبها لي وتناقشنا فيها، وأخذت القصيدة وبدأت بتلحينها، وما هي إلا أسابيع حتى كانت القصيدة رغم ضخامتها وطولها وضرورة أن تكون كل كلمة بلحن خاص يعبر عن الكلمة ومعناها، فللكلمة المفرحة لحن مفرح وللحزينة لحن حزين وللغاضبة لحن غاضب والكلمة الثائرة بلحن ثائر، والكلمة المتألمة بلحن متألم، وكذلك اللوازم الموسيقية بين الأبيات الشعرية عند بداية فكرة جديدة أو عند انتهاء فكرة ما أو الانتقال من كلمة ذات معنى إلى كلمة أخرى بمعنى جديد.

وبعـد الانتهـاء مـن التلحـين ذهبـت إلى الأسـتاذ أحمـدو ولـد عبـد القـادر لأسمعـه اللحـن فسـمعه وأعجـب بـه ثم ذهبـت لأسـجله في الإذاعـة، وسـجلته علـى العـود فقـط، علمـا أن تصـوري للحـن كـان يحتـاج إلى توزيـع خـاص بـل إلى كـورال يرافـق الفرقـة الموسـيقية، لكـن الظـروف لم تسـمح لي في سـورية إلا بفرقـة لا بأس بهـا، وصـارت القصـيدة معـبرة إلى حـد صـار مقبـولا بالنسـبة لمـا كـان في تصـوري عنـد التلحـين، ومـا زالـت القصـيدة تحتـاج إلى تصـوير تلفيزيـوني تقـترن فيـه العبـارة بمعناهـا مـع الموسـيقى مـع الصـورة المناسـبة لهذا الموقف، ليكتمل العمل الفني جمالا وروعة.

وإلى اللقاء في حلقة قادمة. أتمنى لكم دوام الصحة والسعادة.

××××

-13-

حفلة أطار:

في الشتاء الدافئ لموريتانيا وللعام الدراسي 1977،1978م وقبيل العطلة الانتصافية بحوالي أسبوعين تقريبا، بينما أنا في بيتي في حي (ب، م، د) رقم 42، إذ بالباب يقرع، وذهب ولدي الأكبر فارس لفتح الباب وكان في الصف الثالث الابتدائي، عاد ليقول لي: "إن شابا في الباب يريد لقاءك يا أبتي."

ذهبت إلى الباب لأرى شابا في مقتبل العمر نحيفا أسمر اللون مظهره لا يعطيه عمره الحقيقي فقد اعتقدت أولا أن عمره لا يزيد على الستة عشر أو السبعة عشر عاما.

سألني هل أنت هو فريد حسن؟ رحبت به وقلت له: "نعم، تفضل بالدخول."

جلسنا في حديقة المنزل، عرفني على نفسه أنه من فرع الشباب في أطار ويدعى أحمد العبيد. قلت له: "تشرفت."

قال: "لقد أرسلني الشباب لأدعوك لزيارة أطار وإقامة عدة حفلات فيها وأن أتفق معك على الشروط التي تطلبها."

بصراحة ترددت كثيرا فشاب اعتقدت أنه لا يزيد على السبعة عشر عاما من العمر وقادم لوحده، ولم يحضر كتابا خطيا مثلا يبين أنه فعلا مرسل من فرع شباب أطار وظننت أن هذا الشاب يمازحني أو يدعوني من تلقاء ذاته ليس إلا.

وكعادتي في احترام الإنسان كبيرا كان أو صغيرا، حاورته لأعرف من خلال الحوار مدى تماسك كلامه وصحته وقال الرجل: "ما هي الشروط التي تريد اشتراطها حتى تقيم الأمسيات الفنية في أطار؟"

كنت أسمع عن أطار الكثير وكنت أرغب أصلا في زيارتها. قلت له: "لا شروط عندي سوى تأمين النقل من وإلى أطار، وتأمين المبيت، أما ماعدا ذلك فلا يهم."

فقال: "السكن جاهز وقد أعددناه إعدادا لائقا، والسفر سيكون بالطائرة وأنا الآن سأذهب لإحضار بطاقة الطائرة." واتفقنا أن يكون موعد إقامة الحفلة ثاني يوم من العطلة الانتصافية، وأن يكون سفري أول يوم في العطلة. خرج من البيت متجها إلى

مكتب "إيرموريتان" التي كان لها مكتب لا يبعد عن بيتي إلا ثلاث دقائق سيرا على الأقدام. مضى بعض الوقت ولم يأت، وعاد الشيطان ليقول لي إن الشاب إنما جاء لرؤيتك والسلام عليك، وأن ما قاله لا يزيد على كونه مزاحا أو تسلية أو حبا في التعرف على فنان. وقبل أن أستمر في استعراض الاحتمالات التي جاءني الشيطان بها، قرع الرجل الباب ثانية فقلت له: "تفضل." وما زال الكرسيان اللذان كنا نجلس عليهما في نفس مكانهما، فجلس وأخرج البطاقة من (اللبنة) جيب الدراعة، التاريخ أول يوم في العطلة، والبطاقة ذهاب وإياب، عندها غادر الشيطان رأسي وعرفت أن الموضوع خال من أي مزاح أو غير ذلك مما دس به شيطاني الرجيم.

قلت له: "بلغ سلامي لشباب أطار وقل لهم إني سأكون هناك صباح أول يوم في العطلة في مطار أطار." وودعته، ودخلت الدار أحدث عيالي بما اتفقت عليه مع الشاب.

لم أعط الموضوع أكثر مما يستحق من اهتمام وتركته للأيام تعمل عملها فيه، فكل مايريده الله خير، ولتكن تجربة أخرى أضيفها إلى تجارب عمري التي لا تحصى، والفنان عليه أن يلتقي بجمهوره في كل مكان، ومن واجبي أن أسهل لذلك الجمهور المحب لقائي، فأنا واحد وهم بمئات الآلاف، أنا أستطيع الذهاب إليهم، أما هم فالأغلبية العظمى منهم لا تستطيع أن تأتي إلي، وذهابي قد يكون متعبا لي لكنه ضروري، فكم كنت أتوق لرؤية محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ حتى لو كان ذلك مجرد رؤية من بعيد، فكما أنهم، أي جمهوري، يحبونني ويرغبون في رؤيتي فعلي أن أبادلهم نفس الشعور.

اقتربت العطلة الانتصافية وأنهيت استعداداتي للسفر: العود، وريشات عديدة احتياطا، والحاجات الشخصية التي سآخذها معي.

الغد هو موعد السفر وكل شيء جاهز حتى برنامج الحفلة وما سأغنيه: "درسك يا غلانه"، "فرحة العيد"، "أنتِ موريتانية وأنا من حلب"، "دوم يالله ذي الحيلة"،

"كتائــب موريتـــان"، "إفــريقيين وعـــرب الاتنـــين"، ب"الي حــــالف يمـــين"، "بســـاط الـــريح" وكلها من ألحاني عدا الأخيرة من ألحان فريد الأطرش.

كـــان صـــباح يـــوم الســـفر. حملـــت حقيبـــة متـــاعي بيـــد والعـــود بالأخـــرى بعـــد أن ودعـــت الزوجـــة والأولاد، ومـــع إغـــلاق باب الـــدار، كـــان المشـــهد غريبـــا لم أر مثـــيلا لـــه مـــن قبـــل ينتظـــرني. لقـــد شـــهدت أيامـــا مغـــبرة مـــن قبـــل لكـــن كغبـــار ذلـــك اليـــوم لم أشـــهد، إلى درجـــة أنـــك لاتســـتطيع رؤيـــة الإنســـان الـــذي يمـــر في الطـــرف الآخـــر مـــن الطريـــق. تابعـــت الســـير باتجـــاه المفـــرق الـــذي لا يبعـــد أكثـــر مـــن عشـــرات الأمتـــار مـــن ســـيارات التكســـي الـــتي تنقـــل من المقاطعة الخامسة إلى الاكصر والتي سأستقلها كي أنزل في المطار.

وصـــلت إلى المطـــار وأنا مستحضـــر أن يقـــال لي : "لا طـــائرة اليـــوم." لكـــن لعـــل انتظـــارا أو تأجـــيلا لوقـــت قريـــب يكـــون هـــو الحـــل. لم يكـــن في المطـــار إلا شخصـــان أو ثلاثـــة، ولعـــل الركـــاب الآخـــرين لم يأتـــوا لأنهـــم مـــن تجـــاربهم الســـابقة يعرفـــون أي الأيام المغـــبرة يمكـــن الســـفر فيهـــا وأيهـــا لا يمكـــن. لقـــد كانـــت تلـــك ســـفرتي الأولى بالطـــائرة داخـــل موريتانيـــا فـــأنا لا أعـــرف كيـــف يتعـــاملون مـــع ظـــروف كهـــذه مـــع الســـفر ومـــع الركـــاب والبطاقـــات هـــذا مـــن جهـــة، ومـــن جهـــة أخـــرى لقـــد وعـــدت النـــاس، وهـــم ســـيجرون اســـتعداداتهم ويهيئـــون للحفلـــة، وكـــل مـــن يعـــرفني ومنـــذ صـــباي يعـــرف أنـــه مـــن المســـتحيل أن أخلـــف وعدا مهما كان قليل الأهمية فكيف والحالة هذه: مدينة كاملة تنتظر قدومي؟

ســـألت الرجـــل القـــابع في كـــوة اســـتعلامات المطـــار: "أيـــن الطـــائرة؟" أشـــار إلى مـــدرج المطـــار الـــذي لا يمكـــن رؤيـــة شـــيء فيـــه، وأردف قـــائلا: "هـــل يمكـــن للطـــائرة أن تطـــير في جـــو كهـــذا ؟" قلـــت لـــه: "والحـــل؟" أراد الـــتخلص أو التهـــرب مـــني ومـــن الشخصـــين الـــذين اقـــتربا ليســـمعا ردَّه: "اذهبـــوا الآن إلى بيـــوتكم وإذا رأيـــتم أن الغبـــار انقشـــع راجعـــوا إدارة إيرموريتان، وهي التي ستعطيكم الإجابة الشافية الكافية."

ســـلكت طريـــق العـــودة راجعـــا إلى البيـــت؛ تعجبـــت الأســـرة مـــن عـــودتي، فشـــرحت لهـــم مـــا حصـــل. بعيـــد ذلـــك تـــرددت علـــى إيرموريتـــان عـــدة مـــرات خاصـــة وأن الغبـــار بـــدأ يتنـــاقص

بـــين الفينـــة والأخـــرى حـــتى تلاشـــى في فـــترة الظهـــيرة لكـــنهم قـــالوا إن الركـــاب غـــير موجودين وفي هذه الحالة تؤجل الرحلة إلى موعد الرحلة القادمة وتدمج الرحلتان!

عندها علمت أن كل شيء قد تخرب، وأصبحت تائها لاحيلة لي.

والمشـــكلة أنـــه لا توجـــد اتصـــالات حـــتى أعتـــذر أو نؤجـــل أو غـــير ذلـــك مـــن حلـــول أتفـــق فيها مع فرع أطار للشباب.

نصـــحني الـــبعض في إيرموريتـــان والمطـــار أن أذهـــب بالســـيارة فـــأكثر النـــاس ينتقلـــون مـــن وإلى أطـــار في الســـيارات الكبـــيرة المارســـيدس فـــوق البضـــائع متمتعـــين بالـــرياح البـــاردة أحيـــانا والحـــارة في أكثـــر الأحيـــان ناهيـــك عـــن الغبـــار. وطبعـــا لـــن تكـــون تلـــك هـــي الوســـيلة الـــتي سأســـتخدمها للوصـــول إلى أطـــار. وهنـــاك الوســـيلة الثانيـــة ســـيارات "البيجـــو فاميليـــال" الـــتي تتســـع لســـبعة ركـــاب لكـــنهم يحملـــون ثمانيـــة، وهـــي الـــتي يمكـــن أن أســـتخدمها. لكـــن الوضـــع الأمـــني الـــذي كـــان ســـائدا يومهـــا حيـــث المعـــارك بـــين البوليســـاريو مـــن جهـــة والجيشـــين الموريتـــاني والمغـــربي مـــن جهـــة أخـــرى، والإشـــاعات في ظـــروف الحـــروب والأزمـــات تكـــون كثـــيرة ويغلـــب الكـــذب فيهـــا علـــى الحقيقـــة عشـــرات المـــرات، لـــذلك تـــرددت قلـــيلا قبـــل أن أفكـــر عمليـــا بالموضـــوع. لكـــن ماحصـــل في المســـاء حســـم الموقـــف نهائيـــا، فقـــد ذهبـــت لـــزيارة زمـــلاء ســـوريين يســـكنون في حـــي لوكـــا، وبالصـــدفة كـــان قـــد جـــاء بعـــض مـــن مدرســـي مدينـــة أطـــار، بعضـــهم لشـــراء حاجيـــات أو حـــل مشـــاكلهم الوظيفيـــة في الـــوزارة، والســـفارة الســـورية، وكانـــت هـــي المـــرة الأولى الـــتي ألتقـــي بهـــم أو يلتقـــون بي. قـــالوا لي: "لقـــد سمعنـــا عنـــك الكثـــير لكننـــا الآن رأينـــاك، إن النـــاس في أطـــار يحبونـــك كثـــيرا ولأجلـــك يحبوننـــا أكثـــر، ولقـــد باشـــروا بالزينـــات والكتـــابات في الشـــوارع ترحيبـــا بـــك، ونحـــن نعـــرف أن الحفلـــة موعـــدها في الغـــد فلمـــاذا لا تـــذهب اليـــوم؟" أخـــبرتهم بمـــا حصـــل لي فقـــالوا: "ولمـــاذا لم تـــذهب في الـــبر؟" أجبـــت أنـــه عـــدا عـــن التعـــب والغبـــار هنـــاك الوضـــع الأمـــني. هوَّنـــوا الأمـــر علـــي وقـــالوا: "إن النـــاس كـــل يـــوم يسافرون وليس هناك أية مشكلة حصلت مع أحد منهم."

رجـوني أن لا أتأخـر قـائلين: "إن النـاس سـتنظر لـك بـل ولنـا أيضـا نظـرة أخـرى غـير تلـك النظـرة الجميلـة الـتي ينظـرون إليـك فيهـا الآن ولنـا مـن أجلـك." وعـدتهم أن أسـافر في الصـباح البـاكر مـع أول سـيارة، وهـذا مـا حصـل في الغـد حيـث توجهـت إلى"كـاراج السـيارات الصـغيرة" في الاكصـر شمـالي غـرب المطـار. انطلقـت السـيارة ونالنـا مـن التعـب والغبار ما نالنا، وبعيد الظهر بقليل كنا في أطار:

أيـن الشـوارع المزينـة الـتي حـدثني عنهـا أسـاتذة أطـار السـوريون؟ أيـن الكتـابات ؟ رغـم عـدم تـوقعي في الأصـل أن يكـون الأمـر كـذلك، لكـن لِمَ قـالوا لي ذلـك؟ هـل كـان الأمـر لـدفعي إلى الـذهاب خوفـا مـن نقـد النـاس لي ولهـم كـونهم أبنـاء بلـدي؟ طلبـت مـن السائق أن يوصلني إلى بيت رئيس فرع الشباب ففعل وقال: "هذا هو بيته."

قرعـت البـاب وخـرج أحـد الشـباب وكـان البقيـة يتنـاولون طعـام الغـذاء وكـان كسكسـا موريتانيـا أسمـر، وكـانوا قـد وصـلوا إلى مرحلـة مـا قبـل الانتهـاء مـن الغـذاء. لم يتحـرك أحـد مـن مكانـه بـل تابعـوا طعـامهم، بـل عـاد الـذي فـتح البـاب ليتـابع طعامـه، الجميـع منهمكـون في الأكـل، لا أحـد دعـاني ولـو بالكـلام فقـط لأنـه أصـلا لم يبـق مـا يؤكـل في القصعة.

صـدقا تألمـت لمـا تصـورته وخاصـة بعـد حـديث الأسـاتذة السـوريين عـن اسـتعدادات للاسـتقبال والزينـة والكتـابات. لا أحـد يقـف تاركـا الطعـام لاسـتقبالي كضـيف حللـت علـيهم. طبعـا هنـا تختلط أفكـاري المسـبقة لعاداتنـا في سـورية، والعـادات في موريتانيـا الـتي كنـت مـا أزال قليـل الخـبرة بهـا. وبعـد لحظـات سـتأتيني الإجـابات عـن كـل تسـاؤلاتي. أسـرع النـاس في تنـاول اللقيمـات الأخـيرة مـن غـذائهم، وقـاموا يغسـلون أيـديهم مـن سمـن أطـار الـذي كـان يوضـع فـوق الكسـكس وطلبـوا مـني أن أصـعد إلى السـيارة إلى جانـب أحـد الشـباب ليوصـلني إلى البيـت المخصـص لإقـامتي. علـى الطريـق بـدأتُ ألحـظ الكتـابات، والزينـة بجريـد النخيـل في الشـوراع المؤديـة إلى مكـان سـكني والمنطلقـة منـه إلى دار الشـباب. نعـم إنـه كـلام منطقـي وواقعـي وكـاف بـل هـو زائـد. بـدأ الشـعور يتغـير مـن السـلب إلى الإيجـاب. لم يكـن البيـت بعيـدا ففـي دقـائق كنـا أمامـه.

كان بيتا جميلا بالمقارنة مع أغلب البيوت التي مررنا بها. كان باب الدار مقفلا فقام سائق السيارة بفتحه ودعاني للدخول، واتجهنا إلى بهو واسع تجاوره عدة غرف ومطبخ واسع، أرشدني إلى الحمام وقال: "أولا تستحم لتتخلص من الغبار الكثير الذي علق بك في سفرتك المتعبة، وإلى أن تستحم سيكون الطعام جاهزا." وهذا ما فعلت فعلا، فما إن خرجت من الحمام حتى وجدت صخبا في الدار فقد امتلأت بالشباب ومن بينهم الشاب الذي أصبح فيما بعد من أعز أصدقائي. إنه أحمد العبيد (وأنا بالمناسبة هنا أعتذر منه لأني لأول مرة أعبر عن مشاعري الحقيقية عندما تحدثت عن بداية تعرفي إليه) لكنني بعدها عرفت أنني أمام رجل يقل مثيله في هذا الزمان وقد بدأت نظرتي إليه تتغير من لحظة إحضار بطاقة الطائرة، ثم العمل المنظم الذي قام به فرع الشباب في أطار والانضباط والتفاعل والتفاهم والمودة والاحترام لبعضهم البعض والتخطيط الدقيق وعدم وجود أية أخطاء خلال كل الأعمال والأنشطة المتعددة التي قمنا بها والتي سأتحدث عنها وعن حفلات الليالي الثلاث التي أحييتها وقتها في أطار برفقة عودي فقط !

وإلى الحلقة المتممة لهذا الفصل من مذكراتي في موريتانيا، أستودعكم الله.

××××

هذه تتمة الحلقة الثالثة عشرة التي تحدثت فيها عن رحلة أطار. لقد تعمدت الإسراع في كتابة هذا الفصل المتمم، علما أنني كنت أنوي أن أكتب اليوم في الأيام المحيرة في الغضب، لكن كلمة تغير بعض المواقف أحيانا، فأنا أطيل في الحلقة أحيانا وهذه الإطالة لها سلبياتها؛ فالناس ليسوا متساوين في الاستمرار في القراءة؛ كما أنهم ليسوا متساوين في اهتماماتهم، فقد يملون وإذا ملوا انتقلوا إلى مكان آخر وصفحة أخرى، لذلك أستفيد من خبرتي المتواضعة في علم النفس والتربية والاجتماع وكذلك الفن فأكتب بشكل أنقل فيه الفكرة بأسلوب أظنه شيقا يستطيع أن يشد القارئ لآخر الفصل.

ففي علم التربية كنا نعلم طلابنا أن التربية الحديثة تركز على أسلوب طرح المشكلات كطريقة ناجعة للتعلم، وهنا لست أنا الأستاذ ولستم أنتم الطلبة، لكنه أسلوب يكسر الجمود ويخلق جوا من التشويق.

ففي حديثي في الفصل الثالث عشر، عندما قلت إنني عندما دخلت الدار والناس في أواخر طعامهم، هذه مشكلة أعرف صداها عند شعب تميز بكرمه، وهذا ما دعا أختا تعلق بأن أطار مشهورة بكرمها. وهل قلت أنا غير ذلك؟ لو أنك انتظرت إلى حلقة اليوم لوجدت الرد على تساؤلك.

لقد انتهت حلقة الأمس عندما خرجت من الحمام لأسمع صخبا وأناسا دخلوا البهو الواسع، قَدِموا للترحيب بي. كان في مقدمتهم قيادة فرع الشباب في أطار ومجموعة من الناشطين في هذا الصدد. سلمت على الجميع وعرفني رئيس الفرع على كل من حضر، وانتقل إلى خمسة شباب وخمس فتيات قائلا هؤلاء سيكونون تحت تصرفك من أجل خدمة الضيوف من إعداد للطعام والشراب والذبح والتنظيف، وقد أنجز هؤلاء الشباب ذبح كبش أولا لصنع الطاجين وفشاي ليطيب بعده الأتاي، تتالت إجراءات الضيافة للحاضرين وتخللها أحاديث التعارف والحديث في متطلبات الحفلة. وقد سئلت ما إذا كنت متعبا أو أستطيع الليلة أن أحيي الحفلة الأولى؟ أجبتهم أني أشعر بالنشاط بل بالشوق إلى رؤية جمهوري الذي طال الشوق المتبادل للقائه.

كانت أعداد المرحبين كبيرة جدا من وجهاء وموظفين وشباب أطار ثم اقترح الشباب أن نذهب لبيت الوالي لأنه دعانا للعشاء، فاتجهنا إلى دار الوالي والتقينا هناك بأعداد جديدة من الموظفين والمسؤولين الذين جاءوا أيضا ليرحبوا بي ويحضروا العشاء.

انتهينا من عشاء الاستقبال عند الوالي واتجهنا نحو مكان إقامتي لنرتاح قليلا ثم لنستعد للذهاب إلى دار الشباب حيث مكان الحفلة.

لم يكن المكان بعيدا لكننا ذهبنا بالسيارة، الطريق كانت مزينة بأغصان النخيل وبالكتابات التي ترحب بي على الجدران. وهنا تذكرت كلام الأستاذ السوري الذي حدثني بهذا في نواكشوط، وعلى بعد عشرات الأمتار من دار الشباب كان المئات؛ولن أبالغ إذا قلت الآلاف؛ من الأطفال والنساء والرجال الذين لم يتمكنوا من الدخول يقفون في الطريق التي عرفوا أنني سأسلكها حتما من مكان إقامتي، موقف كلما أذكره تدمع عيناي له ويختلط هنا الفرح بلقاء جمهوري الذي أحبني وأحببته، فمئات الطلبات الأسبوعية للمستمعين لأغانيَّ دليل كاف لهذا الحب، يختلط الفرح بجمهوري بالفرح بتحقيق حلمي أن أقدم لهذا الشعب الطيب؛ المنسي حينها من كل إخوته، ما يمكنني تقديمه لأضيف لبنة في هذا البناء الجديد. فرح آخر هو أن أسعد من يحبني بالرؤية المتبادلة بيننا، فرح غيره أن تعي من يوم خطوت الخطوة الأولى في الفن هذه ثمرته. صحيح أني وجدت كثيرا من التقدير والحضور في "لقاء الجمهور" لكن المشاركين معي في الحفل كانوا عديدين ولم أكن أعرف هل كان الحضور لبرنامج "لقاء الجمهور" الإذاعي أم للشعراء والأدباء المشاركين أم للفنانين الآخرين المشاركين معي في الحفلة أم لي أنا. أما هنا فالجميع جاء من أجلي أنا، كما أن الآلاف الذين وقفوا قاطعين الشارع لمسافة عشرات الأمتار لم يأتوا إلا من أجلي. إنه وصف صادق لمشاعري بعد نيف وأربعين سنة، ليس من قبيل مدح النفس وليس من قبيل الكبر أبعدنا الله عنه ! إنه فقط وصف لمشاعر ماضية لماض سحيق، شعرت بها حينها ولم تغادر نفسي إلى خارجها، بل كنت كلما أردت أن أقوم بأية خطوة تضيف لبنة لعملي الفني في موريتانيا أتذكرها في مقدمة المواقف العديدة التي حصلت لي والتي سأذكرها في حلقات لاحقة إن شاء الله. فبعد مغادرتي النهائية لموريتانيا عام 1991م، وبعد قطعي الأمل أن أعود إليها ثانية، قمت بتسجيل كل أغانيَّ التي كنت أغنيها على العود فقط أو بمشاركة الكيتار أو بعض الآلات المحلية البسيطة، وقبل ذلك كنت قد سجلت أغنيتي " درسك ياغلانه" و"دوم ياالله" في إذاعة حلب، وقد كلفني ذلك جهدا كبيرا ووقتا طويلا وإنفاقا كنت أنا بحاجة إليه؛ لكنني دائما كنت أقول: لن أخذل جمهوري الذي أحبني ووثق بي، والبلد الذي أحبني وأحببته، والقطر الذي لا أومن بالحدود التي وضعها الاستعمار ليفرقنا عن بعضنا، فهو ليس بأقل من غلاوة سورية عندي، مثله مثل كل الأقطار العربية الأخرى لكنه لوضعه الخاص الذي عاناه، ولأنني عشت فيه سنوات

عديدة ولتميز شعبه بصفات اندثرت عند أكثر الأقطار العربية بقي له معزة خاصة تختلف عن غيره من الأقطار العربية !

قد يقول أساتذة النحو واللغة العربية عما فعلته أنه خروج عن الموضوع، من وجهة نظرهم، وأنا موافق فقد خرجت عن موضوع الحفلة أو رحلة أطار، لكنني في الواقع أكتب حلقة من ذكرياتي، وذكرياتي ليست للحجر والشجر والبشر فقط بل للمشاعر والأحاسيس والتي هي أهم وأبقى وهي الأساس على الأقل في نظري أنا.

أعود إلى لب الموضوع فقد شققت طريقي بين أحبتي، يحيونني وأبادلهم التحية، وهذا يطلب مني أن أقف ليمعن النظر فيَ، وذاك يسير برفقتي، إلى أن وصلنا إلى مبنى دار الشباب القديمة. الدار كانت ممتلئة حتى درج المسرح، والواقفون قطعوا كل الممرات، وأضعاف ما كان موجودا داخل الدار كانوا خارجها واقفين يستمعون، ناهيك عن أعداد أخرى صعدت على السطوح المجاورة والقريبة من دار الشباب. المهم بدأتُ بأغنية "فرحة العيد" وكان الجمهور متجاوبا إلى حد كبير، ثم "درسك يا غلانه" التي طلب الجمهور إعادتها رغم الإعادات التي كنت أجريها من نفسي، ثم غنيت "كتائب موريتان وأفريقيين وعرب الاتنين"، وبعدها "دوم يالله" وبعدها "بالي حالف يمين"، وختمتها بأغنية "بساط الريح" لفريد الأطرش. وأذكر أن أغلب القاعدين في الصف الأمامي كانوا ضباطا مغاربة من القوات التي كانت موجودة لقتال البوليساريو إبان حرب الصحراء في السبعينيات، وقد فرحوا بهذه الأغنية كثيرا لأن الأغاني الأخرى ليست معروفة لديهم وكانوا رغم ذلك متفاعلين معها طبعا ليس كتفاعلهم مع أغنية بساط الريح، وقد طلبوا إعادتها وفعلت وكانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ليلا حيث وعدهم مسؤول الشباب أن هناك غدا حفلة ثانية في نفس المكان والتوقيت. كانت الليلة حامية حارة، وطلب مني أحد وجهاء أطار أن نكمل السهرة عنده، فبيته مكيف، ولن أذكر اسمه الآن فقد لا يرغب هو في ذلك وبالمناسبة أنا أحذف حوادث كثيرة من أجل أن لا أحرج بعض الناس بسبب ظروفهم العائلية أو الاجتماعية وقد كتبت مذكراتي بدءا من يوم ولادتي وحتي نهاية العقد السادس،

وكثيرا ما طلب مني أن أكتب كل شيء دون استثناء كما يفعل الأوروبيون مثلا، طبعا هذا غير ممكن في بلادنا فتقاليدنا تختلف عن تقاليدهم. أما مذكراتي الفنية في موريتانيا فلم أكتبها من قبل وها أنذا أفيد وأستفيد. أفيد غيري ممن تهمهم حياتي الفنية في موريتانيا، وأستفيد أن أدوّن هذه الذكريات التي لم أكن متفرغا لها في حلب حيث إدارتي لمنشأة تعليمية خاصة أمتلكها، أو بالاحرى كنت أمتلكها، ولا أعرف إن كنت سأرجع إليها أم أن المخطط الخارجي الموضوع لسوريا سيمنعنا من ذلك.

إذاً مذكراتي في موريتانيا أكتب كل يوم صفحات منها الآن وكلما كتبت شيئا نشرته على الفيسبوك. أرجع إلى فكرتي: رحلة أطار فقد ذهبنا بصحبة الصديق الموريتاني إلى بيته وأكملنا السهرة عنده وكان الضباط المغاربة موجودين معنا، وأذكر أن واحدا أو أكثر منهم كان طبيبا وقد زودني بكميات من الأدوية الإسعافية بقيت عندي فترة طويلة حتى بعد انتقالي إلى سورية!

أحيانا يسألني بعض الناس: "هل تتذكر كل هذا؟" نعم ولله الحمد بل أكثر من ذلك ففي قصة حياتي التي بلغت سبعمائة صفحة حتى نهاية العقد السادس وسأكتب العشر سنوات المتبقية إذا شاء الله لي ذلك، فتصبح ثمانمائة صفحة تقريبا كتبت فيها ما حدث لي قبل السنتين من عمري، وما كان يقال لي من والديَّ. أما ما بعد السنتين وثلاثة أشهر فهو مما تذكرته أنا شخصيا وكلما كنت أصغر كانت الذكريات قليلة وشحيحة، وأتذكر منها الهامة جدا فقط، أما بعد الرابعة فأتذكر كل شيء، لذلك ليطمئن القارئ الكريم على مصداقية ما يقرأ، وما لا أتأكد من صحته أتجاوزه، أوأقول على ما أظن، أو نسيت اسم الشخص، فسبحان من لا ينسى! بقي لي أن أودعكم فقد تعبت اليوم من الكتابة فقد كتبت عشر ساعات هذا اليوم، على أمل اللقاء بكم في تتمة رحلة أطار في الفصل القادم إن شاء الله.

××××

- 15 -

إكمالا لرحلة أطار الأولى عام 1978م وللفصلين الثالث عشر والرابع عشر (وكنا قد وصلنا في الأخيرة إلى ما بعد خروجنا من الحفلة في دار الشباب، لنكمل السهرة في بيت أحد الأصدقاء من وجهاء أطار بناء على طلبه وضباط مغاربة أصدقائه معه)، ورغم أن يومي ذاك كان مفعما بالتعب فالاستيقاظ المبكر في نواكشوط للسفر، ثم مئات الكيلومترات من نواكشوط إلى أطار، في طريق أكثرها ترابي، وعدم قيلولة كنت أصلا متعودا عليها، وغناء ثلاث ساعات في الحفلة، ومتابعة في الغناء والمزاح والحديث في بيت صديقنا بعد الحفلة، كل هذا وكأن شيئا لم يكن؛ لأن روح الشباب لا تأبه بكل ذلك، فكم وصلنا الليل بالنهار لعدة أيام في سهرات الطرب؟ وهنا يصدق علي قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوما   لأخبره بما فعل المشيب

سهرة شباب: غناء، طعام، شراب (حلال طبعا)، أحاديث...، ثم انتهت سهرتنا في الساعة الثانية والنصف، فرغبت في الذهاب إلى بيت الضيافة لكن الشباب تمسكوا بي على فرض أن الصالة هنا مكيفة وليالي أطار حارة. لم أعارض خاصة أني لا أعرف طريق العودة ليلا كوني جديدا في الإقامة هنا!

كنت متعودا على الاستيقاظ المبكر مهما تأخرت في السهر. استيقظت والكل نيام. كنت أعرف مخطط العمل في اليوم الثاني وهو رحلة في الصباح إلى ترجيت. لذلك لبست ثيابي وحملت عودي واتجهت نحو باب الدار الذي كان مقفلا ومفتاحه عند صاحب الدار، فقد أراد الاطمئنان على ضيوفه من أية مشكلة قد تقع والحق معه، وخاصة بالنسبة للإخوة المغاربة كضباط وفي حالة حرب بين الأشقاء مع الأسف، وهو دأبنا منذ ذلك الوقت بل ترقينا كثيرا حيث صار الكل عدو الكل، وكل يعتبر نفسه أنه هو الحق بعينه، وغيره الباطل بعينه، ونسينا العدو الحقيقي تماما وصار إخوتنا هم الأعداء مع كل إلاسف. دعونا من السياسة فهي التي فعلت ما فعلت

ولا أريدها أن تفرق بيني وبين بعضكم، لكنني بشكل عام أقول: إن الأصح في الأمر أن نحب بعضنا وأن لا نتقاتل، والخطأ عكس ذلك. إننا نعيد حكاية قابيل وهابيل، والجميع يظنون أنفسهم هابيل. إننا نسيء لدينا وأوطاننا، ولمستقبلنا، ولمقدساتنا، ولأنفسنا، وللأجيال القادمة من بعدنا، فهل بعد ذلك من جنون؟

سامحوني فقد خرجت عن الموضوع لكنني من لحم ودم وكتل من الأحاسيس والمشاعر ووطني يتمزق أمامي والناس سكارى وما هم بسكارى. لقد قطعت أشواطا في كتاب عن التخدير النفسي وهي الحالة التي نعيشها في الوطن العربي وقد لمحت للموضوع في مقالة خاصة سابقة، لكنني أفضل أن لا أتحدث في موضوع الكتاب حتى أنتهي من تأليفه.

وعودة إلى المأزق الذي وقعت فيه في دار وجيه من وجهاء أطار. فالباب مقفل والناس نيام ولا أريد إزعاجهم بعد سهر طويل. حاولت إيقاظ صاحب الدار لكنني اكتشفت أنه من النوع الذي لا يستيقظ إلا إذا كان قد أخذ كفايته من النوم. محاولات عديدة قمت بها لإيقاظه لكن دون جدوى واضطررت لرفع صوتي عساي أجد حلا لما أنا فيه. فعلا استيقظ واحد من أهل الدار قد يكون أخاه أو قريبه وفتح لي الباب وأطلق سراحي.

اتجهت نحو دار الضيافة. كان الشباب يعدون حاجات الرحلة إلى ترجيت. لم أكن أعرف ما هي ترجيت. بل لم أكن أسمع باسمها من قبل. عدة سيّارات: "لاند روفر وبيجو504" لِنَقْلِ مجموعة من الشباب والوالي ورؤساء الدوائر في أطار، و"بيك أب" لِنَقْلِ معدات الطعام من كبش وأشربة ومفروشات للجلوس. تحركنا من دار الضيافة إلى الولاية ومنها إلى ترجيت.

ترجيت لاحاجة لوصفها لمن يعرفها. لكن لمن لا يعرفها أقول: هي جنة من جنان الله في الأرض واللهُ تعالى في القرآن الكريم حدثنا في سورة الكهف عن جنتين لرجل فجر وتكبر ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، ثم أحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه ! أي أننا لا نخطئ عندما نقول إن ترجيت جنة فسبحان من خلقها !

الجميـل والرائـع في ترجيـت وجودهـا في منطقـة تحـوي الصـحراء والجبـل والنخيـل والـزرع والنبـع الغزيـر الصـافي. فقـد نجـد في أي بلـد نبعـا أو أشـجارا أو جبـالا أو صـحراء لكننـا لـن نجـدها مجتمعـة في مكـان واحـد وبهـذا النسـق والتموضـع، فمصـايف دمشـق رائعـة الجمـال لكـن ينقصـها الصـحراء المحيطـة. إن التنـوع و"الـديالكتيك" الموجـود في ترجيـت يعطيـك شـعورا لا تجـده في غيرهـا. فالواحـات في موريتانيـا كثـيرة وقـد زرت معظمهـا لكـن ترجيـت لوحـة فنيـة حماهـا الله، ماشـاء الله وتبـارك الله، كمـا يقـال في موريتانيـا عندما يتحدث الإنسان عن شيء جميل خوفا من أن يصيبه بالعين !

توقفـت السـيارات ونزلنـا منهـا وهـرع الشـباب والشـابات لنشـر المفـارش وتنزيـل الأغـراض كـل في اختصـاص، ومـاهي إلا دقـائق والنـاس قـد أخـذوا أمـاكنهم والشـباب بـدؤوا بتحضـير الطعـام؛ هـذا يـذبح وذاك يشـعل النـار وغـيره يحضـر الحطـب وآخـر يشـوي الكبد وغيره يصنع الشاي !

في هـذه الطبيعـة الخلابـة وهـذه الجماعـة الطيبـة رأيـت انسـجاما قـل نظـيره بـين الـوالي ومـوظفي الولايـة وفـرع الشـباب وهـذا حاصـل قبـل قـدومي إلـيهم وكـان الجميـع فريقـا واحـدا. أقـول في هـذه اللحظـات الجميلـة كـان أحمـد العبيـد الشـاب الـذي حمـل دعـوة فـرع الشـباب لي، كـان إلى جـانبي نتبـادل حـديث وصـف هـذا الجمـال الإلهـي. وعنـدما رآني فرحـا معجبـا كـل هـذا الإعجـاب بترجيـت طـرح علـي فكـرة أن يؤلـف لي كيفـانا عـن ترجيـت وألحنهـا لـه. طبعـا أنا أعـرف أن كـل النـاس في موريتانيـا "يقولـون الغنـا" أي يؤلفـون الزجـل لكـني لم أكـن أعـرف أن هـذا الرجـل موهـوب إلى هـذا الحـد. فقـد اتفقنـا أن نتبـارى: هـو يؤلـف وأنا ألحـن، وسـنرى مـن الـذي سيسـبق. لقدسـبقته فقـد لحنـت البيتـين الأولـين ثم يكـون اللحـن نفسـه مكـررا لكـل الأبيـات القادمـة، وهكـذا انتهيـت أنا عنـد تأليفـه البيتـين الأولـين بينمـا مـا زال أمامـه أبيـات عديـدة، وكنـت أنا الفـائز بالسباق، أما كلمات الأغنية فكانت وصفا صادقا وتاما وكاملا لرحلتنا:

جينا لترجيت وجينا ××× وقضينا ساعة زينا

متمني فيها ليله ××× سابق ما فتنا مشينا

نعدل فيها حويله ×××ونظل كان مسينا

ونهار جميع أوقاته×××مع فريد الهينا

وكتن ترجيت الهاته××× يا رب لا تشقينا

شفت النخيل زها لي×××وظل أكنتور علينا

وشطن ذا كامل بالي×××والمشوي ألفيها شوينا

جينا لترجيت وجينا××× وقضينا ساعة زينا

فعلا هي وصف كاف وشاف لرحلتنا، وقد وعدته أن أغنيها في حفلة الليلة كما غنيتها هناك في ترجيت مع أغانيَّ السابقة بعد أن أكملت تنقيحها. وكما قالت كلمات الأغنية: قضينا يومنا في الشواء والغناء والشاي، وتمتعنا بهذا الجمال الرباني وعدنا عصرا إلى أطار لنرتاح ثم أعود مساء للحفلة الثانية التي كانت مماثلة لليوم الأول، وقد أضفت لأغانِي اليومِ الأول الأغنية الجديدة "ترجيت"!

أما نهار اليوم الثالث فقد أمضيناه في استقبال شباب أطار، وأمسية اليوم الثالث كانت فيها بعض المقاعد الفارغة، لذلك قلت للشباب لن يكون هناك أمسية رابعة، علما أن كثيرا من أمسيات الفنانين لا تملأُ نصف الصالة بل أحيانا ربعها. لقد رأيت أن أبقي ذكرى جميلة عن تزاحم الناس وإقبالهم، فلا تتشوه الصورة الجميلة بيوم قليل الإقبال.

لا أريد أن أسهب في حفلة أطار فبإمكاني أن أكتب فيها فصولا كثيرة، لكن حتى أفسح المجال لذكريات جديدة في مواقع أخرى.

انتهت الرحلة والحفلات الثلاث وكسبت عشرات الأصدقاء وفي مقدمتهم أحمد العبيد الذي كتب لي بعد ذلك أجمل الأغاني، فأغنية "عراد من فقدك نمسى" من تأليفه وكذلك أغنية "زين الشرق وزين قبله وساحل موريتان " وأغنية " زينه وحياتك زينه " إضافة إلى أغنية "ترجيت".

وعدت من أطار أحمل ذكريات لا يمكن نسيانها، محملا بالكثير من الهدايا من إنتاج أطار من تمور وصناعات محلية تقليدية، ومن الناحية المادية، فبعد حسم المصاريف

التي أنفقت في الضيافات ولوازم الحفلة ونفقات الانتقال والسفر، قام فرع الشباب بقسم المبلغ المتبقي مناصفة بيننا وأذكر هذا الجانب الذي لا يقارن أصلا بالأحاسيس والمشاعر فالمال يأتي ويروح لكن الذكرى لا تقدر بثمن، لكني أحكيه من باب إكمال المصداقية في السرد القصصي وحتى لا يبقى في نفس القارئ تساؤل.

وحتى أضع القارئ الكريم داخل نفسي وكأنه رافقني، علما أن أكثر ما أكتبه الآن لم أذكره طوال الفترة الطويلة السابقة لأحد، لأنه من أخص الخصوصيات، لكنه مع التقادم يكون مسموحا التساهل في كثير من المحظورات.

انتهت الحلقة. دمتم بخير وإلى حلقة جديدة إن شاء الله.

××××

في خيمـــة موريتانيـــة واســـعة كنـــا نجلـــس مجلـــس أتاي في انتظـــار طعـــام الغـــذاء. كـــان الحاضـــرون كثـــرا، والأغلبيـــة تلـــبس الـــدراريع (اللبـــاس الموريتـــاني الخـــاص بالرجـــال)، إلا أربعـــة، أنا أحـــدهم علمـــا أني كنـــت ألـــبس الدراعـــة في كثـــير مـــن الأوقـــات، ولكـــني يومهـــا كنـــت لابســـا لبـــاس الغـــرب. أمـــا الثلاثـــة الآخـــرون: فاثنـــان مـــنهم كـــانا منـــدمجين في حـــديث الجماعـــة يتبـــادلان الحـــديث مـــع كـــل الحاضـــرين وكـــان الجميـــع يـــتكلم الفرنســـية، عـــداي أنا والرابـــع الـــذي يلـــبس أيضـــا لبـــاس الغـــرب (بنطـــال وقمـــيص) والـــذي كـــان يجلـــس بالصـــدفة بجـــواري، وصـــديقي الـــذي رافقتـــه إلى هـــذا المكـــان بجـــواري مـــن الجهـــة الأخـــرى. ولمـــا تأكـــدت مـــن عـــدم مشـــاركة صـــاحب البنطـــال المجـــاور لي في الحـــديث العـــام بالفرنســـية، توقعـــت أنـــه لا يـــتكلم الفرنســـية، فقلـــت ربمـــا هـــو عـــربي مثلـــي. التفـــت إليـــه قـــائلا: "الأخ عـــربي؟" قـــال: "لا، لكـــن أتكلـــم العربيـــة." قلـــت: "مـــن أيـــن أنـــت إذا؟" قـــال: "مـــن أمريكـــا." كانـــت لغتـــه العربيـــة جامـــدة تظهـــر عليهـــا الغربـــة واللحـــن. ســـألته: "ومـــاذا تعمـــل هنـــا في موريتانيـــا ؟" قـــال: "أحضـــر أطروحـــة في الـــدكتوراه." قلـــت لـــه: "لكـــن أنا أعـــرف أنـــه لا توجـــد جامعـــة في نواكشـــوط !" (وقتئـــذ، وكانـــت أعلـــى مرحلـــة دراســـية حينهـــا في موريتانيـــا هـــي مدرســـة تكـــوين المعلمـــين العليـــا). أجـــاب: "أنا أدرس في جامعـــة كـــذا." (ذكـــر لي اســـم جامعـــة في أمريكـــا لا أتـــذكرها الآن) وأردف قـــائلا: "أحضـــر أطـــروحتي هنـــا." اســـتغربت الأمـــر وتابعـــت في ســـؤاله: "ومـــا هـــي الأطروحـــة الـــتي تحضـــرها هنـــا؟" فقـــال: "الغنـــاء الموريتـــاني." فـــازددت عجبـــا فقلـــت: "أي نـــوع مـــن الغنـــاء؟" قـــال: "الغنـــاء الحســـاني." أي الزجـــل، ومـــا يســـمى في موريتانيـــا الكيفـــان. وجـــدت أن في حـــديثي مـــع هـــذا الإنســـان فائـــدة مشـــتركة لي ولـــه فإضـــافة للتســـلية، - وأنا في ذلـــك الظـــرف بأمـــس الحاجـــة إليهـــا لأنـــني في ذلـــك الموقـــف كنـــت مثـــل الأطـــرش في الزفـــة، في هـــذه الخيمـــة حيـــث الجميـــع يـــتكلم الفرنســـية وأنا لا أفهـــم منهـــا إلا القليـــل جـــدا-إذا إضـــافة للتســـلية، أرى مـــاذا اســـتطاع هـــذا الرجـــل أن يجمـــع عـــن الغنـــاء الموريتـــاني، خاصـــة وأنـــه قطـــع آلاف الكيلـــومترات وضـــيع كثـــيرا مـــن الوقـــت والجهـــد والمـــال، فـــلا بـــد لـــه أن يكـــون قـــد وصـــل إلى

أمور مفيدة، وقد أستطيع مساعدته فأنا لدي خبرة متواضعة في هذا المجال، وقد أستفيد منه، وقد نتعاون وتعم الفائدة. وبالصدفة كان يحمل معه كراسا فيه مسودة الأطروحة التي يحضرها وفتحها وكانت مليئة بالكيفان، مع كلام يشرح كافا أو اثنين أو ثلاثة، وكلام يتلو يتمم الشرح أو يعلق على هذه الأبيات. إلى هنا القضية عادية جدا، بل حتى انفضاض جلستنا وغذائنا كان الأمر عاديا. بل حتى بعد ذلك بفترة طويلة كانا لأمر عاديا، حتى إني لم أسأله عن اسمه ولا عن مكان إقامته ولا عن كثير من المعلومات الأخرى، ويمكن أن يكون بعض القراء قد عرف الشخص الذي أعنيه ولما أكتبه الآن إذا كانوا ممن تزيد أعمارهم عن الستين وقد التقوه وخاصة الذين يجيدون الغناء الحساني قولا أو حفظا.

اللافت للنظر تمثل في أن صاحبنا ركز وقتها على جانب من الشعر الشعبي الموريتاني وهو جانب الحروب بين القبائل، وحتما بناء على توجيه الدكتور المشرف على أطروحته، كانت هي المرة الأولى بالنسبة لي أن أقرأ مثل هذه الكيفان فلم أسمعها في الإذاعة مثلا وهي لن تذاع في بلدك ان في تلك الفترة على الأقل يزدري كل من يذكر اسم قبيلة ذكرا عاديا فكيف أن يذكر حروب وانتصارات هذه القبيلة وانهزام أو خسارة تلك القبيلة. كانت نسبة هذه الكيفان إلى المجموع أكثر من سبعين بالمائة، وكان القليل منها في باقي مجالات الحياة: الغزل، المديح، الذم، البكاء على الأطلال، علما أن الحقيقة غير ذلك فهذه الكيفان عن حروب القبائل فيما بينها قليلة بل نادرة لكنه في الأصل جاء ليبحث عنها.

تركت الموضوع طي الكتمان في نفسي لأسباب ذاتية وأخرى موضوعية لن أتطرق إليها الآن، ولا أعرف هل كانت الجهات المعنية بذلك، على دراية بما يبحث أم لا، فأنا أعرف أن باحثين مماثلين مكثوا طويلا في المشرق العربي كانوا يسمون بالمستشرقين وكان كل منهم يدرس جانبا من جوانب الحياة الاجتماعية والتاريخية وتنوعت مشاربهم وتصرفاتهم فمنهم من أسلم وتزوج وأنجب ومكث واستوطن، ومنهم من لم تطل إقامته، ومنهم من أفاد العرب والمسلمين بالنقل الموضوعي لأخلاق

العـــرب والمســـلمين وكتـــب كتبـــا في ذلـــك، وكـــذلك في التـــاريخ والحضـــارة بكـــل جوانبهـــا، ومـــنهم مـــن مهـــد الطريـــق لمـــن جـــاءوا بعـــده علـــى الســـفن الحربيـــة لاحـــتلال المشـــرق العـــربي، بعـــد مـــا حـــدث في أفغانســـتان، ثم في العـــراق، ثم في الربيـــع العـــربي (مـــع تحفظـــي علـــى التسميه لأننا ما رأينا من الربيع سوى الدم والدمار والخراب والتشريد).

لقـــد عرفـــت فيمـــا بعـــد لمـــاذا ينـــالون شـــهادات الـــدكتوراه في جانـــب لـــن يـــنفعهم في بلادهـــم في يوم من الأيام، إلاإذا أرادوا إيقاظ ما نام من ماضينا بشكل أو بآخر!

إن المعرفـــة الدقيقـــة بطبـــاع الشـــعوب وتكويناتهـــا القبليـــة والطائفيـــة والمذهبيـــة والعرقيـــة والأحـــداث التاريخيـــة الـــتي وقعـــت بـــين مكـــونات المجتمـــع والخلافـــات والتناقضـــات النائمـــة والراكـــدة، ومعرفـــة مكـــامن إيقاظهـــا وإشـــعالها مـــن جديـــد بـــل أشـــد ممـــا كانـــت عليـــه في الماضـــي، تتـــولاه جهـــات متخصصـــة ومبدعـــة فيـــه، ومـــا نـــراه واقعـــا في وطننـــا العـــربي وعالمنـــا الاســـلامي لـــيس إلا شـــيئا مـــن هـــذا القبيـــل، أناس درســـوا عنـــا كـــل شـــيء، وخططـــوا لنـــا ونفـــذوا خططهـــم ونجحـــوا في مبتغـــاهم، والكـــل يـــرقص علـــى تلـــك الأنغـــام الـــتي عزفوهـــا لنـــا ظنـــا منـــا أن الأنغـــام أنغامنـــا، والفـــرح فرحنـــا والعـــرس عرســـنا، والحقيقـــة غـــير ذلـــك فـــالعرس عـــرس عـــدونا والفرحـــة فرحتـــه، وكـــان الأجـــدر بنـــا أن نبكـــي حالنـــا الـــذي لا نحســـد عليـــه والذي لم تمر على أمتنا أيام أكثر سوادا مما هي عليه الآن ؟

جمعة مباركة، وإلى لقاء قريب إن شاء الله، أودعكم بأمان الله.

××××

-17-

الزمان عام 1977م بعيد قدومي إلى موريتانيا بأشهر قليلة.

المكان: صالون من أهم صالونات نواكشوط في تلك الفترة.

المناسبة: حفل غداء ومقيل لي ولبعض الأشخاص الآخرين عرفت فيما بعد أن أحدهم هو مدير المركز الثقافي الفرنسي:

قبل الغذاء وحول مائدة الطعام التي تحوي بعض المقبلات التي تسبق وجبة الغذاء الرئيسة،كلام مجاملة لا بد منه يدور عادة بين المولِم (صاحب الوليمة) وبين المميزين من المدعوين، يتخلله تعريف القادمين الجدد بأهل الدار والأصدقاء، وهذا ما حصل عندما قامت صاحبة الدعوة بتعريف مدير المركز الفرنسي عليّ، مع شيء من المديح ووصف لموقعي الفني في موريتانيا. لم تكن الوليمة مبرمجة من طرفي على الأقل، ولا من قبل أصحابها أصحاب الصالون المذكور،كي نستغل وجود مدير المركز لغاية ما، بل لم أكن أنا أعرف إمكانات المركز في الأساس.

كان العود موجودا وطلب مني أن أسمعهم بعض الأغاني الموريتانية والعربية وبعض العزف على العود، وفعلت، فأعجب مدير المركز بالعود وبصوته وشكله وكأنه يراه ويسمعه عن قرب لأول مرة. كان يسأل وأنا أجيب وصاحب البيت يقوم بدور المترجم بيننا، وكذلك في موضوع الأغاني: هذه كلماتها موريتانية، غنتها ديمي بنت آب مع الأستاذ فريد، وتلك غنتها معه أبتي بنت شويخ، وأخرى باللهجة المصرية مغنيها الأساسي فريد الأطرش إلخ !

أنزل المضيف مائدة الغذاء واستمرت نشوة الطرب فتناول كل زيادة عما كان سيتناول. كان الرجل فرحا بالمجلس شكلا ومضمونا، طعاما وما سبقه وما رافقه. من تلقاء ذاته ودون أن يطلب إليه أحد، قال مدير المركز: "لماذا لا تأتي وتقيم حفلة في المركز الثقافي الفرنسي فهو مجهز بأحدث الوسائل الفنية والصوتية والترفيهية إضافة لفرشه الجديد والمريح، وسنقدم ذلك دعما لك وهدية منا إليك؟"

إنه عرض سخي جميل راق لا يمكن رفضه.

اعتقدت في نفسي أنها فائدة متبادلة فهو يقيم أنشطة فنية ثقافية هي مبرر وجوده ووجود مركزه الثقافي، وعندما يحيي الحفل فنان معروف له شعبيته سيكون لذلك صدى إعلامي واجتماعي، وسيتعرف إلى المركز من لا يعرفه وسيكتشف موقعه ونمط نشاطاته، فسيتعرفون إلى المركز وتكون خطوة نحو الاستمرار في التردد عليه؛ أي باختصار دعاية هامة للمركز.

وفائدة لي: حيث ستوفر لي مبالغ طائلة كنت أنفقها على إيجار الصالة، وضريبة الولاية، ورسوم الشرطة، واستحضار بعض الأجهزة الحديثة للصوت، كل هذا إضافة للفرش الرائع الجديد الذي لا يستخدم إلا في المناسبات النادرة. وفعلا لم أرفض بل قلت له: "بكل سرور." وحددنا موعد اليوم الثالث من الشهر القادم الذي لم يكن يفصلنا عنه إلا أسبوع ونيف. وقال: "أَجْرِ استعداداتك ونحن سوف نكتب إعلانا نذكر فيه بالحفلة ولن نبخل في تقديم أية مساعدة ترغب بها."

إلى هنا: كلام لا أحلى منه، كرم أكثر من اللازم، تقدير للفن، رغبة في تحريك المركز وتنشيطه، رد للجميل؛ فقد أطربته قبل الطعام وبعده وجعلته يتناول من الطعام ضعف ما يأكل عادة.

كان من الحاضرين للوليمة قريبة لأهل الدار وهي تعمل موظفة مكتبية في المركز الثقافي الفرنسي، وأعتقد أنها هي صلة الوصل بين أصحاب الدار وبين مدير المركز. قال لها: "ذكريني غدا لإتمام إجراءات الحجز الروتينية وكتابة إعلان الحفلة."

جاءت في اليوم التالي وقالت: "لقد تم الحجز نظاميا واعتبر أن ليلة الثالث من الشهر باتت محجوزة لك."

لم أكن بحاجة إلى بذل المزيد من الجهود فإعلانان في الإذاعة كافيان وبعض الإعلانات الورقية كافية لملء دار الشباب؛ فما بالك والمركز الذي لا أعتقد أنه يساوي ثلث دار الشباب في عدد مقاعده؟ !

بعد مرور أربعة أيام أرسل لي أصحاب الصالون الذي كانت حفلة الغداء فيه منذ أيام، أن تفضل لتقيل اليوم عندنا، ولم أعرف السبب لأن الناس كانوا كأهلي أذهب إليهم متى شئت كعادة كل الموريتانيين في كرمهم.

لم يخطر على بالي أني ذاهب لأمر ما غير الغداء. الصدفة العجيبة أن نفس الشخص الذي كان مدعوا المرة الماضية مدعو اليوم أيضا. في معاهد تكوين المعلمين ودور المعلمين نقول لطلابنا في الإعادة إفادة، أن نعيد حفل الغداء أمر مفيد لنا نحن المدعوين، لكنه عبء وتعب وإنفاق على صاحب الدار. أمر محير لماذا نحن كلانا فلو كنت لوحدي فغداء أهل الدار(مارو الحوت) يكفي. أما وجود هذا الضيف "البراني" يتطلب مقدمات ومؤخرات تكررت خلال أقل من أسبوع.

انتهى الغداء فأخرج ورقة وقلما وقدمهما إلي قائلا: "سجل لي هنا مصاريفك التي أنفقتها على الإعداد للحفلة." قلت له: "لم أفهم سؤالك ولا موجبه." قال: "إن المركز الثقافي الفرنسي يعتذر منك عن إقامة الحفلة المتفق عليها فيه ونحن مستعدون لتعويضك عن أية خسارة ستلحق بك نتيجة ذلك." قلت له: "إنك تمثل دولة راقية معروفة بالحفاظ على المواعيد والمواثيق وليس رجلان هما أنا وأنت من اتفقا، بل ممثل فرنسا إحدى الدول الخمس العظمى في العالم. هل بهذه السهولة تغيرون كلامكم وتنقضون عهودكم؟" (طبعا صاحب البيت يترجم بيننا). قلت له: "أريد مبررا يقنعني لتصرفك؟" قال: "لا يوجد أي مبرر. فقط أُكتب أي رقم يساوي خسارتك من جراء هذا التراجع وسندفعه لك دون جدال أو تردد." فكرت مليا عساي أجد مبررا لفعلته، لم أستطع الوصول إلى أي سبب مقنع. قلت له: "أنا لا أريد منك شيئا فأنت الذي عرضت علي أصلا قاعة المركز للحفلة، وأنت الآن تتراجع. وأشكرك على كل حال ولست محتاجا لدريهمات قليلة أنفقتها، أنا أعطيها لطالب صدقة يسألني في الطريق. لكن أن تمثل دولة عظمى وتتصرف هكذا هو الأمر المحير!"

غادر بعد الغداء وبقيت موظفته قريبة أهل الدار وعرفت أن الإجابة على تساؤلي عندها حتما. سألتها ماذا حصل؟ لماذا انقلب رأسا على عقب هكذا فهو من

عرض عليّ وأنا لم أتصرف بأي تصرف يسيء له أو لمركزه ؟" قالت: "اليوم قرأ هذه الجريدة (وقد أحضرت موظفته نسخة منها) وبعد قراءته لها ناداني وقال: "تصلي ببيت كذا (أصحاب حفل الغذاء السابق)" وقال لها أن ينادوني أنا أيضا وهذا مافعلته. تناولت منها الجريدة فإذا هي جريدة الشعب الناطقة بالفرنسية، وكانت فيها مقالة من صفحتين من أصل ثماني صفحات؛ تتحدث عن الموسيقى الموريتانية، وقد كان العنوان الكبير هو(الموسيقى الموريتانية ليست عربية).

وبالصدفة قرأ الموضوع رغم طوله وتكرر فيه اسمي وكان صاحب المقال من الفئة التي كانت تقف ضدي وقد كان فيه ما يكفي من التهجم علي. فمقابل مجموعة كبيرة من الشباب كانت تقف معي وتكتب مع التطوير، كان هنالك مجموعة تريد أن تنقص أي عامل يقرب موريتانيا من عروبتها، والإخوة الذين عاشوا تلك الفترة يذكرون هذه المهاترات التي دامت أشهرا إلى أن حسمها وزير الإعلام آنذاك قائلا: " ألم يبق لدينا شيء نتكلم عنه غير الموسيقى الموريتانية؟" وأذكر من هؤلاء ثلة من الرجال منهم من أصبح في ديار الحق ومنهم من هو معنا الآن أطال الله في أعمار القراء وأعمارهم!

المهم عرفت سبب رفضه أن أقيم حفلة في مركزه، ولا أريد أن أعلق على موضوع عمره نيف وأربعون عاما، فأنا حينها لم أنبس ببنت شفة، لكنني قلت يومها لنفسي المثل الحلبي (عدو جدك ما بيودك) أي لا يودك.

وإلى لقاء قريب إن شاء الله مع حلقة أخرى. دمتم بخير.

××××

-18-

في طريق العودة من يوم عمل تدريسي في تكوين المعلمين إلى البيت في حي BMD (كالعادة سيرا على الأقدام إلا ما ندر) حيث كنت أرى في ذاك المسير متعة كبيرة وخاصة في نواكشوط حيث ألتقي يوميا بالكثيرين وأرى الكثيرين ويرونني وأقصد بهم جمهوري الحبيب. هذا يوقف سيارته ليدعوني أو ليوصلني إلى حيث أنا ذاهب، في كل ذاك متعة، رغم ما قد يحدث من كلمات تصدر من البعض ببراءة، فهذا يخاطبني ب"درسك يا غلانه" بدلا من اسمي، والأكثرية الساحقة تخاطبني بفريد مجردة حتى من الكنية، لا يسبقها صفة ولا يعقبها كنية، وبالعكس كنت أشعر بالقرب أكثر فمن يناديني باسمي المجرد من سابق أو لاحق، يعني عندنا في سوريا، أنه رفع الكلفة وهذا لا يفعله إلا الأب والأم والزوجة والحبيب والصديق المقرب جدا. ومن أغلى من كل هؤلاء؟ فإذا ما اعتبروني واحدا ممن ذكرت فكيف لي أن لا أكون سعيدا ؟

أعود من شرودي إلى ما كنت ذاهبا إليه وهو الإذاعة وهو ما كنت أفعله في الأسبوع أكثر من مرة أو عدة مرات حسب ظروفي وضرورات العمل.

القسم العربي في الإذاعة فقط كانت وجهتي حيث أصدقائي وحيث العمل المتعلق بنوعية عطائي واهتمامي: الحسن ولد مولاي علي، كابر هاشم، المختار لسان الدين، أحمدو ولد مياح، أحمد ولد بياه، مولاي الزين، والعاملون في الاستوديو من مهندسين وخبراء في هندسة الصوت وأعتذر ممن نسيت ذكر أسمائهم لطول الزمن. هذا يريد أغنية لبرنامج الأطفال، وتلك تريد سؤالا عن برنامج فني (لم أذكر أخواتي المذيعات بأسمائهن رغم أن بعضهن كن يزرننا في البيت وكان لهن أطيب العلاقات بزوجتي. كذلك معذرة منهن.) وذاك يريد أن أساعده في الحصول على معلومة في أي مجال ثقافي حيث كانت المراجع نادرة وشحيحة. كنت أسعد بذلك ويسعدون، لم تكن تلك الأمور من مهامي، لكنني أنا وإياهم كنا جميعا نشعر أننا أسرة واحدة. كنت أعتبر نفسي واحدا منهم، وهم أيضا كان كل واحد منهم يعتبر أنه فريد

حسـن. وفي يـوم طلبـت مـن الأسـتاذ حسـن ولـد مـولاي علـي وثيقتـين، واحـدة مـن المـدير العـام وواحـدة منـه بتصـنيف أعمـالي الموسـيقية، حيـث سـبق وكـان عنـدي تصـنيف مـن إذاعـة حلـب وآخـر مـن إذاعـة لنـدن، فكتـب لي الأسـتاذ حسـن ولـد مـولاي علـي تصـنيفا للغنـاء والتلحـين بـل أضـاف إليـه في المجـال الموسـيقي وفي المجـالات الثقافيـة. وفي ذلـك اليـوم، بينمـا كنـت أتنقـل في الممـر بـين الغـرف، إذ بشـخص ينـاديني. التفـت إليـه فـإذا هـو فنـان مـن إحـدى الأسـر الفنيـة ومعـه مجموعـة مـن الفنـانين التقليـديين المتواجـدين في غرفـة شـيخ الأدب الحسـاني المرحـوم محمـدن ولـد سـيدي إبـراهيم. اتجهـت نحـوهم وسـلمت علـيهم، وسـألته مـا إذا كـان لـه غايـة عنـدي أسـتطيع تلبيتهـا لـه. قـال: "لمـاذا غنيـت "درسـك يا غلانـه" الـتي غنيناهـا في أسـرتنا وغنتهـا كـل الطفـلات وأنـت قلـدتنا فيهـا؟" وقالهـا بالحسـانية: (حامرتنـا). قلـت لـه: "وهـل غنيتموهـا هكـذا كمـا غنيتهـا أنا؟" قـال: "إن جميـع الطفـلات يغنينهـا مثلمـا تغنيهـا أنـت وديمـي !" قلـت: "وأنـت تصـر أننـا أنا وديمـي مـن نقلـد مـا غنيتمـوه (نحـامر)؟" قـال: "نعـم" قلـت لـه: "أنا الآن سـأثبت لـك أمـام هـذا الجمـع بأنكـم أنـتم الـذين تقلـدون مـا غنيـت ولـيس أنا وديمي نقلدكم."

سـألته مـا بحـر الأغنيـة: "درسـك يا غلانـه ياللـي تلهينـا"؟ قـال: "حـرث جـراد." قلـت لـه: "وحـرث جـراد ألـيس خمـس حركـات للشـطر الأول وخمسـة للشـطر الثـاني؟" قـال: "نعـم" قلـت لـه: "وهـل يمكـن لحـرث جـراد أن يكـون فيـه زيادة عـن خمسـة؟" قـال: "لا" قلـت لـه: "لكـن أنا عنـدما أقـول: فيـه الطـازانا (يا عيـني) وفيـه التقرينـا وهنـا ثمانيـة للشـطر الأول و خمسـة للشـطر الثـاني وهـل هنـاك في الغنـاء الموريتـاني وزن ثمانيـة خمسـة وهـل يغـنى شـطر بتيـت تام مـع شـطر حـرث جـراد ؟" وتابعـت: "ويجينـاالقراي (يابا) هـون يقرينـا سـبعة للشـطر الأول وخمسـة للشـطر الثـاني أي صـغير وهـل غـنى أحـد في موريتانيـا حـرث جـراد مـع صـغير، مـع ثمانيةخمسـة بتيـت مـع حـرث جـراد؟ ثم هـل غـنى أحـد قبـل الآن في موريتانيـا كلمـة (ياعيـني) في أغنيـة؟ وكـذلك كلمـة (يابا)؟ ومـاذا تعـني يابا، وياعيني؟"

أمطرت عليه أسئلة كثيرة كنت قد جهزتها يوم لحنت الأغنية استعدادا لموقف كهذا كنت أتوقعه عندما قيل لي في الأيام الأولى بعد حضوري أن الفنانين هنا يقلدون الأغنية الجديدة بعد غنائها من قبل المطرب الأصلي بأيام والكل يدعي بأنه هو الصاحب الحقيقي للأغنية. لقد كان صاحبي في موقف لا يحسد عليه، فالحاضرون وعلى رأسهم محمد ولد سيدي إبراهيم خبيرون في الأوزان وهو أيضا خبير بها، وقد حدثته بوقائع من الأوزان فلا يمكن لمطرب أن يغني بحرين في أغنية فكيف إذاصاروا ثلاثة ؟ ثم هو أصلا لم يحسب حساب كلمة "يابا"، ولا كلمة "يا عيني" السوريتين والحلبيتين، حيث إنني أكملت الأوزان بالموسيقى وهي طريقة لم تستخدم في الغناء الموريتاني من قبل ولا من بعد.

سكت الرجل وتغيرت ألوان وجهه ولم يكن لديه ما يقول، فأنقذته من الموقف قائلا: "إن الطفلات فنانات بارعات في الحفظ مما جعلهن يسبقن الأخريات في ذلك ولا مانع لدي من أن يغني الجميع أغانيَّ لكن دون أن يدعوا أنهم من سبقوني لتلحينها أو غنائها وسأحسم الموضوع من الآن فصاعدا لأني سآخذ الموافقة الحصرية على الكلام من المؤلف أو الشاعر فلا يستطيع آخر أن يدعي أنه الملحن أو المغني الأول لها، وأستطيع أن أقاضي في القضاء من يفعل ذلك، لأن حقوق التأليف والتلحين محفوظة، وإن كل تجاوز لها يعني السرقة والتي يعاقب عليها القانون."

وفعلا بعدها لم أصادف أي مشكلة من هذا النوع على الأقل بالنسبة لي أنا، لأن الجميع عرفوا من خلال ذاك المشهد الذي انتقل من خلال تلك المجموعة المهمة والمؤثرة التي كانت شاهدة لما جرى في تلك الواقعة.

وإلى حلقة جديدة عن ذكرياتي في موريتانيا أدعكم في أمان الله وحفظه، دمتم وسعدتم.

××××

-19-

في الحلقة السابقة تحديدا أثار أحد الأصدقاء شجونا كنت أرغب إبقائها نائمة لا لشيء، فقط لأني أكتب لكم مذكراتي أنا، وأخص منها الجانب الفني أو ما يتعلق ويرتبط به. أما الجانب الشخصي من حياتي فقد كتبت فيه سبعمائة صفحة عن ستة عقود، أي إلى حدود الستين سنة من عمري وجعلته كتابا ذا غلاف، واحتفظت به في مكتبتي وطبعت أقراصا صلبة (سيديات) بعدد أولادي أعطيت كلا منهم نسخة يطبعها لنفسه متى شاء. وقد أراد لي الله أن أتابع في كتابة العقد السابع والذي أكملته في 2016/1/31. وإذا أراد الله لي البقاء لسنوات أو عقد آخر فسأتابع في كتابة مسيرتي الإنسانية. طبعا كتابي هذا ليس مُعَدًّا للتداول من غير أسرتي: أولادي وأحفادي، بغض النظر عن أني أعتبر جمهوري وأصدقائي كأولادي وإخوتي لكن مهما يكن فالواقع يقول غير ذلك.

وقد كان يحز في نفسي دائما أنني لم أكتب مذكراتي عن موريتانيا، لأنها كانت بالنسبة لي فترة متميزة في حياتي لأسباب كثيرة جدا، كما أنها حتما مهمة لجمهوري الذي كنت ألتقيه وأعايشه وأعرف مدى حبه لي وهل يمكن أن يكون الرد على الحب بغيره؟

و في الحقيقة قبل أحداث سورية لم يكن لدي الوقت بسبب ظروف حياتية خاصة، حتى إني جمدت الكتابة في كتاب تربوي هو الجزء الثاني من كتابي العاشر بعنوان (التربية بين الدلال والقسوة)، وكان عنوان الجزء الثاني (الدلال والقسوة بين الأسباب والنتائج) وكنت قد وصلت إلى منتصفه وما زال في الكومبيوتر المكتبي الذي وضعته في قرية بعيدة عن الحرب بين الأشقاء، وأدعو الله أن يحميه كي أكمله في يوم ما، وهكذا أقول: في السنتين اللتين سبقتا الأحداث تراكمت ظروف شخصية منعتني من أية كتابة، وخلال الأحداث كان التوقف مفروضا علي وعلى كل الناس، وعندما جئت إلى بروكسل حيث أقيم منذ أواخر حزيران الماضي 2015م، عاودتني فكرة الكتابة في مذكراتي الفنية في موريتانيا، وها أنذا في الفصل

التاسع عشر وأدعو الله أن يكتب لي إتمام كل الفصول التي تبين للقارئ الكريم مسيرتي الفنية الكاملة في موريتانيا الغالية.

أقول:أثار أحد القراء شجونا شخصية كنت أرغب في إبقائها بعيدة عن ساحة ذكرياتي الفنية فقد تساءل كما يتساءل الكثيرون عن سبب مغادرتي موريتانيا رغم ما وصلت إليه من شهرة ومحبة الناس لي. وها هو أحد الإخوة الصحفيين البارحة بُعَيْدَ منتصف الليل في لقاء صحفي لصحيفة أميريكية يسألني نفس السؤال وقد وعدته أن يجد الإجابة عن تساؤله في الحلقة 19 هذه وتتمتها في الحلقة ال20:

ولنبدأ من نقطة الصفر، بعد وصولنا مباشرة من سورية إلى موريتانيا، أنا ومعي زوجتي وأولادي الستة حينها، أبقاهم وأبقاكم الله وكل من تحبون. كان أربعة منهم في المدارس والآخران في البيت، كانت الظروف في موريتانيا وقتها مختلفة عما هي الآن فالمعلمون غالبيتهم العظمى غير مؤهلين ولا يحملون شهادات تناسب عملهم كمعلمين. فالبعض تعلم في الكُتّاب (المرابط) والبعض الآخر حصل على مرحلة تعليمية متواضعة، وطلاب تكوين المعلمين الذين كنا ندرسهم بعضهم جاء من الكُتّاب مباشرة إلى معهد تكوين المعلمين عبر سبر للمعلومات ليكون طالبا في الصف الأول أو الثاني مباشرة ثم ليتخرج ويصبح معلما، وهذا يعتبر قمة الموجود وقتئذ. طبعا هذا توصيف موضوعي لبلد بنى عاصمته منذ عقد ونيف وانتسب للجامعة العربية منذ سنوات قليلة، والمساعدات التي يجب أن تكون سخية من الأشقاء العرب كانت عكس ذلك فمن يملكون الأموال مشغولون بأشياء أخرى في أماكن أخرى لا مجال لذكرها. كان مدرسو معهد التكوين فرنسيين وبلجيكيين ومغاربة وتونسيين ومصريين ثم جئنا نحن السوريين ومعنا إخوتنا العراقيون والسعوديون وهم أقلنا عددا. ولم يكن في كل المعهد سوى مدرس موريتاني واحد إضافة للمدير والإداريين الآخرين، إذ كانت العملية التربوية في طور البناء، وكان الصف الواحد الذي يَدْرُسُ فيه أولادي فيه تسعون تلميذا: معلم غير مؤهل، وسائل تعليمية غير متوفرة، وهذا العدد الكبير لا يمكن لمعلم واحد أن يشاهد دفاترهم بشكل جيد في

ثلاث حصص دراسية. أنا لم يكن عندي الوقت الكافي للتعويض عن النقص الذي حصل للأولاد في مجال التعليم لانشغالي في تأمين حاجيات البيت الكثيرة، إضافة إلى مواقف تُفرض علي في مجال الفن فهذا يأتيني دون موعد في وقت متأخر ليلا ليسلم علي أو يتعرف علي ورغم قلة هذه الأمور لكنها كانت تحصل. المهم أن وقتي المحدود كان موزعا بين التدريس والفن والتزامات الفنان الاجتماعية ولوازم البيت الكثيرة جدا خاصة وأننا انتقلنا من بيئة بعيدة مختلفة عن بيئة موريتانيا من حيث الطعام والشراب ولوازم ذلك فكل شيء في موريتانيا مختلف عما هو في سوريا بدءا من الخضروات بعشرات الأنواع في سوريا لم يكن منها في موريتانيا إلا البصل اليابس والبندورة والبطاطا والملفوف والموز والمانكا والتفاح والبرتقال. وقد طلبنا من بائعات الخضر أن يزرعن لنا البقدونس لأول مرة وكذلك الفجل والسلق والسبانغ والفليفلة غير الحارة وغيرها الكثير وبدأنا نتدرج في إرشادهم وأعجبوا بما زرعوا لأن كل العرب والفرنسيين صاروا يشترون منهم وصارت العملية تدر عليهم أرباحا جيدة، وعلى ذكر السلق: كان أحد أصدقائي السوريين في السفارة السورية يزرع أنواعا من الخضر وكان يعرف أن أولادي ستة ما شاء الله وكل شيء غير متوفر بل وغالٍ إذا توفر وخاصة في المحلات الحديثة (إبيسيري) فكيلو العنب بثلاثمائة أوقية، وكذلك البطيخة الواحدة بقريب من ذلك المبلغ. المهم صديقي في السفارة وكان القنصل السوري وكنت أعرفه قبل مجيئنا نحن الاثنين إلى موريتانيا أقول وعدني بأكلة سلق ولا أعرف إن كان الآنصار منتشرا في موريتانيا أم لا يزال. وفي أحد الأيام مررت على السفارة صدفة، فسلم علي وقال: "أعجبتك السلقات (بالعامية لأن السلق لا يجمع)؟" قلت له: "أي سلقات؟" قال: "التي أحضرتها لك إلى البيت اليوم قبل ساعة!" قلت له: "لقد كنت في البيت حتى قبل ربع ساعة عندما خرجت قادما إليكم." قلت له: "أتمازحني أم أنت جاد في قولك؟" (لقد كان أكبر مني سنا ولا أعرف أنه يحب المزاح) لكن الموقف جعلني أقول له ذلك فقال: "لقد جمعت لك كمية كبيرة حيث لم أقطفه منذ أسابيع كي تجتمع كمية كبيرة تكفي لأسرتك الكبيرة ووضعتها

في جريدة وجئت إلى بيتك وسألت الخادمة: هل سيدك صاحب البيت موجود؟ فقالت الخادمة إنك غير موجود فأعطيتها الجريدة وفيها كمية كبيرة من السلق فشكرتني وانصرفت." قلت له: "أولا أنا ليس عندي خادمة وليس في البيت غير أولادي وزوجتي وهي تعرفك ثم أنا كنت في البيت." قلت له: "ماهو رقم بيتي؟" فقال: "43 " عندها عرفت أنه أعطى الجريدة والسلق لجيراني المجاورين لبيتي. أسرعت إلى البيت لأتلافى ما يمكن حصوله. كان جيراننا أصحاب الرقم 43 من البيضان، أما الرقم 41 فكان مدرسا تونسيا، أما بيتنا الواقع بينهما فكان رقم 42 في BMD. وصلت إلى البيت فسألت زوجتي: "هل أعطاك أحد سلقا ؟" قالت: "لاسلقا ولا سبانغ ولا فجلا." لقد ظننت أن الجيران أحضروه بعدما عرفوا أنه ليس لهم. عندما عرفت أنه لم يصل أسرعت إلى بيت الجيران. قرعت الباب فخرجت الخادمة وكانت لا تتكلم العربية فقلت لها: "نادي سيدتك." فنادتها. سلمت عليها وسألتها عن السلق فقالت: "وما هو السلق؟" قلت لها: "ألم يُحْضِر شخص جريدة وفيها طعام أخضر اللون؟" دخلت إلى الدار وأحضرت الجريدة فارغة. قلت لها: "لا أريد الجريدة بل أريد ما كان فيها." قالت: "تقصد "ربيع الماعز"؟" بالحسانية أي الحشيش أو العشب بالعربية الفصحى. قلت لها: "بل هو ربيعنا نحن." قالت: "لقد ظننت أن أحدا يعرف أن عندنا الماعز فأراد أن يقدم لنا معروفا فأعطاه للخادمة." قلت لها: "عفوا لقد انتظرنا طويلا وانتظر القنصل حتى جمع لنا هذه الكمية من ربيع الماعز هذا، أيمكن أن تعطينيه؟" قالت: "لا أعرف ماذا أقول لك: لقد صار في بطن العنزة." قلت: "كيف؟" قالت: "لم أر أحدا يأكل الربيع !" خجلت المرأة كثيرا وقالت: "سامحنا وسأعطيك كل حليب العنزة لهذا اليوم." قلت لها: "وماذا أفعل بالحليب؟" هذا مثال على أن الأطعمة التي كنا تعودنا عليها في سورية لم تكن موجودة وكنا نضطر لزراعة بعضها في البيت، والطلب إلى بائعات الخضر في السوق لزراعتها. أما الأنواع الأخرى كالبرغل والجبن والقهوة وغيرها الكثير فقد صنعتها بنفسي لأننا لا نستطيع التخلي عن استخدامها فمن

أجـل البرغـل أضـعت عشـرين يومـا في البحـث عـن القمـح وعـن وعـاء نسـلق فيـه القمـح ثم البحــث عــن مطحنــة يوافــق صــاحبها أن يــتعلم مــني كيــف ســيطحن البرغــل بــدلا مــن الدقيق، هذا وكثير غيره كان يجعلني أقصر في متابعة دراسة الأولاد.

فقــد تراجــع تعلــيم الأولاد كثــيرا فالــذي كــان الأول علــى صــفه في ســورية صــار ترتيبــه الثالــث عشــر عنــدما عــدنا إليهــا وقــد نجــح إلى الصــف الرابــع، واثنــان اضــطررت إلى ترجيعهمـــا ســـنة دراســـية حيـــث درســـا الصـــف الأول في موريتانيـــا ونجحـــا إلى الثـــاني وعنــدما عــدنا إلى ســورية أعــدتهما إلى الأول مــن جديــد، والــذي نجــح إلى الصــف الثالــث رغبــت أن أعيــده إلى الصــف الثــاني لكنــه رفــض ووجــدت أنــه سيصــاب بعاهــة نفســية إذا فرضــت عليــه لأنــه كــان متألمــا جــدا مــن ذكــر الموضــوع لــه، ولأني ســايرته في الأمــر بقــي ضــعيفا في دراســته ففشــل بعــد المرحلــة الإعداديــة ودخــل معهــدا مهنيــا وكــان ضــعيفا فيــه لم يكملــه أيضــا وهكــذا دفعــت ثمنــا غاليــا في تعلــيم الأولاد ممــا شــكل ســببا رئيســا لي في العــودة. وفي الحلقــة القادمــة ســأتابع إن شــاء الله في ســرد أســباب عــودتي الأولى ثم أنتقــل إلى ســرد أســباب عــودتي الثانيــة، لكــن أقــول لم أعــد إلى ســوريا إلا لظــروفي الخاصــة وكانــت قاســية جــدا لأني ذهبــت وقلــبي معلــق بموريتانيــا لكنهــا مشــيئة الله ولا رادَّ لمشيئته.

وإلى لقاء في الفصل القادم إن شاء الله، دمتم بخير.

××××

-20-

متابعة في الحلقة 19 والتي كنت أتحدث فيها عن أسباب مغادرتي الأولى لموريتانيا:

لقد انتقد البعض وضوحي وصراحتي وذلك في وضع التعليم في موريتانيا في السبعينيات، لقد كان التعليم في حالة غير مقبولة في المقياس الحضاري للتعليم وهو ما زال في حالة غير جيدة في كثير من البلدان العربية ومنها سورية بلدي الأول والسبب الأساسي هو التزايد السكاني الذي لا يوازيه توسع في التعليم، أن نمدح أنفسنا ونحن بعيدين عن الحقيقة أمر ضار.

إن الصف النموذجي الذي يعطي مردودا تعليميا، يجب أن لا يتجاوز عدد طلابه العشرين وفي أقصى حد خمسة وعشرين، لأن الحصة الدراسية خمس وأربعون دقيقة، ويجب أن يكون هناك إشراك للتلاميذ ومشاهدة للواجبات وإعطاء للجديد من المعلومات وتأكد من استيعاب التلاميذ بالوسائل التربوية المتعددة وحسب المادة، طرح السؤال وانتظار رد التلميذ وتصحيح الإجابات الخاطئة من تلاميذ آخرين وتثبيت الصحيح على السبورة ثم على الدفاتر وعرض الوسائل المعينة وإشراك التلاميذ فيها وغير ذلك من طرق تربوية حديثة، كم يأخذ من الوقت عندما يكون الصف صغيرا يستطيع المعلم أن يشرك أكبر عدد من التلاميذ في كل درس أما عندما يكون الصف كبيرا فهو أصلا سيضيع عند من سبق وسئل أو أنه لم يسأل، ومشاهدة الوظيفة لا يكفيها حصة دراسية وسيضيع الدرس وتعم الفوضى قبل أن ينتهي المعلم من مشاهدة الوظيفة، بل قد يمضي وقت طويل والمعلم لم يحفظ أسماء تلاميذه وهي قضية هامة تربويا: معذرة من الذين يطرحون أفكارا ومع تقديري واحترامي لآرائهم، إن من يرغب في التقدم والحضارة يجب أن يكون الأجود دائما نصب عينيه، إن التعليم الآن في الإمارات العربية على سبيل المثال لا الحصر أفضل بكثير من سورية بلدي الغالي وأعتقد أن لا أحد يشك في غلاوته علي، لماذا؟ لأن كل مقومات العملية التربوية متوفر فيها: عدد الطلاب النموذجي في الصف الواحد، توفر الوسائل السمعية والبصرية والمحسوسة لكل المواد، توفر البناء

النمـــوذجي، تـــوفر المعلـــم المؤهـــل، والشـــبعان (وأقصـــد بالشـــبعان الـــذي يكفيـــه راتبـــه لحيـــاة كريمـــة)، ســـأتحدث عـــن بلـــدي الأول ســـورية حـــتى لا يتضـــايق إخـــوتي المتعصـــبون لموريتانيـــا، لقـــد تراجـــع التعلـــيم كثـــيرا في ســـورية بســـبب كثـــرة عـــدد التلاميـــذ فهـــم يصـــلون إلى الخمســـين في الصـــف الواحـــد، وتـــداوم المدرســـة في فـــوجين صـــباحي وآخـــر بعـــد الظهـــر، الوســـائل المعينـــة لا بأس بهـــا، لكـــن راتـــب المعلـــم لا يكفيـــه؛ لـــذلك يقـــوم المعلـــم بالعمـــل لـــيلا أونهـــارا بعـــد دوامـــه أو قبلـــه حســـب الفـــوج الـــذي هـــو فيـــه حـــتى يـؤمن لقمـــة العـــيش لأولاده، طبعـــا أتحـــدث عـــن الواقـــع قبـــل الأحـــداث، لقـــد كـــان راتـــبي أنا عـــام تخرجـــي 1963م بالليـــرات الســـورية (240) لـــيرة وكـــان يســـاوي مـــن الـــذهب مائـــة غـــرام، أمـــا المعلـــم قبـــل الأحـــداث فراتبـــه 15000 لـــيرة وكانـــت تســـاوي قبـــل الأحـــداث خمســـة عشـــر غرامـــا أي بقيمـــة تســـاوي واحـــدا علـــى ســـبعة ممـــا كـــان عليـــه راتـــبي عنـــد التخـــرج، ولـــن أتحـــدث عـــن راتبـــه الآن وســـعر غـــرام الـــذهب فراتبـــه يشـــتري لـــه الآن غرامـــا ونصـــفا فقـــط، كيـــف ســـيتزوج هـــذا الإنســـان، كيـــف سيشـــتري بيتـــا، و كيـــف ســـيدفع إيجـــارا للبيـــت، كيـــف ســـينجب ويطعـــم أســـرته ؟ إخـــوتي لنصـــحُ مـــن نومنـــا ونُفِـــقْ مـــن أحلامنـــا الورديـــة؛ إن حـــب الـــوطن مـــن الإيمـــان ولـــيس حـــب الـــوطن الاعتـــزاز بأشـــياء ليســـت موجـــودة. إننـــا عنـــدما نشـــخص المـــرض بصـــدق ونصـــرح بـــه للمـــريض ثم نداويـــه بمـــا يتطلـــب مـــن عـــلاج نكـــون فعـــلا محبـــين للمـــريض لكـــن عنـــدما نقـــول إن مريضـــنا بحالـــة جيـــدة وهـــو أصـــلا لا يحتـــاج العـــلاج وكأننـــا نقـــول لمريضـــنا عليـــك رحمـــة الله. إنـــني في التعلـــيم منـــذ نصـــف قـــرن ونيـــف وقـــد كنـــت مدرســـا للتربيـــة وعلـــم الـــنفس أكثـــر مـــن ثلاثـــين ســـنة والبـــاقي قضـــيته في التـــأليف للكتـــب التربويـــة والنفســـية والنـــدوات والمحاضـــرات، ثم يأتي شـــخص لا علاقـــة لـــه بالتربيـــة ليتحـــدث في الموضـــوع: عنـــدما يكـــون في الصـــف عشـــرون تلميـــذا، جالســـين علـــى عشـــرة مقاعـــد، في صـــف إنارتـــه ســـليمة وتهويتـــه جيـــدة، وســـبورته ســـليمة، ووســـائل الإيضـــاح متـــوفرة وكافيـــة، والمعلـــم معـــد إعـــدادا كافيـــا وصـــحيحا بـــل يخضـــع لـــدورات مســـتمرة لمواكبـــة تطـــورات علـــوم العصـــر وتقنياتـــه، وراتـــب المعلـــم وظـــروف حياتـــه وعملـــه كلهـــا مناســـبة، والمنـــاهج عصـــرية تواكـــب تغـــيرات العصـــر، والكتـــب المدرســـية تلائـــم ذلـــك

أيضا، والتلميذ غذاؤه كاف، وحاجياته المدرسية مؤمنة، وإدارة المدرسة معدة ومؤهلة إعدادا تستطيع معه متابعة العملية التربوية، والتلميذ لا يتسرب ليساعد أهله في الزراعة أو الصناعة أو مساعدة أمه أوأبيه في عمل من الأعمال قبل الدوام أو خلاله أو بعده، كما يكون الأب والأم متفرغين لمتابعة أبنائهما، فأنا اعترفت لكم بتقصيري أنا المربي والمتمكن من ثقافتي التربوية، التشخيص نصف العلاج.

إخوتي المثقفون الموضوعية ثم الموضوعية في تشخيص كل مشاكلنا إذا أردتم لبلدكم التقدم والازدهار، أن ندافع عن قيمنا، عن ديننا، عن أخلاقنا، وأن لا نرضى تغييرا فيها ولا بديلا عنها أمر رائع بل ضروري كضرورة الماء والهواء، لكن أن نهرب من واقعنا تفاخرا فليس ذلك من الوطنية في شيء.

أروي لكم قصة واقعية حصلت مع أحدالفنانين السوريين: حيث ذهب إلى إيطاليا لدراسة الموسيقى في الكونسرفتوار، التقى به المسؤولون هناك وسألوه ما إذا عملت في مجال الموسيقى في بلدك ؟ قال: كنت رئيسا لفرقة موسيقية، وأستاذا في المعهد الموسيقي، ولي ألحان في الإذاعة، وأعطي دروسا للموسيقى في البيت، وقد نوطت (أي كتبت) عدة كتب في الموسيقى الشعبية.

أتعرفون ماذا قال له مدير الكونسرفتوار: نرحب بك أستاذا في منشآتنا التعليمية لأنه لا يوجد أستاذ عندنا بهذه الإمكانيات، وعاد أدراجه إلى سورية دون أن يقبلوه طالبا.

إن المعلم الناجح والعملية التربوية الناجحة هي التي تحقق عقب كل عملية تربوية درسا كانت أم امتحانا 70 بالمائة من التلاميذ يجب أن يكونوا قد استوعبوا سبعين بالمائة من المعلومات التي أعطيت لهم: كيف سيتمكن المعلم من التأكد في كل درس من أن سبعين بالمائة من تلاميذه قد استوعبوا سبعين بالمائة من المعلومات التي قدمها لهم بطرق تربوية حديثة في صف عدد تلاميذه تسعون أو حتى سبعون أو خمسون؟!

لقد كانت موريتانيا في مرحلة البناء من الصفر، والإمكانات محدودة ولا يجوز لي أن أتحدث أكثر لأنني في وصف موضوعي لما كان واقعا. رأيت أن البعض نظر إلي وكأني أنتقص من إمكانات موريتانيا، إن والدا أو والدة عاديين يستطيعان أن يحكما على أن مستوى أولادهما يتحسن أو يتراجع عقب انتقال أولادهما من بلد لآخر أو مدرسة لأخرى، أما عن حبي لموريتانيا فلا أظن أن أحدا يشكك فيه، أما إذا كان توصيفي للواقع قد أزعج البعض فأنا أعتذر منهم وأقول لقد أخطأت ومنهم السماح.

لقد تعددت الظروف التي جعلتني اضطر للمغادرة ولم يكن فيها ظرف خارجي كما يعتقد البعض فالكل كان يحبني وأنا أحبه، وقد كان لأوضاع الأولاد الصحية أيضا دور في ذلك فقد أصيبوا جميعا بالحصبة الإفريقية التي لم تغادر بيتنا أكثر من شهر ونيف حيث بقيت مستوطنة فيه، فواحد يمرض والآخر يتبعه بعد أيام وهكذا مر الستة بهذا المرض والدواء لم يكن متوفرا حتى إن الدكتور سيداتي وكان مديرا للصحة في نواكشوط كان يشرف على علاجهم في دارنا أدامه الله ووفقه وحماه، وفي نفس الوقت كان موضوع الغلاء مؤثرا، حيث كان راتبي في موريتانيا لوحدها وكان راتب سوريا متوقفا لأننا نحن في الإعارة الأولى هكذا عوملنا: لا يوجد أي راتب من سوريا حيث يتوقف وعند العودة ندفع الفروق التقاعدية ورسوم النقابة تقسيطا، أما راتب موريتانيا فكان 35 ألف أوقية، علما أنني بعد أن غادرت جعلت سورية كل معاريها من المدرسين يقبضون راتبا من سوريا هو الراتب الذي كان المدرس يقبضه ومحسوما منه التقاعد والنقابة يعطى لأهله في سورية أو يودع له في المصرف وراتب آخر يساوي أربعة أضعاف راتبه وبالدولار وبالسعر الثابت للدولار + راتب بسيط في موريتانيا يقدر بستة آلاف أوقية كمساعدة من موريتانيا ومجموع هذا الراتب يساوي راتب سفير، لكن بعد ماذا؟ بعد أن كنت قد أنهيت إعارتي ولم يعد بإمكاني التراجع عن الإنهاء، هذا كله إضافة إلى وضع أسرتي في حلب حيث كنت أنا الولد البكر وبعدي سبع بنات متتاليات ثم بعد أن أصبح عمري ثماني عشرة سنة رزق والدي

بذكر، وبعده بأربع سنوات ولد ذكر آخر وعند مجيئي إلى موريتانيا كان الكبير منهما لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره وقد مرض والدي رحمه الله حينها بسرطان البروستات وصار بحاجة لعناية ورعاية،إ ضافة إلى من يدير شؤون الأسرة وكان هذا ما قمت به واجبا علي قبل كل واجب آخر، لقد كانت تربطني بوالدي علاقة قل أن توجد بين أب وابنه كان لي أبا وأخا وصديقا، متميزا في كل واحدة منها عن الآباء والإخوة والأصدقاء.

تراكمت كل هذه الأسباب لتشكل واقعا يفرض نفسه علي بأن أتخلى عن حب آخر هو حب موريتانيا وحب الفن، وبقيت حسرة في نفسي ترافقني أينما حللت مما جعلني أعاود الكرة بعد عام ونصف وهذا سيكون له حلقة أو أكثر.

وإلى لقاء في قفصل قادم بإذن الله أستودعكم الله، ودمتم بخير.

××××

رحلة أطار الثانية: بعد تلك الذكريات الرائعة لذلك البلد الجميل والشعب الأصيل الطيب وما رأيته من جمال للطبيعة وتنوع لها فإلى جانب الرمال تجد الجبال الشاهقة المسننة، وفي وسط الصحراء تجد جنة غناء تحيط بها الجبال من كل حدب وصوب، وترى الماء يتدفق من وسط الصخور، يسيل بين أنواع عديدة من الأشجار، كل هذا كان مع مجموعة صغيرة كانت ترافقني في رحلتنا الأولى شتاء، فكيف والحال صيف والناس تتوافد إليها من العاصمة ونواديبو والشرق وزويرات، كل يأتي من مكان عمله وسكناه المؤقتة أو الدائمة إلى هذا المصيف الجميل وغيره من الوديان الكثيرة المنتشرة في كافة الاتجاهات من مدينة أطار مصطحبا معه أصدقاءه وأحبابه، وهذا ما حدثني عنه أصدقائي الذين رافقوني في الرحلة الأولى: أحمد العبيد الذي استمرت لقاءاتنا بل بدأت صداقتي به وبأسرته وأبناء عمومته بل وجيرانه وأصدقائه، فهذا هو العربي ولد الجيد والذي كان من الناشطين في فرع شباب أطار أيضا وإخوته بل أسرته كلها تصبح من أهلي وأصدقائي وخاصة عندما عرفت أن والدته من آل البني في دمشق، والعربي ولد الزركان رحمه الله، وولده المصطفى الذي كان من خيرة أصدقائي أيضا، ومحمد ولد المالحة رحمه الله، وأحمد ولد المقيا، والكثيرون من البوهيت، والمرحوم اعلي الشيخ وبعض أفراد أسرته الكريمة، وأصدقاء من آل لاكحل، وآل الاحول، وقد تخونني ذاكرتي بعدم استحضار الكثيرين الذي أذكر جيدا الأحداث والأماكن واللقاءات التي جمعتني بهم، فكل شباب فرع أطار أصدقائي لكن يمكن أن أكون قد سهوت عن اللقب أوا لاسم ولا أريد أن يكون لفظي للاسم خاطئا، ولا أنسى صديقي الفنان الجيش ولد آب الذي يمكن أن يكون وسيداتي ولد آب وسيمالي ولد همد فال من الملحنين المبدعين الهامين في موريتانيا، ولقد كنت معجبا جدا بموسيقاه التي كانت ترقص عليها فرقة أطار والتي كانت خطوة صحيحة في طريق تطوير الفن الموريتاني، حيث لم تكن تقتصر على ايغاون بل كان يشارك فيها تيزكا والجميع من غير ايغاون ولا أعرف ماذا حل بها من بعد ؟

نعم إنها موسيقى الجاكوار الرائعة التي أبدعها الجيش ولد آب كإيقاع جديد رائع ترافقه موسيقى أيضا لم تطرق من قبل ومنسجمة مع هذا الإيقاع بما يحرك المشاعر ويجبر السامع إلى دخول حلبة الرقص للمشاركة أو التصفيق والهيجان مع تلك الموسيقى الإبداعية الرائعة، نعم إنها أطار العروبة والأصالة والتاريخ والنضال!

طبعا هذا لا يعني أني سأغبن باقي المناطق حقها من الوصف والمدح فالكل سيأتي دوره في حينه، لكن أول لقاء لي خارج نواكشوط بجمهوري كان في أطار، ثم تتالت لقاءاتي بجميع المدن الموريتانية كما سأبين لاحقا إن شاء الله في فصولي القادمة وفي كل واحدة من المدن ذكرياتها المتميزة والتي لا تنسى.

مع انتهاء العام الدراسي 1977، 1978م وبعد أن كنت قد اتفقت مع أصدقائي في أطار أن أكون عندهم في بداية موسم الكيطنة (موسم استواء البلح)، حيث يهرب الموريتانيون من الحر الشديد إلى الواحات وارفة الظلال وحيث يطلب الجميع الراحة والجو اللطيف والتمتع بالجو الاجتماعي المشبع بالفرح والسعادة بين تناول أنواع متنوعة من أشهى أنواع البلح في العالم، واللحوم الألذ طعما من غنم وغزلان وعجل وجدايا وجمال، وشرب للبن النوق والبقر والغنم، وممارسة كل أشكال التسلية: كل حسب ما يهوى ويحب مع أصحابه من ضامت أو شطرنج، أو دومينو أو ورق اللعب، وكل ذلك لابد أن يرافقه مسجلة تذيع لهم صوت فنانهم المفضل أو فنانتهم المفضلة كل هذا حول موائد أتاي (الشاي الأخضر المنعنع)، وسماع أخبار الواحدة ظهرا، وخبيط الشارة بعيد العصر (الرمي بالبندقية على أهداف كقارورة الزجاج الفارغة بعد شرب الحليب منها أو هدف آخر كصفيحة فارغة) وكذلك البنات يقضين أوقاتهن بين التفنن في جدل الشعر أو رسم وزخرفة الأيدي والأرجل قبل صبغها بالحناء، وسماع الأغاني من المسجلة كذلك حول موائد أتاي طبعا، ودق الطبول والرقص والغناء، أصوات الضحكات للعازبات الفرحات تنتشر أصداؤها في جنبات هذه الواحات التي تحجب عنك أشعة الشمس الحارقة فتبقي منها نورها الذي يدغدغ أشجار النخيل وأغصانها التي تعانق السماء أحيانا لشدة طولها؛ إنه

موسم الطرب والفرح وجني محصول البلح الذي يجمع منه قسم للأكل في فترة الكيطنة وقسم لتناوله باقي أيام السنة).

وهناك من يأتي على موعد طال انتظاره من قبل البنت، أو بعض أهلها في موريتانيا وهي عادة التبليح للبنات وأظن أنها اندثرت بسبب انتشار وسائل الإعلام والتي فرضت على البنات في كل أنحاء العالم شكل البنت المعاصرة وهو البنت النحيلة إلى درجة كبيرة، بينما كان شكل كهذا منبوذا وقبيحا في كل الأقطار العربية وخاصة موريتانيا، ففي سورية مثلا كان يقال للرجل أو المرأة السمينة أن له صحة أي أنه سمين وذلك كهوية أو بطاقة تؤكد خلوه من الأمراض وخاصة مرض السل الذي كان منتشرا بين الفقراء بشكل خاص والمسلول إنسان نحيف جدا لذلك كان على الكل أن يثبتوا أنهم أصحاء عن طريق السمنة، التي هي مرض يعالجه أكثر الناس في أيامنا هذه بأنظمة قاسية للتغذية وبأنواع غالية ومكلفة من الأدوية.

وكانت عادة التبليح في أواخر أيامها في موريتانيا حيث ترسل البنت في موسم الكيطنة مع مجموعة مرافقة من النساء قريباتها ومع خادمة أو أكثر ومع عدد من الأغنام والماعز أو البقر أو الجمال حسب إمكانات أهلها المادية، بعضها من أجل الحليب وبعضها الآخر من أجل ذبحه وأكله والبعض الآخر لحمل المتاع، حيث تذهب البنت ووزنها ثلاثون أو أربعون أو خمسون كيلو غراما فتعود وهي في السبعين أو الثمانين من الكيلو غرامات، حيث تقضي فترة الكيطنة كلها في شرب للحليب واللبن والشاي الأخضر وأكل البلح ثم شرب ماء اللحم، واللحم الذي يحرق البلح فيعود الإنسان بعد قليل من الوقت وكأنه لم يتناول شيئا وهكذا دواليك وهكذا تكون البنت المبلحة قد امتلكت وثيقتين أولاهما الصحة والسلامة من الأمراض وبالأخص السل الذي كان شديد الانتشار بل كان يسمى داء السل لعدم توفر الدواء له حينها وكان علاجه الوحيد آنئذ هو الصحة والغذاء لعدم العدوى من الآخرين، والوثيقة الثانية أن أهلها من الميسورين ماديا لأن أسرة فقيرة لا تستطيع

فعل ذلك أي إرسال ابنتها مع عدد من رفيقاتها وقريباتها وخدمها، و ذبح شاة أو معزة أو ناقة أو كعود أحيانا، كل عدة أيام، إلا إذا كانت أحوالهم المادية جيدة !

هذا بعض ما كان سائدا حينها كعادات وإمكانات أضيف إليها فيما بعد حتما الكثير من التقنيات كالهاتف المحمول، والحاسوب العادي أو المحمول.

ولا أعرف إن كانت بعض العادات قد تغيرت إلى الأحسن أو الأسوإ، فالأحسن والأسوأ أمران نسبيان يختلفان من إنسان لآخر ومن زمان لآخر ومن مكان لآخر. نعم حاولت أن أذهب لأعيش هذه الأجواء الشبابية الجميلة ولأحتفظ بذكريات جميلة عنها، فكان أن هيأت متاعي من لباس وأدوات وأجهزة تكبير، وحبيبي العود بالطبع قبل كل شيء، وودعت أسرتي في نواكشوط متجها إلى أطار قاصدا بيت صديقي أحمد العبيد حيث سأحل ضيفا عليه ونقيم حفلة أو أكثر في أطار وتكون حفلاتنا الأهم والأكثر في الوديان والواحات حيث يكون معظم الناس قد اتجهوا نحوها.

وإلى الحلقة القادمة التي سأوضح فيها تفاصيل الرحلة الفنية الثانية إلى أطار والوديان وإلى ذلك الوقت أستودعكم الله وأتمنى لكم أطيب الأوقات وأسعدها.

××××

كما وعدتكم في الحلقة السابقة أنني كنت متجها إلى أطار ووديانها وواحات النخيل الرائعة الجمال فيها وموسم الكيطنة: حيث الفرح والمرح، والشباب، وما لذ وطاب من الطعام، والبعد عن صخب المدن والحضارة.

تأبطت عودي وحملت حقيبتي متوجها إلى الاكصر حيث كراج أطار للسيارات في صباح صاحٍ خال من الغبار، ركبنا سيارة البيجو(ال 504) والتي تحمل ثمانية ركاب، فانطلقت السيارة بنا في الطريق المعبد والمزفت حتى قبيل اكجوجت، وتوقف السائق في اكجوجت ليرتاح الركاب وترتاح السيارة من ذلك الحر الشديد فنحن في منتصف الصيف وأين؟ في جوار الصحراء الكبرى، تنتهي الاستراحة ونواصل المسير، بدأنا نشهد رمالا متحركة تجمعت على شكل تلال يسميها الموريتانيون بالزيرات، تعدت على الطريق في بعض الأماكن فغطت جزءا منه أو عن الطريق الممهد الذي اعتادت السيارات السير عليه لأن الرياح قد جمعت عليه في زمن قريب ماض، هذه التلال الرملية التي تأتي جرافات الدولة لتبعدها عن الطريق وتعيدها كما كانت، ولا بد للسائق أن يكون في غاية الحذر والمهارة وسرعة البديهة وإلا...

وهذا ماحصل بالضبط فبينما نحن منطلقون نهرب من الحر الشديد راكضين خلف سرابات كأنها البحر القريب تارة أو أنها ماء سكب على الطريق يخفف حر الأرض الملتهبة (لكنه السراب في الواقع).

اقتربنا من سيارة شحن مارسيدس كبيرة وتناقصت المسافة الفاصلة بيننا وصار بإمكاني رؤية ما عليها، من بضائع مما ينقله صغار التجار من العاصمة إلى حوانيتهم في أطار، وفوق تلك البضائع جلس العديد من الركاب الذين يستفيدون من رخص الأجرة وحرية الجلوس والهواء الذي يجفف عرقهم فيعطيهم برودة نفتقدها نحن الراكبون في سيارتنا التي كانت تتبع سيارتهم ولا نتجرأ على فتح النوافذ بسبب الغبار الشديد الذي كانت تطلقه سيارتهم، صحيح أن أكثر السيارات كانت فيها

مكيفـات لكنهـا لم تكـن لتصـلح مـا يفسـده الحـر الشـديد والجـو المقفـل في سـيارة تحمـل تسعة ركاب؟

كنـت في الصـف الأمـامي مـن السـيارة ممـا مكنـني مـن رؤيـة مـا حـدث بدقـة: فبينمـا كانـت تلـك السـيارة الشـاحنة الـتي كانـت تسـابق الـريح أمامنـا إذ بزيـرة (تلـة رمـال متحركـة) تشـغل ثلثـي الطريـق، لقـد توقـع السـائق أنـه يسـتطيع وبتخفيـف السـرعة قلـيلا أن يمـر بعجـلات سـيارته اليسـارية فـوق الرمـال وتبقـى العجـلات اليمـنى علـى الطريـق المعبـد غـير المزفـت، إلا أن الـرياح سـارت بمـا لا تشـتهيه سـفينته، فقـد سـبب ميـول السـيارة الزائـد عـن الحـد وبسـرعة كانـت أكثـر ممـا قـدر، ممـا أدى إلى انقـلاب السـيارة قلبـة واحـدة ليصـبح أعلاهـا سـافلها وسـافلها أعلاهـا، لقـد شـاهدت كـل شـيء بدقـة، تطـاير النـاس مـن فـوق البضـائع وتبعتهـا البضـائع الموجـودة في الأعلـى وبقـي الكثـير منهـا تحـت السـيارة المنقلبـة، توقفـت سـيارتنا ونزلنـا بسـرعة عسـانا نقـوم بأي مسـاعدة لمـن يحتاجنا !

لقـد لطـف الله بهـم حيـث كـان مكـان تطـاير النـاس هـو رمـال لـرياح سـابقة في هـذا المنعطـف الـذي تتجمـع فيـه كثـير مـن هـذه الرمـال وإلا لـو كـان مكـان تنـاثر النـاس صـخرا أو حـتى أرضـا عاديـة لكانـت الخسـائر كبـيرة، نعـم لقـد نهـض الجميـع يتفقـدون أنفسهم ومن يرافقهم وما ظهر لي بسرعة أن الجميع بخير والحمد لله !

السـيارة منقلبـة وعجلاتهـا مـا زالـت تـدور، الكبـين (القمـرة الـتي يجلـس فيهـا السـائق وإلى جانبـه صـاحب السـيارة) أصـبح مرتفعـا عـن الأرض أكثـر مـن مـتر ونصـف المـتر ممـا اضـطر كـلا مـن السـائق وصـاحب السـيارة أن يتـدلى كـل مـن البـاب المجـاور لـه والقفـز علـى الأرض والإسـراع أولا لتفقـد أحـوال الركـاب الـذين كـان عـددهم يزيـد عـن العشـرة بقليـل، سـأل صـاحب السـيارة النـاس هـل الجميـع بخـير ؟ هـل أصـاب أحـدكم ضـرر؟ وبعـد أن وجـد الجميـع بخـير، اتجـه إلى السـائق قـائلا (ايـوه عـدلوننا بـراد أتاي، واسـتطرد قائلا براد ما يكفى عدلونا برادين).

إنها قمة رباطة الجأش وقمة الصبر والرجولة؛ صبر يجب أن يدرس في الجامعات، لقد كتبت تفاصيل الحادثة في كتابين من كتبي وذكرتها عشرات المرات في سورية في كثير من المناسبات، نعم إنها واحدة من العديد من القيم الموريتانية التي جعلتني أحب هذا الشعب الطيب.

سيارة منقلبة، بضائع متناثرة، شمس محرقة، في أراض صحراوية لا شجر فيها ولا ماء ولا سكن، أقرب نقطة إليها تبعد عشرات الكيلومترات، طريقة إعادة السيارة إلى وضعها الطبيعي لا أعرفها ! وأظن أنه لا بد من رافعة، وهذه غير موجودة إلا في العاصمة على بعد مائتي كيلومتر تقريبا. أليست قمة الصبر ورباطة الجأش والرجولة، يريد أن يشرب الشاي ويسقي الجميع لأن برادا لا يكفي في طلب برادين، لم أر في وجهه ولا في حركاته أو كلامه أمرا واحدا يدل على الانهزام أو الخوف أو اليأس أو الضيق أو الحزن أو الغم.إنها النفس الواثقة الراسخة التي لا تأبه بكل الصعاب، معذرة عن الإطالة في وصف الحادثة فقد تعمدت ذلك ليكون صاحب هذه السيارة قدوتنا في الصبر أمام الصعاب لأنه وسيلة تقدم للإنسان كل مبتغاه وأمانيه.

وأعود إلى متابعة موضوع حلقتنا فقد تابعنا المسير نحو أطار ووصلناها قبيل العصر بقليل، كان صديقي أحمد العبيد بانتظاري، وقد قام بتعليق بعض الإعلانات عن الحفلة، واستأجرت سيارة لتقوم بالدعاية عن طريق مكبر للصوت تبث من خلاله أغاني وشاب يذكر بالحفلة ومكان وزمان إقامتها والفنان الذي سيقيمها، بينما ذهبت أنا للاستراحة والاستحمام من الغبار الشديد وتناول طعام الغذاء عند بيت صديقي أحمد العبيد أطال الله في عمره.

وتوجهت إلى دار الشباب القديمة (لأن الجديدة لم تكن قد خطط لبنائها بعد) كان هناك فرق كبير بين هذه الحفلة وسابقاتها في رحلة أطار الأولى، إنها الليلة الأولى ورغم ذلك فإن عدد الحاضرين لا يتجاوز المائة، كان لذلك أسباب موضوعية وأخرى ذاتية، فمن الأسباب الموضوعية: أن جميع الناس وخاصة الشباب وهم الفئة الحصرية في موريتانيا بشكل خاص التي ترتاد الأمسيات الفنية، والشباب في أطار

حينها فئتان فئة تدرس في ثانوية أطار من أهل القرى والواحات والوقت هو زمن الكيطنة فهل يمكن لهم البقاء في أطار؟ وفئة ثانية هم من سكان أطار وعندهم زرابي من النخل في الوديان المنتشرة في أطراف ولاية أدرار فهل يمكن لهم البقاء في حر المدينة المعروف بشدته؟ هذا بالنسبة للأسباب الموضوعية أماالأسباب الذاتية فلقد قصرنا في عملية الدعاية نتيجة انخداعنا بذاتنا أنا ومعي الشباب لأننا وجدنا في حفلات أطار الأولى إقبالا شديدا فتوقعنا أن الناس بمجرد سماعهم من بعضهم أخبار الحفلة سوف يأتون جميعا، وهذه كانت هي نتائج خبرتنا المحدودة حيث كانت هذه هي الحفلة الثالثة بالنسبة لي، فالأولى كانت في دار الشباب بنواكشوط والتي أقامتها الإذاعة وأنا لا أعرف عن وسائل إقامتها أي شيء، والحفلة الثانية التي أقامها شباب أطار في عطلة المدارس الانتصافية وكذلك لم أكن أعلم شيئا عن الدعاية فيها، وهذه الحفلة التي نحن فيها هي الثالثة، وفيها عرفت قيمة الدعاية المتأنية التي لابد فيها من التأكد التام أن غالبية الناس العظمى أضحت عالمة بالحفلة ومقيمها ومكانها وزمانها، كما لا بد من إعطاء الناس فرصة سابقة: أي أن تجعل لهم وقتا كافيا للتشاور والتواصل والتفكير والتحضير النفسي والمادي والاتصال وخاصة أنه لم تكن وسائل التواصل موجودة وقتها فلا الموبايل ولا النت كالواتس والفيس والفايبر والسكايب والايميل وكل هذه لم تكن موجودة ومن كان عنده هاتف أرضي فهو ملك زمانه، لقد نسينا أو تجاهلنا عامل الدعاية الذي كان تاما في الحفلات الأولى لأطار وشارك فيه كل شباب أطار وكل تلامذتها بل وكل موظفيها فرغم أن عدد الحاضرين كان في حفلة أطار لهذه المرة لا يقل عن حفلات كثير من الفنانين لكنني تعودت أن تكون القاعة ممتلئة والناس لا تجد أمكنة لها مما جعلني لا أكرر حفلة الليلة التالية في الغد بل خططنا للخروج إلى الوديان: هربا من الحر الشديد وطلبا للهواء البارد اللطيف والطبيعة الجميلة والبلح الشهي إضافة للشباب الذين هم جمهوري الواسع.

هكـذا كانـت خطتنـا أن نرحـل غـدا إلى الـوديان بصـحبة بعـض الأصـدقاء باتجـاه تونكـاد وأوجفـت علـى أن نرجـع إلى كصـير الطرشـان وتيـارت في الأيام التاليـة في طريـق العـودة إلى نواكشـوط، وفي الحلقـة القادمـة سـنرى مـاذا ينتظـرنا في تونكـاد وأوجفـت وإلى ذلكـم الحين أستودعكم الله داعيا الله أن يحفظكم وإياي إن شاء الله.

××××

في ضحى اليوم التالي كنا أنا وصديقي أحمد العبيد وثلاثة لست متأكدا الآن من أسمائهم لكنهم جميعا من فرع شباب أطار والذين كانوا في حفلة أطار الأولى والذين كانوا معي في بيت الضيافة حينها (وأعتذر منهم لعدم تذكري لأسمائهم علما أني أذكر جيدا أشكالهم وما كان يدور من أحاديث وأحداث) ومن صفات ذاكرتي التي أحمد الله عليها بل وعلى كل نعمه التي لا يمكن لبشر إحصاؤها، صفة سلبية في ذاكرتي هي عدم تذكر الأسماءإذا لم تكن مفصلية وأساسية وكذلك الأرقام وهي الأكثر نسيانا عندي، أما الأحداث فحدث ولا حرج في قوة ذاكرتي فيها، فأنا أحفظ حتى اليوم أحداث طفولتي من سن الثانية والنصف إلى الآن وقد ساعدتني هذه الذاكرة في كتابة قصة حياتي التي أوردت ذكر الكتاب الذي خصصته لها من ستمائة صفحة ونيف وللعقد السادس من عمري، أعود إلى انطلاقنا و من الطريق إلى الوديان سألت صديقي أحمد العبيد: "هل نذهب إلى ترجيت أولا ؟" فقال: "ترجيت ليس فيها أماكن الحفلة وليس فيها قرية مسكونة !"

قلت له: "إذا أين نتجه؟" قال: "إلى تونكاد." قلت: "على بركة الله." ذهبنا إلى تونكاد. كنت أعتقد أنني لن أرى جنة في موريتانيا غير ترجيت، فرغم عدم وجود جبلين شاهقين يبعدان الشمس المحرقة كما في ترجيت لكن أشجار النخيل الباسقة طولا تجعلك في مأمن من حر الشمس بل تعطيك إحساسا من الظل الذي يخلط بين الحار والبارد لتشعر بحرارة لطيفة مقبولة محببة، نزلنا في بيت لقريب لأحد الشباب الذين كانوا معنا، الجميع أهلنا وإخوتنا وأصدقاؤنا فإنك في موريتانيا حيث لا تشعر أنك غريب أو أن الناس من حولك غرباء.

أتصور المكان الذي استضافنا الشباب فيه وأحصر ذاكرتي، في وسط الأشجار الشاهقة بني بيت جميل احتضن هذه المجموعة من الشبان والشباب الذين تقاطروا من تونكاد وأوجفت وخاصة بعد أن أرسلناسيارة الدعاية التي تحمل مكبرا للصوت وشابا داخل السيارة يذيع أغاني ويتحدث ليخبر الناس عن حفلة الليلة وزمانها

ومكانها، استقبلنا أهل الدار بحليب النوق، ثم فشاي، ثم أتاي ثم مع أطيب وأشهى بلح بكل ألوانه وأحجامه سبحانا لخالق على أشكاله وألوانه بل وطعمه، لقد أكلت في حياتي كل فواكه الدنيا في أوربا و إفريقيا وآسيا لكنني لم أذق أطيب وأشهى من ذاك البلح، تأكل ولا تشبع منه وخاصة عندما يتلوه مرق اللحم المسلوق أو شيء من اللحم المسلوق أو المشوي، بل لا تمر ساعة حتى تشعر بالجوع من جديد وكأنك لست أنت الذي أكل كل ذاك البلح واللحم ؟

وهنا تذكرت قصة ذاك الذي ذهب ضيفا على قرية صغيرة فيها قليل من أشجار النخل التي يعتاش منها أصحابها حيث يبيعون البلح، أو يصنعون قسما منه تمرا كمؤونة لهم للشتاء، ويقال إن ضيفا قريبا لأحد الأسر في تلك القرية حل بهم وهو من مناطق ليس فيها بلح، وأنه ذاق حلاوة البلح فأعجب به كثيرا، فصار يكثر التردد إلى زريبة البلح وهي بجوار الديار ليست بعيدة عنه، وأطال الإقامة أو الضيافة، حتى أتى على البلح الموجود في أشجار مضيفيه، ولأنه يعرف أنه لا يمكن لأحد في موريتانيا أن يمنعه من دخول زريبته، بدا يتمدمد في أشجار الجيران يختار من ألذها طعما وأشهاها شكلا، ولأنه ضيف والضيف مقدس في موريتانيا لم يتجرأ أحد على الحديث إليه فيما يفعل، فلقد بات يشكل خطرا على كل الأشجار المجاورة للقرية ولأنه صار كذلك ذهب البعض إلى مضيفيه يشرحون لهم تصرف ضيفهم، ولم يكن جوابهم إلا انطلاقا من الأخلاق الموريتانية التي تقدس إكرام الضيف، فقال المضيفون لمن جاء يشتكي من نهم وشراهة الضيف الذي حل بالقرية: "لقد أتى على زريتنا ولم نتحدث إليه فماذا تريدوننا أن نفعل الآن ؟"

قال لهم أحد الحاضرين: "وهل تعطوني الإذن بتصرف لبق جدا معه ؟" قالوا له: "دون أن تسبب لنا فضيحة في البلدان؟" قال: "نعم."

كان عنده في زريبته عدة أشجار من نوع طيب الطعم حلوه يسمى (تيجيب) ولا يعرفه إلا من يقتنيه أو من يتعامل به، ومشكلته أن من يكثر من تناوله يسكر وكأنه شرب من الخمر أو المخدرات الكثير، يعني يضيع عقله إلا إذا أعقبه بماء اللحم أو

تناول اللحم، وفي صباح اليوم التالي ذهب ضيف القرية يتجول بين أشجار النخيل دون تمييز فهي جميعها تحت تصرفه يقطف منها ما يشاء ويتناول الكمية التي يشاء فهو في موريتانيا، لكن موريتانيا لم تشهد شرها وطماعا مثله، وكان صاحب (التيجيب)بانتظاره ليقضي عليه بالضربة القاضية لكن كيف؟ أشار له من بعيد وناداه فذهب نحوه وقال له: "تفضل لتأكل من بلحي فهو شهي جدا !" لم يرد طلبه، فجبّانته (مقبرته) لا ترد ميتا كما يقال.

أحضر له عرشا كبيرا من التيجيب الطايب الجميل الطعم والمنظر، وبمجرد أكله البلحة الأولى وجد فعلا أنه أمام طعم لذيذ أشهى من كل ماكان يأكل سابقا، أكل وأكل وهو لا يريد التحدث كي لا تهرب منه بلحة هنا أو هناك، طبعا شاركه مضيفه لكن ببلحات قليلة لا تسبب أي أذى ووصل المتطفل حد امتلاء البطن وحمد الله وقال: "لقد أخذت كفايتي." ومضيفه يحضه لكن البطن لم يعد فيها مكان للتيجيب واتجها نحو منازل القرية، وشعر بعطش شديد وطلب الماء فأحضر المضيف ماء باردا شرب منه الكثير بسبب الحر وبسبب التيجيب الكثير الذي تناوله، فقد أكل ما يكفي ليسكر عشرة رجال، ومما زاد وسرع الماء البارد مفعول التيجيب حيث بدأ العرق يتصبب من وجهه والحرارة تنتشر في أنحاء جسده، واشتغل الفيلم حيث بدأ ينزع ثيابه عنه قائلا: "لماذا لا تسبحون في هذا البحر لتطفئوا هذا الحر الشديد،؟" كان في وسط القرية زيرة من الرمال، أكمل نزع كل ثيابه وألقى بنفسه في البحر الذي تصوره، وبحره كان تلك الزيرة التي تلتهب من حرارة الصيف، وكان الكثيرون من أهل القرية قد التفوا حوله يضحكون من سباحته على الرمل الملتهب الذي أحرق جلده دون أن يشعر بالألم بسبب سكره وخدره، وكانت هي المرة الأخيرة التي يطأ فيها تلك القرية بعد سباحته تلك عاريا.

إن قارئا لم يعش في مناطق فيها البلح الكثير لا يمكن أن يصدق أنك وفي حر الصيف الشديد يمكن أن تتناول أكثر من بلحات معدودة، لكن تناول ماء اللحم أو اللحم يجعل الأمر وكأن شيئا لم يكن فسبحان الله على خلقه.

وإلى أن يقترب المساء ويكون لقائي بجمهوري الحبيب خرجنا نتنزه بين واحات النخيل التي تعانق السماء بطولها الذي لم أشهد له مثيلا حتى أثار فضولي فسألت كيف للناس هنا من قطف هذا البلح في هذا العلو والارتفاع؟

هناك التقيت بصبية في العشرين من عمرها تقريبا سمراء أصيبت بعدوى من أشجار النخيل، لم أر امرأة موريتانية بهذا الطول، قد ترى في مثل طولها في الدول الاسكندنافية أما في موريتانيا فلا، طولها يزيد عن طولي بكثير، قدمت لي بعض البلح تناولته منها وسألتها عن اسمها. أجابتني باسم لم أسمع به من قبل. طبعا لن أذكره حفاظا على تقاليدنا كي لاتعرف من هي، لكن الاسم كان عكس ضخامتها وطولها، وظننتها تمازحني، لكنها أكدت لي أنه فعلا اسمها، ولم أصدق حتى سألت أصدقائي وقالوا نعم إن أمها نذرت أن لو حملت بطفلة ستسميها بذلك الاسم وحصل ذلك وأوفت بنذرها. تابعنا طريقنا نتجول بين أشجار تلك الواحة الغناء نمتع أبصارنا بتلك الطبيعة الخلابة التي لم ترسخ في ذهني طول حياتي وجولاتي الكثيرة إلا أربعةأو خمسة مشاهد بقيت خالدة لا يمكن نسيانها الأول بستان في أرياف حلب كأنه الجنة مررت به مع والدي عليه رحمة الله وأنا في السابعة من عمري، والآخر في قطار بين دمشق والزبداني، والثالث في ترجيت، والرابع في بساتين بالقرب من منبج شرقي حلب بلد البحتري، والخامس هذه الواحة البديعة تونكاد، يمكن أن يكون هذا الإحساس متعلقا بمشاعري الذاتية ويمكن أن يكون هو الحقيقة المطلقة لا أدري، فالجمال أمر نسبي مثل كثير من الأمور، لكني وفي لحظات تأملي واختيار العبارات والأفكار رجعت بفكري وإلى ذاكرتي وما تختزنه من صور جميلة مؤثرة كان لها أثر جميل أشعرني بسعادة متميزة، لم تحضر غير تلك المشاهد الخمس رغم أنني أعتبر نفسي هاويا للرحلات والسياحة وقد قدت عشرات الرحلات في المدارس والمعاهد وفي حياتي الأسرية والشخصية، ولا أظن أن هذه الحلقة ستتسع لأكثر من هذا، لذلك أستودعكم الله إلى أن يحين موعد الحلقة القادمة بإذنه تعالى.

××××

-24-

كـــان الشـــباب قـــد أرســـلوا أحـــدهم ليســـتأجر ســـيارة ويقـــوم بالدعايـــة الصـــوتية بتشـــغيل مســـجلة تبـــث أغـــاني ويتحـــدث الشـــاب مشـــغل المســـجلة عـــن الحفلـــة وكـــل مـــا يتعلـــق بهـــا من زمان ومكان والفنان الذي سيقيم الحفل !

بينمـــا قـــام شـــاب آخـــر بتقـــديم طلـــب لحـــاكم مقاطعـــة أوجفـــت للموافقـــة علـــى إقامـــة ســـهرة فنية في تونكاد وتزويد مكان الحفل بحراسة شرطية !

وقـــد حصـــل علـــى الموافقـــة، وقـــد وعـــد حـــاكم المقاطعـــة أن يكـــون هـــو نفســـه موجـــودا، وقـــد كانت فرصة طيبة للتعارف والصداقة بيننا !

بـــدأ الشـــباب بالاســـتعدادات لتجهيـــز مكـــان الحفـــل ليكـــون جـــاهزا لاســـتقبال الجمهـــور، والإنارة كانـــت عـــن طريـــق الغـــاز؛ واحـــد علـــى المســـرح وآخـــر للجمهـــور وثالـــث في المـــدخل لقطـــع التـــذاكر واســـتقبال الجمهـــور، أجهـــزة تكبـــير الصـــوت أحضـــرتها معـــي مـــن نواكشـــوط وهـــي تعمـــل علـــى البطـــاريات (التعمـــار) وهـــذا هـــو الحـــد الأقصـــى مـــن المتـــوفر أيامهـــا وفي أماكن بعيدة.

بـــدأ الجمهـــور يتوافـــد كـــل مـــن جهـــة وتـــرى أنـــوار المصـــابيح اليدويـــة تـــدل علـــيهم وهـــم قـــادمون مـــن بعيـــد، وقـــد كـــان حـــاكم المقاطعـــة مـــن أوائـــل الحاضـــرين حيـــث اســـتقبلته وشـــكرته علـــى الحضـــور شخصـــيا وتعرفـــت عليـــه وكانـــت بدايـــة صـــداقة طيبـــة بيننـــا حيـــث لم نفترق طيلة وجودي هناك.

كانـــت الحفـــلات لليـــال ثـــلاث اثنتـــان في تونكـــاد والثالثـــة في أوجفـــت فرصـــة لتجمـــع الشـــباب والشـــابات مـــن هـــذه الـــوديان لإضـــفاء مســـحة إضـــافية علـــى الســـرور والفـــرح الـــذي يعيشـــونه أصـــلا في هـــذه الطبيعـــة الخلابـــة وهـــذا الجـــو الملـــيء بكـــل مقومـــات الســـعادة والراحـــة والبعـــد عـــن صـــخب المـــدن ورتابتهـــا، وأخـــذ قســـط مـــن الراحـــة، مصـــحوبا بجـــو الصـــداقات القديمـــة والجديـــدة الطارئـــة، تعرفـــت إلى العشـــرات بـــل المئـــات مـــن جمهـــوري الغالي وتعرفوا علي عن قرب ؟

في النهار جلسات أتاي يضفي عليها بلح تونكاد والمشوي الذي يعقبه بل ويسبقه من فشاي ثم يعقبه من لحم أو مرق اللحم، ولبن النوق أو الزريك هو الشراب لكل من عطش، إنه الشباب بأحلى وأبهى حلله، ماء وخضرة، وأشهى طعام، ووجه حسن، هل أطيب من هذا وأبهى منه على الأرض؟ لا وألف لا، كل ذلك وأناس متحابة متسامحة كريمة تتسابق في إضفاء الفرح والسعادة على الأجواء، وأغان تحرك الأحاسيس وتضفي بريقا على هذه اللحظات الجميلة من الحياة، وفي عصر اليوم الثاني كنا على موعد مع نشاط شبابي من نوع آخر (خبيط الشارة) أي ممارسة الرماية بالبندقية حيث جاء صديقي الحاكم وذهبنا إلى مكان متطرف منزوٍ، تفصله عن غيره تلة عالية كي ترتطم الطلقات بها فلا تصيب أحدا بأذى ووضعنا أشخاصا في اليمين وآخرين في اليسار لمنع الصغار أو الحيوانات من الاقتراب، وكانت زجاجات الحليب الفارغة أهدافنا، وكانت نتائج الرماية متقاربة بيني وبين صديقي الحاكم كوني كنت قبل ذاك بعامين ضابطا مجندا في الجيش العربي السوري.

في الليل كنا بعد انتهاء الحفلة نهرب من البعوض إلى زيرة رملية مرتفعة تقينا شر البعوض لكن في النهار بمجرد ارتفاع الشمس في السماء كانت الرمال تنقلب إلى جحيم على الأرض، وعندها لابد لك من عكس العملية فالمكان الذي لجأت إليه في الليل لابد لك أن تهرب منه وتعود أدراجك إلى المكان الذي هربت منه ليلا، فتهرب إليه هذه المرة نهارا، ولكل داء دواء وهذا دواء البعوض هناك.

انتهت حفلاتنا هناك وقلت نتجه شمالا إلى وديان أطار الأخرى في كصير الطرشان وتيارت وأوصينا السائق أن يمر علينا في صباح الغد الباكر لنذهب إلى أطار ومنها نستعد للذهاب إلى تلك الوديان، طبعا ودعت الأصدقاء الذين سيبقون في تونكاد أو أوجفت وعلى رأسهم صديقي الحاكم وشكرتهم على كل ما قاموا به من احتفاء وتكريم كان هذا يوم التاسع من تموز عام 1978 م.

في الصباح الباكر كنا على أهبة الاستعداد في انتظار السائق الذي سيقلنا إلى أطار، صار وقت قدومه لم يأت، زاد وقت آخر على وقت قدومه، قال لنا أحد الشباب

أنه يتأخر أحيانا بعض الوقت إذا لم يكتمل معه العدد المتبقي من مقاعد السيارة عدا مقاعدنا الأربعة التي حجزناها، زادت الساعة عن التاسعة وهو وقت لا يمكن بعده أن تأتي السيارة، فهي إما أنها تعطلت أو أن السائق نسينا ووجد جماعة أخرى غيرنا، أنسته موعده معنا، أرسلت أحد الشباب ليبحث لنا عن سيارة وليعرف أخبار ذاك السائق.

تأخر في العودة فانشغل بالنا أكثر، الحر شديد ولا يمكن لإنسان لا يضع عمامة على رأسه أو قبعة ترد الشمس أن يمشي خمس دقائق في العراء، ورغم أننا تحت خيمة من أغصان الأشجار اليابسة لكن وهج الحرارة الذي ينبعث حولنا من كل الجهات يأتينا بهواء أشبه بهواء فرن الخباز. نحن في حيرة من أمرنا ولا نعرف إلى أي اتجاه نذهب، لم تطل حيرتنا جاء مرسولنا والعرق يتصبب منه من كثرة سيره تحت الشمس، سمعته يقول كلاما نصفه عربي بالحسانية والنصف الآخر كلمة فرنسية لم أسمعها قط من قبل، قال: للشباب: "خالك كو ديتا" يعني هناك "كو ديتا" ورأيت الشباب وقد تغيرت ملامحهم وكأن أمرا مهما قد حدث، سألتهم ما الأمر قالوا: "لقد قام مجموعة من الضباط بانقلاب على المختار."

إنه الانقلاب الأول في موريتانيا، كيف سيكون ؟ هل هو كانقلاباتنا في سورية أو العراق؟ ذهب عقلي إلى كثير من الاتجاهات، ما هي أحوال العاصمة لقد تركت فيها ستا من أولادي مع أمهم، وبيتنا قريب من وسط العاصمة وسيسمع الأولاد الأصوات وسيخافون وقد تكون اشتباكات قريبة فيصابون بأذى لا سمح الله، أكيد سيمنع التجوال كيف سيؤمنون الخبز على الأقل فالمواد الأخرى أمنتها لهم كمية من المؤونة تكفيهم لحين عودتي، أما الخبز ونحن السوريين نأكل منه يوميا بمقدار عشر أسر موريتانية حتى إن عمال الفرن في البداية ظنوا أن عندي دكانا فقالوا لي أنت عندك "بوتيك". حيث تشتري في اليوم أكثر من عشر خبزات، إذا أصبحت أفكر بكيفية الوصول إلى أطار ثم إلى نواكشوط، وفي وضع الأسرة، وفي وضع نواكشوط ماذا سيحصل فيها.

قلت لهم: "هلموا نستمع إلى الإذاعة." وكانت الساعة قرابة الحادية عشرة صباحا فقالوا: "ليس هناك أخبار في هذا الوقت فالأخبار في الواحدة ظهرا !" قلت لهم: "نجرب." فتحت الراديو إذ بالموسيقى العسكرية تبث من إذاعة نواكشوط، وأي موسيقى إنها "كتائب موريتان" دقائق وتوقفت الموسيقى إذ بالمذيع يتحدث ويخبر بأن مجموعة من الضباط قامت صباح هذا اليوم بالثورة على النظام السابق، أنا لم يكن لي موقف محدد مما حدث فلا أعرف من قام بالانقلاب وهل سيكونون أفضل لوضع البلد، لكن اهتمامي ذهب في موضوع يهمني أنا وهو ألحاني التي تبث ولوحدها. نشيدا "كتائب موريتان" و"أفريقيين وعرب الاتنين" من ألحاني وكلمات محمدن ولد سيدي إبراهيم والذي شاركني فيهما الغناء سدوم ولد أيده والمحجوبة بنت الميداح رحمها الله، في تمام الحادية عشرة قدم المذيع نشرة موجزة سبقها وأعقبها موسيقى "كتائب موريتان"، وكذلك في تمام الثانية عشرة نشرة موجزة أيضا سبقها وأعقبها موسيقى نشيد "كتائب موريتان" ثم تستمر الموسيقى العسكرية وعندها تذكرت كلاما قاله لي الأستاذ الحسن ولد مولاي علي قبل أسابيع من قيام الثورة عندما قال لقد جاءت الفرقة الموسيقية العسكرية إلى الإذاعة وسجلت هذين النشيدين، وكان قبل ذلك قد أخبرني أنه سمع الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف النشيدين عند استقبال الرئيس الموريتاني لنظيره المالي موسى تراوري، جاءت الساعة الواحدة موعد نشرة أخبار الظهيرة تحلقنا حول المذياع لنسمع ماحصل بالتفصيل: قبل نشرة الأخبار أذيعت موسيقى "كتائب موريتان" وعند انتهاء النشرة كذلك، ولكن صادقا في نقل أحاسيسي ومشاعري: أناكفنان أعشق الفن وأعتبره أهم عندي من الطعام والشراب واللباس و...فقد كان تفكيري منصبا على أمنية تمنيتها في اليوم الأول من قدومي من سوريا عندما كنت وزميلي السوري الفلسطيني الأستاذ محمد الخطيب حيث كنا في السوق القديم نشتري بعض أدوات المطبخ (قدر صغير، براد شاي، كأسان للشاي، صحنان وملعقتان، وبعض الخضر والزيت والخبز والملح والسكر والشاي وسخانة كهربائية) هناك حيث سمعت ولأول مرة المقدمة

الموسيقية التي تسبق نشرة الأخبار وكان صوت تيدينيت يدندن دون نغمة محددة ويقول المذيع "إذاعة الجمهورية الإسلامية الموريتانية في نواكشوط تقدم نشرة أخبار الظهيرة"، ويومها قلت لصديقي: " إنأمنيتي أن أغير هذه المقدمة بأخرى تليق بالعصر!" تعجب صديقي من كلامي وقال: "كيف تفكر هكذا، كيف لك أن تغير موسيقى مقدمة أخبار في بلد ليس بلدك، ثم من يريد أن يفعل ذلك يكون موسيقارا أو ملحنا ؟" قلت له: "هذه أمنيتي !"

إذا عندما سمعت موسيقى نشيد "كتائب موريتان" كمقدمة لنشرة الأخبار كنت أنا أفكر في هذا الجانب لأنه مهم في حياتي أكثر من طعامي وشرابي لأنني حققت ذاتي الفنية التي تعبت لبنائها سنوات طوالا.

أمضينا ليلتنا تلك في تونكاد طبعا دون حفلة أو حتى غناء لأن التجوال ممنوع والمطارات والموانئ مغلقة وكان جل وقتنا ووقت من حولنا هو الحديث في خبر الساعة وما نجم عنه ومن هم الضباط المشاركون، وتأكدت تماما أن موسيقى نشرة الأخبار صارت من ألحاني.

في الصباح غادرنا إلى أطار، وسألت عن طريق نواكشوط فقالوا: "انفتح." ركبت السيارة وودعت أصدقائي قاطعا مشروعي في الذهاب إلى وديان أطار الأخرى، لأزورها في وقت آخر بإذنه تعالى.

وفور وصولي إلى نواكشوط وبعد اطمئناني على عيالي وقبل أن أتناول طعام الغذاء اتجهت إلى بيت الأستاذ السوري الفلسطيني محمد الخطيب الذي كان يقيم بجوار دار الشباب وكان يسكن في دار من طابقين، هو في الطابق العلوي منها، كان ابنه يلعب خارج الدار قلت له: "ناد والدك." خرج صديقي إلى الشرفة يدعوني للدخول قلت له: "آتيك في وقت آخر لقد جئت من..." وقبل إتمام حديثي قال: "أعرف جئت لتقول لي إن ما حلمت به في يومك الأول في نواكشوط قد تحقق."

وإلى حلقة قادمة من ذكرياتي في موريتانيا أستودعكم الله !

××××

بعد عودتي من رحلة الوديان في أطار وقطع الرحلة بسبب الانقلاب الذي حصل في 10 تموز/ يوليه عام 1978م جاءني شريط مسجل من المرحوم والدي وهذا ما كنت أتبعه مع أفراد أسرتي، بسبب الأشواق الزائدة وعدم كفاية الكتابة لإرواء ظمإ الاشتياق للأهل لأن الهاتف المحمول لم يكن موجودا والمكالمة بالهاتف العادي قد تكلف أحيانا راتب نصف شهر وإذا طالت قليلا كلفت راتب شهر، أقول جاءني شريط من والدي يحدثني فيه عن أوضاع الأسرة وأوضاعه الصحية، لقد كانت العلاقة بيني وبين المرحوم والدي علاقة قل مثيلها في تلك الأيام، كنا صديقين، ورفيقين، وكنت أطيعه طاعة عمياء رغم أنه كان من أرق الناس معي، لقد كان والدي كل شيء بالنسبة لي، كان لا يستطيع العيش بدوني وكنت أنا أيضا كذلك، كنت أنا ابنه البكر، وجاء من بعدي سبع بنات متتاليات، ثم جاء أخوان ذكران بعد أن بلغت من العمر ثمانية عشر عاما واقترب والدي من الستين، وعندما جئت إلى موريتانيا كان في عقده السابع، وكانت أوضاعه المادية والصحية بدأت بالتراجع، وصار بحاجة ماسة إلى مساعدتي، ومن طرفي أنا في موريتانيا فبرغم فرحي الشديد لنجاحاتي التي كانت حلما تحقق بالنسبة لي، كلما أذيعت نشرة الأخبار وعزف لحن المقدمة كنت أشعر بشعور لا يوصف بل كل صباح يوم الأحد عندما يذاع برنامج "طلبات المستمعين" وتذاع لي أغنيتان على أقل تقدير إن لم تكن ثلاثة ف"درسك يا غلانه" لابد منها، أسماء طالبيها تذاع من عشر دقائق إلى ربع ساعة حيث تغنيها معي المرحومة ديمي بنت آب، وكذلك أغنية "بالي حالف يمين" تغنيها معي الفنانة أبتي بنت شويخ واللتان كانتا في قمة الغناء الموريتاني آنئذ ولم يكن هناك وقتها من تستطيع من الفنانات منافستهما، وكثيرا ما اقتصر البرنامج على أغانيَّ وألحاني إضافة إلى أغنيتين واحدة لفهد بلان وأخرى لهيام يونس أو نجاح سلام أو طلال مداح وهؤلاء كانوا من أشهر المطربين العرب الذين كانت تذاع أغانيهم في إذاعة نواكشوط

رغم وجود عشرات الفنانين الكبار بل العظام كفريد الأطرش وعبد الوهاب وأسمهان وفيروز ووديع الصافي إلخ لكن ماكان حاصلا هو ما ذكرته.

إن التقائي بجمهوري في الحفلات التي كانت تعد حتى ذلك الوقت على أصابع اليد الواحدة، كان يشكل لي سعادة ما وراءها سعادة، مرض أولادي الستة حينئذ بالحصبة الإفريقية وبقي البيت أكثر من شهر ولد يمرض وآخر يشفى وواحد يشفى والآخر يمرض، والأطباء كانوا قلة، وما زلت مدينا للدكتور سيداتي الذي كان مديرا للصحة بنواكشوط الذي كان يشرفني بزيارة المنزل لمعالجة أولادي المصابين بالحصبة جزاه الله كل خير، ودون أن يقبل بأخذ أي مقابل مادي، تراجعت دراسة الأولاد ولن أسهب حتى لا يعود أخي الذي تضايق مني في حلقة سابقة، بالمناسبة أنا الآن أداوم في دورة لتعلم اللغة الفرنسية في بروكسل، المعلمة ناجحة جدا في تعليمها وهي تحاول تطبيق الطرق التربوية الحديثة وأهمها التعلم المتقن، نحن نداوم من الساعة الواحدة والنصف إلى الساعة الخامسة والنصف أي أربع ساعات وهو الوقت المخصص لحصة دراسية واحدة لأن عددنا ثلاثون دارسا، وكل فقرة يجب أن يكون الجميع قد شاركوا بالقراءة أو اللفظ الصحيح أو الرد على الأسئلة، أربع ساعات لدرس واحد ولثلاثين دارسا، أما عندما يزيد عدد الطلاب عن الثمانين فقد كان أحد صفوف أولادي تسعين تلميذا، حتى لو كان سقراط هو معلمهم لن يكون هناك ناتج تعليمي مقبول.

المهم تراجع مستوى الأولاد وصحتهم، وكان توفر المواد يعاني من كثير من الصعوبات وكثير منها غير موجود بعد، فكل الخضروات وأكثر الفواكه لم تكن معروفة أو مستخدمة، كان البرتقال والتفاح وبداية تعرف الناس إلى الموز، حتى إن صديقا لبنانيا قص لي حكاية المرة الأولى التي جيء بالموز إلى نواكشوط بعيد الاستقلال بأشهر، حيث بدأ بعض التجار اللبنانيين المتواجدين في داكار بالقدوم إلى نواكشوط للقيام بأعمال التجارة كل حسب عمله السابق أو إمكاناته وهواياته، وكان لأحدهم عندما أراد المجيء إلى نواكشوط للقيام بنشاط تجاري، أن فكر طويلا:

"مـاذا أعمـل ؟ مـاهو أفضـل عمـل يـدر علـي كثـيرا مـن المـال وبسـرعة كبـيرة ودون جهـد كبـير؟" وصـل إلى فكـرة جهنميـة وهـي: أن يحضـر سـيارة مـوز، وهـو يعـرف أن كـل النـاس تحـب المـوز بـدءا مـن الرضـيع وحـتى الشـيخ العجـوز الطـاعن في السـن والمـوز رخـيص جـدا في السـينغال حينهـا فـإذا باع المـوزة بأوقيـة واحـدة حقـق ثـروة كبـيرة، نفـذ فكرتـه الـتي خطـرت ببالـه دون أن يستشـير أو يسـأل أحـدا لا لشـيء فقـط إلا لأنـه لا يريد أن يعرف الناس بفكرته فيسبقه أحد إليها.

وفعـلا: كـان هـو والسـيارة الكبـيرة المحملـة بأطنـان مـن المـوز الناضـج الحلـو، أنـزل البضـاعة في سـاحة السـوق القـديم متوقعـا أن يصـبح مليـونيرا بعـد سـاعات قليلـة، بـدأ ينـادي: "المـوز المـوز تعـالوا شـوفوا المـوز تعـالوا ذوقـوا المـوز." تحلـق النـاس حولـه ينظـرون لمـاذا يصـرخ هـذا هكـذا ولـيس أمامـه إلا شـيء مـن "الربيـع" أي العشـب أو الحشـيش كمـا نسـميه في سـوريا، سـاعة مـرت ولم يشـتر أحـد مـوزة واحـدة. تعجـب وسـأل: "ألا يعرفـون المـوز؟" قـالوا لـه: لا إنهـم لم يسـمعوا قـط بهـذه الكلمـة. بـدأ ينـادي بالاسـم الآخـر للمـوز عسـى أن يعرفـوه: بنـانا، بنـانا، عسـى أن يكـون بعضـهم ممـن يجيـدون الفرنسـية سمـع بـه. أيضـا مـرت سـاعة أخـرى ولم يشـتر أحـد مـوزة واحـدة، خطـر علـى بالـه فكـرة، أراد أن يشـجعهم فبـدأ يأكـل المـوز أمـامهم عسـى أن يغـاروا منـه أو يكـون قـدوتهم فيبـدأوا بالشـراء، أكـل مـوزات عـدة دون ناتـج أو فائـدة، بـل كلمـا أكـل مـوزة ضـحك المتفرجـون عليـه والمتحلقـون حولـه يتعجبـون مـن إنسـان يأكـل الربيـع وبهـذا الكـم الكبـير، هـي المـرة الأولى الـتي يشـاهدون فيهـا إنسـانا يأكـل العشـب، يضـحكون منـه لفعلـه هـذا وهـو يتـألم مـن المصـاب الجلـل الـذي لحـق بـه فهـو قـد وضـع كـل رأسمالـه في هـذه التجـارة الـتي لم تجـد له شيئا حتى الآن ويظهر أن يوما أسود ينتظره.

وبالفعـل فقـد كـان اليـوم حـارا جـدا وبـدأ المـاء يسـيل مـن تحـت المـوز، وبـدأ مئـات الآلاف مـن الـذباب تهجـم علـى مـا سـال مـن عصـارة المـوز الحلـوة ومـا كـان مـن الشـرطة الـتي جـاءت بعـد أن اشـتكى أصـحاب المحـلات القريبـة إلا أن قالـت لـه: "أسـرع بإنهـاء هـذه المهزلـة فقـد جمعـت كـل ذباب الـدنيا علـى هـذا السـوق، احمـل ضـاعتك مـن هنـا

واذهـــب بهـــا إلى حاشــية البحـــر (أي شـــاطيء البحـــر) وإلا أخـــذناك إلى الســـجن." مـــا كـــان مـــن المســـكين إلا أن يســـتأجر ســـيارة ويحضـــر بعـــض العمـــال ليحملـــوا المـــوز إلى حاشـية البحــر ليكــون طعامــا لســرطانات البحــر، أو أسماكــه عنــد المــد والجــزر، طبعــا هــذه كانـــت فـــترة ترويحيـــة كمـــا نســـميها في تعليمنـــا لطلابنـــا في دور المعلمـــين. أعـــود إلى صـــلب الـــدرس وهـــو أننـــا قاســـينا وأولادنا لأن الظـــروف حينهـــا كانـــت أصـــعب بعشـــرات المـــرات عمـــا هـــي عليـــه الآن، راتبنـــا كـــان مـــن موريتانيـــا فقـــط وكـــان بضـــعا وثلاثـــين ألـــف أوقيـــة، وفي العـــام الـــذي تـــلا مغـــادرتي صـــار الراتـــب مـــن ســـوريا أربعـــة أضـــعاف الراتـــب الســـوري وبالـــدولار يبـــاع للمـــدرس بالســـعر الثابـــت أربـــع لـــيرات للـــدولار ويبيعـــه المـــدرس بالســـعر في الســـوق الســـوداء إضـــافة إلى راتبـــه الأصـــلي بالليـــرات الســـورية يعطيـــه لأهلـــه أو يبقـــى في حســـابه في البنـــك، وإضـــافة إلى ســـتة آلاف أوقيـــة مـــن الدولـــة الموريتانيـــة، المهـــم أننـــا نحـــن الدفعـــة الأولى وفي الســـنتين الأوليـــين كنـــا كـــبش الفـــداء ليـــأتي القـــادمون بعـــدنا فيحصـــدوا ثمـــرة صـــمودنا وصـــبرنا، وكنـــت أنا مـــن الـــذين تركـــوا وغـــادروا مـــع كـــل الألم والأســـف فقـــد كانـــت ظـــروفي الأســـرية تتطلـــب مـــني ذلـــك، فقـــد وضـــعت مكاســـبي الفنيـــة ومـــا يـــدور في فلكهـــا في كفـــة ووضـــعت في الكفـــة الأخـــرى مســـتقبل الأولاد وحـــبي وواجـــبي تجـــاه والـــدي الـــذي كـــان أيضـــا يضـــاهي حـــبي للفـــن بـــل يزيـــد عليـــه، وكـــان أن أرســـلت بطاقـــات الطـــائرة القســـائم المخصصـــة للعـــودة إلى الســـفارة الموريتانيـــة بدمشـــق بعـــد أن ناقشـــت مـــع والـــدي وضـــعه الصـــحي والأســـري، وكانـــت الحســـرة الـــتي بقيـــت في نفســـي وفي نفـــس الكثـــيرين جـــدا مـــن أحبـــائي وجمهـــوري الغـــالي، وهكـــذا كانـــت مشـــيئة الله ولا راد لمشـــيئته، وكانـــت مغـــادرتي الأولى عـــام 1978م، لأعـــود بعـــدها عـــام 1980م لوحـــدي دون أن أحضـــر العائلة معي وإلى حلقة قادمة أدعكم بأمان الله وحفظه وإلى لقاء قادم.

××××

-26-

قبـــل أن أقفـــل الصـــفحة الأولى مـــن مـــذكراتي والـــتي اســـتمرت قرابـــة العـــامين، وأبـــدأ بالصـــفحة الثانيـــة، ســـأقدم عرضـــا لـــبعض الطرائـــف مـــن الأحـــداث الـــتي حصـــلت معـــي في موريتانيـــا مســـتثنيا إياهـــا مـــن الترتيـــب الـــزمني حيـــث إن الحلقـــات الســـابقة مرتبـــة تصـــاعديا مـــن أول يـــوم وصـــولي إلى يـــوم مغـــادرتي الأولى، وســـنتابع كمـــا وعـــدتكم بإذنـــه تعـــالى في كتابـــة الفصـــول إذاكـــان الله قـــد كتـــب لي ذلـــك في ســـجل قـــدره، إلى يـــوم لقـــائي بكـــم عـــن قريـــب أيضـــا إذا شـــاء الله. وهـــذه طرفـــة حصـــلت معـــي في حفلـــة ســـينما كونصـــادو في نواديبو:

ففـــي حفلـــة مـــن الحفـــلات العديـــدة الـــتي أقمتهـــا في نواديبـــو الـــتي أحببتهـــا وأحبتـــني والـــتي لي فيهـــا صـــداقات ودودة لا يمكنـــني نســـيانها وســـيأتي الوقـــت عنـــدما يحـــين دور الحلقـــات المتعلقـــة زمنيـــا بـــذلك ونتحـــدث عنـــدها بإســـهاب، لكنـــني اليـــوم ســـآتي علـــى طرفـــة حصـــلت معـــي في ســـينما كونصـــادو في ذلـــك الحـــي الـــذي تشـــعر فيـــه وكأنـــك في بلـــد أوربي مـــن حيـــث النظـــام الاجتمـــاعي والعمـــراني والترتيـــب البلـــدي وتأمـــين حاجـــات ســـكان الحـــي بـــدءا مـــن ســـينما حديثـــة وانتهـــاء بفنـــدق وبار ومـــرورا بصـــالة ســـكة حديـــد للســـفر وســـوق للخضـــار ومدرســـة حديثـــة وبيـــوت مبنيـــة علـــى طـــراز موحـــد أمـــام كـــل بيـــت حديقـــة صـــغيرة وكل احتياجات الحي متوفرة ضمنه إلخ من متطلبات حضارية تؤمن ذلك.

في ســـينما كونصـــادو بينمـــا كنـــت أغـــني وصـــالة الســـينما ممتلئـــة، أمـــا الأغنيـــة الـــتي كنـــت أغنيهـــا فكانـــت "بالي حـــالف يمـــين مـــا يغفـــر لحبيبـــه، ذا مـــن فليـــاح العـــين وتشـــله ونواديبـــو" وهـــي مـــن البتيـــت النـــاقص الـــتي ألفهـــا صـــديقي أحمـــدو ولـــد ميـــاح بنـــاء علـــى طلـــبي بـــنفس الـــوزن ونفـــس الـــروي، وذلـــك لأني كنـــت قـــد لحنـــت للمرحومـــة محجوبـــة أغنيـــة ل"لقـــاء الجمهـــو"ر كمـــا حـــدثتكم عـــن ذلـــك مـــن قبـــل، وكـــان مـــدخلها يقـــول :"عيبـــت اللـــي نقصـــد مـــابي أنا عيـــب، وإلا كـــالو عـــن حـــد عيـــب حـــد يجيبـــو" والـــتي لاقـــت إعجـــابا شـــديدا في "لقـــاء الجمهـــور" يومهـــا، عنـــدما غنيتهـــا برفقـــة المرحومـــة، حيـــث قمـــت بتـــدريبها علـــى

حفظها في الإذاعة وفي بيتي عندما كنا نقوم بالتدريبات للفرقة المكونة من محجوبة وسدوم ولد ايده والبنتين تكيبر والأخرى نسيت اسمها ولتعذرني، فنيف وأربعون سنة، بما فيها تسع سنوات في سورية الجريحة كانت كفيلة أن تنسي الإنسان اسمه، لقد كان معنا عازف النيفارا وأنا وعودي الحبيب، هذه كانت فرقتنا المتواضعة التي قدمت نشيديْ "كتائب موريتان،" و"أفريقيين وعرب الاتنين" كلمات محمدن ولد سيدي إبراهيم، وأغنية "عيبت اللي نقصد" التي كنا نتحدث عنها وكيف أنها لاقت نجاحا منقطع النظير في "لقاء الجمهور" وكانت من كلمات بابا ولد هدار، وعندما شاهدنا نجاح الأغنية أنا والمرحومة محجوبة اتفقنا على تسجيلها عندما تعود من رحلة لها إلى مالي أو البادية أو كلتيهما معا، لكن إرادة الله كانت غير ذلك، فقد تدهورت السيارة وتسببت في وفاة المرحومة، وكما أن بعض الناس رزقهم من الله كثير، فإن هذه الأغنية كان رزقها من الله الكثير فكل أغاني لم يضف أحد إلى كلماتها كافا واحدا ، فمن عشرات الأغاني كانت الوحيدة التي كلما غنيتها أضاف الحاضرون قافية أو اثنتين إليها، فبعد أن كانت: "عيبت اللي نقصد ما بي أنا عيب، وإلا كالوا عن حد عيب حد يجيبو"، من متن تعاكيسو ومن متن تعاكيبو، "ماكديت نكيسو ولا كديت نجيبو، يجي للولع بيه أحبيبه وخطيبه سعدك يا لعدت تجيه ولا عدت خطيبه"، وعند سماعي نبأ وفاتها رحمها الله تألمت على شبابها وعلى خسارة الفن الموريتاني واحدة من الفنانات الموهوبات من ذوات الصوت المتميز الجميل، وبعد ذلك بأشهر زارتني الفنانة أبتي في داري وطلبت مني أن ألحن لها أغنية كما فعلت لديمي، وكانتا في تسابق وتنافس كما يعرف الجميع آنئذ، ولكل منهما جمهور واسع ومنطقة جهوية تتابعها وتدعمها، ولم يكن موقفي إلا قبول عرضها والتعاون معها وقلت لها إن هناك أغنية المحجوبة جاهزة فقالت لي إنها رائعة كلحن لكن الكلمات فيها مشكلة قلت لها وما هي مشكلتها قالت: إنها في ذلك الوقت كانت على خلاف مع المؤلف وقد يسبب غناؤها للأغنية مشكلة لها. عندها قلت لها: "نبدل الكلمات فالكل هنا شاعر وزجال (قوال للغنا)." قالت: "فعلا نكون

بذلك قد تجاوزنا المشكلة." وعندما عرضت الأمر على أحمدو ولد مياح وكنا جالسين في غرفة المذيعين في الإذاعة قال لي: "ليس هناك مشكلة الآن أجهز لك كلمات على نفس الوزن والروي." وخلال ساعة أو أقل وكانت الأغنية جاهزة حيث أضاف إليها أو بالأحرى استبدلها وخاصة لما سنغنيه معا أنا وأبتي والتي صارت بعد أسابيع الأغنية المنافسة ل"درسك يا غلانه" في عدد الطالبين لطلبات المستمعين الأسبوعي:

بالي حالف يمين   ما يغفر لحبيبه
ذا من فلياح العين   وتشله ونواديبو
بالي واحل فمره   حاصر بيه حبيبه
لأما جابه عمره   بعده يدور يجيبو
بالي مريض خلاص   لاره بعد طبيبه
يكتب له أردناص   من تبسام حبيبه
وحبيبي ما يحصر   عاد أغير كذيبه
أشبه من حك أوخر   لاهي بعد نصيبه
بالي حالف يمين   ما يغفر لحبيبه
ذا من فلياح العين   تشله ونواديبو

أعود إلى موضوعنا طرفة سينما كونصادو، فبينما أنا أغني والناس مطروبون يتمايلون طربا إذ برجل في الصف الثاني والقريب من المسرح يقف مشيرا بيده إلي قائلا: "هذا اللي كلته زين."

وإلى ذلكم الحين لم أكن قد تعرضت في المسرح لمثل هذا الموقف فهو جديد علي كما أنه غريب بالنسبة لي، رغم ذلك فقد قلت له "شكرا" قاطعا الغناء والعزف وهو أمر لا يمكن فعله إلا هنا فالمطرب عادة لا يقطع الأغنية ليتحدث في أي أمر لأن ذلك يبرد من حرارة التواصل بين الفنان وجمهوره، صحيح أن الرجل جلس لكني لمست أمورا غريبة حوله: التفاتات، وأحاديث مع هذه ومع تلك من خلفه وأمامه أو

بجواره، تابعت الغناء والجمهور الآخر مندمج فرح مطروب وكنا أصلا نقترب من نهاية الحفلة خرج الجميع من الحفلة مسرورا مطروبا وهذه هي غايتي بل وغاية كل الحاضرين في المسرح أو السينما.

وذهبت إلى بيت مضيفي صديقي لارَ باس ولد الديدة أطال الله في عمره وبعد أن تناولنا شيئا من لحم الوحش (الغزال الذي كان صديقي لارَ باس يصطاد منه الكثير يومها) وكنت طوال فترة وجودي عنده لا آكل إلا لحم الغزال وهو لا ألذ ولا أشهى وبينما نحن على مائدة أتاي نتسلى دخل علينا صديق آخر هو الشيخ ولد عميم، سلم الرجل وجلس وتتداخلت أحاديث كثيرة اقترب بعضها من الحفلة، إذ بصديقي الشيخ يقول لي: "يا أستاذ لماذا أغضبت النعمة (وهو اسم الرجل الذي نهض من الصف الثاني القريب من المسرح وقال "هذا اللي كلته زين")؟ قلت لصديقي الشيخ: "ماذاف علت له حتى يغضب مني؟" قال: "لقد وقف الرجل ليغني لك قيفانا يضيفها إلى بتيت الذي كنت تغنيه." قلت له: "هو لم يقل لي: "اسمع أنا سأضيف" أو أي كلام يدل على أنه سيتحدث." قال لي: "إنه كان متضايقا جدا منك ولولا أنه يحبك كثيرا ولو لم تكن أنت هو من فعل به ذلك لوقعت مشكلة كبيرة الليلة." وأضاف أن النعمة لا يتجرأ أحد على إغضابه فهو عصبي المزاج شديد البطش سريع الغضب لكنه طيب جدا وهو من يدفع ثمن البطاقات للعديد من الصديقات والأصدقاء ليدخلوا حفلتك بالذات وأنت كافأته بهذا التصرف. حتى الآن أنا لم أعرف الخطأ الذي ارتكبته! قال: "لقد أسكته فهو كان يريد أن يقول شيئا وبدلا من الاستماع لما سيقول ثم تغني ماسيقول وهو من نفس البحر والروي قمت بإسكاته." قلت للشيخ: "والله لم أكن أعرف ذلك ولو كنت عرفت لما تسببت بمضايقته هكذا!" قلت له: "اذهب إليه الآن وقل له أني سأشرب عنده الشاي في الصباح !" وبيته في الجوار قريب من بيت لارَ باس والشيخ كليهما، وفعلا في الصباح ذهبنا أنا والشيخ ولارَ باس وشربنا معه الشاي واعترف لي أنه لو لم يكن يحبني كثيرا ولو كان الفاعل غيري لقام وضربه على المسرح، قلت لهك "والله لم أكن

أعـرف أنـك سـتقول شـيئا مـن الغنـاء." قـال: "لقـد حضـرت لـك بيتـين جميلـين ووقفـت لأقولهمـا مـدحا لـك وأنـت أخجلتـني إذ قلـت لي شـكرا يعـني اجلـس." قلـت لـه: "أنا قطعـت الغنـاء، وقلـت لـك شـكرا. مـاذا أفعـل أكثـر مـن ذلـك؟" قـال: "تنتظـر مـا أقـول وتغنيـه هكـذا يفعـل مطربـونا!" أكـدت لـه أني لم أكـن أعـرف ذلـك، وطلبـت منـه السـماح، واعـترف لي بأنـه يقطـع بطاقـات لكثـير مـن الصـبايا لـدخول حفـلاتي وأنا فعلـت بـه مـا فعلـت. رحمـك الله يا النعمـة كـم كنـت كريمـا سـخيا. سـألته عـن الأبيـات أو القيفان التي كان سيقولها قال: "كنت سأقول:

حسك ياللي نختير   ذاك اللاهي يجيبو

ماني عارف ياغير   ماهو لاهي يجيبو

لاهي تمشي عنا   يلقيك الترحيب

ولأنك ماشي عنا   باقي في القلوب

تألمـت كثـيرا عنـدما سمعـت حـب هـذا الإنسـان لي وكيـف أني لاقيـت حبـه بتصـرف جرحـه دون قصـد أو معرفـة مـني، كـررت لـه أسـفي ووعدتـه أن أغـني لـه هـذه القيفـان مضـيفا إياهـا لأغنيـة "بالي حـالف يمـين" وقلـت لـه: "أنـت مـدعو وكـل مـن تحـب معـك إلى حفلـة الليلـة." وأصـر أن يأتي كعادتـه ومعـه العديـد مـن الطفـلات اللـواتي يـدفع عـنهن أثمنـة بطاقـاتهن، وفعـلا جـاء مسـاء إلى الحفلـة ومعـه في حـدود العشـر بنـات وجلـس رحمـه الله في الصـف الأمـامي واعتـذرت منـه علـى مـرأى مـن النـاس الـذين شـهدوا جرحـه بالأمـس طبعـا دون علـم مـني وقلـت لهـم أني لم أكـن أعلـم أن النعمـة كـان سـيقول أبيـاتا أوقيفـانا وقـرأت علـيهم القيفـان قـراءة ثم غنيـت الأغنيـة مـع إضـافة القيفـان إليهـا وشـعرت أنـه يكـاد يطـير مـن الفـرح لتصـحيحي الموقـف بهـذا الشـكل وكنـت أنا أكثـر سـعادة منـه لتصـحيحي خطـأ لم أكـن أقصـده وصـار مـن يومهـا رحمـه الله صـديقا بعـد أن كان أصلا من محبي ومحبي فني.

وإلى طرفة أخرى في حلقة قادمة بإذن الله، دمتم بخير.

××××

طرفة أخرى حصلت معي في موريتانيا: في يوم من أيام نواكشوط بينما أنا راكب في سيارة أجرة وبالصدفة لم يكن في السيارة إلا أنا وسائقها، وبالصدفة أيضا كان السائق يستمع من مسجلة سيارته إلى شريط من أغاني فريد حسن، قلت في نفسي أدردش معه قليلا لأرى من خلاله رأي جمهوري الغالي بما قدمته له، قلت له: "هذا غناء غير مفهوم يا أخي ضع لنا أغنية نفهمها، أليس عندك شريط لأم كلثوم أو عبد الوهاب أو فريد الأطرش ؟" أجابني بشكل مهذب وهذه عادة الموريتانيين في التعامل مع غير الموريتانيين: "سامحني يا أخي هذا هولنا ونحنا نبغيه." قلت له: "من هذا المطرب؟" قال: "هذا فريد حسن." قلت له: "وهل رأيته أو تعرفه؟" قال: "نعم بل وجلست معه في عرس لأحد أصحابي." (ضحكت في نفسي)، وتابع حديثه قائلا: "كان في العرس معي وكان لابسا دراعة وصار بيننا حوار طويل في تلك السهرة وقد أصبحنا أصدقاء." قلت في نفسي أنا لا أعرف هذا الصديق رغم أنني أحب كل من أحبني !

ولو كان معنا أحد في السيارة لما فتحت معه الحوار أصلا، ثم لو ركب بعد ذلك معنا أحد آخر لأنهيت الحوار ولأننا كنا وحيدين في السيارة قلت له: "وهل إذارأيته الآن تعرفه؟" قال :"كيف لا وهو صاحبي ؟ !"

قلت له: "أُنظر إلي هل كان يشبهني؟" قال: "لا هو يلبس الدراعة وأنت تلبس البنطال." قلت له: "دعك من الدراعة إن من يحدثك الآن هو فريد حسن." قال: "ما هي حك." قلت: "نعم أنا هو وإذا أردت أن أثبت لك فهذه بطاقتي." أخرجت له بطاقتي، فازداد عجبا قال: " يأخي أنا رأيتك في العرس تلبس دراعة وظننت أنك دائما تلبسها." قلت له: "ألبسها أحيانا خارج أوقات الدوام لكنني الآن عائد من دوامي في المدرسة." قلت له: "أنت من الآن صديقي وأنا كنت أمازحك فقط لأعرف رأيك بي."

طرفة غيرها من نفس الطعم:

بينمـــا أنا ســـائر في الشـــارع في نواكشـــوط إذ بســـيارة ملحقنـــا الثقـــافي الســـوري تقـــف بجـــواري ويقـــول لي الملحـــق الثقـــافي: "إركـــب إذا لم يكـــن لـــديك عمـــل فـــنحن ذاهبـــون باتجـــاه البحـــر." وكـــان معـــه موظفـــان مـــن الســـفارة الســـورية أيضـــا، ركبـــت وانطلقـــت الســـيارة صـــوب البحـــر، بـــل صـــوب المينـــاء تحديـــدا وعرفـــت أنهـــم ذاهبـــون لصـــيد الســـمك بالســـنارة الـــتي كانـــت معهـــم، وسمعـــت الملحـــق يقـــول للجـــالس بجـــواره: "المينـــاء فيـــه سمـــك كثـــير لأن أحـــدا لا يصـــطاد فيـــه وفي يـــوم ســـابق جئـــت ولم يســـمحوا لي بالصـــيد فيـــه." قـــال لـــه محدثـــه: "وإذا كـــان الأمـــر كـــذلك فلمـــاذا تـــذهب بنـــا إليـــه؟" قـــال: "الآن ســـترى." وصـــلنا إلى مـــدخل المينـــاء وكـــان يقـــف حـــارس عســـكري مـــدجج بالســـلاح، أشـــار الجنـــدي للســـائق الـــذي هـــو الملحـــق. توقـــف طبعـــا وســـلم عليـــه قـــائلا: "نحـــن مـــن الســـلك الدبلوماســـي وجئنـــا نريـــد أن نصـــطاد الســـمك بالســـنارة." أجابـــه فـــورا وبنـــبرة قاســـية: "ممنـــوع دخـــول أي شـــخص مهمـــا كـــان إلى هنـــا." فقـــال لـــه: "نحـــن لســـنا أي شـــخص نحـــن دبلوماســـيون." قـــال لـــه: "اذهـــب إلى الخارجيـــة وأحضـــر لي موافقـــة فـــأسمح لـــك." قـــال لـــه: "يا أخـــي إننـــا نتســـلى وهـــي ســـاعة ونغـــادر ولـــن نتســـبب في أي خلـــل." قـــال العســـكري: "قلـــت لـــك ممنـــوع." فقـــال لـــه: "حـــتى إذا كـــان معنـــا فريدحســـن؟" هنـــا أنا تضـــايقت كثـــيرا لأنـــه تصـــرف باسمـــي واســـتخدمه في غـــير مكانـــه فالرجـــل يقـــوم بمهمـــة رسميـــة ولا حاجـــة لمثـــل هـــذه الإحراجـــات لكـــن الله أنقـــذني مـــن هـــذه الورطـــة وأوقعـــه في الشـــعور بالخيبـــة لأنـــه رأى جـــوابا لم يكـــن يتوقعـــه. قـــال العســـكري: "أيـــن فريـــد حســـن؟" قـــال لـــه الملحـــق: "هـــذا هـــو مشـــيرا إلي." وكنـــت في المقعـــد الخلفـــي فجـــاء نحـــوي وقـــال: "حـــك أنـــت فريـــد؟" وقتهـــا التلفزيـــون لم يكـــن موجـــودا وخمـــس وتســـعون بالمائـــة مـــن جمهـــوري يعـــرف صـــوتي لكنـــه لا يعـــرف شـــكلي، فقـــد رســـم أحـــدهم مـــرة صـــورتي وأرســـلها لطلبـــات المســـتمعين يطلـــب إحـــدى أغـــانيَّ وذكرهـــا المـــذيع يومهـــا قـــائلا: "لقـــد صـــورت فريـــد حســـن أنـــه أصـــلع وهـــو ذو شـــعر كثيـــف." (حينهـــا) وأنا إلى اليـــوم مـــع تراجـــع شـــعري قلـــيلا لم أصـــب بالصـــلع والحمـــد لله.

أعود إلى العسكري الذي سألني إذا ما كنت حقا أنا هو فريد حسن.

قلت له: "نعم وأسمعته المقطع الأول من "درسك يا غلانه" ولم يكن منه إلا أن قال: "ادخلوا واصطادوا فكيف أردكم ومعكم فريد حسن؟"

فعلا يومها كان هذا الموقف يساوي عندي الكثير، فهذا العسكري الطيب لا يسمح لسيارة عليها لوحة دبلوماسية وفيها ثلاثة دبلوماسيين، ثم يسمح للسيارة لأني معهم، ومن جهة أخرى أنقذني من ورطة ورطني بها صاحبي الملحق وهو كان يقصدها، لكن الله أراه أنني غال عند الموريتانيين أكثر مما يتصور بكثير.

طرفة ثالثة من نفس الطعم:

عام 1980م كانت الأحداث في سورية تشابه التي تجري الآن، لكنها كانت أقل منها بمئات المرات، وبعد تركي لموريتانيا بعام ونيف وهذا ما سيأتي ذكره في حلقات قادمة عندما أتحدث عن العودة من جديد إلى موريتانيا لكنني ، خرجت من سورية لظرف سأشرحه لاحقا في حلقة قادمة قاصدا ألمانيا للعمل أو الإقامة فيها لكن ظروفا لقيتها فيها جعلتني أغير رأيي، كنت جديدا في ألمانيا ولا أتحدث الألمانية، ولم أشأ أن أطلب من أهل الدار التي أنا ضيفها أن يرافقوني إلى السفارة فهم مرتبطون بالعمل ولا يستطيعون فعل ذلك إلا في ظروف قاهرة، يعني أخذ الإجازة من العمل، كما أنني في الأصل لم أقل لهم بأنني يمكن أن أغادر ألمانيا إلى موريتانيا ! فقط قلت لهم: "افتحوا لي دليل الهاتف على السفارة الموريتانية لأن لي شخصا أعرفه فيها وأريد التحدث معه." ففعلوا وطويت تلك الورقة كعلامة أو إشارة تدلني عليها إذا ما فتحت الدليل فيما بعد !

في صباح اليوم التالي اتصلت بالسفارة قبيل الظهر بقليل، ورد علي موظف فيها فقلت له: "أنا أريد أن آتي للسفارة ولا أعرف مكانها دلني على المكان إذا تفضلت." وقلت له: "أتمم معروفك فأنا أسكن في منطقة كذا أرجو أن تشرح لي كيف السبيل للوصول إلى السفارة. أرجو أن تملي علي وسأكتب أرقام الحافلات أو الترام أو المترو التي سأستخدمها وأسماء المواقف التي سأنزل فيها أو أصعد منها بعد

ذلك." وكان حظي جيدا لأنه كان خبيرا في ذلك فبعض الناس لا يعرف غير طريق بيته أو الطريق إلى عمله !

لبست ملابسي بسرعة واتجهت إلى القطار ثم إلى الحافلة ونزلت في الموقف الذي حدده لي ولم أسر طويلا فقد كانت السفارة ليست بعيدة من هناك، دخلت السفارة وسألت الاستعلامات ما إذا كان السفير موجودا فقالوا: "تفضل وسنعلمه بأنك تريد مقابلته." حتى الآن أنا لم أذكر اسمي لأحد، لا الذي حدثته على الهاتف ولا الاستعلامات، فقط أعطيت جواز سفري لأحد الموظفين وقلت له: "بلغ السيد السفير أن صاحب هذا الجواز يرغب بمقابلتك." وما هي إلا لحظات فإذا بالسفير وجوازي بيده يخرج إلي ويقول: "فريد حسن هنا ويطلب إذنا بالدخول؟" وكلاما ترحيبيا كثيرا يدل على حب كبير أصلا في أعماقه لي، فرحت بحرارة لقائه لي وحمدت الله أن جمعني به وليس بغيره من القلة التي لا تعير الفن ولا الثقافة ولا ما قمت به من دور، وما قدمته لبلدي الثاني من واجب، تصافحنا وكان لقاء أخويا بكل ما في الكلمة من معنى، لم أكن أعرف اسمه ولا من أي مدينة هو في موريتانيا حتى إنني لم أفعل بعد ذلك.

بادرني بالحديث عن أحوالي ولماذا غادرت موريتانيا وتركت أناسا يحبونني وأحبهم؟ قلت له :"كانت هناك ظروف شخصية اضطرتني لذلك." فقال إن الناس هناك افتقدوك وهم لا ينفكون يسألون عنك." وقال: "يجب أن تذهب إليهم ولا تنقطع عنهم ولو لزيارة وإذا كنت مستعدا أن تذهب في هذه الفترة فسأضع لك تأشيرة فورا على جواز سفرك."

كنت أنتظر ذلك بشوق لأنني وجدت أن مكاني هو موريتانيا وليس ألمانيا لكثير من الأسباب التي سآتي عليها فيما بعد كما ذكرت، لم يكن من الرجل إلا أن استدعى أحد الموظفين وطلب منه أن يضع لي تأشيرة دخولا لثلاثة أشهر، أحضرها بعد قليل وقد وضع الطوابع عليها أيضا والتي رفض أن يأخذ ثمنها مني، طبعا أشكر الرجل الذي لم أعرف اسمه ولا مدينته، والشهامة أصلا هكذا تكون، لقد عرفت فيه طيبة

وأصـــالة الموريتـــانيين الـــتي عهـــدتها والـــتي كانـــت تـــدفعني يومـــا بعـــد يـــوم للتعلـــق بحـــب هـــذه الـــبلاد البســـيطة بشـــكلها وطبيعتهـــا لكـــن العظيمـــة بقيمهـــا وأخلاقهـــا، أليســـت أمثـــال هـــذه المواقف كافية أن تجعل الإنسان يتعلق بها ويحبها؟

طبعـــا دار حـــديث مجاملـــة بيننـــا وشـــكرت الرجـــل وودعـــني إلى البـــاب، نعـــم إن مواقـــف كهـــذه تعتـــبر طرفـــة إذا مـــا قيســـت بمواقـــف أخـــرى ســـآتي علـــى ذكرهـــا لـــبعض المبغضـــين للعرب سامحهم الله وصوب تفكيرهم.

وإلى لقاء قريب في حلقة قادمة بإذن الله أستودعكم الله دمتم لي.

××××

نزولا عند رغبة بعض الأصدقاء في ذكر أسماء كل الأشخاص المهمين والمسؤولين الذين يرد ذكرهم في الفصول والذين لا أتذكر أسماءهم سأضع جانب الشخص المقصود التحدث عنه قوسين فارغين للإشارة للإخوة القارئين أنني في انتظار رسالة ممن يعرف الاسم كي أضيفه فتكتمل مصداقية القصة وموضوعيتها وهو أمر أؤيده وأوافق عليه، وأوضح سببا لا يحتاج للتوضيح بقدر مايحتاج للتنويه وهو أنني أكتب الآن في عام 2016 م عن أحداث وقعت عام 1977م فما بعد وضمن قواعد التذكر التي لكل إنسان قدرات محددة فيها مع كثرة المواد واختلاف قدرة التذكر من مادة لأخرى وأنا أعترف بتفوق ذاكرتي الشديد في حفظ الأحداث على الأسماء فقد يفوتني ذكر أسماء لم يتكرر لقائي بها كثيرا.

لذلك أرحب بمساعدة من يتمكن من ذلك، ولن ينقص من قيمة القصة إذا ترك الاسم فارغا لكن ذكر الاسم يفيد في عمليات التوثيق للمستقبل لمن يريد الرجوع إلى هذه المذكرات، كما يعطي للشخص المتحدث عنه حقه كفاعل إنساني في القصة سلبا أو إيجابا.

متابعة لبعض المواقف الطريفة التي حصلت لي في موريتانيا في فترات وجودي فيها أقدم بعضها في هذا الفصل:

طرفة في العيون:

في رحلتي الأولى إلى العيون والتي سيأتي ذكرها في حلقات العودة إلى موريتانيا، كنت في هذه الرحلة مدعوا من وإلي العيون بالوكالة عام 1980 م، حيث كانت إقامتي في بيت الولاية، علما أنه كان يرافقني أحد أصدقائي والذي كان قبل ذلك من عداد طلابي في تكوين المعلمين المعلم محمد الشيخ أحمد من سكان مدينة العيون حيث كان معي من نواكشوط إلى الطين طان التي أقمت فيها ليلة ساهرة، ثم تابعت إلى العيون لأقيم فيها أكثر من ليلة ساهرة، وفي ليلة لم يكن عندي حفل اتفقت مع صديقي وطالبي أن نذهب في جولة مسائية نسلم على بعض المعارف والأصدقاء، كانت ليلة مقمرة والقمر فيها بدر في كماله، اتجهنا من منطقة منخفضة أشبه

بالـوادي صـوب منطقـة جبليـة فيهـا كتـل ضـخمة جـدا مـن الصـخور، أحـدثكم بمـا رأيـت وأصـفه وقـد يعـرف أبنـاء المدينـة إلى أيـن كـان مسـارنا، لأنـني لم أسـأل صـاحبي عـن اسـم المنطقـة الـتي كنـا قاصـدين لهـا، وصـلنا إلى نهايـة العمـران ولم يبـق بيننـا وبـين الصـخور العظيمـة المرتفعـة إلا عشـرات الأمتـار،ثم انعطفنـا في مرتفـع علـى اليمـين حيـث كـان البيـت الـذي اختـاره صـاحبي لسـهرتنا لتلـك الليلـة، سـلمنا علـى شـابتين كانتـا تجلسـان أمـام الـدار، ومـا هـي إلا دقـائق حـتى كانـت جلسـة بيضـانية بامتيـاز تجمعنـا، فـرش سـريع للمكـان متكـأ مـريح للجميـع مسـجلة تصـدح بالألحـان، فرنـة تلتهـب فيهـا بضـع فحمـات اسـتعدادا، لأتاي، (الشـاي الأخضـر المنعنـع) مـواعين أتاي تسـتعد للكـأس الأول، الشـابتان مهـذبتان متحـدثتان لبقتـان ذكيتـان جميلتـان لهمـا نفـس الصـفات ولم أعـرف إن كانتـا أختـين أم غـير ذلـك لأن صـفاتهما المتقاربـة جـدا جعلتـني أتوقـع أنهمـا أختـان، هـذا كلـه علـى ضـوء القمـر فقـط فـالكهرباء حينهـا لم تكـن موجـودة إلا في بعـض الأمـاكن المحـدودة كبيـت الـوالي ولأوقـات محـددة فقـط، لكـن القمـر في ليـل صـاح خـال مـن الغيـوم حـتى أبيضـها، وفي ليلـة هـي النصـف مـن الشـهر القمـري كانـت كافيـة لتنـوب عـن كـل إنارات الإنسـان الاصـطناعية، جلسـة هادئـة جميلـة تجمـع شـبابا جمـع القمـر والجبـل والجـو اللطيـف البعيـد عـن حـر النهـار بـل حـتى عـن حـر كـل الأمـاكن المغلقـة حـتى لـو كـان الوقـت لـيلا، موسـيقى متنوعـة تجمـع بـين أردين،وتيـدينيت، وكيتـار، مـن جهـة وبـين عـودي وصـوتي مـن جهـة أخـرى، موسـيقى خافتـة تسـمح للكـلام الـذي يـدور بيننـا أن يكـون سـهلا ومفهومـا، الكـأس الأولى كانـت كافيـة للدلالـة علـى صـنعة متقنـة لمـن صـنعته، اسـتعدادا للكـأس الثـاني وهكـذا تنطبـق جيمـات أتاي الـثلاث فـالجمر يتـوهج ناشـرا وهجـه الجميـل أمامنـا، والجماعـة المتجانسـة السـعيدة موجـودة، والجـر يرافقـه موسـيقى عذبـة وأحاديـث تعمـر القلـب وتزيـده شـبابا إلى شـبابه، إذا فقـد تـوافرت الجيمـات الـثلاث لأتاي (جـر، وجمـر، وجماعـة)في هـذا الجـو الشـاعري الرومانسـي الرائـع شـعرت بـريش أنعـم مـن ريـش النعـام يلامـس أذني ورقبـتي، شـعرت بثقـل يصـعد مـن ظهـري نحـو رأسـي كرفـق ملامسـة الـريش لرأسـي والـذي أحسـت بـه

أذناي ورقبتي الأكثر حساسية من باقي الرأس حصل هذا في ثانية أو أجزاء منها، خطر ببالي أن تكون حمامة، لكن الحمام لا يتحرك ليلا، ثم خطر ببالي أن تكون قطة تريد مداعبتي لكن أين مخالبها ؟ فأنا لم أشعر بالمخالب، سألت الجماعة: "ما هذا الذي صعد على ظهري ورأسي؟" لأنهم مقابلي وعساهم شاهدوه أجابوني: "خبخابة."

كنت رأيت من قبل في سورية على جبهة الجولان في أول السبعينات عندما كنت ضابطا مجندا في الجيش عناكب كبيرة تغطي الواحدة منها حجرا من أحجار البناء التي كنا نضعها حوالي الخيمة لترد عنا الماء والرياح والغبار وتكون أبعاد الحجر الواحد من ثلاثين إلى أربعين سنتمترا، نعم لكن تلك التي كنت أراها في الجولان لا أتوقع أن يزيد وزنها عن ثلاثمائة غرام أو نصف كيلو على أبعد تقدير، أما هذه فكانت تزن كيلوغراما إن لم يكن أكثر، بعد كل الجو الشاعري الحالم انتقلت فجأة إلى شريط من الأفكار تغلي وتتفاعل بسرعة رهيبة، رغم أنها كانت وديعة رقيقة مسالمة غير عدوانية لكني لم أنتظرها كي تتخذ قرارا ما سلبيا كأن تستخدم بعض أدواتها والتي لا أعرف طبيعتها إن كانت سامة أم لا، أو تنزل عن ظهري ورأسي وتتجه إلى تسلية أخرى غيري، لا أعرف لماذا هي فعلت ذلك هل هي أليفة تحب البشر وترغب بممازحتهم، أم أنها لم تعرف أو تميز المكان الذي صعدت عليه، فأنا أعرف أن أغلب الحيوانات تهرب من الإنسان وتخافه، ورغم أنه كان لي في فترات مراهقتي هوايات في مداعبة الحيوانات حتى الخطرة منها كالأفاعي التي كان لأحد مشايخ الطريقة الرفاعية دور في جعلي أتسلى بها وبالبحث عنها، ورغم ذلك وجدتني عندما صارت في مرحلتها الأخيرة كلها متربعة على رأسي، وما كان مني إلا أن أرمي بها وبقوة وسرعة بعيدا عني دون أن أنتظر لمعرفة مصيرها، ولا أعرف لماذا صدر مني موقف غير عقلاني كهذا، حيث أطلقت ساقي للريح تسابقان الرياح تجاه طريق العودة إلى بيت الوالي، وما كان من صديقي وطالبي محمد الشيخ أحمد إلا أن يتبعني، عند مجيئنا كان صاحبي هو دليلي في المسير أما الآن فلقد ركضت قبله وإلى

أن قــرر أن يتبعــني كنــت أتقدمــه بمئــات الأمتــار، رغــم أني لا أعــرف الطريــق لكــن بيــت الــوالي المنــار بالكهــرباء كــان منــارتي الــتي أهتــدي بهــا إلى الطريــق وحــتى لا أحيــد عــن البوصــلة وهــي أنــوار بيــت الــوالي كــان لا بــد أن أســير بخــط مســتقيم، وحــتى أفعــل ذلــك كــان لا بــد لي مــن القفــز فــوق أســوار بعــض البيــوت الــتي كانــت لا تزيــد عــن الســتين أو الســبعين ســنتمترا وفي أكثــر مــن بيــت اســتيقظ أصــحابها صــارخين مــاذا يحــدث وصــار نبــاح بعــض الكــلاب جــل قــدركم يزيــد الطــين بلــة، كــل هــذا بســبب تلــك الخبخابــة البلهــاء ســامحها الله، ولا أعــرف إن كــان صــاحبي قــد اعتــذر هــو مــن الشــابتين اللتــين أتمــنى الآن لــو رأيتهمــا، طبعــا بعــد أنأ صــبحتا كهلتــين، لأعتــذر منهمــا عــن مشــيتنا عــن كأســين ولــيس عــن كــأس واحــدة، وأن أدفــع لهمــا خمســمائة أوقيــة ولــيس خمســا تنفيــذا لقــرارات الصــبايا الــتي كانــت ســائدة حينهــا، عقوبــة لكــل مــن يغــادر مجلــس أتاي قبــل أن تكتمــل كؤوســه الــثلاث، فعــلا كــان موقفــا غــير مــدروس علــى الأقــل منطقيــا، تــترك جلسة أنس كهذه من أجل خبخابة رقيقة لم تصبك بأي أذى؟

لقــد رويــت لكــم بأمانــة وصــدق ودقــة كــل مــا حصــل حــتى مشــاعري وأحاسيســي الــتي ســجلت في ثنــايا دمــاغي ذلــك الحــدث الــذي كــأني بــه أمــامي الآن يكــرر تصــور مــا حــدث بعــد قرابــة الأربعــين عامــا وإلى طرفــة أخــرى ممــا لقيتــه في رحــلاتي في ربــوع موريتانيــا الغالية، وإلى اللقاء في الحلقة القادمة أترككم في عناية الله ورعايته ودمتم بخير.

××××

-29 -

إحــدى الطرائــف الــتي صــادفتني في موريتانيــا:(الــوحم). واقعــة صــادفتني وكنــت في الوهلــة الأولى في حالة من التشتت.

وقبل أن أتابع الطرفة سأتحدث قليلا عن الوحم علميا، ثم من خلال تجاربي ومعلوماتي الشخصية في سورية ثم موريتانيا وبعدها نعود إلى الطرفة.

ماهوالوحم علميا؟ الوحم حالة تمر بها المرأة في الأشهر الأولى من الحمل، حيث تواجهها بعض المشاكل النفسية والصحية التي تستمر عند بعضهن إلى الشهر الرابع وعند بعضهن طوال فترة الحمل، ويكون عند بعضهن شعور بالقيء ودوخة بسيطة في الأشهر الثلاثة الأولى يصاحبهما تقلب في مزاج المرأة، وهو يحدث عند نصف الحوامل تقريبا، وتختلف أعراضه من حيث الشدة أو اللين من امرأة لأخرى، كما تتوحم النساء فيه على نوع من أنواع الطعام المالح أو الحلو أو الحامض كالليمون، وأحيانا على أطعمة غير قابلة للأكل قبل الحمل عند نفس المرأة فكيف عند غيرها (كالبيلون أو التراب) هذا في سورية، وهناك أقوال أنها تفعل ذلك بسبب تناقص بعض المواد السريع في الجسم كالكالسيوم فتدفعها فطرتها للبحث عنه في البيلون وهو تراب أحمر متماسك كالصخر يستعمل في حقن آبار البترول لمنع التسرب فيها.

ويختلف وحم الحامل بولد ذكر، عن الحامل ببنت: فالحامل بولد ذكر تتوحم على المالح والبروتين واللحوم والأجبان، أما الحامل بأنثى فتتوحم على الحلويات والفواكه وعصير البرتقال.

ولن أسهب في الشرح العلمي حتى لا يهرب الكثيرون من غير محبي العلم، كما هو حاصل مع طلابي في صف نظرية الأيام المحيرة في الغضب والأعمال العدوانية الذين يتغيب قسم منهم عندما تكون الحلقة، ويحضرون جميعا عندما تكون الحلقة، لا بأس: إذا الوحم حالة مرضية عابرة مؤقتة درست علميا عند الأطباء وأصحاب الشأن، لكن هناك معتقدات وتجارب للشعوب تتعلق بالوحم وتختلف من مكان لآخر ومن زمان لغيره.

ففي سورية مثلا إذا توحمت المرأة على طعام يجب إحضاره لها لا لشيء إلا لأن هذا الذي توحمت عليه سيخرج على جسم الطفل في أول مكان تحك المرأة جسمها فيه بعد الاشتهاء الشديد الذي أصابها لطعام أو فاكهة أو ما ماثل، وفي حال عدم تلبية

طلبها بسرعة يأتي الولد وصورة ذلك المشتهى عليه على مكان ما من جسمه، ولهذا يحاول المحبون لزوجاتهم تحاشي الاشتهاء دون تنفيذ ما اشتهته المرأة الحامل.

أما في موريتانيا فقد سمعت قبل أ نأتطرق إلى الطرفة التي اقترب موعد الحديث عنها كنت ومن خلال الأحاديث التي تدور عن وحم النساء عرفت أن النساء الموريتانياتأ و بعضهن بشكل أصح يتوحمن على كل شيء من ذهب ولباس وحقيبة وساعة اليد والنظارة إلخ. وحتما أنهن أضفن الآن الموبايل والكومبيتر وال...إلخ وأنه في حال عدم تأمين ما توحمت المرأة عليه فقد يصاب الجنين بأذى أو قد تصاب أمه بأذى أو قد يصاب كلاهما بأذى.

وإليكم الطرفة: في صباح أحد الأيام طرق باب دارنا في (حي ب، م، د في نواكشوط) رجل ناداني الأولاد فقالوا: "بابا في الباب ضيف يريدك." هرعت نحو الباب فإذا برجل حسن المظهر والهندام لبق الحديث عرفت لباقته عندما بدأ يعبر لي عن سبب زيارته الغريبة لي، حيث بدأ يشرح لي ويسألني إن كنت سمعت عن ذلك في موريتانيا، قال: "إن زوجتي تتوحم." قلت في نفسي وليس في دارنا شجرة ليمون أو أي فاكهة أخرى من عنب أو بلح أو برتقال أو تفاح أو رمان فما هو موضوع وحمها؟ "ووحمها أنت يمكن أن تساعدني فيه." قلت له: " أطلبفأنت في داري ولا يمكنني أن أرد ضيفي خائبا!" قال: "يا أخي إن زوجتي تتوحم على صوتك." قلت له: "ليس هناك مشكلة أقدم لك أحدأشرطتي هدية فتسمعه وتشبع وحمها." قال: "لا لقد قالت لي أن أدعوك للحضور إلى بيتنا وأن تغني وتشاهدك أمامها وإنها ستدعو رفيقاتها ليكن إلى جانبها." قلت: "لا بأس ليس عندي مشكلة طالما أن طلبك ممكن تلبيته فقط حدد موعدا لذلك وسأكون ملبيا لوحمها." قال: " أيمكن أن يكون ذلك في الغد؟" قلت له: "خير البر عاجله قبل أن تصاب أختنا بأذى لاسمح الله (وأنا أتبسم في أعماق نفسي)." اتفقنا على الموعد الذي سيأتي فيه غدا ليصطحبن يإلى داره. سألتني أم عيالي: "ماذا كان الرجل يريد منك ؟" حدثتها بما جرى بيننا من حديث. تغير لون وجهها وكأنها وككل النساء غارت من الموضوع،

قلت لها: "يا ابنة العم إن زوجها بنفسه هو الذي يعزمني وليست هي، ولو كان في الموضوع أي خلل لا سمح الله فهل سيقبل الزوج بذلك؟" صحيح أنها لم تتابع نقدها الذي كان ينم عن غيرة كامنة لكنها سكتت على مضض.

وفي صباح اليوم التالي وفي الموعد الذي اتفقنا عليه حضر الرجل بسيارته، حيث حملت عودي الحبيب واتجهنا إلى بيته وهو يقع في البيوت الأولى القريبة من كابيتال من سانكييم، كان بيتا جميلا مرتبا يدل على ترتيب وذوق، الصالون كان واسعا ومفروشا بمفروشات لا بأس بها، قامت الأخت الموجوعة وسلمت علي وشكرتني على تلبية دعوتها، كان معها بعض صديقاتها لكن العدد تزايد رويدا رويدا، كان في الوسط مسجلة كبيرة بشريطين، لقد كان في وعاء مسطح عشرات الزجاجات من الأشربة وبعد ذلك تتالت الضيافات إضافة للكبش الذي كان قد ذبح وجاءنا كبده وفشاي قبل أتاي، ثم جاء المشوي وبعده مارو اللحم، كانت الأخت فرحة بصديقاتها وبتلبية طلبها وتسجيل شريط من صوتي في بيتها وبمشاهدتها، كنت أناأ يضا فرحا وسعيدا لأني استطعت أن ألبي من طلبني، ولو أنني كنت في أعماق نفسي أشفق على صاحب بيتها الذي أتعبته في الإنفاق وإحضار ما يتعلق بذلك من خدمات، ولله في خلقه شؤون.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذنه تعالى.

دمتم لي.

××××

المرحة الانتقالية بين الرحلة الأولى إلى موريتانيا والرحلة الثانية:

يمتد زمانها من آب/ أغسطس عام 1978م إلى كانون الثاني/ يناير عام 1980م والمكان هو حلب، إن مكانها حلب عاصمة الشمال في سورية الجريحة التي لا تغيب عن خاطري، جرح نازف، وألم مستمر، دمار، خراب، تشتت، بذور عداوة بين الأهل والأشقاء والجيران، تعطيل لكل ما كان موجودا من طاقات هائلة، إتلاف لكل ما تم بناؤه من آلاف السنين إلى اليوم، دماء لا تقدر بثمن، شهداء بمئات الآلاف، سلاح مدمر دفع ثمنه الآباء ثم جيلنا ثم جيل الأبناء وكنا نحتفظ به للدفاع عن أرضنا ضد عدونا الحقيقي، حرمان من كل مقومات الحياة الكريمة، عذاب ومعاناة دون جدوى بل يا ويلتنا إن كان الناتج خسارة وندما لا قدر الله وأظنه كذلك مع الأسف، وأدعو الله أن يخيب ظني في ذلك.

لا أريد أن أدخل في السياسة لأننا في وطننا العربي كلنا سياسيون علما أن واحدا في كل مائة ألف يفهم السياسة والباقي لاعلاقة لهم بالسياسة الحقيقية بل هم أناس تحركهم عواطف بنيت على أسس قبلية أو جهوية أو حزبية أو عصبية مذهبية أو عرقية أو منطقية علما أن هذه العواطف كانت وما زالت تشكل خطرا على وجودنا وتحضرنا وقوتنا، فالغير يريد لنا أن نتفرق أكثر وأن نتمزق أكثر، بدلا من أن نتحد، بينما هم يتحدون دونما روابط تجمعهم كقوة روابطنا وعددها، لكن التأثير السلبي الخارجي عندهم منعدم بينما نحن ليس فقط نخضع للتأثيرات الخارجية، بل إن هناك جهات عملاقة متخصصة تدرسنا عن بعد كمخلوقات بشرية مخصصة للتجارب في مخابرهم التي يشرف عليها كبار العلماء في علوم النفس والاجتماع والتاريخ والاقتصاد والسياسة وغيرها من العلوم الإنسانية.

معذرة فأنا كتلة مشاعر لا تتجزأ فما أراه وأسمعه من أخبار ومشاهد يتمزق لها القلب، أتذكر هذا كله كلما يذكر اسم حلب، سواء ذكرته أنا أم ذكره غيري، حلب

التي أريد أن أتحدث عن فترة انتقالية بين رحلتي الأولى والثانية إلى نواكشوط أمضيتها فيها، فبعد وصولي إلى حلب عينت مديرا لثانوية المعري أكبر ثانوية في حلب والتي كنت مدرسا فيها قبل مجيئي إلى موريتانيا أول مرة.

وفي هذه المرحلة زارني عدد من الإخوة الموريتانيين كالمرحوم سيمالي ولد همد فال الذي بات عندي ليلة في داري وكان في تلك الفترة يدرس الموسيقى في العراق وجاء إلى سورية في زيارة لدمشق وخصني بزيارته إلى حلب رحمه الله خصيصا كي يلتقيني ونتذاكر في أمور الفن والغناء وما تلقاه من دراسات في الموسيقى العربية، رحمك الله يا سيمالي كم كنت حافظا للعهود والوداد، وقد أخذته إلى عدة بيوت من أقاربي لأعرفه عليهم وأعرفهم عليه، وقد صنعنا له مارو الحوت وأعجبه كثيرا وبأتاي الذي كان وقتها نادرا في سورية.

وكذلك زارني أحمدو ولد مياح الذي كان في دورة إعلامية في دمشق وقد جاء إلى حلب أيضا خصيصا لزيارتي، وعندما نزل من الحافلة التي أقلته من دمشق إلى حلب اتجه إلى سيارة أجرة طالبا من سائقها أن يوصله إلى بيت فريد حسن، معتقدا أن فريد حسن معروف في سورية كما هو معروف في كل موريتانيا وخلال زمن قياسي هو سنة ونيف فكيف لا يعرف في بلده الذي عاش فيه نيفا وثلاثين سنة؟ لكن السائق قال له: "ومن هو فريد حسن؟" قال له السائق: "أنا لم أسمع بهذا الاسم من قبل." اجتمع عدة أشخاص حوله لمساعدته في حل المشكلة، وأخيرا بعد أن عرفوا أني مدرس، قالوا له: "اذهب إلى مديرية التربية وسوف يعطونك عنوانه." وفعلا تمكن من أخذ العنوان من مديرية التربية بحلب حيث قالوا له: "إنه مدير ثانوية المعري." وفعلا أخذ تكسي آخر وطلب منه أن يوصله إلى ثانوية المعري وحلت المشكلة ووصل أحمدو وجاءني من يخبرني بوصوله ففرحت جدا للقائه وشرح لي معاناته حتى وصوله إلي، ذهبنا إلى سوق السمك لأخذ بعض السمك لصنع مارو الحوت الذي أحبه أنا كثيرا لطعمه الشهي وفائدته الكاملة والأهم من ذلك لأنه

يـذكرني بموريتانيـا، تناولنـا غـداءنا وشـربنا الشـاي الموريتـاني، وتـذاكرنا أخبـار موريتانيـا ومـا استجد من بعدي وأحوال الإذاعة والفن وما تغير في نواكشوط.

في ربيـع 1979م بـدأت بعـض المشـاكل الأمنيـة في سـورية ورافـق ذلـك مـرض والـدي رحمـه الله والـذي كـان أحـد أسـباب مغـادرتي الأولى لموريتانيـا، كـان المـرض مسـببا لتوقـف عملـه وحاجتـه للمسـاعدة الماديـة مـن جهـة وتأمـين الأدويـة والعـلاج لـه بأنواعـه، ولأن أسـرته حينهـا كانـت مكونـة مـن سـبعة أشـخاص أمـا أسـرتي فكانـت مـن عشـرة أشـخاص ولم يكـن راتـبي ليكفـي لهـذا الوضـع الـذي طـرأ في أسـرتي، يضـاف إليـه الأوضـاع الأمنيـة الـتي كانـت تـزداد سـوءا يومـا بعـد يـوم ولم يكـن بـين جميـع أفـراد الأسـرة غـيري معـيلا يسـتطيع أن ينـتج ويقـدم المسـاعدة للأسـرة، وتبعـا لهـذه الظـروف مجتمعـة كـان الحـل الأمثـل هـو خروجـي مـن سـورية لأتقـي احتمـالات حـدوث مكـروه لي فتبقـى هـذه الأسرة الكبيرة دون معيل.

كـان خطيـب إحـدى أخـواتي يعمـل في ألمانيـا واقـترح علـي أن أرافقـه إلى هنـاك ليفتـتح مشـروعا صـناعيا أسـاعده في عمليـة الإدارة ويكـون دخلـي المـادي كافيـا للإنفـاق علـى أسـرتي وأسـرة والـدي وأكـون بعيـدا عـن تبعـات مـا كـان سـائدا وقتهـا في الـبلاد، وقـررنا أن أقـدم طلبـا للاسـتيداع مـن وظيفـتي لأربـع سـنوات، كـي أتمكـن مـن السـفر معـه بعـد عودتـه مـن ألمانيـا الـتي كـان قـد قـرر السـفر إليهـا بعـد أيام قليلـة حيـث يهـيء أوضـاع العمل هناك، وأكون قد أنهيت معاملة الاستيداع من دمشق وحلب.

وأصـبحت أنا جـاهزا للسـفر بعـد إنهـائي لكـل إجـراءات الاسـتيداع وإذن الخـروج وتأشـيرة ألمانيـا، ولم يبـق لنـا إلا انتظـار قـدوم صـهري الجديـد مـن ألمانيـا لنترافـق قاصـدين تنفيـذ المشـروع الـذي ينتظـرنا في ألمانيـا، لكـن القـدر كـان يخبـئ لنـا خـبرا حزينـا حيـث تـوفي الرجـل في حـادث سـير بينمـا كـان يقـود سـيارته علـى طريـق العـودة مـن ألمانيـا إلى تركيـا عـبر البلـدان الأوربيـة الـتي تفصـل بينهمـا، حيـث اصـطدمت سـيارته المنطلقـة بسـرعة زائـدة بجـرار زراعـي دخـل مـن طريـق فرعـي فجـأة، وهكـذا وقعـت في حـيرة مـن أمـري، الوظيفـة صـرت خارجهـا بموجـب الاسـتيداع الـذي تقـدمت بـه لـوزارة التربيـة،

العمل الذي كان ينتظرني كمدير لمشروع مهني انتهى أمره بوفاة صهري صاحب المشروع، واقع أسرتي متعب بل مأساوي، واقع البلد الأمني يزداد سوءا يوما بعد يوم، لم يكن أمامي سوى حل وحيد هو مغادرة سورية، كانت الفيزا إلى ألمانيا بمنتهى البساطة حتى إن شركات الطيران هي التي كانت تقوم بالحصول عليها دون أن يذهب صاحب العلاقة بل بمجرد إرسال جواز سفره توضع الفيزا على الجواز، في اليوم الثاني كانت الفيزا لألمانيا على جواز سفري، ودعت الأهل وذهبت إلى دمشق حيث ستطير الطائرة إلى بون في ألمانيا حيث يوجد أحد أعمامي، وتوجد أخت صهري المتوفى بحادث السير على طريق أوربا تركيا، حملت معي حقيبة ملابسي وعودي وعلبتين من حلويات المست الحلبية المشهورة على مستوى العالم، علبة لكل بيت سأزوره، هبطت الطائرة في مطار برلين الشرقية وكان لا بد من الانتقال إلى مطار برلين الغربية في حافلات مأجورة، جاء بائع التذاكر فناولته قطعة نقدية من فئة عشرة مارك (وهي عملة ألمانيا وقتها) رأيته يمعن النظر فيها، ورغم أننا في وقت الفجر وإنارة الحافلة الداخلية ليست كافية للقراءة أو ما إلى ذلك، لكنه رغم ذلك استطاع أن يعرف أن النقود ليست سارية المفعول فهي من سنوات خلت، فأشار لي على التاريخ وأنها غير مقبولة فناولته غيرها وكنت قد استبدلت مائتي ليرة سورية مساء مغادرتي لأنها كانت زائدة عن حاجتي وكان هذا عند صراف عند مدخل سوق الحميدية بدمشق وكان المارك الواحدي ساوي ليرتين سوريتين، فأعطاني عشرا من فئة العشرة ماركات، ولا أعرف إن كان هو أيضا يعرف أولا يعرف أنها جميعها قديمة قد بطل استعمالها، فهي جميعها من تواريخ الخمسينيات وكنا نحن في أواخر السبعينيات.

أعود لجابي الباص الذي سينقلنا من برلين الشرقية إلى الغربية وكانتا ما تزالان منفصلتين بجدار برلين العازل فقد رد الجابي القطعة النقدية الأولى من فئة عشرة مارك لأنها باطلة وكذلك فعل لكل القطع التسع الأخرى، وقد اضطررت إلى إعطائه قطعة نقدية ورقية من فئة المائة مارك ليأخذ ثمن بطاقة الركوب بين المطارين الشرقي

والغربي، فصرفها وأعاد لي بقية المبلغ، وحين فرغ من قطع التذاكر عاد إلي يسألني إعطاءه النقود لتبقى ذكرى لديه، رفضت إعطاءها له طالما أنها ليست ذات قيمة فلماذا يطلبها مني بعد أن رفضها من قبل؟

ركبنا طائرة لوفتهانزا التابعة لألمانيا الغربية وما هي إلا ساعات حتى هبطنا في مطار كولون، حيث نقلتنا الحافلة من كولون إلى بون، وفي محطة الحافلات كان لا بد لي من الانتقال بالتاكسي ليوصلني إلى حيث أريد، ولم يكن لدي إلا عنوانان: عنوان عمي الذي كان يقيم هناك منذ سنوات، وعنوان شقيقة المرحوم صهري الذي قضى في الحادث المروري، فأظهرت العنوانين لسائق التكسي وقلت له خذني إلى العنوان الأقرب. وكنت أعتقد أن الناس جميعا في الغرب مستقيمون في معاملتهم كما يقال عنهم.

سارت السيارة ساعة وكانت الأجرة قرابة المائة مارك وهو مبلغ كبير وأنزلني أمام بيت عمي الذي لم أكن أعرف أن بيته في ضواحي بون، وفيما بعد عرفت أن العنوان الآخر بست ماركات فقط وعرفت أن اللصوص موجودون في كل مكان. كان الطقس باردا جدا فنحن في أربعينية الشتاء، قرعت باب الدار التي يسكنها عمي فخرجت صاحبة الدار وهي امرأة عجوز، سألتها عن عمي فقالت ما زال في عمله وهو يأتي في الخامسة عصرا وكنا قرابة الثانية ظهرا، كان بالقرب من المكان محل لبيع المعجنات طلبت من صاحبته أن أضع أغراضي عندهم كي أتمكن من الذهاب لمطعم أو مقهى أضيع بعض الوقت فيه ريثما يقترب موعد قدوم عمي، رفضت المرأة طلبي علما أن ابنتها الشابة رجتها أن تلبي طلبي لكن دون جدوى، مما اضطرني للبقاء عدة ساعات في البرد أنتظر، جاء عمي بعدها لأتفاجأ بأنه يعد عدته للسفر راجعا إلى سورية، وكان مكان النوم عنده أيضا لا يكفي لشخصين مما دفعني في اليوم التالي للذهاب إلى العنوان الآخر ربما يكون أكثر ملاءمة وذهبت برفقة عمي وفعلا كان المكان أكثر ملاءمة من جميع النواحي، ومن خلال البحث عما يمكن أن أختاره من أعمال وجدت أن الواقع صعب جدا وأنه لا بد من وقت طويل حتى

تستقيم الأمور، ووضع أسرتي وأسرة والدي لا يحتمل هذا الوقت الطويل مما جعلني أفكر جديا في مغادرة ألمانيا والاتجاه إلى موريتانيا التي لي فيها أمجاد فنية. وسنرى في الحلقة القادمة تفاصيل ذلك؟

دمتم لي.

××××

طالما أني طرحت في الحلقة السابقة مشكلة عند تبديلي الطائرة من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية في برلين التي كان يفصل بين جزأيها جدار مشهور هو جدار برلين، والمشكلة كانت العشر قطع من فئة عشرة مارك عملة ألمانيا حينها والقديمة والمنتهية مفعولها والتي رفض جابي الباص القبول بها، لقد جاء الحل بالصدفة، فبينما أنا سائر في بون عاصمة ألمانيا الغربية وقتئذ أتنزه في أحد الشوارع التي يرتادها السياح وجدت في إحدى الواجهات عملات محلية متنوعة القيمة والتواريخ، فلفت نظري تواريخها المشابهة لتواريخ الماركات المائة من فئة عشرة التي غشني بها ذاك الصراف الشامي القابع عند باب سوق الحميدية بدمشق (المارك هو العملة الألمانية التي كانت سائدة قبل أن يكون اليورو) ، دخلت إلى داخل المحل الذي في واجهته النقود القديمة فسألته عن أسعارها فقال: قطعة العشرة بخمسة وعشرين ماركا، فقلت له وهل تشتريها مني بعشرين ؟ قال : نعم، فأخرجت له عشر قطع دفع لي ضعف ثمنها أي مائتي مارك، وعندها صرت أدعو الله أن يوفق الصراف الدمشقي الذي غشني وأعطاني عملة قديمة لم يقبلها مني واحد من الصرافات الآلية لبيع المياه الغازية أو الدخان حيث كنت أضعها من الأعلى فتنزل مباشرة من الأسفل لأنها مرفوضة علما أن حجمها مساوٍ تماما للعملة الحديثة، كنت أفعل ذلك لأتأكد من عدم صلاحيتها وقد تأكدت.

وإلى موضوع آخر هو موضوع العمل فمن خلال لقائي بأشخاص سوريين وسؤالي عن طريقة العمل في ألمانيا وجدت أنه لا بد أولا من تعلم اللغة الألمانية وبعدها يمكن أن توجد الأعمال، وهذا يستغرق وقتا طويلا، أما بعض الأشخاص الآخرين القادمين إلى ألمانيا فينزلون من الأيام الأولى ليعملوا في أعمال تتطلب جهدا جسديا، ولم أكن أنا قد قمت بهذه الأعمال من قبل، لذلك وجدت أنه من الأفضل لي أن أغادر إلى موريتانيا، لأنني لا أستطيع الانتظار طويلا فكل ظروفي سواء في سورية أو ألمانيا لا تحتمل ذلك فقد تركت قسما من مال كنت قد وفرته من تصحيح

الامتحانات أو ما يتوفر عندي من فائض في بعض الأشهر في الصيف حيث تقل المصاريف وترخص أسعارا لفواكه والخضر ولا إنفاق على المحروقات والمدارس، المهم أني قسمت ما كان متوفرا لدي من مال إلى نصفين، نصف أودعته عند أهلي والنصف الآخر أخذته لمصاريف السفر.

وعند خروجي وهي المرة الأولى التي أخرج فيها إلى أوربا مقيما وليس عابرا، ففي حالات العبور الأمور كانت مؤمنة من قبل شركات الطيران كوني أبدل الطائرة من قارة آسيا إلى أوربا ثم إلى إفريقيا، أما هنا في هذه المرة، حتى أجرة الحافلة من المطار فيجب أن أدفعها، وكذلك أجرة سائق التكسي الغشاش الذي حدثتكم عنه في القصاصة السابقة أيضا أدفعها من مالي، وهكذا قررت بعد الاتكال على الله أن أتوجه إلى موريتانيا لأن نقودي ستنفد ونقود الأهل كذلك وهي الأهم لدواء الوالد ولطعام كل العائلة، أنا الآن في بون عاصمة ألمانيا الاتحادية (الغربية) لا أتكلم لغتها، ولا أعرف كيفية التنقل ولا أحفظ أسماء الشوارع، الطقس بارد وممطر فنحن في أول أربعينية الشتاء، سألت صاحب الدار التي أنا ضيفها عن السفارة الموريتانية أجابني أنه لا يعرف عنها شيئا، قلت له: "أليس عندكم دليل هاتف؟" أخرج الدليل وبدأ يبحث عن هاتف السفارة فوجده وكان الوقت ليلا، وضعت إشارة في الصفحة التي فيها عنوان السفارة وهاتفها، وفي الصباح عند مغادرة مضيفي وزوجته إلى عملهما، فتحت الدليل وأخذت الهاتف واتصلت بالسفارة ورد علي شخص بالألمانية، تكلمت معه بالإنكليزية وأخبرته أني أتكلم الإنكليزية والعربية، فوصلني بشخص تكلم معي بالعربية، فقلت له أنا فريد حسن وأريد القدوم إلى السفارة ولا أعرف العنوان فأرجو إعطائي العنوان مفصلا فقام الرجل بإعطائي العنوان جازاه الله كل خير، وسألته أن يدلني على وسيلة الانتقال التي يجب أن استخدمها من مكاني الذي أنا فيه، وشرح لي مفصلا ما يجب علي فعله، وكتبت كل ما قاله لي على ورقة وخرجت من مكان إقامتي متوجها إلى السفارة مستخدما المخطط الذي أملاه علي.

وصلت إلى مبنى السفارة وقرعت الجرس واستقبلني الموظف الذي اتصلت معه وأوصلني إلى صالة الانتظار، وأفهمته أنني أرغب في مقابلة سعادة السفير وأعطيته جواز سفري، وماهي إلا لحظات حتى خرج السفير بنفسه يرحب بي بعبارات تدل على معرفته بي، بل وشوقه للتعرف علي، زادني ذلك تفاؤلا وأراح ماكان في من ضيق، فلقد انهالت المصائب علي من كل جانب (فتركي لموريتانيا لأكون بجانب والدي الذي لم يكن مرضه واضحا من جهة، والتعرف على مرض والدي بعد إجراء عمل جراحي للبروستاتا عنده، ومعرفة أنه مصاب بالسرطان وأنه انتشر في منطقة الحوض وأن القضية أشهر وينتهي، وموضوع تقديمي للاستيداع من عملي في مديرية التربية بحلب كمدرس ومدير ثانوية، ووفاة صهري الذي كنت سأرافقه وأعمل في مشروعه في ألمانيا، وسفر عمي الذي وجدته قد أنهى أعماله وصفى كل شيء ثم غادر بعد قدومي بيومين إلى سوريا والذي كان يمكن أن يقف إلى جانبي إلى أن أجد عملا لو بقي هناك، ووضع أسرتي وأسرة والدي البالغ عددهم سبعة عشر شخصا لا معيل لهم إلا الله ومن بعده أنا.

نعم شعرت بسعادة كبيرة عندما وجدت استقبالا متميزا من قبل سعادة السفير ودعاني للدخول إلى مكتبه ودارت أحاديث مجاملة مفعمة بعبارات المودة والعرفان، حيث سألني كيف تترك موريتانيا بعد أن أحببتها وأحبتك؟ حدثته بالظروف الصعبة التي دفعتني إلى ذلك وفي مقدمتها مرض والدي (والذي كان بالنسبة لي أغلى من كل إنسان عرفت على وجه الأرض فقد كان والدا متميزا في كل الصفات، وكانت تربطني به علاقة ثنائية يندر أن تربط أي شخصين، فكيف أتخلى عنه في وقت هو في أمس الحاجة إلي؟ وهذا الذي جعلني أختاره في لعبة الخيارات بين أن أبقى في موريتانيا فنانا كبيرا أتقدم بخطى سريعة في مجال الفن وأطور الفن في هذا البلد الذي أحببت. لكن على حساب حبي لأغلى إنسان في الوجود بالنسبة لي، واستقر المزاد على حبي لوالدي، أمور قد لا تكون عند غيري بهذه الأهمية التي كنت أنظر إليها، ولقد كانت إرادة الله أن يقع ما كنت أهرب منه وأخاف وهو ترك والدي، لكني

تركته مكرها ولقد كان ذلك من أجله هو، هل كان علي أن أشرح كل هذا عندما غادرت موريتانيا أو حين عدت إليها؟ طبعا لا، فالناس تنظر إلى ظاهر الأمور وتصدر أحكامها وتصوراتها وتخيلاتها وتنسج قصصا وأقاويل، والطيب منهم يبقى في حيرة من أمره لا يجد جوابا لتساؤله)، أعود إلى مجلس سعادة السفير حيث قال لي: "لكن أنت الآن قريب جدا من موريتانيا وبإمكانك أن تذهب طالما أنك هنا، وخلال فترة قصيرة تذهب وتلتقي بجمهورك ويلتقيك وربما تغير رأيك وتبقى هناك." فقال لي: "سأضع لك تأشيرة دخول إلى موريتانيا." وفعلا وضع التأشيرة والطوابع ورفض أن يأخذ أي مبلغ حتى ثمن الطوابع، جزاه الله كل خير، يكفيني منه حرارة الاستقبال والترحيب وإصراره أن أزور موريتانيا لأن جمهوري لا يريدني أن أبتعد عنه، وقد جعلني موقفه هذا أزداد تمسكا وإصرارا على ما قررته في نفسي وهو المغادرة إلى موريتانيا.

شكرت السيد السفير وودعته وكلي أمل بما ينتظرني من أخبار مفرحة أتلقاها في موريتانيا، توجهت إلى شركة طيران لأسأل عن تذاكر السفر بالطيران إلى موريتانيا فوجدتها أضعاف ثمنها في سورية أو موريتانيا وعرفت أن المبلغ المتبقي معي لا يكفي، كان معي خاتم من ذهب بعته فأنا أصلا كنت غير مهتم به كونه حراما لكنني اشتريته أيام المراهقة والطيش، ولم يكتمل ثمن البطاقة مما اضطرني للاستدانة من صاحب البيت الذي أنا ضيفه مبلغا يزيد بقليل عن حاجتي كي أشتري بعض الهدايا (الفروح) للناس الذين سأكون ضيفهم في نواكشوط.

أعتذر من القارئ الكريم عن إسهابي في ذكر تفاصيل قد لا تكون مهمة للقارئ بل لي أنا الآن لكنها في ظرفي إذ ذاك كانت مؤثرة في نفسي وكياني.

أنتقل إلى موضوع آخر في مجال علم الباراسيكولوجي وهو علم ناشيء ما زال في بداياته يدرس حالات ما وراء أو ما بعد علم النفس، ومن أهم المواضيع التي درسها هذا العلم هو (الحاسة السادسة)، وهي واقع يظهر من خلال الحلم أحيانا حيث تحلم بحلم ثم يتحقق كما رأيته تماما، هذه هي الحاسة السادسة خلال النوم، أما

الحاسة السادسة في اليقظة فهي أمر آخر مثال عليها: أنك تكون بعيدا عن شخص فارقته منذ فترة طويلة وتكون في مكان هو ليس فيه، فتراه يتراءى في ذهنك أمام عينيك فجأة وكأنه أمامك وبعد وقت قليل لا يتجاوز الثواني أو الدقائق تراه يمر فعلا وفي الواقع أمامك، ولن أسهب في كلامي عن الحاسة السادسة لكنني سأورد حلمين حلمت بهما في سوريا بعيد عودتي من موريتانيا واستقراري في سوريا، فقد حلمت بأنني في بلد غريب سافرت إليها ورأيت أماكن أثرية لم أرها من قبل، وعند ذهابي إلى ألمانيا رأيتها في الواقع بعد أشهر في ألمانيا هذا هو الحلم الأول، أما الحلم الثاني، وحيث إنني لم أكن أتوقع عودة ثانية إلى موريتانيا، فقد رأيتني راكبا في الطائرة متجها إلى موريتانيا وفي الطائرة كنت أمعن النظر فيمن حولي فلم أجد أحدا أعرفه أو يعرفني بينما في المرات السابقة عندما كنت في موريتانيا وأكون راكبا في طائرة كان الكثيرون من الناس يسلمون علي، وأتابع المنام فأنزل من الطائرة ولا أجد أحدا بانتظاري ولا أحد أيضا يعرفني أو أعرفه، حلمت بهذا الحلم قبل أشهر عدة وكنت حينها قاطعا لأمل العودة إلى موريتانيا ولم أفكر بذلك نهائيا في ذلك الوقت.

وفي الموعد المحدد للسفر إلى موريتانيا رافقني صاحب البيت الذي كان يستضيفني وأسرته إلى مطار كولونيا بالقرب من بون وودعاني لحين ركوبي الطائرة.

في الطائرة كنت متشوقا لرؤية أحد أعرفه أو يعرفني من ركابها، استعرضت الطائرة جيئة وذهابا فلم أجد من أعرفه أو يعرفني وتذكرت حلم الحاسة السادسة الذي كنت أحدثكم عنه قبل قليل.

أوشكت الطائرة على الوصول إلى مطار نواكشوط والحلم متحقق تماما، نزلت من الطائرة ودخلت قاعة الاستقبال الصغيرة وقتها وأخذت حقيبتي وأمتعتي وأخذت تكسي وكأنني في بلد لم أزره من قبل، بينما في المرات السابقة كان العديد من السيارات وعشرات الأشخاص ينتظرونني من الجالية السورية أو من جمهوري الحبيب في موريتانيا، قد أكون أنا مسهما فيما حدث حيث إني لم أخبر أحدا بقدومي، وقد يكون القدر والصدفة أن لا أحد في المطار يعرفني والأهم والحاصل واقعيا أن الحاسة

السادسة لدي أثبتت فعاليتها وقوتها، فحلمي الذي حلمته في حلب قبل أشهر عدة تحقق بدقة مطلقة، من داخل الطائرة إلى حين خروجي من مطار نواكشوط، وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله.

××××

وصلت نواكشوط وتحقق الحلم المرتبط بالحاسة السادسة في الطائرة وبعد النزول منها وفي المطار أيضا، لكن الأمل هو الذي يجعل الإنسان متعلقا بالحياة محبا لها، آمال كبيرة خططت لها وعلقت عليها كثيرا من أحلامي وعلى رأسها جمهوري الفني الواسع، وثانيا عقدي الموقع مع الإذاعة ودخلي الثابت من ذلك العقد رغم محدوديته المادية لكنه يشكل سندا لي، فرش بيتي الذي تركته غير فرش الدولة المجاني الذي أعاده زملائي للوزارة فعدة المطبخ وأدواته والسجاد والأغطية وعود لي احتياطي تركته عند سفري الذي كنت سأعود بعده، أمل العمل في وزارة التعليم والذي يجب أن يكون الحصول عليه سهلا خاصة بعد أن كنت مدرسا في معهد تكوين المعلمين والذي هو بحاجة ماسة لمدرسي كل المواد والإدارة التي تعرف عني ما قدمته من عمل تطوعي ونجاح في تدريس عدد من المواد، وموقعي ومكانتي التي تؤهلني أن يقدم لي الدعم والعون، وأخيرا كنت معتمدا على إمكانية إقامة الحفلات في العاصمة والولايات الأخرى، إذاً الآمال كبيرة والأيام المقبلة ستشهد تحقيقا كبيرا لها.

في صباح اليوم التالي لوصولي بدأت أولا بسفارة بلدي فذهبت وسلمت على كادرها وكنت قد طلبت منهم الإشراف على تصفية أوضاعي مع الوزارة من حيث تسليم السكن والمفروشات التي قدمتها لي الوزارة من أسرة وخزن وغرفة ضيوف وبراد وفرن غاز، أما بطاقات الطائرة للعودة فقد ذهبت إلى دمشق وسلمتها للسفارة الموريتانية هناك، وكان الملحق الثقافي قد وزع المهام على بعض زملائي ليقوم كل بمتابعة قضية من قضاياي وكانت النتيجة صفرا أي لم يبق لي أي مبلغ حيث قام أكرم من حاتم بتوزيع ممتلكاتي الشخصية على أفراد الجالية دون أن يعرض عليهم فكرة المقابل المادي.

هنا لا بد لي قبل المتابعة أن أشرح للقارئ الكريم ما حصل: فقد ذكرت القليل في حلقات سابقة وهناك ما لم أذكره فأنا عندما سافرت في الصيف لم أكن قد اتخذت قرارا بقطع الإعارة لذلك تركت كل شيء في بيتي في حي ب، م، د، وكان رقمه 42

فالدولة الموريتانية تعطينا الفرش الأساسي أما عدة وأدوات المطبخ وأغطية النوم ومفارش الأسرة وأغطيتها والسجاد وغير ذلك من جرة غاز وكثير من لوازم البيوت والأولاد فهي من عندنا حتى إنني أحضرت بعضها من سوريا والآخر اشتريته من موريتانيا أو من الداخلة أو من لاس بالماس كما كان عندي عود احتياطي أتركه للطوارئ، لن أسهب في شرح تفاصيل لا جدوى منها لكن خلاصة الأمر أن كل ما تركته صرف على الماء والكهرباء لأشهر الصيف التي لم أكن موجودا فيها، عندنا مثل سوري يقول "من لا يحضر ولادة بقرته فقد تنجب حمارا"، جل قدركم، والعود الذي لم يجدوا من يشتريه أهدوه وعندما عدت لم يخطر ببال المهدى إليه أن يقول لي أتسامحني فيه أو توافق على الإهداء أم تريده؟ المهم أن الأمور انتهت هكذا "من يخرج من المولد بلا حمص" وهذا أيضا مثل سوري، وجيد أنهم لم يطالبوني بشيء.

وتذكرت مثلا موريتانيا كنت أسمعه باستمرار "من غاب غاب سهمه".

كان الوقت ما زال ضحى والإذاعة ليست بعيدة عن السفارة، فقلت أذهب للإذاعة حيث كانت تجتمع لي كل عدة أشهر آلاف عديدة من الأوقيات وغيابي ثمانية عشر شهرا حتما يكون قد جمع لي مبلغا جيدا من المال والمال هو نتاج عقد بيني وبين الإذاعة وقعته مع إدارة الإذاعة، آخذ بموجبه نصف ريع طلبات المستمعين لأغانيّ وأغاني المشتركة مع المرحومة ديمي ومع أبتي وأغانيّ لوحدي، فمع ديمي وأبتي لي الربع وللمشارك الآخر الربع وللإذاعة النصف، هذا ما كان وقتها، ولا أعرف إن كانت الطلبات مأجورة حتى الآن أم أنها بطلت حيث كان صاحب الطلب يدفع أربعين أوقية يمكنه أن يرفق طلبه بإهداء إلى خمسة أشخاص أو أقل وأظن أن هذا بات من التاريخ، وكان البرنامج وقتها الوسيلة الأساسية للتواصل الاجتماعي حيث لم يكن هناك هاتف محمول ولا أنترنت ولا هاتف أرضي، والرسائل الورقية لكثير من القرى والمدن أيضا لم تكن موجودة، وكان الناس يرمون عصفورين بحجر واحد فيستمعون للأغنية ويهدونها ويطمئنون على أحبتهم وأهلهم ويطمئنونهم عنهم، في عطلة نهاية الأسبوع والتي كانت يوم الأحد (ديماش)، المهم أني ذهبت للإذاعة

لأسلم على الأصحاب والأحباب في البرامج العربية والمذيعين الذين كانت تربطني بهم جميعا علاقة أخوية وطيبة جدا ومن بينهم كان المحاسب وكان رجلا وقورا محترما وخلال سلامي عليه طلبت منه أن يجري حساباتي من وقت سفري وخروجي من موريتانيا إلى هذا اليوم الذي عدت فيه لأعرف كم دخلني من نقود؟

وغادرته وتابعت جولتي لزيارة بقية الأصدقاء، وتدارسنا ما استجد من أمور في الإذاعة وفي البلد من بعدي، ولم أجد كثيرا من التغيير قد تم في أي مجال من المجالات، وفي طريقي لمغادرة الإذاعة مررت بصاحبي المحاسب فوجدته قد أتم كشف الحساب وكان فيه مبلغ خمسة وثمانين ألف أوقية، وهو مبلغ لا بأس به في تلكم الأيام، وقال لي تمر غدا لقبضهم لأن الوقت تأخر اليوم، قلت لا بأس نمر غدا.

عند وصولي إلى بيت مضيفي في نواكشوط كان قد تبقى معي من النقود خمس وعشرين فرنك فرنسي كانت معي من القديم ولم أصرفها في ألمانيا وليس معي غيرها في موريتانيا، وهي لا تكفي لشيء.

في اليوم التالي جئت وأنا أتخيل أني سأقبض المبلغ الذي كنت سابقا لا أهتم به لكني الآن بأمس الحاجة إليه، ودخلت على أمين الصندوق فقال إنه مازال يحتاج توقيع زيد من الناس، فذهبت إليه كي يشرفني بتوقيعه وهناك حصل ما لم أتوقعه أو يتوقعه أحد، امتنع الرجل عن التوقيع، أتدرون لماذا؟ لن تصدقوا إن قلت لكم، قال: "إنك غادرت موريتانيا ولذلك يتوقف العقد ولا تحق لك هذه النقود." قلت له: "لكنني أمامك والنقود موجودة في صفحتي." أصر على موقفه أحضرت له عقدي الموقع من المدير العام لمؤسسة الإذاعة والموقع مني والذي ينص على أن العقد دائم ولا نهاية له (Indeterminé) حتى إنه يجب صرف أي مبلغ من بعدي للورثة، لكنه أصر أنه لاحق لي في أي مبلغ وأن العقد انتهى بمغادرتي.

الطرفان اللذان وقعا العقد موجودان وهو موظف أكثر من عادي بقليل ويوقف تنفيذ العقد، تصور يا رعاك الله أن ترى تعسفا وتعنتا كهذا وحقك يداس، وأن

تكـون في مثـل ظـرفي المـادي وحـتى لـو لم يكـن ظـرفي المـادي صـعبا، ألـيس هـو الظلـم بعينه؟ أليس هو القهر والتلذذ بألم الآخرين ؟ نعم لقد كان كذلك!

خرجـت مـن الإذاعـة والـدنيا سـوداء أمـامي، أقـارن المواقـف: مواقـف الأسـتاذ الحسـن ولـد مـولاي علـي عنـدما كـان يبـادر إلى مسـاعدتي دون طلـب مـني وهـذا العقـد هـو الـذي عرضـه علـي في الأصـل ولم أكـن أنا مـن طلبـه، بـل كـان اتفاقنـا في أول يـوم التقيتـه فيـه قبـل ثـلاث سـنوات أنـني لا أريـد أي نقـود، لأنـه قـال لي: "إن بلـدنا فقـير ولا تتصـور أنـك ستسـتفيد مـاديا كمـا في الـبلاد الأخـرى." فقلـت لـه: "أنا لا أريـد أي مبلـغ وسـأعمل بكـل مـا أسـتطيع، فقـط مـا أريـده مـنكم عـدم العرقلـة !" فطلـب مـني إحضـار صـورة وفعلـت وصـنع لي بطاقـة دخـول مـا زلـت أحـتفظ بهـا بـين أوراقـي كتـب عليهـا "يسـمح لحاملهـا الـدخول في كـل الأوقـات"، وفعـلا كـم وكـم جئـت للتسـجيل لـيلا، ويـذكر أخـي المختـار لسـان الـدين أطـال الله في عمـره أني سـجلت لـه برنامجـا في منتصـف الليـل لمـدة سـاعتين تقريبـا، إخـوة متعـاونون جعلـوني أضـحي بكـل مـا أملـك وبشـتى أنـواع إمكـاناتي لخدمـة بلـدي الثـاني موريتانيـا، وهنـا أرجـو إعفـائي مـن ذكـر أسمـاء مـن ضـايقوني وحـاربوني فـأنا أذكـر أسمـاءهم ولـن أنسـاها، لأنهـا فعـلا كانـت أسمـاء لأشـخاص أقـل مـا يقـال عـنهم هـو الظلـم والتعسـف المقصـود ودون سـبب ملمـوس بالنسـبة لي علـى الأقـل، قـد أنسـى أسمـاء بعـض الأشـخاص العـاديين أو حـتى الـذين سـاعدوني لا لشـيء فقـط لطـول الـزمن الـذي يفصـل بيننـا فقرابـة الأربعـين عامـا كافيـة لتنسـي الإنسـان الكثـير، أمـا هـؤلاء وسـيمر علـيكم في هـذه الحلقـة والـتي تليهـا أشـخاص كـان لهـم مثـل هـذه المواقـف ولـن أذكـر أسمـاءهم وأرجـو أن لا يحـاول أحـد إحراجـي ويطلـب أسمـاءهم فـلا فائـدة حـتى مـن معرفـة أسمـائهم لكنـني أحلـتهم لمـن هـو أقـوى وأعدل وأكثر تأثيرا، الله الذي لا يضيع عنده حق بقدر حبة خردل.

وسـيكون للحـديث بقيـة في الإذاعـة وخارجهـا ففريـق مـن النـاس كـانوا قـد تنفسـوا الصـعداء عنـدما غـادرت وكـان حمـلا ثقـيلا قـد أزيـح عـن ظهـورهم أو بطـونهم، فكيـف يعود؟

نعم كانت أقسى أيام عشتها هي تلك التي أعقبت مجيئي الثاني هذا فأنا بدون عقد عمل وبدون سكن وبدون كم من المال أحضرته معي، لذلك قبلت التحدي ودون أن يكون بيدي أي سلاح غير محبة جمهوري الذي كنت أعرف أن قوى الأرض مجتمعة لن تحيده عني.

لذلك قررت التوقف عن صرف أي مبلغ مهما كانت الظروف قبل أن يدخلني شيء من المال في عمل، قد يقول قائل: "لقد قلت إنه ليس معك من المال إلا خمسا وعشرين فرنكا فرنسيا وكانت تساوي حينها مائتين وخمسين أوقية موريتانية لا غير." أقصد أنه كان بإمكاني الاستدانة فأصدقائي بالآلاف لكنني لم أشعر أحدا بأنني لا أملك المال، كنت أمشي مرفوع الرأس وكأني أملك الكثير، أجرة ركوب التكسي كانت عشر أوقيات وللإياب مثلها وماذا سأفعل لو ركب معي أحد أعرفه أو يعرفني وسلم علي فيجب أن أدفع عني وعنه، لذلك قررت أن أقضي جل أعمالي في الساعات الأولى من الصباح عندما لا تكون الشمس حامية ونحن في شهر شباط والجو لطيف، كنت أقضي كل مشاويري إلى الإذاعة ووزارات الدولة سيرا على الأقدام وكم من مرات لا تعد ولا تحصى يقف فيها أصدقاء لي أو أشخاص يعرفونني ولا أعرفهم بسياراتهم بجانبي يدعونني للركوب معهم لكنني في خمس وتسعين بالمائة من الحالات لا أركب، لأنني كنت أظن أني لو ركبت سيعرفون أني (مبرتي) أو مفلس، وأنا في نظر نفسي لست كذلك ولو كان جيبي خاليا من المال.

وإلى حلقة قادمة من حلقات الألم ريثما تأتي حلقات الفرح بعدها إن شاء الله.

دمتم لي.

××××

تعلمـــت الصـــبر في مدرســـة موريتانيـــا وحاولـــت أن أنشـــره أينمـــا حللـــت بـــل كانـــت نظريـــة الأيام المحـــيرة في الغضـــب والعـــدوان الـــتي صـــدر لي فيهـــا كتـــابان باللغـــة العربيـــة، وترجمـــت في كتـــاب إلى الأنجليزيـــة، كانـــت مـــن نتـــاج الفـــترة الـــتي أمضـــيتها في موريتانيـــا ومـــا عشـــته مـــن أخـــلاق سمحـــة صـــبورة تحتمـــل أقســـى الصـــعاب، وتحتقـــر الغضـــب والغضـــوب كنـــت أحـــب هـــذا منـــذ طفـــولتي لكنـــني تمثلتـــه هـــدفا ومبـــدأ أعتـــز بـــه وأفتخـــر بعـــدما وجـــدت أن هناك من سبقني إليه وهو هذا الشعب الذي يطبق ذلك عفويا في حياته اليومية.

فالنحـــات الـــذي ينحـــت مـــن البازلـــت الأســـود كالصـــوان تمثالـــه لـــيس بأفضـــل مـــني، فلـــمَ لا أكونأكثر منه صبرا.

وقبـــل دخـــولي في صـــلب الموضـــوع لا بـــد لي أن أنـــوه إلى أمـــر أذكـــر إخـــوتي بأن إخـــوة يوســـف وهـــم أبنـــاء نـــبي الله يعقـــوب حســـدوا أخـــاهم وألقـــوه في غيـــابات الجـــب، وهـــذا ســـبب كـــاف لمـــا حصـــل لي وأنا أعرفـــه، ولا يخلـــو بلـــد أو قـــوم مـــن وجـــود حاســـد، والله ســـبحانه وتعـــالى خصـــص ســـورة للحســـد دلالـــة علـــى وجـــوده وتأثـــيره، ولا يعـــني وجـــود حاســـد أو كائـــد، أن تكـــون هـــذه سمـــة لا سمـــح الله لشـــعب كامـــل، كمـــا أرجـــو مـــن الإخـــوة أن يمعنـــوا فيمـــا أكتـــب جيـــدا ويقـــرؤوا كـــل الفصـــل ثم يعلقـــوا فقـــد كتـــب أحـــد الأصـــدقاء يقـــول إنـــك قلـــت إن واحـــدا فقـــط ســـاعدني، وكأنـــك تقـــول إن البـــاقين عرقلـــوا أعمـــالي في الحلقة رقم 32.

أنا لم أقـــل هـــذا والفصـــل أمـــامكم فقـــد قلـــت إنـــني ســـلمت علـــى كـــل الأصـــدقاء والمـــذيعين الـــذين تـــربطني بهـــم جميعـــا علاقـــات صـــداقة متينـــة وكـــذلك باقـــي المـــوظفين ومـــدحت المحاســـب ولم أتحـــدث إلا عـــن واحـــد فقـــط أنـــه عرقـــل عملـــي، واليـــوم قـــد يـــرد ذكـــر شـــخص آخـــر ولا ثالـــث لهمـــا وقـــد يكـــونان متفـــاهمين أصـــالة علـــى ذلـــك، رجـــائي أن أهـــتم جـــدا بالمصـــداقية والدقـــة وأنا أعـــرف مـــا أكتـــب، وأزن كلمـــتي بميـــزان الـــذهب قبـــل قولهـــا، لـــذلك أرجـــو أن يكـــون نقـــدنا بعـــد قـــراءة متمعنـــة حـــتى لا نضـــيع وقتنـــا ســـدى فـــأنا أكتـــب في

اليوم لساعات طويلة وعلى حساب صحتي وكتاباتي الأخرى ودراستي، تحياتي وتقديري لكل من يقرأ، أو يعجب، أو يعلق، أويشارك، وأعود إلى صلب حلقتنا.

لقد كان وضعي وظرفي الذي أمر به صعبا في ذلك الوقت، لكن الصبر ومعه الزمن كفيل بحل أكبر المشاكل تعقيدا، لكنه وفي فترة الصبر تكون النفس مرتعا خصبا للشيطان، فالوسواس الخناس موجود لدى كل الناس بنسب متفاوتة، لقد زارني وبدأ يوسوس في صدري ويقول لي: "إنك عضو في نقابة الفنانين الدولية في باريس علما أن عضويتي في النقابة يعود الفضل فيها لموريتانيا أيضا، فمدير البرامج العربية هو الذي دلني عليها، الأستاذ الحسن ولد مولاي علي أطال الله في عمره.

يتابع الوسواس الخناس حديثه إلي: "النقابة تستطيع أن تحصل لك كل حقوقك فلم تسكت عن حقوقك؟" لقد كان لي حق آخر أهم لا يعرفه أحد وذلك لأن البلاد وقتها كانت تعيش حالة من البداوة والخبرة المحدودة في الأمور الدقيقة، فبالنسبة لحقي في العقد أستطيع الوصول إليه دون الخروج خارج موريتانيا لأنه القانون المتداول في موريتانيا، عقد موثق وممهور بتوقيع وخاتم المدير العام للإذاعة والسينما الموريتانية وواضح أنه غير محدود بمدة بل يسري حتى بعد الوفاة للورثة لصفته تلك.

أما الأمر الآخر الذي لم يكن معروفا لدى الجهات الإدارية في الإذاعة أو وزارة الإعلام هو أن الإذاعة اختارت لحن نشيد "كتائب موريتان" مقدمة لنشراتها الإخبارية وهذه كانت أمنية لي تمنيتها في اليوم التالي لوصولي إلى موريتانيا، طبعا ليست الإذاعة من اختارت في الواقع لحن النشيد إنما الذيا ختار هو العسكر الذين استلموا الحكم في العاشر من تموز/ يوليه عام 1978م وكان يذاع في البداية في أول نشرة الأخبار ونهايتها ثم اقتصر على البداية فقط في مرحلة لاحقة، لكن كم من نشرة للأخبار باللغة العربية، وأخرى بالفرنسية، وغيرها باللغات المحلية الثلاث؟ فإذا كان عدد نشرات الأخبار هذه يصل إلى قرابة العشرين -إن لم يكن أكثر - ولكل منها نصف دقيقة فستكون الإذاعة قد سيرت عشر دقائق يوميا من برامجها بألحاني، علما أن الإذاعة في فترة كتابة عقدي معها كانت منتسبة لهذه النقابة ومتعاملة

معهـا، وكـان مـن نظامهـا أن ترسـل دوريا للنقابـة مجمـوع مـا بـث مـن ألحـان لكـل عضـو نقـابي فيهـا، والإذاعـات المتعاونـة مـع النقابـة تـدفع مبـالغ طائلـة لهـا، وهـذه المبـالغ تقسـم إلى قسـمين، قسـم للإنفـاق علـى مقراتهـا النقابيـة ورواتـب موظفيهـا في باريـس، والبـاقي يـوزع علـى الفنـانين مـن أعضـائها بنسـب تتناسـب وسـاعات بـث ألحـان كـل مـنهم، وكنـت أنا سأتقاضـى بشـكل طبيعـي مـن ألحـاني الـتي تبـث يوميـا بـل كـل سـاعة، عـدا عـن أغـانيَّ الـتي تأخـذ وقتـا خـلال إذاعتهـا في الـبرامج المتنوعـة، لكـن توقـف تعامـل إذاعـة نواكشـوط معهـا عـام 1978 م جعلـني أحـرم مـن هـذه الفائـدة، وفيمـا يتعلـق بإذاعـة هـذه المقدمـة لنشـرات الأخبـار لم تكـن تـدخل في اتفاقنـا وعقـدنا مـع الإذاعـة، وقامـت بـه الإذاعـة مـن طـرف واحـد دون أخـذ مـوافقتي أو الاتفـاق معـي بخصوصـه، وهنـا كـان للوسـواس الخنـاس دور كبـير حيـث اسـتند إلى القهـر الكبـير الـذي شـعرت بـه وإلى الظلـم غـير المحـدود الـذي لحـق بي، إضـافة إلى وضـعي المـادي السـيء الـذي كـان يهـد الجبـال بسـبب ظـروف مـرض والـدي والأسـرة الكبـيرة الـتي لم يبـق لهـا معيـل غـير الله ومـن بعـده أنا.

قـال لي الشـيطان: "لمـاذا تُظْلَـم وتسـكت عـن حقـك؟" طالـب بعقـدك، وطالـب بتعـويض عـن اسـتخدام مقدمـة نشـرة الأخبـار منـذ سـنتين ونيـف وهنـا مبـالغ كانـت سـتكون بالملايـين، لكـن ظـروف موريتانيـا الاقتصـادية وقتهـا؛ والـتي أنا الـذي أعرفهـا أكثـر مـن غـيري، فكـم كـان دفـع الرواتـب والأجـور يتوقـف لفـترات طويلـة أحيـانا بسـبب ضـعف الإمكـانات، فهـل آتي أنا لأسـتنزف هـذا البلـد الـذي أحبـني وأحببتـه، والـذي لا يرضـى بمـا يفعلـه الـبعض القليـل القليـل، قلـت للشـيطان: "لا ! أبعـد عـني فـأنا أحـب جمهوري ولا أريده أن يقول عني : لقد باعنا مقابل دريهمات."

قلـت في نفسـي: " أطلـبُ مقابلـة المـدير العـام وأحكـي لـه مشـكلتي وكـان هـو نفسـه الموقع على العقد لأرى موقفه، فقد لا يكون راضيا بما جرى."

دخلـت إلى مكتـب المـدير العـام المسـاعد علمـا أني لم أدخـل هـذه المكاتـب مـن قبـل لأني لسـت بحاجـة إليهـا، ومـن طبعـي حـب التعامـل مـع البسـطاء مـن النـاس فهـم أكثـر

بعـدا عـن التعقيـد والانفعـال وأكثـر بعـدا عـن البروتوكـولات الـتي لا أحبهـا أيضـا، قلـت لـه: "أريـد مقابلـة المـدير العـام." سـألني عـن السـبب فحدثتـه عمـا جـرى مـن توقيـف لـدفع مبـالغ "طلبـات المسـتمعين" توقعـت منـه أن يكـون موضـوعيا كمعـاون لمـدير عـام مؤسسـة حكوميـة تسـير وفـق أنظمـة وقـوانين بعيـدا عـن الأهـواء والمزاجـات، أتعرفـون مـاذا كانـت نصـيحته كمـا قالهـا هـو: "لـو كنـت مكانـك هـل تـدري مـاذا كنـت أفعـل؟" وأقسـم بالله العظـيم أني مـا زلـت أحـتفظ بـرنات صـوته في أذني وحرفيـا بمـا قـال: "لـو كنـت مكانـك لطلبـت جميـع أشـرطتي الـتي في الإذاعـة ووضـعتها في سـاحة الإذاعـة وحرقتهـا." بالله علـيكم هـل هـذا كـلام يصـدر مـن مـدير عـام معـاون؟ عنـدها اسـتعذت بالله مـن الوسـواس وقلـت لـه: "أبعـد عـني فلـم يبـق لـك مكـان عنـدي." وانتفضـت في وجـه صـاحبي قـائلا: "هـذا لـو كنـت أنـت مكـاني أمـا أنا ففـي مكـاني. وأقـول لـك إن الأشـرطة الـتي تريـدني أن أحرقهـا ليسـت ملكـي بـل هـي ملـك لهـؤلاء النـاس الـذين أحبـوني ولم يسِـئْ أحـدهم يومـا إلي، أأعاقـب مـن أحبـني بهـذا العقـاب وهـو لا ذنـب لـه فيمـا جـرى، قلـت لـه هـات ورقـة لأكتـب لـك أني أتنـازل عـن كـل حقـوقي في الأغـاني والألحان التي قدمتها للإذاعة الموريتانية وعن العقد المبرم معها." وهذا ما فعلته فعلا.

لقـد اخـترت محبـة جمهـوري علـى المـال الـذي يفـنى ويتلـف، ويبقـى اسمـي في المكـان الـذي أريـده لـه، أرجـو أن لا تسـألوني عـن الأسمـاء فلـن أذكرهـا، بـل قـد ذكـرت لمـن يريـد أن يبحـث بنفسـه، فليفعـل، أمـا أنا فعلـي أن أذكـر وبصـدق ذكـرياتي جميلهـا وقبيحهـا، مفرحهـا ومحزنهـا دون مواربـة أو زيادة بـل قـد أنقـص أحيـانا مـن شـدة الأحـداث أو أتغاضى عن بعضها أو أتناساه، وهذا يعرفه من قاموا بهذه الأعمال أو ما ماثلها.

إن كلمـات قالتهـا لي مـرة بائعـة خضـار في سـوق نواكشـوط القـديم وكانـت سـتقام في مسـاء ذلـك اليـوم حفلـة لي في دار الشـباب، سـألتني وكنـت مـن زبائنهـا الـدائمين أشـتري منهـا الخضـروات مـن طاولـة متواضـعة تضـع عليهـا نـوعين أو ثلاثـة مـن الخضـر، قالـت لي: "ألا تعطيـني بطاقـة لأحضـر حفلتـك الليلـة؟" فقلـت لهـا: "والله لـيس معـي بطاقـات أحملهـا في جيـبي." مـاذا قالـت البائعـة المسـكينة؟ قالـت: "لا بأس أتـرك أولادي

الليلة بدون عشاء لكني سآتي إلى الحفلة." بالله عليكم أناس كهذه المرأة التي تحرم أولادها اللقمة لتحضر حفلتي هل أكافئهم بحرق الأشرطة في ساحة الإذاعة؟ لا وألف لا، ولعنة الله على الوسواس وعلى أموال الدنيا إن كانت ستفصلني عن أحبتي الذين لاتنتهي ذكرياتي معهم، ذكريات طالما عشت على مداعبتها لشغاف قلبي، لا أجمل منها، بآلامها وأفراحها، إنها تشكل خليطا عذبا يعطي لحياتي قيمة أعتز بها أني كنت يوما فارس الأغنية العاطفية والقومية والوطنية بل وأغاني الأطفال الذين يخاطبونني اليوم على الفيسبوك وقد أصبحوا رجالا لهم مكانتهم في المجتمع.

وهنا أكون قد قطعت الأمل من الإذاعة ومن أي دخل مادي منها، فتوجهت إلى باب آخر أقرعه عسى الله أن يجعل لي فيه مخرجا. وهو باب التدريس في معهد تكوين المعلمين، أوالثانوية العربية، فإلى وزارة التعليم وجهتي القادمة، وإلى حلقة قادمة من ذكرياتي آمل أن تحمل شيئا من الفرح إلى جانب الحزن ثم ننتقل بعونه تعالى إلى حلقات بعدها تنفض عنها غبار الحزن إن شاء الله.

دمتم لي.

××××

قطعت أملي من أي دخل من الإذاعة، لكنني لم أقطع أملي من الله عز وجل، فإن ما عند الناس ينفد، وما عند الله حاشا أن ينفد، قلت في نفسي: "أذهب إلى وزارة التعليم." وقبل أن أذهب قلت في نفسي هل يعقل أن يكون المكان الذي لي فيه عقد موثق نظامي يغلق أبوابه في وجهي ووزارة التعليم تفتح أبوابها أمامي ونحن في النصف الثاني من العام الدراسي والمدرس يكلف الدولة أموالا طائلة من رواتب وسكن وتعويضات ثم بطاقات طائرة للعائلة، بينما أغلب الدول العربية صارت تتسابق في تلكم الأيام على إرسال مدرسيها في إعارات شبه مجانية حيث تتكفل موريتانيا بالسكن والمفروشات وآلاف معدودة قليلة (ست آلاف) أوقية فقط؟ دخلت إلى مدير التعليم الثانوي وقلت له: "لقد جئت طالبا التعاقد الداخلي معكم." لا أعرف إن كنت أنا في حالة متحسسة من أبسط الأمور أم أنه كان أيضا قليل الحكمة في اختيار الألفاظ. كنت أتوقع منه أن يقول ما كنت أفكر به داخل نفسي سلفا وهو أننا في آخر العام واترك الموضوع لبداية العام الدراسي، أو يقول لقد توقفنا عن التعاقد الداخلي لأن كل الدول تقدم لنا المدرسين بشكل شبه مجاني، قال لي كلاما في روحه يشبه ما ذكرته قبل قليل، لكن بشكل يجعل الإنسان يشك في كل الرد ويؤوله في كثير من الاتجاهات فقد قال:"اذهب واطلب من سورية أن ترسلك معارا لنا." تذكرت مزاح أهل حمص عندما يكتبون : "لدينا ثلج بارد أو حمام يفتح ليلا نهارا فقط" هل كنت لا أعرف الطريق إلى سورية؟ ثم هل سورية تحت أمري لأقول لها أرسليني فترسلني؟ ثم لو كنت سأذهب إلى سوريا فلماذا أتيت إليك؟ فعلا أنا كنت مهيئا للرفض وهذا حقه وهو أمر عادي أن لا تكون هناك حاجة للمدرسين وبعيد منتصف السنة، لكن اختياره للألفاظ لم يكن موفقا، أقول لا أعرف هل القصد منه كذا...؟ أم القصد منه كيت...؟ لم أشأ أن أشعره بأنني غبي إلى درجة تصديقه لأن ذلك سيشير له إلى سذاجتي وهو يعرف أنني لست كذلك، قلت له: "يا أستاذ هل تمازحني أم تتحدث من كل عقلك؟" ولم أنتظر جوابه فكلامي لم يكن للسؤال بقدر ماهو للجواب أقرب، تابعت: "يا أستاذ إن للإعارة في سورية أسلوبا حيث يعلن عنها ويتقدم الآلاف ويختار منهم الآحاد، ثم إنني أنا قطعت إعارتي بنفسي لظروف خاصة ولم يعد لي الحق مرة أخرى وهي لمرة واحدة في العمر لإعطاء الفرصة للناس جميعا، أشكرك أستاذي على كل حال والسلام عليكم ورحمة الله وغادرت."وصلتني رسالته ووصلته رسالتي وحتما أدرك أنه عندما سيذهب إلى البيت سيدرك أنه كان غير موفق في اختيار العبارة التي أعلن بها رفضه.

لم أكـن أفكـر في خيـار الفـن بعـد لأنـني إذا مارسـت الفـن فقـد يحـتج علـي جماعـة الـوزارة بأني أمـارس الفـن وهـذا مخـالف للقـانون، لكنـني الآن تحـررت حـتى مـن هـذه الحجـة الـتي يمكـن أن يتمسـكوا بهـا، وهكـذا لم يكـن أمـامي إلا أملـي الـذي أنا متأكـد مـن حبـه وإخلاصـه وإلى وقوفـه بجـانبي، هـو تلـك الأسمـاء الجميلـة الـتي كنـت أسمعهـا في كـل يـوم أحـد صـباحا يطلبـون أغنيتـين أو ثلاثـة مـن أغـانيّ وتأخـذ أسمـاؤهم فقـط أضـعاف وقـت بـث الأغـاني، إنـه جمهـوري الحبيـب الـذي لم ولـن أشـك يومـا في حبـه لي وحـبي لـه، كنـت قـد ألمحـت للمرحومـة ديمـي أنـني أرغـب في إقامـة حفلـة وهـل هـي جـاهزة لمشـاركتي فيهـا، كانــت والــدتها عليهمــا رحمــة الله مريضــة وكــانوا ســيأخذونها إلى المغــرب للعــلاج، لم أكــن في العـادة بحاجـة لمطـرب يشـاركني الغنـاء والحمـد لله فكـم وكـم غنيـت سـاعات متصـلة دون أن أشـعر بكلـل أو ملـل، لكنـني في الحقيقـة كنـت أبحـث عمـن يتحمـل الأعبـاء الماديــة ثم نتقاســم الأرباح لأن الحفــلات تحتــاج رأسمــال مــن أجــل دفــع الرســوم للولايــة والشـرطة والإعـلانات الإذاعيـة والورقيـة والسـيارات وهـذا يزيـد عـن العشـرة آلاف أوقيـة يومئـذ وأنا كمـا حـدثتكم مـن قبـل لـيس عنـدي عقـد علـى نقـد كمـا قـال بـديع الزمـان الهمذاني رحمه الله.

إن أردت أن أقــترض فأصــدقائي بالمئــات إن لم أقــل أكثــر، لكـــني إن فعلــت فقــد لا يأخــذون المبلــغ مــني عنــد إعــادتي لــه لأني أصــلا لــن أطلــب إلا مــن صــديق عزيــز هــذا للصـادقين في صـداقتهم معـي، وقـد يكـون بيـنهم مـن يمثـل علـي الصـداقة فقـد ينشـر بـين النـاس مـا يريـد عـني مـن أقـوال وأنا أصـلا لم أتعـود أن أسـتدين مـن أحـد إلا إذا كانـت الظـروف قـاهرة كيـوم شـراء بطاقـة الطـائرة في ألمانيـا، لا أعـرف، قـد أكـون مخطئـا في تضـخيم الأمـور لكـن لـيس بيـد الإنسـان شـكل ونمـط تفكـيره، هكـذا خلقـني الله وعشـت طـوال عمـري لا أحـب أن تكـون يـدي إلا العليـا، جعـل أياديكـم أيضـا إخـوتي دائما العليا، فكرت في الأمر مليا وخطر على بالي خاطر رأيت فيه الحل.

لقد عرضت علي الفنانة أبتي بنت شويخ أكثر من مرة أن نقوم بحفلة مشتركة وكنت أتهرب من الموضوع لأكثر من سبب ذاتي وموضوعي، فقلت في نفسي الآن حان الأوان لتلبية هذا الطلب.

استدنت أربعين أوقية خلافا لعادتي في عدم الاستدانة من أحد، استدنت من صاحبة بيت مضيفي وركبت السرفيسإلى سانكييم، اكوش، ادروات، إلى أن وصلت دار الفنانة أبتي بنت شويخ حيث استقبلتني وأهل دارها أحر استقبال عرضت عليها الفكرة وكانت فرحة بها، وقلت: "ندخل في التفاصيل." فانبرى زوجها في ذلك الوقت متحدثا ليقول: "لاحاجة للتفاصيل فكل شيء واضح." فقلت له: "كيف؟ وضح لي هذا الواضح." فقال: "نحن ثلاثة أنا وأنت وأبتي كل يأخذ الثلث، علما أن المتعارف عليه هو أن الذي هو صاحب الحفلة يأخذ الأكثر ومن يشاركونه يأخذون الأقل وقد يتبرع أحدهم فلا يأخذ شيئا مساعدة لصاحب الحفل." عندها قلت له: "لكن أنا صاحب الحفل وأتحمل مسؤوليته وأدفع النقود وأتعب في تسيير المعاملة وغير ذلك من أمور الدعاية الإذاعية ودعاية السيارات والدعاية الورقية منها ثم أعطي كلا منكما الثلث، لكن لو كنت أنت الذي تقوم بها وشاركتك أنا فقط مشاركة دون أن أدفع أو أتعب يكون الأمر معقولا." وكنت أدفعه إلى تلك النقطة التي كنت أقصدها من البداية فوافق، قلت له: "الآن أنت تستحق الثلث وأنا الثلث وأبتي الثلث، لأنني كنت أعرف أنه لو أقام حفلة (له لوحده فقط) لن يدخل الحفلة قاطع لتذكرة غيره، لكنني مضطر إلى سيولة مادية أستطيع بعدها التحرك بطلاقة، اتفقنا على موعد الحفلة وحجزنا دار الشباب ووجهته إلى ما يجب أن يفعله، واشترطت عليه أن يأتي يوم الحفل الساعة السابعة مساء إلى البيت الذي أنا ضيفه فيأخذني إلى دار الشباب وبعد انتهاء الحفلة يعيدني أيضا إلى حيث أخذني منه، وهذا ما حصل فعلا أخذني في الساعة السابعة وذهبت للإشراف على بعض التفاصيل والاتفاق على الأغاني التي سنغنيها مشاركة بيني وبين أبتي، فإضافة إلى "بالي حالف يمين" التي لحنتها لها والتي تجيدها بشكل ممتاز، اقترحت علي أن تغني

"درسك يا غلانه" فدربتها عليها، وكذلك على أنتِ موريتانية وأنا من حلب" فغنتهما معي أيضا وقد أدتهما بشكل لا بأس به، لكن طبعا ليس كصاحبتهما الأصلية، المهم كان الحفل مقبولا من حيث العدد حيث كان عدد الحضور يقترب من الخمسمائة شخص، المهم أنا لم أجر معه حسابا، هو أجرى الحساب وبعد حسم المصاريف قال لي لقد بقي لكل واحد ثلاثة عشر ألفا وخمسمائة علما أني لا أحفظ دخل أغلب حفلاتي إلا التي كان هناك مبرر لحفظها وفي هذه الحفلة ليس في جيبي أوقية واحدة فكيف لا أذكرها، أخذت النقود وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى دار الشباب وحجزت الدار ليوم السبت الأول من الشهر القادم حيث يكون الناس في أحسن أحوالهم المادية ويكونون في اليوم التالي عطلة وفي يوم الحفلة أيضا عطلة، المهم كان التوقيت مناسبا جدا، وكنت قد أجريت في الفترة السابقة بعض الاستعدادات مثل تدريب بعض الهواة من الموريتانيين من غير الأسر الفنية، وشاب مغربي، وفرقة دبكة من الإخوة اللبنانيين الذين شاركوا تطوعا وكان على رأسهم صديقي المرحوم عبد النبي خشمان وأسرته بأكملها، كما أنني قمت بدعوة رئيس الوزراء وكان يومها معاوية وقد حضرت عقيلته يومها رحمها الله مع بعض من أفراد أسرتها، كما دعوت العديد من الوزراء الذين لهم صلة بالثقافة والفن ومدراء بعض المؤسسات، وحضر أكثرهم حينها كما حضرها بعض السفراء العرب وخصصت لجنة للاستقبال والتنظيم وكتبت على المقاعد الأمامية التي خصصتها للمسؤولين على المقعد اسم صاحبه وأعتقد أن موريتانيا إلى حينه لم تشهد قبل ذلك حفلة يماثل تنظيمها وما قدم فيها من مواد فنية وثقافية وكان التقديم من شعراء وإعلاميين هامين وفي تمام التاسعة بدأت الحفل عكس ما يقوم به البعض في تأخير الناس إلى أطول وقت ممكن ثم اختصار الحفل وكان المهم أن يكون هناك جمع يدفع ثم يخرج وليس المهم الموعد ونوع ما قدم وحجمه، المهم وخلال الحفل جاءني أحد الذين كلفتهم بالإشراف ليقول لي لم يعد هناك أمكنة للجلوس وهناك ازدحام شديد خارج الدار والناس يقولون إنهم يقبلون أن يدخلوا ويبقوا واقفين دون أن يجلسوا.

قلت له: "اعتذر من الناس في الخارج وقل لهم ستكون هناك حفلات أخرى تعوض لكم فلا أستطيع مضايقة من سبق في الحضور أو من دعوته دعوة رسمية من الوزراء والمسؤولين." وهذا ما حصل فعلا حيث كانت حفلة تحدث من حضروها على تكاملها، وهنا تذكرت الآن شيئا هاما جدا ساهم في هذا النجاح وكان له فضل علي لا أنساه، أخي وصديقي المذيع اللامع أحمد ولد بياه الذي كان عنده برنامج أدبي فني يقدمه والذي دعاني لأكون ضيفه في حلقتين متتابعتين وتحدث في كلتيهما عن حفلتي هذه وعن حفلات سأقدمها في كل الولايات مما هيأ الجمهور وحثه على الحضور، علما أني علمت من غيره وليس منه أنه تلقى توبيخا على فعلته لأنه خالف الأنظمة وقام بدعاية غير مباشرة غير مدفوع ثمنها، لكنه كان يعرف أنه يقوم بواجبه للفنان الذي قدم لهذه الإذاعة الفتية الكثير وفي الأخير حرم من أبسط حقوقه القانونية وكانت وقفته معي من هذا القبيل وقفة رجولية تستهين بالعقاب أو اللوم والتنبيه، وقفة مع حق زميل وصديق يعرف هو وباقي المذيعين والعاملين في الإذاعة ما كنت أقدمه في أي برنامج ثقافي يطلب أحد الزملاء مني مساعدته فيه، وكنت أشعر بلذة عارمة رغم التعب ورغم التزاماتي المتنوعة في الفن ومعهد تكوين المعلمين الذي كنت فيه أستاذا للتربية وعلم النفس لكنني كنت أدرس العديد من المواد كالموسيقى والتاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية ودون أجر إضافي وزملائي يعرفون ذلك، إضافة إلى التلحين ففي كل أسبوع أو عشرة أيام هناك أغنية جديدة، ولا تنس التزاماتي الأسرية فقد كان معي زوجتي وستة أطفال أكبرهم في الصف الثالث، حاجاتهم التربوية والمدرسية والصحية ولوازمهم المتنوعة، لقد كنت في الثلاثين من عمري وكلي طاقة واندفاع ولم أشعر يوما بالتعب أو الوهن ولم يشعر أحد بتقصيري في جانب من جوانب الأعمال التي قدمتها وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله.

دمتم لي.

××××

بعـون الله وكرمـه انتهيـت مـن مشـكلة تأمـين بعـض السـيولة الماديـة، وكـان ولـدي البكـر والـذي كـان عمـره وقتهـا ينـاهز الخمسـة عشـر عامـا قـد أرسـل لي رسـالة يخـبرني فيهـا أن النقـود الـتي تركتهـا في البيـت سـتكفي خمسـة عشـر يومـا أخـرى فقـط، وهكـذا بعـد حفلـة دار الشـباب المثاليـة في التنظـيم والنجـاح والمـردود، صـار بالإمكـان بعونـه تعـالى أن أرسـل لولـدي ولوالـدي المـريض لكـل منهمـا دفعـة مـن المـال، وقـد كـان أحـد الأصـدقاء السـوريين يـزور موريتانيـا في تلـك الفـترة في مهمـة وظيفيـة إلى السـفارة السـورية وهـو مـن حلـب نفـس مـدينتي فأعطيتـه المبلـغ الـذي أرغـب بإرسـاله وأعطـاه لأهلـي، كمـا اشـتريت بطاقـة طـائرة للعـودة تمـر مـن السـينغال، نيجـيريا، سـاحل العـاج، جـزر الكنـاري، لنـدن، دمشق وتركتها للاحتياط حيث أستخدمها إذا ما ساءت الظروف عندي.

في موريتانيـا كـل البيـوت بيـتي، وكـل النـاس أهلـي، وهـي واحـدة مـن عشـرات الميـزات الـتي لا توجـد في بلـد مـن بلـدان العـالم غـير موريتانيـا، لكـن لكـل بيـت قـدرات وظـروف وواقـع يختلـف عـن غـيره، وأنـتم أدرى بـذلك، فأنـت قـد يكـون لـك عشـرة أقـارب أو أصـحاب لكنـك تميـز واحـدا عـن الآخـرين في اختيـارك لـه مكـانا للإقامـة عنـده، لقـد كـان لمضـيفي وضـع خـاص لاحظـت أنـني قـد أتسـبب لـه بالضـيق إن طالـت فـترة وجـودي عنـده، وكلمـة حـق يجـب قولهـا: كـرم مـا بعـده كـرم قـابلني بـه، وكـان مثـالا للضـيافة وكنـت كـأنني في بيـتي، وعنـدنا مثـل سـوري يقـول "اللـي مـا بيشـوف مـن الغـربال أعمـى" أي أن الـذي لا يـرى مـن خـلال الغـربال أعمـى والغـربال وعـاء يسـتخدم لفصـل الحبـوب أو غربلتهـا عـن الشـوائب العالقـة بهـا وتكـون فتحاتـه متوسـطة أو كبـيرة تتناسـب مـع المـادة المـراد غربلتهـا، لكنـه في كـل الأحـوال مثقـوب يسـمح للرؤيـة مـن خلالـه مهمـا كانـت عينـا الإنسـان ضـعيفتين في إبصـارهما، والأعمـى وحـده هـو الـذي لا يمكنـه الرؤيـة مـن خلالـه، في البدايـة كنـت أعتقـد أن زيارتي لـن تطـول وبـدأت أشـعر بالإحـراج كلمـا تأخـر علي الفرج.

في الأيام الأولى كنت أتوقع أن يقوم أحد الإخوة والزملاء المدرسين السوريين الذين يعيشون في دور واسعة لوحدهم، أي أنهم لم يحضروا أسرهم معهم، توقعت أن يقوم واحد من أولئك بأن يعرض علي أو يدعوني إلى السكن عنده أو المبيت على الأقل، نعم إنها ضريبة المدينة أو المدنية، أن ينغلق كل على نفسه؛ يكفي نفسه، ويؤمن لنفسه كل ما يريد أما الآخرون فهم لا يهمونه مهما كانت ظروفهم.

كم هي جميلة حياة البداوة عندما يقاسم الإنسان ضيفه في لقمته، دعوني أتكلم بصدق وشفافية وأنتقد حتى أبناء بلدي الأول سورية التي هي كل شيء بالنسبة إلي، لكن ما وجدته من علاقات جماعية على الأقل في فترة وجودي التي قاربت الخمس سنوات ونيف، لم أجد هذا التعاون الكافي، فلو نظرت إلى الإخوة اللبنانيين فإنهم يقفون مع أي لبناني يأتي ومن اليوم الأول يلتقون به من خلال وليمة يولمها أحدهم ويجتمع أكثرهم فيها ويتدارسون العمل الذي سيقوم به مواطنهم الضيف فيقوم الجميع بتقديم المساعدة كل في اختصاصه وضمن إمكاناته، يقدمون ما يقدمون في أغلب الأحيان دينا أو إعارة وبعد فترة ليست بالطويلة يقف على قدميه ويبدأ برد ما عليه من التزامات ولا تمر أشهر أو سنة حتى يصبح مثله مثل باقي مواطنيه الذين وقفوا إلى جانبه، إنها الأخلاق العربية والإسلامية الأصيلة، ونحن نفعل مثل هذا في سورية أيضا، لكني في فترة وجودي لم أر من زملائي من فعل ذلك، وقد تألمت كثيرا من هذه المواقف اللامبالية التي كان يبديها من كنت أعرفهم وقتها وأذكر لكم مثالا حتى لا يظن القارئ أنني أتحدث عن موقف زملائي مني أنا فقط، فبعد عشرة أشهر من الآن (هذه الفترة التي أحدثكم عن نفسي فيها وهي بعيد فترة قدومي) حيث كان الوقت هو العطلة النصفية، حيث وفد المدرسون السوريون من كل الولايات قاصدين العاصمة لقضاء بعض حاجاتهم وشراء لوازمهم التي قد لا تتوفر في المناطق التي يعملون فيها، ومن أسباب قدومهم الأساسية أن يقبضوا رواتبهم من الوزارة حيث كانت تدفع لهم موريتانيا وقتها ستة آلاف أوقية للشهر وهؤلاء أغلبهم جدد أتوا هذا العام وهي المرة الأولى التي يغادرون مدنهم التي يعملون فيها (أطار مثلا،

روصو، تجكجة، نواديبو إلخ) كل مجموعة منهم حلت ضيوفا عند أحد المدرسين من أبناء المدينة التي هو منها في سوريا، وفي صباح اليوم التالي من قدومهم ذهب الجميع إلى الوزارة وكان الرد في الوزارة أن الرواتب ستتأخر لفترة لظروف إدارية، لقد كان الجميع قد صرف كل ما أحضره معه من سورية والبعض استدان من هنا أو من هناك مؤقتا عساه يرد ما استدانه الآن عندما يقبض رواتبه من موريتانيا، عدد منهم ظروفهم صعبة للغاية فأطفالهم الرضع بحاجة إلى حليب، أومن ستلد زوجته قريبا أو من يرغب بشراء علاج أو غير ذلك من ضروريات الأسر، رواتبهم من سوريا أيضا لم تصل بعد لأنهم أخذوا سلفا منها، لقد شرحوا أوضاعهم على الملإ وكنت أنا من بين من كان حاضرا واطلع عليها، الكل يسمع وكل ينصح بالكلام: "اذهبوا إلى كذا وافعلوا كذا." لكنك كنت تسمع جعجعة ولا ترى طحنا، فبعد أن طرقوا كل الأبواب لم يصلوا إلى نتيجة، اقترحت عليهم اقتراحا معقولا وهو أن يقوم أبناء كل مدينة سورية من القدماء بمساعدة أبناء مدينتهم من الجدد، لم أسمع موافقة من الحاضرين وكنا جالسين حينئذ في المركز الثقافي السوري، وحاولنا تطبيق هذا الكلام بأن يذهب كل إلى ابن بلده يطلبه السلف أو الدين، عاد الجميع بخفي حنين، اقترحت أن يقوم مدير المركز بإقراضهم من أموال المركز رفض المدير اقتراحي وقال إن أموال الدولة لا يجوز إقراضها لأحد وأن أي تفتيش يأتي يمكن أن يؤدي إلى معاقبة المدير اقترحت على الملحق الثقافي أن يفعل ذلك وهي من صلب عمله أصلا وهي موجب وجوده في هذه البلاد، لكنه أبدى ما أبداه سابقا، لم أعد أحتمل تلك الوقفات اللاإنسانية وأنا أنظر إلى زملائي وأتذكر نفسي عندما جئت منذ عشرة أشهر ولا أحد يسأل عني، كان لي في البنك وقتها مبلغ لا بأس به من المال، وبعد أن قطعنا الأمل من كل الوسائل، وقفت وصرخت بأعلى صوتي: "ليأتِ إلي كل من يريد أي مبلغ." وأخرجت دفتر الشيكات الذي كان بجيبي لأكتب له شيكا والبنك كان لا يبعد أكثر من مائتي متر عن المركز الثقافي، فأخذ أكثر من واحد يطلب مني الكف عن المزاح واللعب بأعصابهم، قلت: "ليجرب أحدكم ويوافق وسترون بعدها

إن كنت جادا أم أنني أمزح." تقدم أحدهم وأراد أن يكون كبش الفداء كتبت له اسمه والمبلغ الذي يريد ومثل ذلك كتبت على أرومة الشيك حتى أعرف من أقرضت وكم أقرضته وما هي إلا دقائق حتى عاد الكبش وقد أحضر عشرة آلاف كان قد طلبها، عندها هجم الجميع يطلبون مني أن أكتب وفي دقائق قليلة كنت قد كتبت للجميع وكان عددهم يقارب الخمسة عشر رجلا حلت المشكلة وأعادوا المبلغ بعد شهر ونيف ولم أخسر قرشا واحدا، أردتها أن تكون درسا للآخرين ولا أعرف إن كان الدرس قد أفاد من بعدي فقد غادرت بعدها بأشهر مغادرتي الثانية لموريتانيا.

وتجربة لي سبقت هذه التجربة بعشرة أشهر وهي التي دفعتني إليها أصلا عندما عرضت على أحد الزملاء السوريين وكان من المدرسين الذين يسكنون لوحدهم أي أنه لم يحضر عياله وكانت داره مكونة من أربع غرف لا يستخدم إلا اثنتين منها، وعرفت منه أن أهله مصممة على عدم المجيء إلى موريتانيا، عرضت عليه أن أقدم له كامل نفقات الطعام والشراب والماء والكهرباء والغاز فقط مقابل أن أسكن معه، ورفض صاحبي، متعللا بأنه يجب أن يكون حرا يأخذ راحته في بيته، هذا ما قاله بالحرف الواحد، وسيرد ذكره في حلقة لاحقة عندما يصبح عندي بيت في الاكصر مطلا على الشارع الرئيسي وله شرفة واسعة كيف أنه صار ساكنا معي دون أن أكلفه بشيء وكان البيت بيته، بل وأكثر من بيته.

فقد فكرت بعد أن صار عندي المال أن أستأجر بيتا مهما كان صغيرا (استوديو) مثلا، فالأمر في نواكشوط يتطلب مبلغا لا بأس به من المال، وإن استأجرت غرفة مع جيران لن أرتاح من حيث النوم والقيلولة والصباح أو المساء لأن الكثيرين سيشاركونني الدار وفناءها، ويجب أن تكون الدار لائقة بمكانتي الاجتماعية، وليس تكبرا، المهم كنت أعيش حيرة وبالي مشغول لهذا الأمر إضافة إلى ما يشغل بالي من عشرات الأمور لوضع والدي المريض وأولادي وإخوتي وأخواتي وظروف البلد الصعبة إذ ذاك في سورية.

وبينما أنا سائر في سوق العاصمة في حاجة لي إذ بشاب طويل القامة حسن الهندام والهيئة ينزل من سيارته متجها نحوي يسلم علي بحرارة ويعانقني مسلما سلام الصديق والعارف وكثيرا ما كان يحصل معي هذا فالكثيرون يعرفونني وغالبيتهم أكون أنا قد نسيتهم لأني التقيتهم لقاء عابرا في مكان أو حفلة أو عرس أو سهرة في صالون من صالونات نواكشوط.

تبادلنا التحايا أنا والشاب ثم طلب مني أن أدخل معه إلى مكتبه نتحدث وكان مكتبه قريبا من المكان الذي ركن فيه سيارته، طلب لي شرابا باردا ثم بدأ يسأل عن أحوالي فقلت له بخير، وسألني أين أقيم وكأنه متابع لأخباري قلت عند زيد من الناس، فقال: "وهل يصح هذا وأخوك موجود ولا تنزل عنده؟" (حتى الآن أخي هذا أنا لا أعرف اسمه)، صحيح أني يمكن أن أكون قد التقيته أكثر من مرة في أكثر من مكان، وكان حديث مطول دار بيننا في مكتبه من خلاله عرفت أنه من مدينة أطار ويدعى محمد ولد المالحه (رحمة الله عليه) وأصر الرجل أن نذهب سويا إلى بيت الذي أنا ضيفه لنحضر متاعي وننتقل به إلى بيته وأكون ضيفا عنده، قلت له: "أوافق لكن بشرط أن تطلب أنت ذلك من مضيفي حتى لا يعتقد أني ذاهب عنه بسبب أي تقصير منه لا سمح الله، فوالله لقد كانوا أطيب من أهلي والحق يجب أن يقال." المهم أنه طلب إليهم أن يسمحوا له باستضافة ضيفهم الذي هو أنا وودعت أهلي الذين كنت بضيافتهم وصرت ضيف صديقي المرحوم محمد ولد المالحه، وسهرنا ليلتنا الأولى أحدثه مع أسرته التي كان يسكن معه فيها والدة زوجته وشقيقها الحافظ ولد السجاد مع ابنته، ورجل شيخ من أهل ماء العينين حيث كانت سهرتنا عن سبب مغادرتي لموريتان قبل سنتين تقريبا ثم سبب عودتي إليها قبل شهر تقريبا، كما تحدثنا عما أخطط له من مشاريع فنية فقلت له: "إنني سأذهب في جولة فنية إلى جميع الولايات الموريتانية." فقال لي إن له في كثير من الولايات أصدقاء يمكن أن يقدموا لي المساعدات الممكنة، وكانت خطتي أن أذهب في رحلة إلى نواديبو ومنها أنتقل إلى زويرات، في اليوم التالي حجزت إلى نواديبو التي

مــررت منهــا قبــل ســنوات مــرورا (عنــدما أحضــرت العائلــة عــن طريــق جــزر الكنــاري وتوقفــت الطــائرة وانتظــرنا حــتى منتصــف الليــل في فنــدق قــرب المطــار لم أســأل في حينــه عــن اسمــه، ومــا زلــت لا أعــرف اسمــه) إذ نواديبــو لم أقــم فيهــا حفــلات ولا خــبرة لي فيهــا لــذلك أعطــاني مضــيفي وصــديقي المرحــوم محمــد المالحــة عــدة عنــاوين يمكــن أن يقــوم أصحابها بمساعدتي.

وفي حلقة قادمة نلتقي بإذنه تعالى وإلى ذلكم الوقت أستودعكم الله.

××××

في استعدادات السفر إلى نواديبو المدينة الكبيرة والعاصمة الاقتصادية لموريتانيا وقتئذ، (فما أكتبه اليوم أحيانا قد لا ينطبق وأحيانا يكون أكثر أو أقل انطباقا لذلك أرجو من القارئ الكريم أن يتعامل مع ما أكتب أنني أكتب عن أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات) نواديبو مدينة بت فيها ساعات فقط قبل سنتين ونيف مع أسرتي في طريق مجيئنا من سورية عن طريق جزر الكناري، أما غير ذلك فلم أكن أعرف عنها شيئا من قبل، أحياؤها، وسائل المواصلات فيها، مرافقها، الدوائر الحكومية، مواقعها، دور السينما، دار الشباب، طريقة العمل في أي موضوع، طريقة التنقل فيها كل ذلك خارج نطاق اطلاعي أو معرفتي.

قبل سفري إليها بيوم واحد كان رجل الأعمال المعروف الأخ أحمد المقيا ضيفا على الغذاء عند مضيفي المرحوم محمد ولد المالحة، وقد تحدثنا في موضوع سفري إلى نواديبو وزويرات، وقد أعطاني كما أعطاني ولد المالحة أسماء بعض الأشخاص في نواديبو وزويرات للاتصال بهم عند وصولي إلى هناك، وهذا ما كان قد فعله أصدقاء آخرون وهكذا صار عندي عشرات العناوين، فكلما زاد عدد العناوين زادت الاحتمالات الإيجابية لأنك قد تذهب إلى عنوان ويكون مسافرا أو مريضا أو منشغلا بقضية مفرحة، أو لا سمح الله بقضية محزنة، وهذه نصيحة وخبرة أقدمها للشباب قليلي التجارب والخبرة فهناك من يضع أمله واعتماده على شخص فيذهب إليه ولسبب ما لا يوفق معه، إما لعدم التقائه أو لعدم تجاوبه إلخ وهكذا يصدم الإنسان ويذهب تعبه هباء منثورا.

إذا ذهبت وفي جعبتي عشرات العناوين، وبعد أن هيأت حقيبة سفري، ذهبت صباح اليوم التالي إلى المطار وصعدنا إلى الطائرة، وبالصدفة كان يجلس في كرسي قريب مني شخص (يلبس لباس النصارى كما كان يقال في موريتانيا أيامها) أي لباس السترة والبنطال، المهم سمعته يتحدث إلى من حوله بالحسانية الملحونة وتوقعت من لكنته أن يكون إما لبنانيا أو سوريا، فسلمت عليه وسألته: "الأخ سوري أم

لبناني ؟" أجابني: "سوري." فقلت له: "وهل أنت ذاهب في زيارة إلى نواديبو؟" قال: "لا بل أنا راجع إلى بيتي هناك، فقد كنت في زيارة إلى نواكشوط في بعض الأعمال." وكنت قد سمعت من بعض اللبنانيين أن شخصا سوريا يقيم في نواديبو وذكروا لي اسمه لكني نسيته؟

سألني عن وجهتي فقلت إلى نواديبو (لأن الطائرة كانت ستتابع إلى جزر الكناري)، عندها سألني عن اسمي فقلت فريد حسن، فنهض من كرسيه وأعاد سلاما حارا معي وعرفني على نفسه بأنه يدعى عبدو اتاسي من حمص، وآل الاتاسي أسرة من أعرق أسر سوريا فلقد كان منها رئيسان للجمهورية العربية السورية، وقال إنه في نواديبو منذ سنوات طويلة، وكنا قد اقتربنا من أجواء نواديبو وسألني عن المكان الذي سأقصده في نواديبو فقلت إدارة مشروع كونصادو فقال:"آخذك إليهم، لكن قبل ذلك تذهب معي إلى داري ونرتاح قليلا ونتناول طعام الغذاء ثم آخذك إليهم بسيارتي." نعم إنه عبدو اتاسي الذي أصبح بعدها من أعز أصدقائي، والذي غادر فيما بعد موريتانيا عائدا إلى سورية منذ ربع قرن أو يزيد، حيث صفى أعماله ومشاريعه في موريتانيا والتي كانت متميزة في نجاحها، حيث كان يستلم تعهدات صغيرة في الإصلاح والترميم وتعهدات الطرق أو ما يتعلق بالشوارع والمرافئ والمباني التابعة لسنيم حينها.

ذهبنا إلى البيت، الدار عنده فنية بكل ما في الكلمة من معنى وكان رساما قد رسمها، من حيث البناء والتخطيط؛ لقد قام هو بيده بالبناء والتخطيط وتمديد المياه والكهرباء والغاز والنجارة، أما أهله فهي فنانة في الترتيب والديكور للأثاث؛ كانت لبنانية لم تنجب منه أولادا وهو إلى حينه لم يكن قد أنجب منها أو من غيرها، وكان ذلك من أسباب الفراق بينهما فيما بعد بل من أسباب مغادرته إلى سوريا ثم الزواج والإنجاب حيث أنجب ولدين ذكرين عندما زارني مع ولديه في بيتي في حلب فيما بعد، واسم ولده البكر علاء وفي سوريا ننادي الشخص باسم ولده البكر الذكر فهو أصبح ينادى ب"أبو علاء"، لقد كانت زوجته السابقة التي كانت معه يوم زرته مثالا

للترتيب والنظافة والطهي لأطيب وأشهى أنواع الطعام اللبناني والفرنسي وترتيب بيتها المتميز بفخامة، والفخامة ليست بثمن المواد الموجودة في البيت بمقدار جمالها وترتيبها ونظافتها، ومن ناحية تأمين الوقاية من الذباب والبعوض والحشرات الأخرى وتأمين التهوية والإنارة المستمرة وإبعاد تأثير الشمس المحرقة والحرارة عن طريق سقف مستعار يفصل السقف الخارجي عن الساكنين، وأجمل ما في البيت وما لفت نظري فيه وجود كلب بوليسي (الكلب الذئب) وقطة جميلة متساكنين أليفين يشربان ويأكلان في إناء واحد ورغم ضخامة الكلب – جل قدركم – وقوته وإخافته للبشر لكنه كان وديعا مع هذه القطة الوديعة، كان لدى صديقي هذا سيارتان واحدة سياحية للانتقال مع زوجته وللزيارات، وأخرى"بيكاب" للعمل ونقل العدة والمواد، والحق يجب أن يقال لقد عرض علي من اليوم الأول أن آخذ السيارة السياحية وقال: "إنك ستحتاجها فلتبق معك طوال فترة بقائك في نواديبو." هذا سوري وذاك الآخر سوري ذاك الذي عرضت عليه أن أدفع عنه كل مصاريف البيت من طعام وشراب وماء وكهرباء وغاز مقابل أن أسكن معه في داره في غرفة فارغة كان لا يستعملها وتبقى واحدة أخرى غيرها ما تزال فارغة عدا غرفتين كانتا مستخدمتين من قبله، وأجاب حينها أنه يريد أن يأخذ راحته ويكون حرا في بيته، ثم سأحدثكم عنه في حلقات قادمة كيف أنه سكن عندي عندما أعطتني الوزارة بيتا في حي الاكصر، يأكل ويشرب ويتصرف وكأن البيت بيته دون أن أكلفه بقرش أو بإحضار أي شيء للبيت، أقول كلاهما سوري لقيته في الغربة الصعبة التي عشتها، لكن مهما يكن فالحق يجب أن يقال بغض النظر عن الشخص وبلده وانتمائه فالخير موجود في كل زمان ومكان وكذلك الشر، ولا يعني وجود شرير في مكان أنها ميزة ذلك المكان ولا العكس صحيح بالنسبة للخير، وبالنسبة لي أنقل لكم أحداث ما كان يجري معي في ذلك الوقت نقلا دقيقا وصادقا حتى لو كان السيء أقرب الناس إلي أو كان الطيب أبعد الناس عني، والمجتمع عندما ينتشر فيه الطيب والخير والمتعاون تعم الفائدة ويكون الجميع في سعادة وحب، بينما عكس ذلك يجعل الجميع يعيشون في

تعاسة وضيق وألم، وهذا ماجعلني أحب هذا الشعب الموريتاني الذي يتعاون فيذلل الصعاب فلا يشعر بقساوة الحياة وشدتها.

تناولنا طعام الغذاء وركبنا السيارة من حي الغيران حيث كان يسكنه صديقي هذا في نواديبو، وانطلقنا إلى الحي الحديث الذي أقامته شركة سنيم لعمالها، حي كونصادو المنظم تنظيما أوروبيا إضافة إلى مسجد حديث، فكل حاجات الناس متوفرة فيه سوق حديث للخضار واللحم، وسينما خاصة للشركة، ومطعم حديث، ومدرسة، وشوارع مزفتة ومنارة بالكهرباء، وبيوت لا ينقصها شيء من رفاهيات العصر، المهم أنك تشعر بحياة أخرى غير التي هي كائنة في أنحاء موريتانيا عدا ما يقترب من ذلك في زويرات، حتى إن بعض البيوت بني على شكل فيلات تحيط بها الأشجار والأزهار، ويُكمل جمال المشهد البحرُ المحيط بها بجماله وهوائه الذي يبعد حر الشمس فيعطي هواء ينعش العليل، ذهبنا إلى إدارة المشروع ونقلت الرسالة إلى المسؤول عن الإدارة فأبدى تجاوبا تاما وأعطاني استوديو مفروشا لأقيم فيه، كما قدم لي السينما لأقيم فيها حفلة أو أكثر ودون مقابل.

وبقي علي فقط أن أقوم بإجراءات إعلام الولاية وأخذ موافقتها، وإعلام الشرطة ليحضر شرطي أو أكثر للحفاظ على الأمن، ثم القيام بالدعاية المتنوعة الورقية عن طريق الملصقات، والقماشية منها عن طريق اليافطات أو اللافتات والأهم دعاية السيارة حيث أضع مسجلة تبث أغانيّ ويجلس فيها شاب يُعلم الناس في كل توقف في منطقة آهلة يذيع شيئا من الأغاني ثم يوقف المسجلة ليخبرهم بمكان وزمان الحفلة والفنان الذي سيقيمها، وأضفت إليها طريقة أعتقد أن غيري من الفنانين لم يستخدمها وهي زيارات للمدارس التي كنت أجد في كل منها عدة معلمين من طلابي الذين درستهم في معهد تكوين المعلمين، وكنت ألتقي بالمعلمين والأهم هم الأطفال الذين كنت أسمعهم عددا من الأناشيد الوطنية من ألحاني للكبار وللأطفال، "كتائب موريتان"، و"أفريقيين وعرب الاثنين للكبار"، و"نشيد النور في شفتي تعيش تعيش مدرستي، أحب معلمي الغالي أحبك يا معلمتي، أرى علمي أرى وطني أرى

الـــدنيا بمدرســـتي"، و"يهتـــف يهتـــف العصـــفور مـــن ســـنة إلى ســـنة، وأهتـــف باســـم وحـــدتنا" "عبـــير الله يا لغـــتي"، كنشـــيد للأطفـــال، وكنـــت بـــذلك أرمـــي عصـــافير كثـــيرة بحجـــر واحـــد، ألتقـــي بجيـــل المســـتقبل فكـــم مـــن متـــابعي الفيســـبوك ذكـــرني بهـــذه اللقـــاءات الـــتي مـــا زال يـــذكرها ويحـــن إليهـــا، وكـــذلك ألتقـــي طـــلابي الـــذين درســـتهم في تكـــوين المعلمـــين، وأرفـــه عـــن المعلمـــين وطلابهـــم، وأجعلهـــا فرصـــة قـــد لا تتكـــرر أن يـــراني هـــؤلاء الـــبراعم الـــذين كـــانوا يســـمعونني في الإذاعـــة أغـــني لهـــم أغـــاني الكبـــار وأغـــاني الأطفـــال دون أن يتمكنـــوا مـــن رؤيـــتي حينهـــا لعـــدم تـــوفر التلفزيـــون، ومـــن ناحيـــة الدعايـــة فـــإنهم وســـيلة هامـــة حيـــث ســـيذهبون عصـــرا لبيـــوتهم ويخـــبرون أهلهـــم بالضـــيف الـــذي زارهـــم وغـــنى لهـــم وبأنـــه ســـيقيم حفلـــة الليلـــة أو غـــدا في ســـينما كونصـــادو، وهكـــذا كنـــت أنـــوع وســـائل الدعايـــة حســـب الظـــروف وأحقـــق فوائـــد لي وللآخـــرين وللمجتمـــع في آن واحـــد، و في هـــذه النقطـــة تختلـــف العاصـــمة عـــن كـــل المـــدن الأخـــرى، حيـــث في العاصـــمة الاعتمـــاد الأهـــم علـــى الإذاعـــة والجريـــدة ثم التلفزيـــون عنـــدما دخلـــت التلفـــزة فيمـــا بعـــد، والـــتي أعلنـــت فيهـــا مـــن خـــلال التلفزيـــون في حفلـــة واحـــدة فيهـــا عنـــدما رجعـــت لأســـابيع فقـــط عـــام 1991 م، وهكـــذا كـــان الأمـــر مهيـــأ لحفلـــة كونصـــادو وهـــي لقـــائي الأول بجمهـــور نواديبـــو الحبيـــب الذي طال شوقه للقائي وطال شوقي للقائه.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بعونه تعالى في أخرى.

دمتم لي.

××××

حفلــة نواديبــو الأولى: للمــرة الأولى ســألتقي بجمهــوري الحبيــب في نواديبــو، غنيــت لهــا وعليهــا عــام 1977م عنــدما غنيــت "بالي حــالف يمــين مــا يغفــر لحبيبــه، ذا مــن فليــاح العــين وتشــله ونواديبــو"، في الفــترة الأولى مــن مكــوثي في موريتانيــا والــتي امتــدت مــن آذار/مــارس 1977 م وإلى آب / أغســطس 1978م زرت مــدنا عديــدة كأطــار واكجوجــت وتكنــت وروســو وبــير التــورس ومــدردرة وركيــز وبارينــا ولم أغــن إلا في نواكشــوط وأطــار، وفي عــرس في روســو، وفي مجــالس للأصــدقاء في البلــدات الأخــرى الباقيــات الــتي ذكــرت، وكمــا أســلفت مــن قبــل أنــني غــادرت موريتانيــا فجــأة عنــدما فرضــت علــي ظــروفي العائليــة ذلــك، وقبــل أن ألتقــي جمهــوري فيمــا تبقــى مــن ولايات ومــدن، وكنــت أتحســر علــى ذلــك وأتألم كــوني لم أزر باقــي المــدن والبلــدان في موريتانيــا، ثم شــاء القــدر أن أعــود ثانيــة عــام 1979م فقلــت لنفســي هــذه المــرة علــيّ أن لا تفــوتني زيارة كــل المــدن الموريتانيــة كــي ألتقــي أحبــتي فيهــا، وبــدأت زياراتي خــارج نواكشــوط بنواديبــو، وحــدثتكم في الحلقــة الســابقة عــن مســار الرحلــة مــن نواكشــوط إلى نواديبــو والتحضــير للحفلــة والــتي قــدمت لهــا بأنــواع الدعايــة المتــوفرة حينئــذ بــل أضــفت إليهــا مــن إبــداعاتي في الدعايــة مــا قــدر لي، وكــان يــوم الحفلــة ومــع تمــام التاســعة كانــت ســينما كونصــادو علــى موعــد للقــاء الأحبــة الــذين أضــناهم الشــوق للقــاء، مــا لفــت نظــري قبــل الحفلــة بينمــا كنــت أســيّر بعــض معــاملات الحفــل القانونيــة هــو التقــائي بإحــدى الســيدات وكانــت موظفــة في أحــد بنــوك نواديبــو قالــت لي: "يا أســتاذ أنا سميــت ابــني عليــك." فقلــت لهــا: "بارك الله لــك فيــه وأحضــريه إلى الحفلــة غــدا فأنتمــا مــدعوان إليهــا." قالــت لي إن هنــاك ســبعا أخــريات في نواديبــو تعــرفهن أيضــا سمّــين أولادهــن علــى اسمــي قلــت لهــا: "أخــبريهن أيضــا أنهــن مــدعوات جميعــا إلى حفلــتي ببطاقــات شــرف مجانيــة." وأعتقــد أنهــن أتــين للحفــل أو بعضــهن علــى الأقــل دون أن يعلمنــني، علمــا أني أوصــيت صــاحب التــذاكر بعــدم قطــع بطاقــات لكــل مــن اسمهــا أم فريــد، طبعــا هــي دلالــة رمزيــة لكنهــا تعبــير عــن حــب وتقــدير جمهــوري الغــالي لي وهــذا يســاوي عنــدي

الكثير الكثير، بل لا أبادله بالأموال الطائلة ولا بإحراق الأشرطة التي عرضها عليّ أحدهم في الإذاعة، لأن هذا الحب هو الحب الذي لا يفنى ولا يموت.

بدأت الغناء بعد ترحيبي بالحضور وكان الفرح في عيون الجميع وعبارات التكريم والترحيب والاستحسان والتصفيق تعقب كل أغنية من الأغاني الكثيرة التي غنيتها، وعندما جاء دور "بالي حالف يمين،" الأغنية الخاصة بنواديو كان الأمر مختلفا جدا وبينما أنا في المقاطع الأخيرة منها، إذ برجل في أواخر العقد الرابع من عمره وأعتقد أنه كان في الصف الثاني الأمامي؛ ضخم البنية عريض المنكبين بهي الطلعة يقف مؤشرا بكلتا يديه قائلا: "هدا ال كلته زين".

نعم إنه يمتدح ما كنت أقوله في "بالي حالف يمين ما يغفر لحبيبه ذا من فلياح العين وتشله ونواديو"، لم يحدث معي من قبل أن أتفاعل وأنا أغني مع شخص قريب مني يقف ويتحدث وبصوت قوي، أسمع كل من في الصالة التي هي في الأصل صالة صغيرة نسبيا فهي لا تتسع لأكثر من ثلاثمائة مشاهد، وقطعت الأغنية لثوان وأجبته بشكرا، وتابعت، نعم رأيته يتلفت يمنة ويسرة ويدمدم أو يتمتم لكني لم أسمع دمدمته، وتابعت وانتهت الحفلة وكان الناس في أجمل حالات الفرح والطرب، والكثيرون يحيطونني بالتحايا والسلام إلا صاحبي ذاك لم أجده بين من أرادوا السلام علي أو التعبير عن مشاعرهم، ورغم ذلك لم يكن يخطر ببالي شيء لولا أن صديقي لارَ باس ولد الديدة والشيخ ولد عميم واللذين كنت أقضي جل وقتي معهم في شرب الشاي وأكل طاجين خاص دائم التوفر عند لارَ باس، وقل أو ندر أن تجده عند غيره وهو لحم الغزلان، ولم أكن أذكر أني تناولته قبل أن أتناوله عنده، إنه بالفعل من أشهى وأطيب اللحوم التي ذقتها طوال عمري الذي سبق، فبينما نحن على مائدة لحم الغزلان المشوي في بيت أخي لارَ باس سمعت صاحبي يتحاوران فيما بينهما وعرفت أن حديثهما هو عن ذلك الشخص الذي نهض واقفا بينما أنا أغني وقال "هدا ال كلتو زين"، وعرفت أنه يدعى النعمة، وكان يعمل في سنيم، وقد علمت أخيرا أنه انتقل إلى رحمة الله منذ سنوات، وله ابن يعمل في الصحافة في

فرنسا، كان الرجل رحمه الله سريع الغضب عنيفا، شديد البطش، وهذا ما عرفته من صديقي في اليوم التالي للحفلة، وقالا إنه تضايق مني كثيرا عندما وقف ليقول فيّ كفانا من نفس وزن "بالي حالف يمين"، تضايق لأني قلت له "شكرا" واعتبرها إسكاتا له، وأردفا أنه قال لهما لولا حبه الكبير لي ولو كان المغني غيري لأشبعه ضربا. وقالا لي إنه أحضر العديد من الشابات على حسابه ليدخلن حفلتي وأنا قابلت جميله بإسكاته وجعله يخجل أمام جمهور الحفلة، فعلا تألمت بعدما عرفت حقيقة ما حصل له، وما كنت أنا سببه طبعا دون قصد مني، وما كان مني إلا أن طلبت منهما أن يذهبا ليناادياه، حيث كان بيته قريبا منهما، وحضر وتناولنا الطاجين والمشوي من لحم الغزلان، واعتذرت منه وأفهمته أنني لم أكن أعرف أنه كان يريد مدحي، ولو كنت أعرف لتوقفت إلى أن يقول كيفانه فأغنيها ضمن الأغنية، وقلت له: "قل الأبيات لأكتبها وأحفظها غيبا لأغنيها الليلة في الحفلة، ولأصحح الموقف وأقول الحقيقة على الملإ حتى يعود لك ما خدش بالأمس." فقال لي الأبيات وكانت كالتالي :

حسك ياللي نختير ذاك اللاهي يجيبو

ماني عارف يا غير ما هو لاهي يجيبو

لاهي تمشي عنا يلقيك الترحيب

ولأنك ماشي عنا باقي في القلوب

وقلت له: "أنت مدعو وكل صديقاتك الليلة لحضور الحفل ولتسمع بأذنك أبياتك أو كيفانك وأمام الجمهور." وفي المساء حضر الحفلة وأبى أن يدخل مجانا بل دفع عنه وعن العديد من الطفلات أيضا وفي بداية الحفل شرحت سوء الفهم والتفاهم الذي حصل البارحة واعتذرت منه على الملإ وكان سعيدا جدا بعد أن بات ليلته السابقة كمدا حزينا وأصبحنا من يومها أصدقاءأكثر ولم يكن يسمع بحفلة لي إلا حضرها ومعه الكثير من الشابات والأصدقاء، وإلى حلقة قادمة ننتقل فيها إلى أحداث جديدة في مكان جديد، دمتم بخير وتصبحون على خير.

××××

انتهت الحفلة الثانية في نواديبو بعد أن التقيت بمن كان يرغب في لقائي إن كان في المسرح في سينما كونصادو أو في البيوت أو في الشارع، وتعرفت على العشرات وبنيت صداقات كثيرة فيها ورغم تخصيص شقة مفروشة لي لكنني لم أبت فيها بل تركتها للأمتعة فقط، حتى صديقي الحديث العهد وابن بلدي عبدو اتاسي لم يترك أهلي وأحبابي في نواديبو فرصة للانفراد به عدا عشاء دعاني إليه في مطعم النادي التابع لسنيم والمطل على البحر، وصرت جاهزا للمغادرة إلى زويرات محطتي الثانية بعد نواديبو، وسألت عن موعد الطائرة وكان الموعد بعيدا عنا وقتئذ وعرض علي أصدقائي العاملون في سنيم أن يؤمنوا لي في القطار سريرا في العربة المخصصة للمهندسين حيث تكون العربة نظيفة ومجهزة بفرش مرتب والمشاركون معي جميعهم من المهندسين أو عوائلهم، وافقت على فكرتهم وبهذه العملية أختصر الوقت وأوفر ثمن بطاقة الطائرة اختصارا للنفقات التي كان علي أن أوفرها لأسرتي الكبيرة، في سورية الجريحة حينئذ أيضا كما هي الآن (في أحداث الصقيع العربي)، كانت هي المرة الأولى التي سأركب هذا القطار الذي حدثوني عنه بأنه أطول قطار في العالم حيث يبلغ طوله عدة كيلومترات محملا بفلز الحديد من مقالعه في جبال الزويرات إلى مرفئ نواديبو، ثم العودة فارغا، لقد كانت سرعته محدودة لأنه يجر مئات العربات، كما أن الضغط على الفرامل في أي منعطف لتخفيف السرعة كان يتسبب في إيصال معدة الراكب في القطار إلى القرب من البلعوم أو المريء، لالتطام واقي الصدمة في العربات ببعضها نتيجة اندفاع العربات الخلفية بسرعة كبيرة، عندما ترغب عربات الجر الأمامية إنقاصها فتسمع أصواتا غريبة وتحس إحساسا لم تخبره من قبل، الطريق طويل وممل، زودني أصدقائي في نواديبو بزاد الطريق الطويل فقد خرجنا عصرا من نواديبو ووصلنا ظهر اليوم الثاني إلى زويرات، انتقلت من جو الرطوبة والمناخ المعتدل في نواديبو إلى جو الجفاف والحرارة الشديدة في زويرات

خاصة في النهار، أما في الليل، فالحرارة مقبولة بل مساعدة على السهر في الهواء الطلق على الزيرات وخاصة في الليالي المقمرة.

وكما فعلت في نواديبو وكما فعل الأصدقاء والمحبون فالمخطط أصلا كان أن أبيت في فندق سنيم مدعوا وعلى حساب الشركة لكن الأصدقاء لم يرضوا إلا أن أكون بينهم طوال الوقت وقد كان مكان إقامتي في بيت لا يبعد عن النادي (كلوب) الذي أقمت فيه الحفلة الأولى إلا أمتارا معدودة وكذلك من سينما سنيم المقابلة له والتي أقمت فيها الحفلة الثانية، وكما كانت الدعاية في نواديبو متنوعة ومبتكرة استخدمت نفس الأساليب (دعاية ورقية، يافطات قماشية، ملصقات، سيارة للدعاية المسموعة، زيارة المدراس) في كل من زويرات وفديرك، حيث أقمت حفلة فيها أيضا، وكانت جميعها حفلات ناجحة من كل النواحي حيث أدت غرضها الفني والإنساني والاجتماعي وكان دخلها لا بأس به والحمد لله، إضافة إلى تعرفي على حاكم فديرك الذي أكرم وفادتي وأظن أنه كان يدعى محمد الأمين من بلدة كرو والذي أصبح فيما بعد وزيرا للداخلية، وأظن أنه أخو حاكم أوجفت الذي حدثتكم عنه في تونكاد حيث حضر كل أمسياتي بنفسه ولعبنا الرمي على البارودة الفرنسية (خبيط الشارة) نعم أظن أن حاكم مقاطعة فديرك كان أخا صديقي حاكم أوجفت، كما قام قائد المنطقة العسكرية لتيرس زمور العقيد الشيخ سيد أحمد بدعوتي إلى وليمة من نوع خاص وجديد عليّ على الأقل فقد كانت الوليمة على كعود مكتف مشوي في التراب وذلك في فديرك مقر الولاية والعقيد هو من أصدقائي القدامى في فترة أول قدومي إلى موريتانيا، كما تعرفت على قنصل بلجيكا الفخري حينها في موريتانيا (سيد أحمد ولد حبت) وهو كما أذكر من أهالي فديرك إذا لم تخني الذاكرة والذي جعلني أعتقد ذلك أمران: الأول أني تعرفت عليه هناك في فديرك، والأمر الآخر أنه أعطاني كيفانا عن المجاهد الشيخ الولي رحمه الله ولحنتها وغنيتها في حفلة فديرك وكلماتها تقول:

الشيخ الولي راه زاد والكدية عند فديرك

وفديرك شي ماقط عاد فمنحر كدية غيرك

كما تعرفت في زويرات على المصطفى بن العربي ولد الظركان الذي سبق أن تعرفت على والده العربي ولد الظركان في نواكشوط والذي لديه متجر في نواكشوط في شارع جمال عبد الناصر، وقد عرفني عليه صديقي العربي ولد الجيد من شباب أطار الذين تعرفت عليهم في أول يوم قدومي إلى أطار عام 1977م والذي والدته أبوها سوري من آل البني من دمشق وأمها موريتانية، والذين تطورت صداقتي بكل أسرتهم حتى باتوا في مقام أهلي في موريتانيا، والعربي ولد الجيد مسمى على العربي ولد الظركان وهو قريبهم، المهم أني تعرفت على المصطفى ولد العربي ولد الظركان في زويرات وكان حينها يدير سينما "سنيم" ماليا وفنيا وإداريا وهو ذو خبرة في الأمور الثلاثة مجتمعة، حيث أقمت فيها حفلة ناجحة جدا، وقد كان المصطفى هذا من محبي الطرب أصلا ومن هواة التصوير السينمائي والتسجيل الصوتي وما يتعلق بهما، وقد ساعدني بأجهزة الصوت لحفلة فديرك، وبدأت لي معه صداقة شخصية استمرت إلى آخر فترة عودتي عام 1991م عندما جئت لفترة قصيرة، مستغلا فراغا عندي بين مرحلة الوظيفة التي أحلت فيها إلى التقاعد النسبي، وبين إتمام ترخيص الروضة من الوزارة، كي أتمكن من افتتاح روضة خاصة للأطفال ثم لتصبح مدرسة خاصة وروضة في تلك الفترة حتى يصدر القرار من الوزارة، ومرحلة الإشراف الدقيق على المدرسة الخاصة التي أقمتها ولتكون بعد ذلك من المدارس الخاصة الناجحة في حلب، أردت الاستفادة من تلك الفرصة وقمت بجولة سريعة في العديد من المدن الموريتانية على عجل، وكان للمصطفى حينها وقفات معي سيرد ذكرها في حينه، وأعود إلى الأشخاص الذين تعرفت إليهم في رحلة زويرات، وعندما أذكر أسماء أشخاص تعرفت عليهم في أي مدينة موريتانية سواء في نواديبو أو زويرات أو في غيرهما، فهذا لا يعني طبعا أنهم هم الوحيدون الذين تعرفت عليهم ففي كل قدوم إلى مدينة ألتقي في مناسبات ولائم أو حفلات شاي أو جلسات سمر بالمئات ومنهم من تتكرر لقاءاتي بهم لمرات محدودة ثم تنقطع فأنسى أسماءهم، وهنا أعتذر ممن لم

أذكر أسماءهم لأن نيفا وثلاثين عاما وما تخللها وما كان خاتمتها في التسع سنوات الأخيرة في سورية والتي تنسي الإنسان حليب أمه الذي رضعه، أقول لمن لم أذكر أسماءهم إنه النسيان لا التناسي والله على ما أقول شهيد، والله يسامح عبده إذا أخطأ ناسيا.

قد تجدونني أركز على أمور أعرف أن كثيرا من الناس غيري لا يعيرها أي اهتمام، أما أنا فأتصور نفسي مكان هذا الإنسان: فقد جلست مع إنسان وأكلت معه أو أكل معي في بيتي أكثر من مرة، ثم يذكر اسم غيري ويتجاهل ذكر اسمي، فعلا هو أمر يحز في النفس، هذا فيما إذا كان مقصودا أما إذا كان طول الزمن قد فعل فعلته في الأمر عندها تكون السماحة هي المطلوبة وأنتم أهل السماحة.

وحتى لا أنتظر موعد الطائرة بعد أيام اقترح علي سيادة العقيد قائد المنطقة العسكرية أن أعود إلى نواكشوط بالطائرة العسكرية التي كانت تنقل العسكريين وأسرهم وحاجياتهم وهي طائرة ضخمة، وهذا ما حصل فعلا حيث عدت بها إلى نواكشوط وبذلك انتهت رحلة نواديبو وزويرات وفديرك الأولى حيث تعرفت على الآلاف من جمهوري الغالي وتعرفوا إلي، وتعرفت على طبيعة جغرافية متميزة عن نواكشوط ومختلفة عنها في العديد من المواصفات، وحققت نجاحات فنية ومادية وثقافية واجتماعية في نيف وأسبوع وعدت إلى نواكشوط لأستعد إلى رحلة العيون الأولى؟

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذنه تعالى.

دمتم لي.

××××

-39 -

عدت من رحلة نواديبو وزويرات إلى مكان إقامتي الجديد في نواكشوط في بيت صديقي المرحوم محمد ولد المالحة وكان رحمه الله قد خصص لي غرفة بجوار غرفته، كان هناك العديد من الأشخاص يقيمون مثلي ضيوفا دائمين أو شبه دائمين، فوالدة زوجته تتردد عليهم باستمرار، أما خال زوجته وابنته فمقيمان دائمان، وكذلك رجل شيخ من أشياخ (شمال موريتانيا) ترسخت بيني وبينه صداقة أخوة طيبة كان يدعى سيداتي، كان طيب القلب دمث الخلق هادئا متواضعا أحببته وأحبني، أما الساكن الآخر فقد كان خال زوجته الحافظ ولد السجاد وهو مغربي الأصل أقام في موريتانيا منذ الأيام الأولى للاستقلال، وكان يعمل في تصليح الأدوات الكهربائية الصوتية (راديو، مسجلة وما شابه) ولم يكن التلفزيون قد وجد بعد في موريتانيا، وقد عاشر الحافظ ولد السجاد هذا مجتمعات متعددة لبنانية وسورية وجزائرية وإفريقية وكان يفهم اللهجات العربية جميعا، لذلك أصبحنا صديقين بسرعة غريبة وعرفت أن له غرفة خاصة به، لذلك سألته ما إذا كان لا يمانع من أن أنتقل من غرفتي المجاورة لغرفة المرحوم صاحب الدار فأكون أنا وكذلك أهل الدار أكثر راحة ودون تقييد لحريتنا جميعا، كان الحافظ يكبرني بسنين كثيرة، لم أر قلبا أطيب من قلبه، كنا نمضي كثيرا من أوقاتنا في الحديث عن معاناتنا وذكرياتنا، وكان له دكان ليس بعيدا عن الدار لتصليح أجهزة الراديو والمسجلات، كنت أيضا أتردد إليه في أوقات فراغي، كنت أشكوه همومي وأشجاني كأخ كبير أو كوالد رؤوف، وكان لي أخ آخر أزوره وأتردد عليه كثيرا هو صديقي المرحوم عبد النبي خشمان (أبو عادل) صاحب محل (كلي مينيت) هذا ما كان معروفا به، رغم أن محله كان متعدد الاختصاصات فبالإضافة إلى تصليح الأقفال وسكب المفاتيح لها، حيث كان يبيع فيه مواد النوفوتيه من خيطان وأزرار وكلف للخياطة، كما كان يقوم بالتصوير الفوتوغرافي، كما كان يبيع الأسطوانات وأشرطة الأغاني (والتي كانت سبب تعرفي عليه بعد فترة قصير ة من قدومي) حيث قيل لي إن أشرطتي تباع

وبأسعار غالية في محلات بيع الأشرطة وكنت مارا في السوق فوجدت محلا لبيع الأشرطة في سوق اللبنانيين وكان هذا محل "أبو عادل" رحمه الله الذي أصبح فيما بعد من أعز أصدقائي على الإطلاق، لقد اكتشفت بعد تعاملي معه أنه تجمعني به صفات مشتركة عديدة: فهو محب للفن مثلي ومحب لنفس الفنانين الذين أحبهم: فريد الأطرش، محمد عبد الوهاب، أسمهان، أم كلثوم، فيروز، صباح فخري، عبد الحليم حافظ، الأغاني الشعبية السورية واللبنانية، يجمعني معه حبه للقومية العربية حيث كان يمجد عبد الناصر رحمه الله، يجمعني معه احترامه للرأي الآخر حيث لم يكن متعصبا، كان إنسانيا يحب مساعدة الآخرين، كان صادقا، أمينا، شهما، لا يعبد المال مثل كثير من الناس، القيم أهم عنده بكثير من الماديات، لم يكن حقودا ولا حسودا ولا نماما ولا مغتابا وكل هذه الصفات مجتمعة يندر لك أن تجدها في شخص واحد، لذلك التقت روحانا وكنا أخوين دون أن نكون من أم واحدة أو أب واحد، وسيرد ذكره في العديد من الحلقات القادمة وفي جميعها كان له مواقف رجولية إنسانية يقف فيها إلى جانبي دون أن أطلب منه ذلك، بل يتصرف وكأنني أنا الذي طلبت منه ذلك، لقد تعرفت عليه عندما سألته إن كان لديه أشرطة للفنان فريد حسن فأجاب بالنفي فقلت له ولم لا تقتنيها في محلك فقال لي:أنا إنسان لا أحب ارتكاب الخطإ؛ ذلك أن قانون الملكية الفكرية لا يسمح أن أبيع مثل هذه الأشرطة دون موافقة صاحبها، عندها قلت له: "أنا فريد حسن فهل تريد أن أسجل لك شريطا كاملا ثم تبيعه؟" فبادر هو قائلا: "وتكون الأرباح مناصفة." فوافقته وصرت أتردد عليه كل فترة فيعطيني حصتي من ثمن الأشرطة وعندما وجدت فيه كثيرا من الطيبة وتوافق الأفكار بيني وبينه قلت في نفسي:إ"ن كل الناس يبيعون أشرطتي دون أن آخذ منهم شيئا فلماذا آخذ من هذا الإنسان الطيب فقط؟" لقد أحببت حديثه وأخلاقه لكن ما كان يمنعني من إكثار التردد إليه هو أن يظن في ترددي السؤال عن دخل الأشرطة علما أن المبلغ لم يكن مهما في كثير من الأحيان، وكل هذا دفعني أن أقول له: "يا أخي كفاني ما أخذته منك فأنا لم آخذ من غيرك

أوقيـــة واحـــدة وأخـــذت منـــك الآلاف." وأصـــر أن يســـتمر بالـــدفع لكـــني قلـــت لـــه: "إذا كنـــت تريـــدني صـــديقا فيكفـــي مـــا أخذتـــه." وكانـــت نقطـــة انطـــلاق صـــداقتنا الـــتي دامـــت عشـرات السـنين إلى أن تلقيـت نبـأ وفاتـه خـلال الأزمـة السـورية منـذ خمـس سـنوات عـبر هـاتف مـني لأسـرته في لبنـان كنـت أسـأل فيـه عـن صـحته الـتي تراجعـت كثـيرا بعـد إجرائـه عملية في القلب.

كنـت أمـر عليـه كلمـا كنـت قريبـا مـن محلـه نتحـدث في مشـاريعي الفنيـة وكنـت أشـاوره في أعمـــالي الفنيـــة وكـــان يبـــدي اهتمامـــا كبـــيرا بأوضـــاعي وظـــروفي، كـــان يـــذكرني بســـورية فيـــذكرني كلمـــا طبخـــت زوجتـــه أخـــتي أم عـــادل طعاماشـــاميا فســـوريا ولبنـــان بلـــد واحـــد قســـمه الاســـتعمار في بدايـــة القـــرن العشـــرين، حـــتى إنـــني في صـــغري تعاملـــت بالنقـــود الـــتي كـــان مكتـــوبا عليهـــا دولـــة ســـورية ولبنـــان، كمـــا أن النـــاس في موريتانيـــا وكثـــير مـــن دول إفريقيـا والعـالم كـانوا يطلقـون عبـارة الشـامي علـى اللبنـاني والسـوري معـا، لأن الشـعوب لم تعـترف بهـذه التقسـيمات الـتي فرضـت علينـا مـن الخـارج، أقـول:إن أبا عـادل صـديقي هـذا كـان عنـدما أمـر عليـه ويعـرف أن غـذاءهم اليـوم شـامي كـان يقـول لي: "اليـوم طـابخين مجـدرة." وهـي أكلـة شـامية بحتـة، أو طـابخين محشـي أو كبـاب، أو أي طعـام شـامي ويتمسـك بي لأكـون ضـيفه اليـوم علـى الغـذاء، وصـار يعـرف هـو وتعـرف أخـتي أم عـادل الطبخـة المفضـلة عنـدي وكـم مـرة أرسـل فيهـا أحـد أبنائـه إلى مكـان إقـامتي في الاكصر وقتئذ ليقول لي: "بابا يدعوك لتتغدّى معنا." (أي لأقيل عندهم).

في الوقـــت الـــذي كنـــت أقـــوم فيـــه بالعمـــل في مجـــال الفـــن فقـــط لأني وجـــدت الأبـــواب موصـــدة أمـــامي بالنســـبة للوظيفـــة، وبـــررت ذلـــك لنفســـي بســـبب الظـــروف الماديـــة للبلـــد حينئـــذ، لكنـــني كنـــت أعـــرف أن الكثـــيرين مـــن أقطـــار عربيـــة أو أوربيـــة كـــانوا يتعاقـــدون تعاقـــدا داخليـــا مـــع وزارة التعلـــيم، لـــذلك كنـــت أطـــرق هـــذا البـــاب كلمـــا ســـنحت لي الفرصـــة ذلـــك، أي كلمـــا التقيـــت بصـــديق أو تعرفـــت إلى مســـؤول أو قريـــب لمســـؤول أو مـــن لـــه جـــاه عنـــده، وكنـــت أدرك صـــعوبة الأمـــر لالتقـــاء أمـــرين معـــا أولهمـــا إغـــداق الـــدول العربيـــة في تلـــك الفـــترة بالـــذات بالمدرســـين المعـــارين إلى موريتانيـــا بـــل التســـابق بـــين بعـــض

هـــذه الـــدول أيهـــا ســـتقدم أكثـــر، وبعضـــها كـــان لأســـباب سياســـية مثلهـــا مثـــل كثـــير مـــن العطـــايا والهبـــات علهـــم يكســـبون ود موريتانيـــا عـــبر تكـــتلات معســـكراتهم ضـــمن الجامعـــة العربيـــة أو المعســـكرات الشـــرقية أو الغربيـــة (ودعـــوني أبتعـــد عـــن السياســـة رغـــم أن السياســـة لا يمكـــن فصـــلها عـــن الاقتصـــاد، والاجتمـــاع، والثقافـــة) إذا تســـابق كثـــير مـــن الـــدول لإرســـال المدرســـين، طبعـــا هنـــاك بعـــض الـــدول الـــتي كانـــت تســـاعد فقـــط مـــن منطلـــق قـــومي وإنســـاني وهـــذا معـــروف لـــدى الجميـــع، لكـــن الـــبعض الآخـــر لـــيس كـــذلك، ومحدوديـــة الإمكـــانات للدولـــة الموريتانيـــة، هـــذان العنصـــران كـــانا يشـــكلان ســـببا يعيـــق التعاقـــد معـــي في عقـــد داخلـــي، وقـــد طرقـــت ومعـــي أصـــدقاء عديـــدون هـــذا البـــاب وكـــان مـــن بيـــنهم شخصـــيات اجتماعيـــة هامـــة لا داعـــي لـــذكرها مـــع شـــكري الجزيـــل لهـــم وأعـــرف أنهـــم عنـــدما تطوعـــوا لمســـاعدتي كـــانوا لا يرجـــون جـــزاء ولا شـــكورا وهـــم أرفـــع مـــن هـــذا بكثـــير، والعديـــدون مـــنهم صـــاروا في دار الحـــق رحمهـــم الله وأســـكنهم فســـيح جنانـــه وجـــزاهم عـــن مســـاعدتهم لي بكـــل مـــا وعـــد الله بـــه المحســـنين مـــن عبـــاده، وقـــد واصـــلت مـــع الطيبـــين مـــن أصـــدقائي وأحبـــتي كـــي أصـــل إلى هـــدفي في التعاقـــد حـــتى أحصـــل علـــى ســـكن لائـــق ومفروشـــات للبيـــت، وعلـــى دخـــل ثابـــت، وكـــذلك علـــى إمكانيـــة تحويـــل النقـــود عـــن طريـــق البنـــك وبشـــكل نظـــامي، لأن إخـــراج الأمـــوال وقتهـــا كـــان ممنوعـــا منعـــا باتا، إضـــافة إلى رغبـــتي في إحضـــار أســـرتي مـــن جديـــد لأن هنـــاك واقعـــا جديـــدا صـــار يفـــرض نفســـه، فقـــد طـــال بعـــدهم عـــني وبعـــدي عـــنهم، وفي هـــذا الصـــدد بالـــذات كنـــت أعـــيش صـــراعا داخليـــا هل أحضر أسرتي أم أبقيها في سورية وفي الحالتين هما أمران أحلاهما مر.

الـــزمن يجـــري وأنا يجـــب أن أكـــون في ســـباق معـــه، فأســـرتي وأســـرة والـــدي ومرضـــه ينتظـــرون مـــني غـــير قليـــل مـــن المـــال، وكـــذلك اســـتقراري كضـــيف في مكـــان واحـــد أشـــعر فيـــه بإحـــراج لـــيس بالقليـــل أيضـــا، الوضـــع في أساســـه غـــير طبيعـــي بالنســـبة لي علـــى الأقـــل فـــأنا لم أتعـــود علـــى حيـــاة كهـــذه، علمـــا أنهـــا في تلـــك الأيام كانـــت أمـــرا طبيعيـــا في موريتانيـــا، صـــحيح أني (تمرتنـــت) أي أن أعـــيش كمـــا يعـــيش الموريتـــانيون كمـــا اتفقـــت مـــع الراضـــي البيضـــاوي رحمـــه الله منـــذ الأيام الأولى لوصـــولي، لكـــن الإنســـان كـــل لا يتجـــزأ فماضـــيه يصـــب في

حاضره وحاضره يستشف وجوده من ماضيه وماضيه وحاضره يحددان مسار مستقبله في أغلب الأحيان، وهكذا كان نضالي على صعيد العمل في الفن بجهد وتفان والبحث عن طريق الوظيفة في التعليم أو الثقافة، وضمن هذا السياق خططت لجولة جديدة باتجاه ذكرياتي الأولى وكان الوقت أيضا زمن الكيطنة وأنا ما زال عندي وديان كثيرة في ادرار لم أزرها وكنت قد وعدت أصدقائي أنني سأخصص لهم وقتا لزيارتهم وقد حان الأوان لتنفيذ وعودي. وإلى حلقة قادمة حيث نزور أطار للمرة الثالثة في واحات جديدة غير ترجيت وتونكاد وأوجفت وإلى تلكم الحلقة أستودعكم الله !

دمتم لي.

××××

أطار عدنا لك، والعود أحمد، نعم لقد طال الشوق إليك يا أطار، حتما هو شعور متبادل بيننا، سنتان من البعد عن أحبتي وأصدقائي، زمن طويل، عهدي بك يوم غادرتك مستعجلا لأطمئن على أسرتي التي تركتها، زوجتي وستة أطفال كبيرهم في الثامنة ونيف من عمره، وقتها حصل ذلك في منتصف تموز 1978م.

ونحن الآن في تموز/ يوليو عام 1980م، صديقي أحمد العبيد يزوربي في كل مكان أكون فيه، فبعد أغنية ترجيت التي ألفها في رحلة أطار الأولى عندما كنا في ترجيت، والتي لحنتها في نفس الوقت الذي كان هو يؤلف وسبقته في التلحين، ثم جاءت أغنية:

عراد من فكدك نمسى والفكد ممول بالي واخلاكي

تأبى تنسى يالالي وأنا مالي،

هذه الأغنية كانت قبل سفري الأول إلى سوريا. أما بعد عودتي فقد كان صديقي أحمد العبيد يزوربي كما أسلفت باستمرار حيثما أكون ضيفا في نواكشوط فقد كتب لي أغنيتيْ "زينه"، و"زين الشرك" و كلاهما كانتا في فترة متقاربة وأغنية "زينه"كانت هي السابقة ولها قصة: فبينما نحن في مجلس أتاي وصديقة لي هي التي تحضر الشاي الأخضر وكانت الصديقة يومها تلبس ملحفة جديدة ترتديها لأول مرة وبالفعل كانت الملحفة جميلة جدا زاهية الألوان متقنة الصنع، وضمن شد الأخبار قلت لها أنا "زينه ملحفتك زينه والله مانك شينه"، خرجت الكلمات موزونة دون قصد أو رغبة مني.

فقلت لأحمد العبيد وكان معنا: "ما رأيك أن نكملها فتكون مدخلا لأغنية؟" طبعا مهما عرفت من عادات موريتان فهو أخبر مني فيها، أجابني: "ليس من عاداتنا أن يتغزل الرجل بالملحفة." علما أنني أعرف أن الشعراء العرب في الجاهلية أو في الإسلام فعلوا ذلك كثيرا، فهذا مسكين الدارمي يبيع خُمُرَ تاجرٍ صديق له شكا له حاله عندما باع كل الخمر من كل الألوان وبقيت الخمر السود لم تشترها صبايا

بلـــده، فقـــال لـــه دع الأمـــر علـــي، وكـــان مســـكين الـــدارمي هـــذا قـــد دخـــل المســـجد واعتكف فيه زاهدا في الدنيا تاركا ما فيها من متاع و لهو، فقال أبياته الجميلة

قل للمليحة في الخمارالأسود   ماذا فعلت بناسك متعبد

قدكان شمر للصلاة ثيابه   حتى وقفت له بباب المسجد

فسلبت منه دينه ويقينه   وتركته في حيرة لا يهتدي

ردي عليه صلاته وصيامه   لا تقتليه بحق دين محمد

والـــتي لحنتهـــا أنا عـــام 1965م، ثم أخـــذها صـــديق لي قريـــب للشـــيخ بكـــري كـــردي وهـــو مـــن كبـــار ملحـــني حلـــب فأعطاهـــا للفنـــان الكبـــير صـــباح فخـــري فغناهـــا، ولم يـــدَّعِ أحـــد ملكيتهـــا، وتخوفـــت مـــن ذكـــر ذلـــك في حلـــب، لأنـــني وقتهـــا كنـــت في أول الطريـــق، وإن فعلـــت فلـــن يصـــدقني أحـــد، وهـــي المـــرة الأولى الـــتي أذكـــر هـــذا ولـــيس تفـــاخرا، وقـــد كنـــت يـــوم لحنتهـــا معلمـــا في مدينـــة منـــبج مدينـــة البحـــتري وشـــهد تلحينهـــا مـــن قِبَلِـــي العديـــد مـــن أصـــدقائي، وكـــان في كتابنـــا الجـــامعي دراســـات فنيـــة في الأدب العـــربي هـــذه القصـــيدة فأعجبـــت بهـــا ولحنتهـــا، كمـــا كنـــت أفعـــل لكـــل قصـــيدة جميلـــة أجـــدها، وكـــان عمـــري حينهـــا عشـــرين ســـنة وكنـــت في الســـنة الثانيـــة قســـم الدراســـات الفلســـفية والاجتماعيـــة، وقـــد ســـبقها تلحيـــني لكثـــير مـــن القصـــائد: كقصـــيدة "يا ظبيـــة البـــان" للشـــريف الرضـــي، وقصـــيدة: أنا هنـــا بعـــد قطيعتنـــا ألا تمـــدين لي بعـــد الرجـــوع يـــدا"، للشـــاعر الكبـــير ابـــن بلدي نزار قباني.

أعـــود للملحفـــة الـــتي قلـــت فيهـــا: "زينـــه ملحفتـــك زينـــه والله مـــا نـــك شـــينه"، والـــتي رغـــب أحمـــد أن يســـتبدل الملحفـــة فقلـــت لـــه نقـــول: "زينـــه وحياتـــك زينـــه والله مـــا نـــك شـــينه" عنـــدها قـــال أحمـــد: "هكـــذا صـــارت الأغنيـــة مناســـبة." فقلـــت لـــه: "إذا أكملهـــا أنـــت." فأكملهـــا في نفـــس الجلســـة ولحنتهـــا أيضـــا، وفي أيام قريبـــة مـــن ذلـــك الوقـــت طلبـــت منـــه أن يؤلـــف أغنيـــة عـــن حيـــاة موريتانيـــا وكـــذلك في جلســـة واحـــدة كانـــت إبداعيـــة "زيـــن الشـــرك وزيـــن قبلـــة وســـاحل موريتـــان"، قـــد كُتِبـــت ولحنتهـــا في نفـــس الجلســـة أيضـــا، وقلـــت لـــه إبان كتابتهـــا وتلحينهـــا:" أتصـــور الأغنيـــة برفقـــة صـــور تعـــبر عـــن الكلمـــات لتكـــون

الأغنيــة عبــارة عــن بانوراما تعبيريــة لحيــاة موريتــان." وبقيــت فكــرتي حســرة في نفســي أدعــو الله أن يحققهــا لي كمــا مَــنّ علــي بتحقيــق الكثــير مــن أمــانيّ لــه الحمــد ولــه الشــكر، تصــوروا الأغنيــة عنــد سماعهــا وأن كــل كلمــة يرافقهــا مشــهد يعــبر عنهــا، كــم ســتكون رائعة، بل ستكون حتما تحفة فنية بانورامية رائعة.

إذا بهــذا الكــم الجميــل مــن أغــاني ابــن أطــار أحمــد العبيــد (ترجيــت، عــراد، زينــه، زيــن الشــرك)، إضــافة إلى أغــاني أحمــدو ولــد ميــاح "دوم يالله ذي الحيلــة أنا والنختــير، وأغنيتــه الرائعــة بالي حــالف يمــين مــا يغفــر لحبيبــه" و"فرحــة العيــد" أيقظــت ذكــرياتي من صــميمي وحركــت خطــراتي شــعر أحمــدو ولــد عبــد القــادر، و"درســك يا غلانــه "كلمــات اعــل ولــد أنبــيط، وكلمــاتي أنا في "أنــتِ موريتانيــة وأنا مــن حلــب"، ورائعــة ديمــي في "تبراعهــا لي عــام وشــهرين وليلــه مــا نعــرف فمنــين"، وغــيره الكثــير الــذي كانــت تزخــر بهــا جعبــتي الفنيــة، اتجهــت إلى أطــار لأســلم علــى جمهــوري الحبيــب الــذي طــال بعــدي عنــه وطال بعده عني فإلى حلقة قادمة أستودعكم الله لنكمل المشوار بإذنه تعالى.

دمتم لي.

××××

حفلة أطار الثالثة: الأولى كانت في بداية عام 1978م، والثانية كانت في النصف الأول من تموز/ يوليو 1978م ولم أكملها بسبب الأحداث التي وقعت آنذاك، والثالثة هذه كانت في وقت الكيطنة من عام 1980 م، والتي سأتحدث عن بعض أحداثها في هذه القصاصة.

كنت قد نسقت مع صديقي أحمد العبيد أن تكون المحطة القادمة أطار وكان قد سبقني إليها ليعلم الأصدقاء بقدومي، أطار في زمن الكيطنة تكون الحرارة فيها عالية جدا تصل إلى أواخر الأربعينيات في الظل، ولولا التحايل في أسلوب البناء ومواده لما كان العيش محتملا في أطار خاصة وأن الكهرباء لم تكن منتشرة حينئذ، وصلت إلى أطار هذه المرة بالسيارة، الطبيعة جميلة وتنوعها يزيدها جمالا؛ فالرمال وحولها الجبال، وفي المناطق التي تقترب من أطار الواحات والينابيع، كعين أهل الطايع وترجيت، ويكفيك تلك التلال من الرمال المتحركة والتي رأيت في سفوحها وعلى نهاياتها وأطرافها يومئذ دلالات مايحدث اليوم، لقد رأيت في نهاية كل زيارة مايشبه الزبد الذي يوجد على شاطئ البحر، وفي هذا الزبد رأيت الكثير من ذرات الذهب يومها وقلت ذلك للكثيرين وما زلت أقول أن في موريتانيا من الخيرات ما لا يوجد في دولة من دول العالم فشاطئ رملي جميل بمئات الكيلومترات الخالية من أي تلوث للمصانع أو المجاري وعامر بألذوأشهى أنواع السمك في العالم، وجبال من فلز الحديد والنحاس، ومناجم للملح، وملايين من رؤوس البقر والماعز والغنم والجمال، ومئات الآلاف من الهكتارات من الأراضي التي يمكن ريها من نهر السينغال، عدا عن المعادن الأخرى التي لم يكشف عنها كالراديوم واليورانيوم، وكذلك البترول، وهناك ثروتان عظيمتان في مجال الطاقة هما الطاقة الشمسية الدائمة في موريتانيا صيفا وشتاء على خلاف أي دولة أخرى في العالم والتي تكفي قارة أوربا القريبة منها بأكملها، والطاقة التي يمكن استخراجها من أمواج المحيط الجبارة التي يمكن أن تشغل آلاف الآلات الكهربائية، عدا عن المحاصيل الأخرى من صمغ عربي وتمور هي

الأجـود في العـالم، أدعـو الله أن يهـدي الجميـع إلى التركيـز للاسـتفادة مـن هـذه الـنعم وتوحيد الطاقات والجهود تجاه ذلك والابتعاد عن كل ما يفرق.

أعـود لموضـوعنا وهـو الجمـال في الطريـق نحـو أطـار مـن نواكشـوط واكجوجـت ثم جبـال ادرار ووديانها.

وصـلنا أطـار وحجـزنا دار الشـباب القديمـة لأن الحديثـة لم تكـن بعـد قـد بنيـت، أقمـت فيهـا حفلـة لا بأس بنجاحهـا، وكنـت قـد اتفقـت مـع صـديقي أحمـد أن أقـوم بـزيارة الشـيخ الفاضـل علـي الشـيخ ولـد الممـا رحمـه الله وقـدس سـره، وتعرفـت عليـه وتشـرفت بمعرفتـه وتبركـت بـه، وتناولـت طعامـه الـذي لم أذق طعامـا في حيـاتي أشـهى منـه، لقـد رأيتـه يشـرف علـى الطعـام بنفسـه ويقطـع اللحـم بيديـه الطـاهرتين لعشـرات الضـيوف الـذين يكونـون في داره يوميـا، وهـي واحـدة مـن المفـاخر والمكاسـب الـتي أعتـز بهـا، لقـائي بـذلك الـولي الـذي وهـب نفسـه لإكـرام النـاس بـل مسـاعدتهم ولا أنكـر أنـه كـان علـى رأس مـن سـاعدني في موضـوع تأمـين عقـد العمـل مـع وزارة التعلـيم، تغمـده الله بواسع رحمته وجزاه عن فعل الخير الذي كان يقوم به جنات تجري من تحتها الأنهار.

وبمـا أننـا في موسـم الكيطنـة فـالجميع يعـرف أن النـاس غـالبيتهم موجـودون في الـوديان والواحـات، لـذلك كـان علـي أن أتوجـه إلى هنـاك وقـد اخـترت وديانا لم أزرهـا مـن قبـل، حيـث وضـعت خطـة زيارة واحـة تيـارت، وواحـة قصـير الطرشـان، ولم يكـن معـي أجهـزة تكبـير للصـوت وبحثـت عنهـا جاهـدا ولم أتمكـن مـن الحصـول عليهـا، ثم قيـل لي إن الفنـان الجـيش ولـد أب لديـه جهـاز تكبـير لا بأس بـه فقلـت لصـديقي أحمـد العبيـد هيـا بنـا نقصـده، وزرناه في بيتـه وكـان ترحيبـه متميـزا بالكـرم مثـل كـل الموريتـانين بـل مثـل المتميـزين مـنهم في كـرمهم إن لم أقـل أكثـر، ثم عرضـت عليـه موضـوع حـاجتي لأجهـزة التكبير وهل يعرف أحدا يمكن أن يؤجرنا أو يعيرنا إياها.

اِنـبرى الرجـل بكـل شـهامة وقـال: "كيـف أدلـك علـى أحـد وأنا عنـدي جهـاز جيـد؟" ولم يكتـف الرجـل رحمـه الله وأكـرم مثـواه بتقـديم الجهـاز بـل أرسـل ولـدا كـان هنـاك وأظـن أنـه ولـده، أرسـله إلى السـوق ليشـتري العديـد مـن البطـاريات مـن الحجـم الكبـير

(التعمار) التي يحتاجها الجهاز ويضعها بدلا من البطاريات التي كانت فيه، ولا أعتقد أنها كانت فارغة تماما، لكن أدبه وحساسيته جعلته يقدم الجهاز في أحسن حال وكي لا أُضطر للبحث في تيارت أو كصير الطرشان اللتين كنت سأتوجه إليهما كما ذكرت ذلك لأخي الفنان الجيش ولد أب، لقد كان فعلا رجلا بكل ما في كلمة الرجولة من معنى إنسان مليء فنياً مجيد بل رائع في العزف، وله موهبة عظيمة في التلحين المبدع؛ فرقصة الجاكوار التي هو مبدعها وملحنها تعتبر من الإبداعات العالمية، لقد كان هناك سبب حتى بقي هذا الرجل مغمورا لم يأخذ ولا جزءا من حقه الذي يستحقه: فالسبب الأول بُعْدُه عن العاصمة التي تعج بالأنشطة الفنية خارج الإذاعة وداخلها، وما يتم من تبادلات مع الإذاعات والدول الأخرى، والسبب الثاني كونه ضريرا.

لقد كان هناك في موريتانيا أربعة مبدعين في التلحين التقيتهم: سيداتي ولد آب رحمها الله، الجيش ولد آب رحمه الله ، سيمالي ولد همد فال رحمه الله، سيد أحمد البكاي ولد عُو رحمه الله. طبعا هذا عن الإبداع في التلحين، أما في الغناء والعزف فلست بصدده الآن فهناك فرسان لتلك المهارات أكثر عددا بكثير، فهناك بالضرورة في كل أسرة فنية عددٌ منهم، والموهوبات في الغناء من النساء كن دون منافس.

المعجزة ديمي التي أعتقد أنها لن تتكرر إلا بعد زمن طويل، فهي صاحبة الحنجرة الذهبية، والسرعة في الحفظ والتصرف المبدع، والأخلاق الفنية الحساسة والإنسانية والتواضع إلى درجة لم أر مثيلا لها بين الناس العاديين جدا فكيف وهي الفنانة العظيمة، لقد قصر الجميع مع ديمي بدءا من أهلها وانتهاء بدولتها، رغم أنها أعطت للجميع دون حساب رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه.

اِتجهت إلى تيارت وأقمت فيها حفلتين كانتا رائعتين في كل شيء، والأهم هو الأثر الذي تركتاه في نفسي وفي نفوس جمهوري الغالي من فرح ونشوة يضاف إلى الطبيعة الجميلة وجو التقاء الناس بأحبتها وأصدقائها وأقربائها وجو التعارف بأصدقا وأناس

جـدد، إنهـا الكيطنـة الـتي تتميـز فيهـا واحـات موريتانيـا عـن واحـات كـل الـبلاد المنتجـة للتمور، أو للبلاد التي فيها مصايف أو منتجعات.

اِنتهيـت مـن حفـلات أطـار والـوديان واتجهـت نحـو نواكشـوط، وكـان قـد طلـب مـني كثـير مـن أصـدقائي وجمهـوري في اكجوجـت أن أقـيم لهـم أمسـية فهـم يعـانون إهمـال الفنـانين والـوزارات المعنيـة لهـذا الجانـب، لـذلك قلـت هـذه فرصـة لأعـرف أنا ويتعـرف علـي جمهـوري الحبيـب في اكجوجـت وأقمنـا حفلتنـا في دار هـي حـائط مغلـق وقـد كـان فـرح النـاس وطـربهم لا يوصـف إلى درجـة أن إحـدى السـيدات وهـي في عمـر يزيـد علـى السـتين دخلـت الحلبـة تشـارك بعـض الشـباب والشـابات فـرحهم وطـربهم وقالـت لهـم: "لا تلومـوني فـإني لم أفـرح في يـوم كهـذا." إن مشـهدا كهـذا يكفيـني سـعادة، ويزيـد قيمـة عنـدي ربـح مبـالغ كبـيرة مـن المـال وكثـيرا مـا كنـت أخفـض ثمـن بطاقـة الـدخول إلى النصـف إذا مـا قيـل لي إن أهـل هـذا المكـان غـالبيتهم بسـطاء، لأنـني لا أريـد أن تكـون المادة سببا في عدم التقائي بجمهوري الذي أحبه ويحبني.

لقـد تشـرفت بضـيافة السـيد والي اِينشـيري في إكجوجـت حينهـا وآسـف لنسـياني الاسـم وشـكري الجزيـل لـه علـى كـرم الضـيافة وحسـن الاسـتقبال، وفي صـباح اليـوم التـالي توجهـت إلى نواكشـوط بعـد أن أنهيـت جولـة أخـرى مـن لقـاءات الفـن بجمهـوري الفـني وعدت بأمان الله إلى نواكشوط وإلى لقاء قريب في حلقة جديدة إن شاء الله.

دمتم لي.

××××

رحلة العيون الأولى عام 1980م، وقد كانت زيارتي هذه بناء على دعوة من قبل الوالي المساعد في العيون ومعذرة منه ومنكم على نسيان اسمه وكان منصب الوالي شاغرا حينها إداريا لذلك كان الوالي المساعد هو الذي يسير أمور الولاية، وقد التقيت بالأخ الوالي المساعد في بيت أحد الأصدقاء في نواكشوط، وتعرفنا على بعض وأبدى إعجابه بما قدمته في موريتانيا وقال لي: "لماذا لا تأتينا إلى العيون لتقيم فيها حفلات فالناس في العيون يحبونك مثل كل الناس في موريتانيا وأنت لم تأت إليهم ولا مرة بينما ذهبت إلى مدن غيرها مرات عديدة؟" قلت له: "أنت محق فيما قلت، لكن الظروف دائما تتحكم في الإنسان وأهم شيء في الموضوع هو مكان الإقامة والشخص الذي يمكن أن يكون دليلا ومرشدا ومساعدا فالقول المأثور يقول: استعينوا على البلاد بأهلها." قال لي الرجل مباشرة: "إذن أنت مدعو عندي فهل يبقى لك حجة في أن لا تذهب ؟" قلت له: "وأنا وافقت وسآتيكم في الفترة القريبة القادمة بعد أن أكون قد أجريت استعدادات السفر." وقال لي: "يجب أن تقيم حفلة في مقاطعة الطين طان أيضا وهي واقعة في الطريق وأنت قادم إلينا، والأفضل أن تقيم حفلتك الأولى فيها ثم تأتي إلينا في العيون وأنا بدوري سأتصل بحاكم المقاطعة (الطين طان) كونه صديقي وأخبره بحضورك ليستقبلك ويقدم لك كل ما يمكن من المساعدة." قلت له: "وأكون لك من الشاكرين." وتبعا لذلك اتصلت بأحد طلابي في معهد تكوين المعلمين صديقي وطالبي محمد ولد الشيخ أحمد وهو من سكان مدينة العيون وكان قد تخرج وأصبح معلما واستمرت صداقتنا من أيام المعهد إلى ما بعد تخرجه وكنت أتردد إلى بيتهم في نواكشوط، واتفقت مع صديقي وطالبي السابق محمد أن يرافقني إلى العيون وكنا في الصيف حيث لا عمل لديه، وقدم لي صديقي أبو عادل (عبد النبي خشمان) صاحب محل "كلي مينيت" كما كان يطلق عليه الناس ذلك، رحمة الله عليه، قدم لي أجهزة الصوت التي سنحتاجها في الطين طان على الأقل، لأنه في العيون قد تكون الأجهزة مؤمنة في دار الشباب،

أما في الطين طان فلا أظن ذلك، ومعذرة إذا كررت بعض الشرح الذي ورد في حلقات سابقة فأنا أتصور أن قارئ هذه الحلقة لم يتذكّر الفصول التي سبقتها وهو وارد فهناك الكثيرون الذين لا يتذكرون كل الفصول لسبب أو لآخر، وبعد أن أصبحنا جاهزين للسفر طلبت من صديقي محمد أن يتفق مع سائق سيارة أجرة تِسْعَة ركاب لأن الكثيرين كانوا يذهبون في تلك الآونة كما قيل لي في سيارات الشحن الكبيرة وكان طريق الأمل حينها لم يكتمل بعد، فكان قد وصل وقتئذ إلى بُعْدِ الطين طان بكيلومترات معدودة والباقي كان ما زال متعبا جدا، لم يأت السائق إلا بعد الضحى بساعة أو أكثر، وضعنا أغراضنا في السيارة، وكانت جلستنا في المقعد المجاور للسائق، كان هناك بعض الركاب الذين سيأخذهم السائق من بيوتهم كونهم لديهم شيء من المتاع، انطلقت السيارة من نواكشوط قبيل الظهر بقليل، الحرارة مرتفعة جدا والناس في داخل السيارة متضايقون من الحر، وتتكرر الوقفات كلما وصلنا لقرية أو مدينة صغيرة ليرتاح محرك السيارة من شدة الحر فيبرد ويرتاح الناس فيشربوا أو يأكلوا أو يقضوا بعض حوائجهم والبعض ينزل في تلك البلدان لأنه وصل موطن سكناه، بينما يصعد آخرون بدلا منهم قاصدين ما يلي من بلدان، وبسبب هذه الوقفات المتعددة والطويلة في استراحاتها، حل الظلام ودخل الليل وما زلنا بعيدين عن الطين طان، ومن نواكشوط إلى ما وصلناه من الطريق كانت أحاديث كثيرة شكلت قاعدة لصحبة طيبة بيني وبين السائق، زادت الساعة عن الحادية عشرة ليلا عندما أوشكنا الوصول إلى الطين طان، أنزل السائق الركاب كلاًّ بالقرب من سكناه وتعمد أن يتركني وصديقي محمد إلى آخر الركاب ليذهب بنا إلى بيت الحاكم لأننا سنكون بضيافته كما اتفقت مع مساعد الوالي.

وقفت السيارة أمام بيت الحاكم الذي لا أذكر اسمه وأعتذر منه ومن الجمهور الكريم وقد ذكرت لكم سابقا عذري، فالأحداث أحفظها بدقة مذهلة، بينما الأرقام أنا ضعيف في حفظها، فمثلا الآن أنا عندي رقما ن للهاتف المحمول لا أحفظ واحدا منهما، أما الأسماء فالشخص الذي يتكرر ذكري لاسمه كثيرا يصبح اسمه مثل

الـذكريات الـتي لا يمكنـني نسـيانها، لكـن الشـخص الـذي التقيـت بـه أيامـا قليلـة فـيمكن أن أنسـاه بعـد فـترة ليسـت بالطويلـة، ولـو كنـت أعـرف حينهـا أني سـأكتب هـذه الذكريات لحفظت الأسماء حتى يكون العمل كاملا متكاملا.

أعـود لسـيارتنا الـتي وقفـت أمـام بيـت الحـاكم (البريفيـه) كمـا كـانوا يدعونـه علـى مسـامعي، وكـان هنـاك جنـدي يقـف حارسـا أمـام البيـت، أبلغـه السـائق أن معـه ضـيفا للحـاكم، لم يكـن الحـاكم يعـرف بدقـة يـوم وصـولي، ولم يكـن يتوقـع أنـني سـآتي في وقـت متـأخر مـن الليـل، وانطلاقـا مـن ذلـك كـان قـد طلـب مـن الحرس كعادتـه أن لا يوقظـه أحـد لأن النـاس يوقظونـه لأي سـبب ويكـون ذلـك متعبـا لـه بعـد عنـاء يـوم عمـل طويـل، لم يشـأ السـائق أن يتبـادل معـه الحـديث طـويلا، حيـث انطلـق بسـيارته صـوب بيـت لأحـد أصـحابه فقـد كـان السـائق أيضـا غريبـا عـن البلـدة مثلنـا، لا باب للـدار حـتى يقـرع، ولا كهـرباء حـتى نـرن الجـرس، ونحـن بعـد منتصـف الليـل بقليـل حـتى الصـراخ وإيقـاظ النـاس أمـر غـير مسـتحب، وهنـا سـأتوجه بكلامـي لغـير الموريتـانيين إلى كـل ماحـدث منـذ دخلنـا دار مضـيفينا الـذين فاجـأناهم بحضـورنا في هـذا الوقـت المتـأخر، وبالصـدفة كـان عنـدهم عـدة ضـيوف غـيرنا، الحـر شـديد لـذلك فالنـاس جميعـا ينـامون في صـحن الـدار، الجميـع ينـامون علـى أسـرة ثابتـة كالكراسـي في الحـدائق مصـنوعة مـن الخشـب مـن عـدة قطـع متجـاورة وتختلـف عـن كرسـي الحديقـة بعـدم وجـود مسـند للظهـر فيهـا، وهـي أعلـى بقليـل مـن كرسـي الحـدائق، وأظـن أنهـا صـنعت هكـذا حفاظـا علـى سـلامة النـائمين عليهـا مـن صـعود بعـض الحشـرات المؤذيـة، أو لتكـون التهويـة متـوفرة فـلا يتضـايق النـائم في نومـه والله أعلـم وقـد تكـون الثانيـة هـي الأصـح ولم أسـأل يومهـا عـن السـبب ولا بعـد ذلـك بـل كـان هـذا تحليلـي كانـت الليلـة مظلمـة لكـن القمـر بعـد منتصـف الليـل جعلـني أرى هـذه الصـور الـتي ذكـرت، أسـرع صـاحبي الجديـد سـائق سـيارتنا ليحضـر مـا نمـده تحتنـا علـى السـرير الخشـبي لكنـه لم يوفـق بوسـائد تكفينـا، مـاذا فعـل ؟ لقـد سـحب وسـادتين مـن تحـت رؤوس أشـخاص سـبقونا في النـوم، واحـدة لي والأخـرى لطـالبي محمـد كوننـا ضـيوفا لأول مـرة في هـذا البيـت، وهنـا تـذكرت مقولـة

يقولها البدو عندنا في سورية "الضيف الأول معزب التالي" أي أن الضيف السابق يقوم بخدمة ضيف جاء بعده، وهذا يؤكد وحدة هذه الأمة في لغتها وثقافتها وعاداتها وتاريخها ودينها وأرضها ومصالحها المشتركة لكنها مع الأسف كانت يومها تفكر بالوحدة والآن حتى هذا الأمل بدأنا نرى الكثيرين لا يتحدثون عنه بل وجدنا الكثيرين هنا وهناك يطرحون أفكارا انفصالية بل يقومون بأعمال تؤدي إلى كره الأخ لأخيه والجار لجاره واستبدال الصديق بالعدو والعكس بالعكس، آسف على الشرود، فإنني عندما أكتب أريد أن أكون ناقلا صادقا إن شاء الله لكل ما أشعر به عند الكتابة ولو تضايق مني أستاذنا في النحو والأدب الذي كان يعتبر هذا خروجا عن الموضوع، أما أنا فأعتبره من صلب الموضوع لأنني أكتب بصدق ما أشعر به الآن عن تلك الذكريات.

أعود لتلك الدار التي لا أعرف من هو صاحبها ولا من هم الضيوف الذين يشاركوننا المبيت فيها، الجميع نائم والسائق وحده من يقوم بخدمتنا، وضعت عودي في مكان أضمن عدم سقوطه، وكذلك بالقرب منه وضعت حقيبة ملابسي التي ألبسها يوم الحفلة، وهي حتما يجب أن تكون غير التي لبستها في هذا المشوار المتعب الحار المغبر، لم نكن جوعى فلقد أمضينا الطريق نقف في استراحات عديدة نتسلى بالطعام والشراب، وكنا متعبين جدا وبمجرد أن وضعنا رؤوسنا على تلك الوسائد التي حرم أصحابها النوم عليها كي يرتاح ضيف أجد منهم في التوسد عليها، كنا نغط جميعا في نوم عميق، كانت الليلة مغبرة فقد سبقها نهار شديد الغبار، صحيح أنها لم تكن كالنهار الذي سبقها لكنني استيقظت وكميات كبيرة من الغبار تغطي ما ظهر من جسمي، نفضت عني ذلك الغبار وبدأت أتأمل الدار ومازال الجميع نائمين لأن الجميع متعب أو سهران ولست أقل منهم تعبا أو سهرا لكنني أكثرهم في انشغال البال فإن أمامنا يوما طويلا من المجهول المتعب كتأمين مكان الحفل، ومعاملة الحفلة، والدعاية للحفلة، ثم الغناء في الحفلة بعد كل بروتوكولات التعب تلك.

أخــاف أن أكــون قــد أطلــت علــيكم ولا أريــدكم أن تملــوا، وأظــن أن الــبعض ســيقول "تركتنــا في نصــف البــير" كمــا كانــت تقــول المطربــة الكبــيرة المرحومــة صــباح (وصــلتينا لــنص البــير وقطعــتي الحبلــه فينــا) أمــا بالنســبة لي فقــد وصــلتكم إلى نصــف البئــر وتــركتكم معلقــين دون أن أقطــع الحبــل لأني أخــاف علــيكم لا سمــح الله مــن الســقوط. الســقوط لأعــدائنا وأعــدائكم إن شــاء الله أمــا أنــتم فلكــم أطيــب تمنيــاتي إلى أن ألتقــي بكــم في تتمة الحلقة، وإلى ذلكم أستودعكم الله.

دمتم لي.

××××

متابعة في رحلتي الأولى إلى الطين طان والعيون:

استيقظت لأرى كمية من الغبار تغطي المكان وتغطيني وكذلك الناس من حولي، الذين بدأوا يستيقظون الواحد تلو الآخر، أحدهم قد أحضر شيئا من الخبز الأسمر السميك الساخن الذي لم أر مثله في نواكشوط، وكان عندنا مثله في سورية قديما، وإلى جانبه الشاي الأخضر، أدام الله النعمة على أصحاب البيت الذين لم أعرفهم أو أميزهم بين جماعة كبيرة كانت موجودة في الدار، ولم تطل قعدتنا هناك بعد كؤوس الشاي الثلاثة التي كانت خالية من الجر والجمر لكنها شملت جماعة كبيرة ما شاء الله، ودعنا الناس المتواجدين دون أن يتسنى لي معرفة أهل الدا أو التحدث إليهم أو حتى شكرهم على الاستضافة، أوصلني السائق وصديقي محمد إلى بيت الحاكم الموجود في نفس دائرة المقاطعة وكان الحاكم مستيقظا واعتذر مني كثيرا عن عدم إيقاظ العسكري له ليلا، ورحب بي ترحيبا حارا وأعطاني غرفة لأغير ملابسي وأستحم من الغبار الكثير الذي كان يغطي شعري وملابسي، وما إن خرجت من الحمام حتى كانت فشاي وأتاي بانتظارنا فقد ذبح كبشا كبيرا بمجرد وصولي إلى الدار، وجاء عدة أصدقاء للحاكم من وجهاء البلدة يشاطروننا مجلس الشاي، كل هذا ونحن ما زلنا قبل الثامنة صباحا، أعلمت السيد الحاكم برغبتي في القيام في ذات اليوم بحفلة مساء، وسألته عما إذا كان المكان المناسب متوفرا أم لا؟

وأخبرني السيد الحاكم باسم الدار أو الحائط الذي تقام فيه مثل هذه الحفلات عادة، وذهبنا وحجزنا المكان، ثم استأجرت سيارة أجرة صغيرة كي نجري الدعاية اللازمة لإخبار الناس عن طريق مكبر الصوت بأني سأقيم أمسية فنية مساء هذا اليوم وقد تطوع شاب من جمهوري في الطين طان للقيام بهذه العملية.

في البناء الذي حددناه واتفقنا مع صاحبه أن يكون مكانا للحفلة، وبعد الغروب بقليل وضعنا مكبرات الصوت تبث أغاني للتعريف والتذكير، وعند التاسعة تماما كعادتي حيث كنت أبدأ الحفل ولو ببعض الأغاني العربية المشرقية ريثما يكتمل عدد

الحضور، ورغبة مني في تحبيب وتعويد أسماع من حضر مبكرا بالغناء الشرقي وعدم معاقبته بالملل الذي لا ذنب له فيه بسبب انتظار من يتأخرون في العادة، لم يكن المكان واسعا جدا لذلك امتلأت القاعة وبدأت أغني أغانيّ الموريتانية، واستمرت الحفلة إلى قرابة الثانية عشرة، وفي نهايتها التقيت بالعشرات من شباب وشابات الطين طان المعجبين بفني وتحدثنا في ما أرادوا أن نتحدث عنه وتعرفت على العديد منهم، ثم ودعت الجميع متجها إلى بيت حاكم الولاية بعد أن كنا قد اتفقنا مع سائق شاحنة مرسيدس كبيرة كي يأتي غدا صباحا لنكون من ركابه إلى العيون لأنها الوسيلة الوحيدة المتوفرة التي يمكن أن تقلنا إليها، وذلك لوجود أماكن في الطريق لا يمكن إلا لهذه السيارات أن تسير فيها.

في الصباح ودعت السيد حاكم المقاطعة وشكرته على حسن ضيافته وإكرامه وجاءت السيارة وكان قد ترك لي مكانا في الأمام إلى جانب السائق لأن الصعود إلى أعلى السيارة يحتاج إلى دورة تدريبية لم أقم بها أنا من قبل.

سارت السيارة بنا مدة قصيرة من الزمن ولاحظنا أننا بتنا نسير على طريق ترابية (الكدرون) أي أن الطريق المعبد أو المزفت قد انتهى، أو وصل العمل والتزفيت للطريق الذي كانت تقوم به الصين على ما أعتقد، كان قد وصل العمل به إلى ذلك المكان.

وما هي إلا دقائق حتى وجدنا أن السيارة تغوص في التراب الناعم، وبسرعة تؤكد تدريبا مسبقا للركاب الذين يركبون على السطح فوق البضائع المنقولة من العاصمة إلى العيون من شاي وسكر وأرز وكبريت وأدوات غسيل إلخ، قفز الشباب عن السيارة وأنزلوا ألواحا طويلة وسميكة وبدأوا يمدونها تحت عجلات السيارة وقبل أن تتجاوزها السيارة يؤتى بغيرها لتوضع إلى جانبها وبهذا الشكل استمر العمل البطيء الصابر المضني حتى تجاوزنا تلك الكثبان الرملية التي كانت تفصل ما أنجز من الطريق وتلك الكدية (الجبل) العالي الذي يميز العيون عما سبقها من بلدان مررنا بها.

وقد ذكرتني هذه الرمال والطريقة التي يتعامل فيها السائقون معها، بأحاديث والدي رحمه الله عندما أدى فريضة الحج عام 1956 م منتقلا بالسيارات الشاحنة وكان الطريق بين سورية والحجاز كله بهذا الشكل رمليا أو ترابيا مغبرا، وفي حينه قال لي والدي أن جلد كفوف الأيادي تقشر لدى الجميع بسبب ألواح الأخشاب التي كانوا يستخدمونها لمسافات أطول بكثير جدا.

وصلنا العيون وكان السيد الوالي المساعد بانتظارنا، ورحب بي أيما ترحيب وحضر رؤساء الدوائر ومعاونوهم طعام العشاء الذي أقامه الوالي على شرفي والذي حضره بعض الأعيان والوجهاء كما كان مندوب عن فناني العيون أيضا موجودا، حيث أعلمهم الوالي بالحفلة التي ستقام بالغد في دار الشباب وأنهم عليهم المساعدة كل في مجال عمله، كانت الحفلة في دار الشباب وقد أسهم مدير الدار حينها بكل ما أمكنه في إنجاح العمل هو والكادر المساعد معه أما السيد الوالي المساعد فلم يدع أية إمكانية للمساعدة إلا وقدمها وكان عند دعوته لي قولا وفعلا.

أقمت أمسيتين أعتقد أن من حضرهما سيذكرهما ما دام حيا، وأشكر كل الجهات الحكومية التي كان لعناصرها دور كبير في حفظ النظام لأن أعداد الحاضرين خارج دار الشباب كانت أضعاف الموجودين داخلها لضيق المكان أو لضيق ذات اليد وكلاهما وارد فالدار (دار الشباب) كانت لا تتسع إلا لثلاثمائة مشاهد تقريبا.

وقد تجولت في المدينة وتعرفت على معالمها الجغرافية والحضارية وطريقة البناء كما تعرفت على العديد من الأصدقاء فيها، وفي الليلة قبل الأخيرة من السفر كنا سنسهر خارج بيت السيد الوالي عكس كل الأيام التي كنا نسهر فيها مع الوالي وأصدقائه أو كبار المسؤولين في الولاية، يوم خربت علينا الخبخابة سهرتنا (الطرفة التي حدثتكم عنها في حلقة سابقة).

وقد عرفت أن هناك طائرة تأتي إلى العيون مرة أو أكثر لا أذكر لكنني أعتقد أنها في ذلك الحين كانت تأتي مرة في الأسبوع، المهم أني حجزت فيها وعدت لوحدي حيث رغب صديقي وطالبي محمد ولد الشيخ أحمد بالبقاء مع بعض أهله هناك،

وجـاء موعـد السـفر فودعـت الجميـع وعـدت أدراجـي إلى نواكشـوط لأرتاح قلـيلا مـن عناء السفر، ولأستعد لعمل فني جديد في مدينة أخرى.

وإلى ذلكم الحين وإلى لقاء في حلقة جديدة إن شاء الله أدعكم بخير.

××××

عـــدت إلى نواكشـــوط مـــن رحلـــة الشـــرق إلى العيـــون والطـــين طـــان لأســـتريح مـــن عنـــاء السـفر الشـاق والحلـو، رغـم مشـقته لأنـه يجمعـني بأحبـتي الـذين قـد تكـون زياراتهـم لنواكشـوط محـدودة أو أنهـم لم يأتـوا إليهـا قـط، ثم أنـه لـو أتـى أحـدهم إلى نواكشـوط هـل سيصـادف أن تكـون لي حفلـة إبان إقامتـه المحـدودة في نواكشـوط، كنـت أعتـبر نفسـي خـدمت المئـات بـل الآلاف ممـن يحضـرون الأمسـيات أو علـى الأقـل يشـاهدونني لأنهـم كمـا يقـال في موريتانيـا "كابضـهم غبـاي"، فـالكثير مـنهم كـانوا يتحـدثون إلي أو نجلـس أو نسـهر سـويا، وفي كـل ذلـك كنـت دائمـا أضـع نفسـي مكـان جمهـوري فكـم تمنيـت أن ألتقـي بمـن أحـب مـن الفنـانين فمـثلا كنـت أحـب مـن سـورية الغاليـة فريـد الأطـرش حبـا متميـزا بـل كنـت أحفـظ جميـع ألحانـه وأغانيـه، لقـد سمـاني والـدي بالأصـل علـى اسمـه ثم التقـاه في حلـب بعـد أشـهر مـن ولادتي، وقـال لـه والـدي: "لقـد سمينـا ولـدنا علـى اسمـك." وكـان يومهـا يقـيم في فنـدق بارون بحلـب، فقـال لوالـدي رحمـة الله علـى والـدي وعلـى فريـد، قـال فريـد: "تعـال يـوم الجمعـة ومعـك دجاجـة سـوداء." (مازحـا) لأن العـادة عنـدنا في سـورية إذا سمـى أحـدهم ولـده علـى اسـم ولي أو مقـام أو مـزار فعليـه أن يـذهب يـوم الجمعـة ومعـه ذو القـرنين أو ذو الجنـاحين علـى الأقـل للـذبح ثم تطـبخ الذبيحـة وتؤكـل هنـاك ويطعـم كـل مـن يتواجـد حينهـا هنـاك، إذا قـال فريـد الأطـرش لوالـدي أحضـر دجاجـة سـوداء يـوم الجمعـة وتعـال، وتمـر الأيام وأصـبح أنا فنـانا وأسـجل العديـد مـن الألحـان في إذاعـة حلـب وأرغـب في التوسـع نحـو لبنـان الـذي كـان ينـافس القـاهرة حينهـا في تواجـد الفنـانين الكبـار ففيـه : فريـد الأطـرش، فـيروز، وديـع الصـافي، الأخـوان رحبـاني، صـباح، رياض البنـدك، فيلمـون وهـبي، نصـري شمـس الـدين، نـور الهـدى، هيـام يـونس، وأختهـا نزهـة يـونس، حـتى عبـد الوهـاب كـان لا بـد لـه مـن زيارات متكـررة لجـارة الـوادي (زحلـة) وباقـي الفنـانين السـوريين والمصـريين الـذين يأتـون للتصـوير السـينمائي أو للتسـجيل في اسـتوديوهات لبنـان (معـذرة إن كنـت نسـيت أو تجاهلـت عشـرات الفنـانين)، المهـم كنـت في لبنـان رغبـة مـني في التحـرك في هـذه

الساحة وقد أعطيت وقتها قصيدة من ألحاني للفنانة نور الهدى وغنتها في إذاعة لبنان حينها، ونور الهدى صاحبة الصوت الرائع التي غنت أغنية "ياجارة الوادي" في بلودان وما زالت تذاع من كثير من القنوات الفضائية.

وقد تمكنت من أخذ موعد للقاء فناني المفضل فريد الأطرش بواسطة أحد الفنانين الحلبيين واسمه نزار مورللي، لكن ظروفا قاهرة جعلتني أسافر وأترك لبنان حيث كان الموعد ما زال دونه أيام عديدة ورحل فريد الأطرش وبقيت في نفسي حسرة أني لم ألتق به، وكثيرون غيره من الفنانين كنت أتمنى أن ألتقيهم، لذلك كنت أشعر بالرضا النفسي عندما كنت ألتقي بجمهوري في أي بقعة من الأرض الموريتانية بل حتى خارجها، لقد زرت كثيرا من المدن والبلدان في موريتانيا فأول بلدة زرتها خارج نواكشوط كانت (تكنت)على طريق روسو بعد أيام قليلة من قدومي إلى موريتانيا، وكانت زيارتي برفقة البيضاوي رحمه الله حيث حللنا ضيوفا عند صديق للبيضاوي، حيث جاء وأخذنا بسيارته من فندق النواب في نواكشوط وأعادنا إليه ليلا، ويومها تعرفت إلى الطعام والشراب الموريتاني وطريقة تقديمه للضيف، وقد أصابني شيء من الحيف يومها حيث وصلنا قبل المغرب بقليل والهواء المنعش والصافي والسفر بالسيارة جعلنا نشعر بالجوع وكان الخبز الذي أخذه مضيفنا من الفرن في نواكشوط ما زال ساخنا، فوضع لنا الخبز بعد أن قطعه في صينية، وإناء آخر يحوي زبدة حيوانية طازجة، وتمرا جميل المنظر، اعتقدنا أنا وزميلي المدرس محمد الخطيب السوري الفلسطيني، أن هذا هو طعام الضيف، لأنه فعلا كان طعاما شهيا فأخذنا كفايتنا تقريبا من الخبز الساخن والتمر والزبدة، وكان قد سبقه الزريك أيضا، وبعد قليل جاءت الكبد التي لم نكن نتوقعها، فأكلنا بصعوبة لأننا كنا قد استكفينا مما سبقها، ولم نكن نعرف أن كل هذا مازال بعده العشاء حيث ذبح مضيفنا كبشا كبيرا على شرفنا، هكذا خدعنا جهلنا بعادات الطعام والشراب المختلفة بين بلادنا وبين موريتانيا.

كانت هذه أول رحلة لي خارج نواكشوط تلتها رحلات إلى كيز وبارينا والمدردرة مع أحد زملائي الإداريين في معهد تكوين المعلمين والذي نسيت اسمه وأعتذر منه، كما زرت بأرينا مع صديقي أحمد بابا ولد أحمد يورا عندما حضرت حفل زفافه وأحييت له العرس مع مجموعة من الفنانين وبقينا هناك مدة يومين، كما زرت روسو مرات كثيرة منها حضور عرس لأخ مغربي، وإحيائي لعرس صديق موريتاني نسيت اسمه، وزيارة أخرى للمدرسين السوريين في روسو فترة حضور المدرسين السوريين بكثرة إلى موريتانيا، عدا عن زيارات كنت أنتقل فيها من روسو إلىالسينغال، كما أنني أقمت حفلة في السينما فيها، وكذلك حفلة في كيهيدي عام 1980 م حيث حللت ضيفا عند الإخوة اللبنانيين أصهار صديقي أبي عادل (عبد النبي خشمان) حيث كانت ابنته تسكن هناك في كيهيدي وقد كانت الحفلة أيضا في سينما كيهيدي وقد ذهبت وعدت بالطائرة وكانت حفلات روسو وكيهيدي حفلات سريعة ينقصها التخطيط وإحكام الدعاية لكن المهم أني التقيت بكل من أراد حضور أمسيتي الفنية، كما أقمت حفلة في كل من كيفا وتجكجة والرشيد وكانت حفلات ناجحة لا بأس بها، وبقي لي من المدن والبلدات التي لم أزرها النعمة والتي حاولت زيارتها ولم يشأ الله فقد أخذت سيارة خاصة واتجهنا صوبها انطلاقا من العيون ومضت السيارة لمسافة حوالي المئة كيلومتر لكنها تعطلت، وعدنا أدراجنا إلى العيون (أنا أريد وأنت تريد والله فعال لما يريد) ومثلها كذلك كانت رحلة (بير أم قرين) حيث دعاني أحد أصدقائي وكان ضابطا هناك بل قائد الوحدة العسكرية فيها وكنت قد تعرفت إليه في إحدى حفلاتي في زويرات وكان معه صديقي القديم الطيار ولد الطاهر الذي تعرفت عليه في لاس بالماس، أقول تعرفت على قائد الوحدة العسكرية للمنطقة العسكرية لبير أم قرين في حفل زويرات عندما كنت أغني في حفلة كلوب النادي تحديدا حيث طلب مني أغنية محددة من خارج برنامج الحفلة وغنيتها إكراما له وجلسنا بعد الحفلة وقتا طويلا نتجاذب أطراف الحديث وقد عرض علي أن أزوره في

بـير أم قــرين وبأن كــل الجنــود سيحضــرون الحفلــة، وتكــون مناســبة ســعيدة لهــم ليرفهــوا عن أنفسهم في ذلك المكان المنقطع عن الناس.

وقــد اتفقنــا أن أســتقل الطــائرة مــع صــديقي ولــد الطــاهر وكــان يومهــا ملازمــاً أول، اتفقــت معــه علــى موعــد يكــون في الغــد صــباحا، ونلتقــي في المطــار قــرب زويــرات ومعــي عــودي وملابســي، وطــارت الطــائرة، وكــان النهــار صــحواً صــافياً انطلقــت الطــائرة محلقــة في الجــو، ولم تمــض نصــف ســاعة أو أكثــر بقليــل حــتى بــدأت ألاحــظ أن الســماء في الاتجــاه الــذي نســير فيــه بــدأت تبــدو مغــبرة، وليســت كمــا انطلقنــا في الصــباح، وفي مشــهد درامــاتيكي بــدأت الطــائرة تــدخل معمعــة الغبــار، وأصــبحنا وســط الغبــار مــن كــل الاتجاهــات، كنــا قبلهــا نشــاهد بعــض الجبــال كنقــاط عــلام، الآن هــذه الجبــال صــارت تخيفنــا لأننــا قــد نصــطدم بهــا في أي لحظــة، هــذا بالنســبة للأمــور العامــة الــتي يمكنــني فهمهــا ضــمن ثقــافتي المدنيــة والعســكرية كــوني أنا أيضــا كنــت ملازمــا مجنــدا في الجــيش العــربي الســوري، لكــن أمــور الطــيران والميــزات التعبويــة لهــذه الطــائرة مــدى الارتفــاع، مــدة الطــيران في الجــو، وأجهــزة الــرادار والاتصــال، وكثــير مــن الأمــور غيرهــا حتمــا لــيس لــدي أي خــبرة بهــا، غــير أني لاحظــت أن الطيــارين، صــديقي ولــد الطــاهر ومســاعده وكــان برتبــة مــلازم، صــارا يتحــدثان بالفرنســية فقــط، وصــديقي يعــرف أني لا أفهــم الفرنســية حينهــا علــى الأقــل فهمــت أن هنــاك أمــراً فيــه شــيء مــن الخطــورة، بــدأ العــرق يتصــبب مــن جبينيهمــا، وبــدا الخــوف والهلــع عليهمــا واضــحا، عنــدها عرفــت أننــا نواجــه مشــكلة صــعبة، وخاصــة بعــد أن بقينــا فــترة طويلــة في الجــو والكــل يعــرف أن للطــائرة وقتــاً محــدودا للطــيران، ومــا هــي إلا دقــائق قليلــة حــتى وجــدت أن أســارير وجهيهمــا تغــيرت ومســحا عرقهمــا وتنفســا الصــعداء وقــال لي صــديقي ولــد الطــاهر: " الآن الحمــد لله علــى الســلامة، لأننــا لــو بقينــا فــترة أخــرى لكــان الوضــع فيــه الكثــير مــن الخطــورة." مــاهي إلا دقــائق حــتى وجــدت أن الطــائرة تســتعد للهبــوط، لكنهــا تهــبط حيــث أقلعنــا نعــم لقــد عــدنا إلى زويــرات بالســلامة، عنــدها شــرح لي صــديقي أننــا كنــا تائهــين وســط الغبــار الشــديد وكــان أمامنــا الهبــوط الاضــطراري في أي أرض قــد تكــون مناســبة لــه وقــد لا

تكـــون، عـــدت أدراجـــي إلى البيـــت الـــذي كنـــت فيـــه ضـــيفا في زويـــرات، وقصصـــت علـــيهم ما حصل معنا وحمدوا الله على سلامتنا.

إذا أعـــود إلى مقولـــة (أنا أريـــد وأنـــت تريـــد والله فعـــال لمـــا يريـــد)، لم يشـــأ الله أن أذهـــب إلى بـــير أم قـــرين أيضـــا، أمـــا شـــنقيط الغاليـــة فلـــم تســـنح لي الفرصـــة كـــذلك لزيارتهـــا وكـــذلكم تمبـــدغا وبوكيـــه أمـــا مـــا عـــدا هـــذه البلـــدان فقـــد زرت كـــل المـــدن الموريتانيـــة، وبالنســـبة للمـــدن والبلـــدات الـــتي لم أتمكـــن مـــن زيارتهـــا فقـــد عملـــت جاهـــدا لكـــي أزورهـــا جميعهـــا كمـــا أسلفت لكن إرادة الله وقدري كانت دون ذلك.

وإلى حلقة قادمة إن شاءالله أدعكم بأمانه وحفظه.

××××

كانت أياما جميلة بل رائعة تلك التي أمضيتها في لقاء الأحبة في كل الولايات الموريتانية التي زرتها والتي تمثل أكثر من تسعين بالمائة من موريتانيا.

بسم الله الرحمن الرحيم (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) صدق الله العظيم، فالآية الكريمة وهذا القول المأثور: "رب ضارة نافعة"، ينطبقان على حالتي تماما حينئذ. فلقد تألمت أول عودتي عندما عرقل البعض أعمالي في الإذاعة، وكذلك في التعليم، رغبة منهم أن أستسلم وأقفل راجعا إلى سورية أو من حيث أتيت، وتطوى صفحة فريد حسن، لقد كان من دواعي صمودي واستمراري أمور كثيرة، على رأسها جمهوري الحبيب الذي وقف إلى جانبي في كل ما أمكنه ذلك، وكل فيما يستطيع فعله، وقوف لا يقفه إلا الأخ مع أخيه أو الأب مع بنيه، كما كان لظروفي العائلية الصعبة كمرض والدي وتطلب أسرته وأسرتي البالغ عددهم حينها أكثر من ستة عشر شخصا تطلبهم الاستمرار في الإنفاق في ظروف غير عادية، وكان للظروف الأمنية السيئة في سورية دور كذلك، كان لهذه الأمور مجتمعة دور في أن أقبل التحدي، وأن أجابه هذا الواقع الأليم الذي لاقيته في فترة قدومي الثاني إلى موريتانية.

وهكذا كان لهذه المجابهة الفضل في إنجازات كبيرة فقد لحنت الكثير من الأغاني في تلك الفترة، وتعرفت على أغلب المدن والبلدات الموريتانية، والتقيت بجماهير تلك الأماكن وتعرفت عليها وتعرفوا علي، ومن الناحية المادية تمكنت من الإيفاء بالتزاماتي الأسرية والإنسانية، كما استطعت أن أجمع إمكانات عدد من الأصدقاء الذين تضافرت جهودهم فنجم عن ذلك توقيعي لعقد عمل مع وزارة التربية الموريتانية، وصار لي الحق في سكن لائق ومفروشات ودخل ثابت معقول بعيدا عن التعب والمخاطرة.

وقبل أن يبدأ العام الدراسي طلب مني صاحب فندق الأحمدي أن أقوم بحفلة في فندقه، وأن أقيم في الفندق حتى تكون عمليات التدريب للفنانين بإشرافي وحتى

نكــون متفــرغين للعمــل، وقــد كانــت إقــامتي مجانيــة مــع وجبــات ثــلاث يوميــا مــع الأشــربة البــاردة والســاخنة، وقــد أعطــاني جناحــا كــاملا لي ولضــيوفي، أمــا الحفــلات فيكــون ريــع الــتي أقيمهــا في الفنــدق مناصــفة بيــني وبينــه، وكــان يهــدف مــن ذلــك تحريــك الفنــدق وكــان فندقــه هــو الأكــبر بــين فنــدقين علــى الشــاطئ، الأول فنــدق الصــباح والثــاني هــو الأحمــدي الــذي دعــاني للتعاقــد معــه، كانــت فــترة جميلــة مــن عمــري فقــد خلــدت للراحــة والاســتجمام وكــأن الله أراد لي الراحــة بعــد كــل تلــك المجهــودات الــتي بــذلتها في الســفر والمغــامرة والحــر والغبــار طــوال أشــهر عــدة، لقــد كــان جمــال مــوج المحــيط وأصــوات هــديرها، والســكون الكامــل والهــدوء في أغلــب فــترات اليــوم عــدا ســاعات يحضــر فيهــا بعــض مــن يــرتادون مقصــف الفنــدق أو مطعمــه، وقــد أقمــت فيــه حفلــة لوحــدي، وأخــرى مشــتركة بيــني وبــين ســكتو بنــت همــد فــال، تحــرك عمــل الفنــدق قلــيلا لكنــه لم يتحــرك كمــا تصــوره صــديقي متعهــد الفنــدق حينــذاك وكــان موريتانيــا، وكــان الفنــدق يعتمــد اعتمــادا أساســيا علــى المــؤتمرات الدوليــة الــتي تقــام فيــه والــتي يصــادف عقــدها بــين حــين وآخــر في موريتانيــا، فقــد كــان مجهــزا بتجهيــزات مميــزة مــن مكــبرات للصــوت وميكروفــونات علــى الطــاولات وسماعــات وقاعــات للترجمــة وغــير ذلــك مــن متطلبــات المــؤتمرات، وفي حــال غيــاب المــؤتمرات يكــون الســكون والهــدوء همــا الســائدين والمخيمــين علــى الفنــدق (وصــفي هــذا هــو لفــترة عــام 1980م، 1981م) ولا أعــرف مــاذا حصــل مــن تغيــرات بعــد ذلــك، وكــأن الله كــان يرســل لي كلمــا كنــت بحاجــة للمــدد مــن يخفــف عــني وعــن مضــيفي، فلقــد كــان محمــد ولــد المالحــة بمثابــة الإنعــاش لي بعــد فــترة طالــت بضــيافة أصــدقائي الــذين نزلــت أول فــترة قــدومي عنــدهم، وهــذا المــدير لفنــدق الأحمــدي خفــف مــن ظــل إقــامتي عنــد صــديقي ولــد المالحــه، علمــا أنــه رحمــه الله كــان ســعيدا بي هــو وأســرته بــل حــتى مــن يشــاركونني الإقامــة أو الضــيافة عنــده، وكنــا جميعــا ســعداء بــه وبأهلــه، لكــن يبقــى الإنســان ومــا تعــوده، فــإنني لم أعتــد علــى ذلــك وكنــت أظن أن الجميع يعد لي الأيام علما أن الحقيقة ليست كذلك.

كان البيت الذي أعطته لي الوزارة في الاكصر قريبا من مستوصف الاكصر (بيمي) وكان بيتا في الطابق الأول وبشرفة تطل على الشارع الرئيسي الذي تمر منه كل السيارات العامة والخاصة القاصدة للاكصر والمقاطعة الأولى (بريمير) وبمجرد حصولي على السكن والمفروشات زارني أغلب زملائي السوريين وكان على رأسهم زميلي أبو عمار الذي عرضت عليه في يوم من الأيام أن يعطيني غرفة من أربع غرف كانت معطاة له، مقابل أن أتكفل له أنا بالإنفاق على البيت بدءا من الكهرباء والماء ومرورا بالطعام والشراب والمنظفات، لكنه لم يوافق يومها بحجة أنه يريد أن لا تحجز حريته، لكنه أعجب بالشرفة عندي (البلكون) المسلية المطلة على الشارع الرئيسي، بينما بيته الكئيب في مكان مطل على ساحة ترابية فيها كثير من القمامة والذباب، ونتيجة لإعجابه طلب مني أن يقيم عندي كي نتسلى سويا، كنت أرغب أن أغير طريقة التعامل بين السوريين التي أراد البعض لها أن تكون على الطريقة الغربية البعيدة عن أصالتنا وأخلاقنا العربية، فقلت له: "أهلا بك فالبيت بيتك." عساه يتعلم ما نسيه من عاداتنا الأصيلة، وبقي ساكنا عندي لا أكلفه بأي شيء، بل كل شيء يأتي إليه لأنه ضيفي، فترة لا بأس بها لكن اختلاف أوقات دوامي ودوامه وأشغالنا الخاصة والمختلفة أيضا، كما أنه كان يتعب من السير من كابيتال للاكصر بحجة أنه يمارس رياضة المشي (والحقيقة لا تقول ذلك) رغم أن راتبه كان يزيد على راتب السفير بقليل، لأنه قديم في الوظيفة وكان الراتب للمدرسين السوريين أربع أضعاف الراتب مدفوعاً بالدولار، وبالسعر الثابت للدولار وكان حينذاك أربع ليرات سورية للدولار الواحد، ثم يأخذ راتبا كاملا بالليرات السورية في سورية، ويأخذ ستة آلاف أوقية من موريتانيا ويدرس ساعات إضافية في المدرسة وأخرى دروس خاصة مأجورة في البيت، ولأنه بعض المرات كان لا يجدني في البيت فإنه ترك الإقامة الدائمة عندي واستبدلها بالزيارات المتكررة.

أعود لوضعي أنا: في فترة دوامي مدرسا خلال العام الدراسي كنت أحاول أن ألتزم بآداب المهنة: فلا أقيم حفلات في العاصمة أما نشاطاتي في الإذاعة والنشاطات غير

العامة كتلبية بعض الدعوات مثل حفلة ولي عهد الكويت سعد العبد الله الصباح الذي كان وليا لعهد الكويت حينها، حيث طلبت مني السفارة الكويتية في نواكشوط أن أحضر لحفلة في بيت السفير الكويتي وقد حضرها رئيس الوزراء الموريتاني وكان يومها معاوية ولد الطائع رئيساً للوزراء في موريتانيا، كما حضرها الوزراء والسفراء والنواب ورؤساء الدوائر والمؤسسات الهامة وشخصيات اجتماعية هامة وقد صورت تصوير فيديو وكان الفيديو أيامها جديدا لم يزد على انتشاره أكثر من سنه وقد أعطيت شريطي فيديو عن الحفلة منذ بدايتها وحتى توديع الضيوف، وقد لحنت أغنيتين خصيصا للحفلة، قصيدة من تأليف زوجة سفير الكويت أم أحمد وكان السفير الكويتي أبو أحمد من آل حداد وفي القصيدة ترحب بقدوم ولي العهد إلى موريتانيا وقد سجلتها في الإذاعة الموريتانية ومطلعها يقول: "حيوا المفدى ولي العهد ناصرنا"، وأغنية أخرى باللهجة الدارجة من تأليفي وألحاني كان مطلعها : "أهلا بِوَلِيّ العهد أهلا، أهلا بيك أنت يا سعد أهلا"، وقد شاركني في تسجيل الأغنية التي كانت من تأليفي وتلحيني أبناء صديقي أخي أبي عادل (عبد النبي خشمان) صاحب "كلي مينيت" حيث عزف معي ابنه على الاورغ وغنت ابنتاه وأخوهما معي مقدمة الأغنية (اللازمة)، وقد سجلت الأغنيتين في الإذاعة، وكانتا تذاعان كل عدة دقائق يوم وصول ولي العهد ضيفا إلى موريتانيا وطيلة فترة وجوده وإلى أن غادر، كما غنيتهما إلى جانب العديد من الأغاني الموريتانية وأغنية "بساط الريح" لفريد الأطرش والتي أقصد فيها دلالاتها الشاملة للعرب، كما شاركتني الغناء في الحفلة الفنانة سكت بنت همد فال وفرقتها، وكذلك قام طفلاها بغناء هندي ورقصات بهلوانية.

وقد أمضينا قرابة الشهر في التحضير للحفلة في بيت السفير الكويتي، حيث كانت سيارة السفير تأتي مساء أكثر الأيام لتأخذني من بيتي في الاكصر، فقد كان أبو أحمد رجلا محبا للطرب والغناء رغم أنه كان في الستين أو أكثر من عمره لكنه كان وكذلك عياله يمتلكان قلبا طيبا شابا، وكان يحضر السهرات والعشاء معنا في كل

سهرة كل من سفير قطر حينها وكذلك الملحق الثقافي السعودي وقنصل الكويت، وانتهت هذه السهرات بحفلة استقبال السفارة لرئيس وزراء موريتانيا حيث كان الأمير سعد العبد الله الصباح في الليلة السابقة ضيفا على الرئاسة، وكانت حفلة السفارة هي ردا للضيافة بمثلها، وقد كانت حفلة لم أر مثيلا لها من الصرف أو الإسراف إن شئت فالملاعق والصحون جيء بها من سفارة الكويت في داكار وهي من الفضة وملاعق الشاي من ذهب وخاصة تلك التي أمام المسؤولين الكبار وكؤوس الشاي قاعدتها كذلك من ذهب وهذه كانت تقدم لنا أيام سهراتنا عند شرب الشاي الأحمر، وكذلك الطعام فقد جيء بعدد من الطباخين من داكار أيضا ليساعدوا طباخ السفارة الماهر جدا، لقد وزعت السفارة ساعات لكبار الضيوف من ماركة (سايكو) موضوعة في علبة عليها شعار دولة الكويت المذهب، والساعة ماكينتها مصنوعة من ذهب من عيار أخف طبعا من 21 حتى يكون مقاوما للضغط وكتب على العلبة من الخارج "صنعت خصيصا لأمير دولة الكويت".

وقد كنت من بين من أهديت لهم واحدة منها، وقد دفع لي فيها أحد أصدقائي وهو أحمد بابا ولد أحمد يورا ثلاثين ألف أوقية فوق ساعته التي سعرها سبعة عشر ألف أوقية، واعتذرت منه يومها، لا لشيء فقط لأنها هدية ولأنها فعلا جميلة رقيقة جدا سوداء، إطارها ذهب، داخلها ذهب، بقيت في يدي ثلاثين سنة لم تدخل على مصلح، وما زالت عندي في الدار أستعمل غيرها وتركتها ذكرى بين ذكريات كثيرة تذكرني بحبيبة غالية هي موريتانيا.

وإلى حلقة قادمة إن شاء الله، أستودعكم الله، دمتم بخير.

××××

في شتاء العام الدراسي 1980، 1981م وهي السنة التي عدت فيها متعاقدا مع وزارة التعليم الموريتانية، لم أغادر بعيدا عن نواكشوط إلا زيارات لزملائي المدرسين السوريين وخاصة صديقي وزميلي سمير الناشد الذي جاء بعد تعاقدي وكان على وشك الرجوع إلى سورية بسبب صدمات تلقاها وهو بالأصل كان قد رُبِّيَ على الدلال والحياة الرغيدة، وكنت أول من التقى به وهو قادم من المطار إلى السفارة السورية فوقفت بجانبه إلى لحظة ذهابه إلى بوتلميت، وبعدها كنت أتردد عليه حيث سكن معه مدرس سوري من الحسكة أحضر زوجته فيما بعد، وكان يزورني في بيتي في نواكشوط وكنت أترك له ولزوجته البيت كلما جاء بزيارة إلى نواكشوط، أما سمير فابن بلدي كان يأتي في العطل وموعد قبض الراتب وحل مشاكله الوظيفية فيبقى ضيفا مكرما، كنت لا أنقطع عنهم أكثر من شهر واستطعت أن أغير رأيه في موريتانيا إلى أن أصبح يتمرن مثلي، إذ كنت أزورهم في بوتلميت وكان لي صداقات كثيرة فيها هناك عرفته عليهم، كما زرت زملائي السوريين في روصو.

هذا عن النشاطات الاجتماعية، أما عن النشاطات الفنية فلم أتحرك خلال أشهر الدوام المدرسي فنياً حتى لا يكون لمن لا يسرهم بقائي في موريتانيا ممسك قانوني علي، عدا حفلة سفارة الكويت، وحفلة أخرى في فندق الصباح والتي دعاني إليها الأميران بندر بن سلطان، والأمير منصور بن عبد العزيز، وكانا قد حلا ضيفين على موريتانيا في رحلة صيد استمرت بحدود الشهرين، وكانا قد وصلا بطائرتين ضخمتين حملت الأولى مرافقيهما وكانوا بحدود الخمسة والثمانين مرافقا عرفني عليهم الأمير منصور الذي نشأت بيني وبينه مودة كونه يهوى الغناء كثيرا بل يغني وصوته جميل، وأعتقد أن والدته من بلاد الشام لأن شكله يدل على ذلك فهو أكثر مني بياضا، وكان يسمي مرافقيه "وزراء" (وزير لشؤون الصيد، وشؤون الطعام، وشؤون المال إلخ) وقد زارني في بيتي في الاكصر برفقة وزيرين من وزرائه لنغني سويا فقد كان يستحي من بندر الذي يكبره سنا والذي كان متعصبا جدا في الدين بينما منصور كان شابا

منفتحا جدا، وحكى لي شؤون رحلة الصيد هذه فقد عرفت منه أن خمسا وثمانين مرافقا لكل منهم غرفة في فندق الصباح وتكلفة الغرفة كانت تقترب من الخمسة آلاف أوقية لليوم، عدا أنه كان يعطي لكل منهم مئتيْ دولار كل يوم خارج الراتب، ليذهبوا إلى المدينة مساء لإنفاقها حيثما يشاءون، والطائرتان الجاثمتان في المطار لكل ليلة خمسة عشر ألف أوقية، وأربع وعشرون سيارة رنج روفر تنقل الصيادين عبر البراري يرافقها صهريج بنزين ليمد هذا النوع من السيارات الذي يستهلك كميات كبيرة من البنزين، عدا عن رواتب هؤلاء المرافقين التي لم تكن أقل من عشرة آلاف ريال سعودي للواحد منهم، طبعا كل يفكر في المجال الذي يهمه: فهذه الأموال أنفقت في موريتانيا واستفادت منها البلاد، لكن بالمقابل المال الذي ينفقه أميران يساوي ميزانية موريتانيا حينئذ لسنة أو أكثر.

أعود إلى الفكرة الأساسية فقد غنيت في حفلة خاصة للأميرين في فندق الصباح، وقد طلب مني مدير الفندق وهو سوري من دمشق أن أوقع معه عقدا لإقامة حفلة في الفندق كما طلب مني أن تشاركني ديمي الغناء وقد اتصلت بديمي رحمها الله ووافقت ديمي أن تكون معي في تلك الحفلة.

لقد كان هذا المدير داهية في عمله، فقد كانت الحفلة من أروع الحفلات التي شاهدتها في عمري وأكثرها مردودا فقد كانت البطاقة يومها بألف أوقية وهذا قبل ست وثلاثين سنة يوم كان الدولار بأقل من خمسين أوقية وفي بلد كان اقتصاده ما زال قيد التكوين.

لقد اتصل بأشخاص قاموا بإجراء دعايات على التلفزيونات في داكار وساحل العاج وغينيا وغانا ونيجيريا مما أدى إلى حضور أعداد كبيرة وعدم اتساع قاعة الفندق واختناقها بالحضور وبقي الكثيرون ممن لم يتمكنوا من الدخول أو بقوا يستمعون من خارج القاعة رغم أنهم دفعوا ثمن البطاقة، نعم إنه صاحب الحرفة المتقن لها والمبدع فيها، فقد حرك فندقه وجعل له اسما في كل تلك البلاد ناهيك عن الدعاية له في موريتانيا، وكسب مبلغا كبيرا من المال، وأثبت موجودية رائعة كمدير ناجح.

ومـــن جهـــة أخـــرى كانـــت لي نشـــاطات فنيـــة علـــى مســـتوى الســـفراء حيـــث امتـــدت أمســـيات بيـــت الســـفير الكـــويتي لتنتقـــل إلى بيـــت الســـفير القطـــري حيـــث شـــاركتني في إحـــداها الفنانـــة لبابـــة وتكيـــبر وكـــان يحضـــر هـــذه الحفـــلات ســـفير الكويـــت، والســـفير السوري، والسفير القطري، والملحق الثقافي السعودي والقنصل الكويتي.

كانـــت هـــذه أهـــم النشـــاطات الـــتي كنـــت أقـــوم بهـــا في فـــترة الـــدوام لتلـــك الســـنة الـــتي تعاقـــدت مـــع وزارة التعلـــيم الموريتانيـــة وبقـــي لنـــا أن نتحـــدث عـــن الصـــيف الـــذي أعقـــب ذلـــك فقـــد كـــان حـــافلا بالأنشـــطة الفنيـــة، وقـــد قـــدم لي عـــرض مـــا زلـــت نادمـــا علـــى عـــدم قبولـــه في ذلـــك الصـــيف، فقـــد كـــان أولاد ســـيكا المصـــورون أصـــدقائي، وقـــد عـــاد أحـــدهم مـــن الدراســـة للتصـــوير والإخـــراج مـــن ألمانيـــا أو روســـيا لا أذكـــر بدقـــة، وقـــد كـــان معجبـــا بألحـــاني وأغـــانيّ كثـــيرا وعـــرض علـــي تصـــوير فـــيلم موريتـــاني يكـــون الأول في التـــاريخ الموريتـــاني وقـــد كـــان الرجـــل صـــريحا معـــي فهـــو قـــد اشـــترى أجهـــزة تصـــوير وطبـــع وتحمـــيض ضـــخمة، ولم يكـــن لديـــه ســـيولة ماديـــة في ذلـــك الوقـــت، فقـــال: "لي ادخـــل معـــي شـــريكا، منـــك الفـــن ومـــني الأجهـــزة والمـــواد ونفقـــات الســـفر والطعـــام وغـــير ذلـــك وأعطيـــك عشـــرين نســـخة فـــيلم تبقـــى ملكـــا لـــك." لم أوافـــق! لـــيس لنـــواحٍ ماديـــة، لكـــني كنـــت أتخـــوف مـــن أن يطـــول العمـــل وأن لا نـــتمكن مـــن تركـــه دون إتمـــام أو إنجـــاز، وكنـــا سنصـــوره في جميـــع أنحـــاء موريتانيـــا وأدخـــل فيـــه عـــددا مـــن أغـــاني ويكـــون معـــي فيـــه مطربـــة أو بعـــض الممثلـــين، وكلمـــا أتـــذكر الفـــيلم أشـــعر بأني قصـــرت بحـــق نفســـي وبحـــق موريتانيـــا عنـــدما رفضـــت الفكـــرة، وليـــت الزمـــان يعـــود لأوافـــق ولـــو تعبـــت أو تأخـــرت، وليحـــدث مـــا يحـــدث، لكـــن أكـــون أول من حقق لموريتانيا هذا السبق التاريخي.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم إن شاء الله، دمتم بخير.

××××

بسبب ظروفي الصحية التي عانيتها في الفترة الأخيرة والتي فرضت علي واقعا حاولت قبلها أن أقاومه، ويمكن أن يكون سببها هو ذاك الصراع بيني وبين رغبتي في الإسراع لكتابة أكبر قدر ممكن من الذكريات وتحضير أو استجلاب أكبر عدد من أعمالي الفنية، لتكون بين يدي جمهوري الغالي المحب لفنانه والذي يبادله فنانه حبا بحب، أقول قد تكون تلك المعاندة واللامبالاة من قبلي بصحتي، وكذلك السهر والتعب المتواصل لكتابة أكبر عدد ممكن من الفصول والأعمال الكتابية الأخرى، أقول قد تكون جميعها سببا فيما حصل لي من تراجع لصحتي وأنا لا أقول هذا منة مني عليكم فإنما كنت أفعل ذلك لأني كنت أشعر بسعادة لا توصف كلما كتبت قصاصة أو جهزت أغنية، لقد جئت من سوريا ولم أكن أحمل معي سوى شريط واحد يحمل إحدى عشرة أغنية من ألحاني للأغاني الموريتانية، تسجيل صوتي فقط، وكانت المرحلة الأولى هي إضافة صور من موريتانيا لتصبح إمكانية نشرها كصوت وصورة متوفرة لها، وفي الظروف المأساوية التي مرت وما زالت تمر بها حبيبتي حلب ومع انقطاع النت أو ضعفه كنت أنتظر إرسال فيديو لكل أغنية بعد تقطيعها عن غيرها لأنها ضمن قرص cd واحد حتى إن أغنية واحدة تطلبت أكثر من شهر ونيف لتصل دفعة واحدة لأنها كانت تصل متقطعة، إذ كنت أعمل في أكثر من اتجاه، اتجاه الأعمال الفنية، واتجاه الأعمال الكتابية، هذا كله رافقه ظروف صحية صعبة كان أكثرها بسبب القهر الذي أعانيه من رؤية بلدي يدمر وفيه ممتلكاتي وذكرياتي وأهلي وأصدقائي إلخ من أمور غالية على الإنسان، وبسبب ذلك وبسبب واحدة من هذه الآلام (استشهاد ابن أخي بطلقة قناص) حيث ذهبت من بلجيكا إلى ألمانيا حيث يقيم أخي المشرد مثلي بسبب الربيع العربي (الحريق العربي) لأقوم بواجب العزاء، وبينما أنا أتوضأ وقعت فكسرت يدي اليمنى وعانيت منها خمسة أشهر، وخلالها وخلال أخذ الضغط اكتشف الأطباء مشكلة القلب وشرايينه وأجرينا أول عملية قسطرة قررت الطبيبة المعالجة أن أربعة شرايين قد سدت وأنه لابد

من عملية قلب مفتوح، وعند بحثنا مع العديد من المشافي وجدنا حلا أفضل وهو وضع شبكتين وتنظيف لشريان ثالث، وإهمال الرابع لأنه قليل التأثير وأجريناها لكني أتعبت نفسي كما ذكرت لكم سابقا، وقد رافق هذا إتباعي لدورة أولى لدراسة اللغة الفرنسية ودورة ثانية كذلك، ولا بد من الدوام وكتابة الواجبات وتحضير الدروس، ناهيك عن مراجعة دوائر الدولة هنا بخصوص الأوراق والإقامة والسكن وما يحتاجه من تأسيس، هذا كله لا يساوي الحالة النفسية الصعبة: أن تترك كل شيء وراءك: تعب عمرك، ذكرياتك، وفي كل يوم نبأ جديد من حلب وكلها أنباء شؤم وحزن: استشهاد لقريب أو صديق وخراب ودمار لبيت أو محال تجارية أو تشرد، أولادي الذين توزعوا بين بريطانيا والسويد وألمانيا وبلجيكا وسوريا، ولكل مشاكله التي لا تنتهي من أجل بناء وضعه الجديد، نعم : وكأني بك يا قلبي المعذب تقول لي "رحماك يا صاحبي فقد أضنيتني بما لا أستطيع حمله، لقد حملتني بما تنوء لحمله الجبال".

فرغم أنني أهتم بصحتي وغذائي جيدا كما أنني لا أتعاطى كل مضر (محرم أو حلال) ورغم ذلك سدت أربعة شرايين لم تكن لي معها أي مشكلة قبل أحداث سورية، حيث كنت أجري كل ستة أشهر لجسمي فحصا شاملا وتحليلا كاملا وأتأكد من السلامة التامة لصحتي، لقد عاتبتني الطبيبة المعالجة والتي قامت بتركيب شبكتين لدسامين في أواخر العام المنصرم، قائلة بأني أجور على قلبي وأخالف التعليمات، قلت لها: "أنا لا أستخدم أيا من المضرات (دخان، مشروب، دسم، دهون، شحوم)." لكني أخفيت عنها أمرين أولهما السهر من أجل الكتابة، والثاني الإطلاع على الأخبار الجارية في سورية من عدة مصادر إعلامية ثم من الأصدقاء والأقرباء بالهاتف من على أرض الواقع دون ملح أو توابل كما تفعل قنوات التحريض والفتنة.

وأنا متأكد أن السهر والكتابة، ومتابعة أخبار سورية وحلب مضران جدا بصحتي لكنني مدمن عليهما.

أعــود إلى موضــوع القصاصــة وهــو قضــاء العطلــة الصــيفية في حلــب فبعــد غيــاب طــال عــن الــوطن وعــن الأهــل والعائلــة فقــد خرجــت مــن حلــب يــوم 20 كــانون الثــاني / ينــاير عــام 1980م ومــن دمشــق يــوم 22 منــه مســاء، ووصــلت إلى بــرلين الشــرقية فجــر يــوم 23 منـــه، وانتقلـــت إلى بـــرلين الغربيـــة في الســـاعات الأولى مـــن صـــباح نفـــس اليـــوم، لأمكـــث في بـــون حـــتى 11 شـــباط/ فبرايـــر وأغـــادر يومهـــا إلى باريـــس فأبيـــت فيهـــا ليلـــة وأغادرهـــا يـــوم 12منـــه أي في اليـــوم التـــالي وأصـــل إلى نواكشـــوط قادمـــا مـــن باريـــس في نفـس اليـوم أي في 12 شـباط/ فبرايـر. قـد يقـول قائـل بـل يجـب أن يقـول الجميـع مالنـا ولهـــذه الأرقـــام والتـــواريخ؟ نعـــم ، فعـــلا مـــالكم ولهـــذه التـــواريخ ؟ لقـــد أردت أن أتأكـــد بدقــة مــن فــترة غيــابي الــتي كانــت الأطــول في عمــري عــن أولادي ووالــدي وأهلــي وبلــدي ففتحـــت جـــواز ســـفري لتلـــك الفـــترة فقـــد أحضـــرت كـــل جـــوازات ســـفري معـــي والبـــالغ عـــددها ســـبعة لأن عليهـــا عشـــرات تأشـــيرات الـــدخول والخـــروج إلى الـــدول الأوروبيـــة علهـــا وعساها تكون مفيدة في أوربا اليوم عام 2015م، 2016م.

أعـــود إلى عـــام 1981م وأنا أعـــد نفســـي للســـفر في صـــيف ذاك العـــام مـــن نواكشـــوط إلى دمشـــق عـــن طريـــق لاس بالمـــاس الـــدار البيضـــاء مدريـــد رومـــا دمشـــق، لأنـــني لم أتمكـــن مـــن الحصـــول علـــى فيـــزا لبـــاريس وحصـــلت علـــى فيـــزا مغربيـــة وكانـــت تعطيهـــا ســـفارة الســـعودية في نواكشـــوط والـــتي كانـــت تقـــوم بأعمـــال المغـــرب بســـبب انقطـــاع العلاقـــات حينهـــا بـــين موريتانيـــا والمغـــرب بســـبب انســـحاب موريتانيـــا مـــن حربهـــا ضـــد البوليســـاريو، إذ اضـــطررت إلى توســـيع الطريـــق بســـبب عـــدم وجـــود حجـــز أمـــاكن علـــى الطريـــق الأقصـــر وهـــو نواكشـــوط باريـــس، باريـــس دمشـــق لأنـــني قـــررت الســـفر في وقـــت متـــأخر مـــن الصـــيف حيـــث تكـــون الخطـــوط محجـــوزة قبـــل الصـــيف للمدرســـين والطـــلاب والســـياحة، وذلـــك بعد أن تأكدت أن الأمور باتت طبيعية هادئة في سورية.

في شـــتاء عـــام 1981م رأيـــت في المنـــام أني أعـــود إلى ســـورية وأدخـــل البيـــت فـــلا أرى فيـــه أحـــدا، فأضـــع حقـــائبي وأخلـــع ثيـــابي وأنام، ثم يـــوقظني أولادي وأمهـــم، وكـــأنهم قـــادمون مـــن مكـــان بعيـــد، وتأتي والـــدتي وإخـــوتي أيضـــا ليســـلموا علـــي ويهنئـــوني بالعـــودة، الوحيـــد

الغائب عن الترحيب بي كان والدي رحمه الله، أنظر إليهم جميعا ويسود سكون فأسألهم عن أبي فيردون علي لك طول البقاء. هذا كان الحلم.

كما قلت في حلقاتي الأولى، تركت والدي بعد استئصال ورم خبيث في البروستات وكان الطبيب قد حدد ثلاثة أشهر كحد أقصى لوفاته لأن الورم كان قد انتشر في كل الحوض، وحينها كنت الوحيد الذي قال له الطبيب ذلك، وقبيل سفري أخبرت أحد أعمامي بالأمر وطلبت منه أن يخفي الأمر حتى لا يصل الخبر لوالدي وكنت قد نسقت ذلك مع الطبيب أيضا حتى لا ينهار والدي نفسيا، وفعلا فقد عاش بعد العملية عاما ونيف وخالف توقع الطبيب لأنه كان يعيش على الأمل، المهم في الأمر أنني قلت لأولادي ولأهلي أن لا تخبروني بوفاة والدي إن هو توفي في غيابي، لأنني لن أتمكن من الحضور إلى سورية لبعد المسافة وارتفاع ثمن بطاقة الطائرة وللظروف الأمنية البالغة السوء حينها. طبعا هذا تبعا لظروف تلك الأيام، وهي إذا ما قورنت بظروف اليوم فقد كانت متميزة في الرفاه والأمن. ولقد قلت لهم بأنني سأتألم فوق آلام الغربة دون أن أتمكن من فعل شيء، ولأني كنت أحب والدي حبا غير عادي حيث لم أكن أتصور أني سأتحمل العيش دونه، وحتى لا أتعب أكثر وحتى لا أطيل عليكم فتتعبوا أنتم أيضا سأكتفي بهذا القدر اليوم على أمل أن أكتب لكم تتمة هذه الحلقة في الأيام القريبة المقبلة إن شاء الله، وإلى ذلكم الحين أترككم برعاية الله وأمانه.

××××

بعد أن أنهيت إجراءات الحجز إلى سورية عن طريق نواكشوط، نواديبو، لاس بالماس، الدار البيضاء، مدريد، روما، دمشق، أرسلت رسالة لأسرتي في سورية أعلمهم بمواعيد سفري ووصولي ومخطط السفر الذي ستكون رحلتي عليه.

وفي نظرة عابرة اليوم إلى جوازات سفري وهي الوثائق التي حافظت عليها طوال هذه المدة من الزمن لما لها من ذكريات جميلة عندي، نعم لقد تذكرت كم كان الأمر مضنيا، لكن روح الشباب تذلل كل الصعاب.

فلقد انطلقت من نواكشوط في 4 آب / أغسطس 1981م ووصلت نفس اليوم طبعا إلى لاس بالماس حيث بت ليلتها هناك وفي الصباح الباكر 5 آب / أغسطس 1981م ذهبت إلى المطار وطارت بنا الطائرة إلى الدار البيضاء، ولأغادرها مساء إلى مدريد ولأبيت ليلة فيها، وقد اضطررت إلى قبول وضعي على لائحة الانتظار من مدريد إلى روما ومن روما إلى دمشق أيضا لأنني كنت مضطرا ولعدم وجود حجز مسبق لدي، وفعلا في مدريد عند دخولي المطار استطعت أن أجد تثبيتا إلى روما وانتهيت من أول تخوف، وأنزلونا في فندق بجوار المطار لنبيت فيه تلك الليلة، ثم لنتابع ظهرا من مدريد إلى روما ووصلنا المطار في روما، وفور وصولي اتجهت إلى شركة الطيران لأثبت حجزي إلى دمشق، لكن الأمر هنا كان مختلفا ففي مدريد لم أجد أحدا غيري يريد تثبيت الحجز ويمكن أنه لقلة العدد، أو ندرته لم ألتق بأحد يثبت حجزه هناك، أما هنا فبمجرد وصولنا وانتهائنا من إجراءات التسجيل الأمني وأخذ الحقائب اتجهنا إلى كوة تثبيت الحجز، لأجد هناك طابورا من الواقفين جميعهم يريدون تثبيت الحجز مثلي، في مدريد كان عندي فيزا اسبانية أما هنا فليس عندي فيزا إيطالية، وإذا لم يكن هناك محل في هذه الطائرة فقد أنتظر إلى الغد نائما على مقاعد المطار، المهم أنني وقفت في الطابور وكان أمامي أعداد تتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين مسافرا وعادة لائحة الانتظار تعطى لأن بعض الركاب يبدلون حجزهم أو يلغونه قبل أيام أو ساعات من السفر وكلما كان عدد المنتظرين على

لائحة الانتظار قليلا كلما كان نصيبهم في السفر كبيرا جدا، أما أنا فقد توقعت أن لا أجد مكانا في الطائرة لكثرة عدد الذين وضعوا على لائحة الانتظار، وبينما أنا في هذه الحالة من التوتر لمحت عيناي أحد طلابي الذين كنت أدرسهم قبل سنتين في حلب في ثانوية خاصة، قلت: لعلها فرجت علي لأن طالبي واقف بين الأوائل القريبين من الكوة، كنت أدقق النظر إليه عساه يتبسم لي أو يسلم علي فأذهب إليه وأعطيه بطاقتي أيضا فأضمن التثبيت، لكن لاحياة لمن تنادي. فرغم التفاته للوراء مرات عديدة ورؤيته لي لكنه لم يحرك ساكنا يدل على رؤيته لي، كان أحمر الشعر وهذا ما جعلني أتذكره جيدا فلم يكن في كل المدرسة طالب أحمر الشعر غيره، حصل كل من كان أمامه وحصل هو على (الاوكي) أي تثبيت الحجز ووقف جانبا يتحدث مع بعض الركاب، وجدت أن أكثر الركاب لهجتهم حلبية، وهذا يعني أنهم من حلب، ويصعب على أي إنسان أن يتحدث باللهجة الحلبية إن لم يكن قد عاش فيها فترة طويلة جدا من الزمن ودققت السمع والنظر من حولي فوجدت أن الأكثرية الساحقة منهم حلبيون فسألت شخصا قريبا مني: "هل أنتم رحلة أو كروب سياحي ؟" قال: "لا بل كل أتى لوحده." قلت له: "لكني أرى الجميع من حلب، وهل يمكن أن تكون الصدفة جاءت بهم وبهذه الأعداد من حلب؟" قال لي: "يا أخي إذا كانوا كلهم ذاهبين إلى حلب فما الغريب في الأمر في أن يكونوا حلبيين ؟" عندها عرفت أن الطائرة ذاهبة إلى حلب أولا ثم إلى دمشق!

عندها فرحت لأنني سأوفر مبلغا من المال أجرة انتقالي من مطار دمشق إلى دمشق ثم أجرة سيارة إلى حلب إضافة إلى المشقة والخطورة بين حلب ودمشق أكثر من أربعمائة كيلومتر بين مطار دمشق وحلب.

سار الطابور أمامي ووصلت إلى الكوة وتم بعون الله تثبيت الحجز ووضعت على حقيبتي بطاقة حلب كي تنزل في حلب ولا تذهب مع أمتعة دمشق، وهنا تفرغت لطالبي الذي تجاهلني طوال فترة الحجز والتثبيت هذه.

ذهبت إليه وسلمت عليه: "كيف حالك أيها الشاب؟" "الحمد لله" قالها وهو مستغرب من سلامي عليه! لم أر على وجهه علامة تدل على أنه يعرفني من قبل، قلت في نفسي علني شبهته إلى طالبي الذي كنت أدرسه منذ سنتين. قلت لنفسي أتأكد من ذلك. سألته: "ألم تكن طالبا في ثانوية التعاون الخاصة قبل سنتين؟" قال: "نعم" قلت له: "ألم تكن في شعبة الأدبي في الطابق الثاني؟" قال: "نعم" قلت له: "ألم يكن مقعدك دائما قرب النافذة المطلة على الباحة؟" قال: "نعم" قلت له: "انتهينا من تثبيت الحجز." لأنني ظننته يتجاهلني خوفا من أن أطلب منه أن يثبت لي وينتهي الموجود من المحلات عند وصول الدور لعنده، فيحتار عندها أيثبت لي أم لنفسه. إذا التثبيت انتهى ولم يعد لي حاجة عندك وأخرجت له من جيبي آلاف الدولارات ليعرف أنني لست بحاجة إلى مال أيضا. فرأيته ما زال مصرا أنه لا يعرفني، قلت له: "من كان أستاذك في علم الاجتماع؟" ذكر لي اسم زميل لي فعلا كان يدرس في تلك المدرسة وجئت أنا في محله لأنه غادر إلى السعودية في أول آذار/ مارس، فقلت له : "طالما تذكرت أستاذك الذي غادركم إلى السعودية فمن جاء بعده؟" قال: "جاءنا أستاذ حضرت له ثلاثة دروس في ثلاثة أسابيع ثم انقطعنا عن الدوام لنحضِّر للفحص." حيث العادة في سوريا أن ينقطع الطلاب دون سماح المدرسة للتحضير للامتحان بالنسبة للشهادات.

قلت له: "أنا هو ذاك الأستاذ." قال لي: "يا أستاذ إنهما سنتان وقد نسينا كل شيء خاصة مع ظروف البلد حينها!" عندها سألته عن البلد وماذا تغير فيها من بعدي وعن عمله فعرفت أنه يعمل في التجارة.

ركبنا الطائرة وكان بالصدفة إلى جواري هذه المرة طالب درسته عام 1971م أي قبل أحد عشر عاما، هو الذي بدأ بالسلام وسألني إن كنت تذكرته قلت له: "نعم كنت طالبي في ثانوية المأمون عام 1971م." وباستعادة ذكريات مرحلة الثانوية مضى الوقت ولم نشعر بالوقت واقتربنا من مطار حلب وعرفت منه أنه سيأتي أخوه بسيارة إلى المطار لاصطحابه من المطار إلى البيت وسألني إذا كان أحد سيأتي

لاستقبالي؟ قلت له: "أنا أصلا لا أحد يعرف أني سأنزل في مطار حلب فقد كنت حاجزا إلى دمشق!" فقال لي: "إذا سيسعدني أن أوصلك وحقائبك إلى البيت." قلت له: "وسأكون أنا لك من الشاكرين."

فعلا استلم كل متاعه وجاء أخوه بسيارته وأوصلاني إلى البيت، وكانت الساعة تقترب من الواحدة ليلا كنت قد جهزت مفتاح الدار كي أفاجئ العائلة بحضوري، فتحت الباب ودخلت إلى الصالون فلم أر فيه أحدا، وفتحت غرفة النوم كذلك لم أر فيها أحدا والغرفة الأخيرة كذلك لم يكن فيها أحد، كنت متعبا جدا وكان الوقت متأخرا هذا ما جعلني لا أقرع الباب المقابل لباب دارنا حيث يسكن والداي وجدتي ومن بقي من إخوتي وأخواتي غير المتزوجين، لا أذكر كيف نمت بسرعة ولا أعرف كم نمت لكنني استيقظت على ضجة من حولي والجميع يقول: "إنه هنا وهو نائم." عندها فقط فهمت ما حصل فقد أخذوا سيارة أحد أقربائنا وذهبوا إلى دمشق ليفاجئوني بذلك ودون إعلامي بذلك وحتى لا آتي بسيارة خاصة لوحدي ليلا من مطار دمشق إلى حلب كما فعلت في مرات سابقة وخاصة أن معي آلاف الدولارات وأحيانا يطمع السائقون بالراكب وخاصة إذا كانوا أصلا من محترفي السرقة.

وقد انتظروا الطائرة في مطار دمشق كما كتبت لهم واعتقدوا أني لم أجد تثبيتا للحجز في مدريد أو في روما، حيث نزل كل الركاب منها ولم يجدوني بين من نزل، وانتظروا إلى أن خرج كل الناس وكان مطار دمشق حينها صغيرا وكذلك مطار حلب أصغر لكنهما كانا دوليين.

لم أسأل حينها كيف علم أهلي بمجيئي لأني وجدت أهلي مع زوجتي وأولادي وعمي الذي رافقهم إلى مطار دمشق، كل هذه الجمهرة من الناس تقف من حولي وأنا أحاول فتح عيني من شدة التعب والنعاس، نهضت لأسلم عليهم ونتبادل التحايا والقبلات أنا أقبل يد عمي وأمي وجدتي وغيري يقبل يدي أو وجنتي من إخوتي أو أولادي، عيناي تبحثان عن الغالي الذي لن أراه ثانية، طالما أن الجميع قد أفاق من

نومه وجاء ليسلم علي، لو كان على قيد الحياة لكان هو أول من التقيه ويلتقيني فقد كان كل شيء بالنسبة لي وكنت أنا أيضا كل شيء بالنسبة إليه!

هنا تذكرت الحلم الذي حلمته في شتاء ذلك العام والذي رأيت نفسي آتي إلى البيت في سوريا فلا أجد أحدا فأنام ثم يدخلون علي فيوقظونني وأسلم عليهم دون أن يكون والدي موجودا، ويقولون لي أنه دفن في مقبرة العائلة وفوق لحد جدي والده.

سألتهم: "أين والدي لقد توفي أليس كذلك؟" قالوا: "العمر لك ولأولادك." قلت لهم: "ودفنتموه فوق قبر جدي." قالوا: "بلى! لكن هل أخبرك أحد بذلك؟" قلت: "لا لكني حلمت بذلك في شهر كذا." ورويت لهم الحلم كما رأيته.

وكما كنت أنا متعبا فقد كان كل من ذهب إلى مطار دمشق وعادوا نفس اليوم متعبين أكثر مني ورغم طول الفراق وكثر الاشتياق قلت لهم: "لِيَنَمِ الجميع ويرتاحوا وغدا نفتح كل دفاترنا وتصبحون على خير." وكما أنني الآن متعب علي أن أرتاح كما أنكم تعبتم من القراءة والمتابعة أترككم ترتاحون ودمتم لمحبكم.

××××

في الحلقة السابقة تحدثت عن الحلم الحزين الذي تحقق في الواقع ليلة وصولي إلى حلب، ولأجد البيت خاليا من الناس، فأنام ويوقظني أهلي في الفجر وقد رجعوا من دمشق، وبسبب عدم التنسيق بيني وبينهم، حيث اعتقدوا أني سأنزل في مطارها ولأنهم لم يخبروني بذهابهم إلى دمشق، ولأنني أيضا عندما حجزت من نواكشوط من روما إلى دمشق، لم أكن أدري بأن هناك خطا للطائرة من روما إلى حلب، ولشدة شوقهم لي بعد غياب قارب السنتين أرادوا أن يتركوا حضورهم إلى مطار دمشق مفاجأة لي، وحدث ما حدث وذهبوا ونزل كل الركاب من الطائرة ولم يجدوني أنزل منها، لأني كنت قد نزلت في حلب، وهكذا عند وصولهم إلى البيت في حلب، فوجئوا بي نائما في البيت، ودخل الجميع ليوقظوني عدا والدي الذي كان قد فارق هذه الدنيا الفانية قبل عدة أشهر دون أن أعلم بذلك، إلا في الحلم الذي حدثتكم عنه، وهكذا كانت لحظات لتلاق بعد فراق دام قرابة العامين في ظروف قاسية بالنسبة لي ولهم من كل جوانب الحياة المادية المعنوية والصحية والأمنية والإنسانية والعاطفية، وأحاديث من هذا ومن تلك، وشكاوٍ وهموم ومعاناة من الأحداث التي مرت بها حلب يومها والمشابهة لما يحصل اليوم لكن على شكل مصغر طبعا، من انعدام للطعام والخبز أو ندرة فيه، وقد كان لمرض الوالد وما كان يتطلبه من رعاية ونقل مرات عديدة إلى مشفى الكندي الواقع على بعد عدة كيلومترات شمال شرقي حلب والذي صار خرابا الآن مع الأسف بسبب ما يجري الآن من أحداث دامية حيث كان ينقل والدي إليه لإسعافه ليلا أونهارا وإعادته إلى البيت في نفس اليوم أو بعيد فترة يقضيها فيه حسب الظرف التي كان يمر بها، لقد كانت فرصة لهم لشرح مختصر لما عانوه من تحديات لم يكونوا قد تعودوا على مجابهتها عندما كنت بينهم في الماضي، و تفريغا لما حصروه ولم يخبروني به حتى لا أزداد ألما على آلام الغربة وهمومها، كان الجميع متعبا، إن كنت أنا قد دام سفري ثلاثة أيام متتالية، فهم فقد

ذهبوا صباحا إلى مطر دمشق وعادوا فجر اليوم التالي دون استراحة في فندق أو بيت بل بقوا متنقلين بين مقاعد المطار ومقاعد السيارة التي نقلتهم إلى دمشق.

نام الجميع وأنا منهم واستيقظنا في الصباح على أنواع من الأطعمة السورية التي طال شوقي إليها، وبدأ الأهل والأقارب والأصدقاء يتوافدون للسلام علي بعد هذا الغياب الطويل، لم يطل صبري على عدم زيارة ضريح والدي حيث يبعد خمسين كيلومترا عن حلب، حيث مقبرة العائلة، بالفعل في صباح اليوم التالي ما هي إلا ساعة وكنت إلى جوار الضريح الذي يضم جثمان رجل كان يمثل لي الكثير، قرأت الفاتحة وسورة ياسين بجوار الضريح الذي يضم رفاة المرحوم جدي (حسن) إضافة لوالدي، فقد دفن والدي بناء على وصيته في قبر والده وهكذا ضم اللحد عزيزين وحبيبين على روحي، حتى إني أوصيت في يوم من الأيام أن أدفن معهما، هذا قبل خراب سورية. أما الآن وقد تشردنا وأصبح كل في مكان يبعد عن المقبرة عدة آلاف من الكيلومترات، ويبعد كل منا عن الآخر بنفس المسافة تلك، كما أراد لنا الآخرون ذلك، ولم يبقوا لنا أي إرادة، نعم إنها السياسة العالمية والمحلية التي تسيرنا وتسير آمالنا وأحلامنا إلى الهاوية أو إلى الجحيم، وتحرمنا من الغالي وحتى من الرخيص أو البسيط من الأمور.

عدنا من زيارة الضريح، لنسأل عن حال الأحياء فقد بت أنا المسؤول الفعلي لعائلة والدي التي كانت تتكون من والدتي ووالدتها جدتي ومن أخت في العشرين وأخ في الثامنة عشرة والذي غادر إلى جنوب لبنان حيث التحق بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (جورج حبش) وآخر في الرابعة عشرة، ناهيك عن أسرتي المكونة من ثمانية أولاد وأمهم، وأكبر أولادي كان في الثانية عشرة من عمره، كان لا بد من ترتيب أحوال الجميع وتأمين نواقصهم وحاجاتهم.

لقد كان الواقع غير ما تصورت حيث لم أكن أتصور الحاجة ماسة لأن أكون مع الأسرة، فقد كان مخططي أن آخذ أسرتي إلى موريتانيا حيث كانت المفروشات التي طلبتها من وزارة التعليم جاهزة وقد حصلت عليها للأسرة بكاملها، وكانت الدار

كافية من حيث الاتساع في الاكصر، وقد كان حوارا طويلا ومستمرا بيني وبين باقي أفراد الأسرتين على الحل الأمثل، وفي النهاية اتفقنا على حل: وكان أن أذهب بمفردي وأكمل هذا العام الدراسي، ثم أصفي أموري في موريتانيا وأعود، بعد أن أكون قد وفرت مبلغا معقولا من المال أستطيع به أن أقوم بعمل إضافي يدعم راتبي الذي لا يمكنه أن يفي للقيام بمتطلبات هذه الأسرة الكبيرة.

وهكذا رتبت أمور أسرتي وأسرة والدي المرحوم بحيث حللت كل المشاكل من مدارس وأعمال ومؤن ونفقات واتجهت إلى شركة الطيران لأحجز إلى نواكشوط فوجدت أن الحجز من دمشق إلى نواكشوط صعب في حلب وخاصة في آخر موسم الصيف حيث يعود عشرات الآلاف من المدرسين السوريين وعائلاتهم آنئذ، من العاملين في الجزائر والمغرب حيث كان للمدرسين السوريين الشرف في المساهمة في تعريب الجزائر كما أراد لها حزب جبهة التحرير بقيادة زعيم الجزائر ومعربها المرحوم هواري بومدين حيث حاولت فرنسا جاهدة فرنسة الجزائر لضمها إلى فرنسا في فترة استعمارها للجزائر والتي قدم شعب الجزائر أكثر من مليون شهيد حتى تمكنت من الاستقلال والحرية من المستعمر إذ كان عشرات الآلاف من المعلمين والمدرسين يغادرون مطار دمشق إلى الجزائر والمغرب وآلاف المدرسين العرب مصريين وعراقيين وتونسيين يأتون إلى الجزائر والمغرب وموريتانيا، هذا كله كان يتسبب في خلق أزمة شديدة في الانتقال وبما أنني وصلت سورية في السادس من آب/ أغسطس، فقد بدأت محاولاتي في الحجز للسفر من الأول من أيلول/ سبتمبر، فقد سافرت إلى دمشق وتقدمت إلى تأشيرة دخول (فيزا) إلى المغرب في 9\9\ 1981م ولم أجد حجزا في الطيران قبل 10\10\1981م إلى المغرب من دمشق على أن أغادرها يوم 13 منه إلى لاس بالماس وأبقى فيها حتى 17 منه فيها وأغادر في 17 منه إلى نواكشوط وكل هذا التعقيد لأنه لم يكن هناك حجز عن طريق باريس الذي لا يتأخر فيه المسافر أكثر من يومين إلى نواكشوط وكذلك الأمر عن طريق إسبانيا القادم من روما إلى لاس بالماس نواكشوط.

وفعـــــلا أعـــــددت حقائـــــب الســـــفر وودعـــــت الأهـــــل متجهـــــا إلى دمشـــــق في 9\10\1981م حيـــث بـــت فيهـــا ليلـــة وفي صـــباح اليـــوم التـــالي اتجهـــت إلى مطـــار دمشـــــق متجهـــــا إلى المغـــــرب لأنـــــزل في الـــــدار البيضـــــاء (كازابلانكـــــا) في 10\10\1981م ولأبيـــــت فيهـــــا حـــــتى صـــــباح 13\10\1981م فأغادرهـــــا إلى جـــزر الكنـــار (لاس بالمـــاس) وأصـــلها في نفـــس اليـــوم وأبقـــى فيهـــا حـــتى يـــوم 17\10\1981م حيـــث غادرتهـــا ووصـــلت في نفـــس اليـــوم إلى نواكشـــوط وكـــان بانتظـــاري جمـــع مـــن زملائـــي المدرســـين الســـوريين وأعضـــاء الســـفارة الســـورية ومجموعـــة كبـــيرة مـــن الأصـــدقاء الموريتـــانيين اســـتقبلوني في المطـــار لأبـــدأ عامـــا دراســـيا جديـــدا في موريتانيـــا هو العام الدراسي 1981، 1982م.

وإلى حلقة أخرى أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذنه تعالى.

ملاحظة: التواريخ الدقيقة مصدرها جوازات السفر.

××××

لــن أتحــدث في هــذه الحلقــة عــن مــذكراتي ومــا احتوتــه مــن أحــداث حصــلت معــي في موريتانيــا، لكنــني ســأتحدث حــول هــذه الحلقــات، لقــد عــودتكم كمــا عــودت نفســي أن أكتــب لكــم في الأســبوع الواحــد حلقتــين أو أكثــر، كــان هــذا في الأشــهر الأخــيرة مــن العــام الماضــي، بعــد قــدومي مــن ســورية بفــترة قصــيرة، وجــدت نفســي أشــعر بالضــيق والضــجر، إضــافة لمــا أعانيــه مــن آلام نفســية تنــوء عــن حملهــا الجبــال، (الشــكوى لله عــز وجــل)؛ أن تغــادر وطنــك الــذي أحببــت وتــترك فيــه كــل مــا تملــك مــن أمــور ماديــة أو معنويــة، تــترك ذكرياتــك، ممتلكاتــك، أصــدقاءك، أقــرباءك، والأغلــى مــن كــل هــذا وطنــك الــذي تــراه يدوســه الغــرباء وينهشــون منــه، ويعيثــون فيــه تقتــيلا وتخريبــا وتفننــا في الإيــذاء والقضاء على حاضره وحضارته وتاريخه إلخ

ذلــك الحاضــر الــذي وصــلت إليــه ســورية مــن تقــدم علمــي وصــناعي وزراعــي وتقــني وســياحي وقــوة عســكرية فأعــادوه ســنين طويلــة إلى الــوراء، وكــذلك فعلــوا بتاريخــه الــذي شــوهوه قــولا وفعــلا، وهــذا مــافعلوه في العــراق وليبيــا والــيمن، ومــازالوا يريــدون أن يفعلــوا مثــل هــذا أو أكثــر في كــل الــبلاد العربيــة، كلمــا اســتطاعوا إلى ذلــك ســبيلا، أن تنظــر إلى أقطــار أخــرى تســير في نفــس الطريــق، وبعــد أن كنــا نحلــم بأن نــرى وطننــا ترفــرف عليــه راية واحدة صرنا نحلم لو عادت أيام الأمن والسلام والمحبة التي كنا نعيشها.

المهــم أنــني قلــت في نفســي أولا: "لمــاذا لا تجعلهــا فرصــة، لــرد الجميــل لــذلك الشــعب الطيب الذي أحبك وأحببته، وتؤرخ لتلك الفترة الجميلة من عمرك؟"

كنــت أشــعر بأن جســمي تعــب كثــيرا خــلال الأزمــة الســورية بســبب مــا شــهدته وأنا الــواعي والمــدرك لحقيقــة مــا يحــدث بعيــدا عــن مــؤثرات وألاعيــب الإعــلام واســتخدام الحيــل النفســية والسياســية الــتي قــرأت عنهــا بــل درســتها لطــلابي في جميــع مراحــل الدراســة وأدركــت قبــل أن يعــرف الأطبــاء أنــني أعــيش ظروفــا صــحية صــعبة، ودفعــني هــذا للإســراع في الكتابــة حيــث كنــت أكتــب في اليــوم الواحــد مــن ثمــان إلى عشــر ســاعات ، لقــد كــان

عـــدد الحلقـــات ســـتا وأربعـــين حلقـــة، إضـــافة إلى أربعـــة عشـــر حلقـــة عـــن الغضـــب، وســـبع حلقات متفرقة، وثلاث حلقات عن مسيرتي الفنية، ويكون المجموع سبعين حلقة.

الحلقـات اقتربـت مـن النهايـة فلـم يبـق أكثـر مـن عشـرين حلقـة كأقصـى حـد وقـد يكفيهـا عشـر ونيـف، أمـا نظريـة الأيام المحيرة فـلا يكفيهـا سـتون حلقـة، أمـا عـن مسـيرتي الفنيـة فقد لخصتها في تلك الحلقات الثلاث.

أمـا عـن الأغـاني فقـد أرسـلت لكـم كـل مـا كـان بحـوزتي وهنـاك الكثـير مـن السـهرات والتسـجيلات المشـتركة بيـني وبـين والمرحومـة ديمـي والمرحـوم الخليفـة والفنانـة أبـتي وسـكتو والمحجوبـة أو غيرهمـا الكثـير مـن الفنـانين والفنـانات والـتي بعضـها مسـجل في إذاعـة نواكشوط وبعضها الآخر لا.

لقـد انطلقـت مـن القـول المـأثور الـذي ينسـبه الـبعض للرسـول الكـريم صـلى الله عليـه وسـلم والـبعض الآخـر لعلـي بـن أبي طالـب رضـي الله عنـه والـذي يقـول: "اعمـل لـدنياك كأنـك تعـيش أبـدا واعمـل لآخرتـك كأنـك تمـوت غـدا." وهـذا مـا فعلتـه دومـا ولـيس الآن فقط، لذلك حاولت جاهدا حرق الوقت في إنجاز ما أريد إنجازه.

وفي الفـترة الأخـيرة أحسسـت بتراجـع في صـحتي جعلـني أبتعـد عـن التهلكـة الـتي كنـت أمارسـها في السـهر الطويـل حيـث كنـت أسـهر بـين الثالثـة والرابعـة صـباحا مـن أجـل الكتابـة، والآن أعـرف أن الكثـيرين شـعروا بتقصـيري، لـذلك كـان علـي أن أبـدي لهـم عذري.

سـوف يـتم إجـراء عمـل قسـطرة قلبيـة أخـرى لي يـوم الجمعـة في 2016/6/3 م وأدعـو الله أن تكـون كافيـة لإعـادة عمـل القلـب والشـرايين إلى طبيعتهـا، لقـد أجريـت لي عمليـة قسـطرة في أواخـر عـام 2015م وقـررت الـدكتورة المشـرفة يومهـا أن تجـري لي عمليـة قلـب مفتـوح، انتقلنـا إلى مشـفى آخـر كبـير ومشـهور في بروكسـل وكـان رأي الـدكتورة أن وضـع شـبكتين وتنظيفـا للشـريان الثالـث يعـوض عـن عمليـة القلـب المفتـوح، وسـرنا بمـا قـررت، لكنـني بعـد إجـراء العمليـة وجـدت أن صـحتي تراجعـت بـدلا مـن تقـدمها وكـان لـدي موعـد مسـبق منـذ عشـرة أيام وبعـد فحوصـات مطولـة مـن تخطيطـات دون جهـد

ومـع الجهـد وتصـوير طبقـي ومحـوري وجـدت الطبيبـة أن هنـاك مشـكلة تظهـر مـع الجهـد، لــذلك قــررت تنظــيرا جديــدا يــوم 2016/6/3 م صــباحا، أُدعــوا الله معــي أن يكــون فيـه شـفائي التـام لأعـود إلـيكم فمـا زال لـدي الكثـير ممـا أقدمـه لكـم ولي وللفـن الموريتـاني دمتم وإلى لقاء بإذنه تعالى بعد الانتهاء من العملية إن شاء الله.

××××

- 51، 52-

ملاحظة هامة لقد تركت عامدا مكانا فارغا للحلقتين 51، و52 وكنت أريد أن أكشف عن تفاصيل مؤامرة ضدي قام بها أشخاص بين الشهر الأخير من عام 1989 م والشهر الأول عام 1990 م وترددت كثيرا في الموضوع لأن المؤامرة سببت لي خسائر وأضرارا مادية ومعنوية، ورغم أنني لم أكن قد سببت أي أذى لهؤلاء بل إني قدمت لبعضهم كل الخير، وبعد صراع بين الجانب المحب للسلام في قرارة نفسي، والجانب المحب للدفاع عن حقي الذي اعتدي عليه والذي كنت فقط سأظهره بعد أن أخفيته ثلاثين سنة، لكنني فضلت وأنا الآن أجهز الكتاب لطبع كل الحلقات أن أترك ذلك المكان فارغا، وأحولهم إلى قضاء العادل الذي لا عادل قبله ولا بعده، حتى إن لم أتحدث عما فعلوه فالله يعرف كل شيء ولن أضيف بكشف الموضوع شيئا سوى خلق بلبلة وكثرة أخبار أنا أكرهها، ومن أجل تلك القيم أحببت موريتانيا فلا أريد مناقضة نفسي، ليقول الناس أن فريدا كان طوال حياته أخباره ما هي ياسره لكنه ختمها بكثرة الأخبار والله لايضيع مثقال ذرة خيرا أو شرا ونعم بالله وكيلا.

××××

حتى لا يتيه أو يحتار من يتابعون الحلقات بدقة ويعرفون عني الدقة أيضا، فالحلقات كان آخرها الرقم خمسين، أما قصاصتا الرقمين 51، 52 فقد تركتا مؤقتا فارغتين عسى أن يحين الوقت المناسب لملئهما وستكون الحلقات الحالية التي سأجعل لكل أسبوع حلقة وأغنية جديدة أو مجددة بمشيئة الله، وأقصد بالجديدة التي لحنتها مؤخرا في بروكسل أو نواكشوط في فترة قدومي إليها مع الأعياد عيد الاستقلال والمولد والاحتفال بالمدن القديمة وعيد اللغة العربية، هذا بالنسبة للأغاني الجديدة أما الأغاني المجددة فهي تلك التي كانت مسجلة في السبعينيات في إذاعة نواكشوط والتي سأضيف إليها فيديو مناظر من موريتانيا ومن صوري أو صور من موريتانيا أو أصدقائي في موريتانيا.

وستكون حلقتي هذه عرضا مفصلا لجمهوري الحبيب لما اعتبرته أنا مكاسب شخصية لي أو مكاسب لي ولكم في مجال الفن.

لقد سجلت أغاني المصورة ويبلغ عددها خمسة عشر أغنية في كل من قناة الموريتانية، والوطنية، ودافا، والمرابطون، وشنقيط، وصار بإمكان هذه القنوات أن تذيع الأغاني في أي وقت ومناسبة، وصار جمهوري الغالي يتمكن من مشاهدة أغانيّ بشكل مستمر، كما قدمت تسع لقاءات مصورة للتلفزة كالتالي : لقاءان مع الموريتانية، ولقاء مع دافا، ولقاء مع المرابطون، ولقاء مع الوطنية، ولقاءان مع شنقيط، ولقاء مع الجزيرة مباشر، ولقاء مع فرانس 24 (وهذا اللقاء لم يذع حتى الآن لكنه موضوع على الدور وسيذاع بعد أيام، ولم يذع حتى يوم تنضيد الكتاب دون أن أعرف السبب وهل يمكن أن يضاف إلى موضوع إلغاء حفلة المركز الثقافي الفرنسي قبل أربعين عاما ؟ ربما)، وهذه اللقاءات بحد ذاتها ستكون مادة تلفزيونية ستبث إليكم بين الحين والآخر من قبل هذه القنوات.

كما نزلت كل هذه اللقاءات على اليوتوب ويبلغ طولها قرابة العشر ساعات صار بإمكان جمهوري الغالي الدخول إليها في أي وقت شاء.

كما أجريت سبعة لقاءات إذاعية أربعة منها كانت مع إذاعة نواكشوط والخامس مع إذاعة التنوير واثنان كانا مع إذاعة كوبني: واحد مع الأخت طرب، والآخر مع الشيخ ولد آب.

كما دعيت لمهرجان لنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في فندق موري سانتر قدمت فيه أغنية مديحية جديدة من شعر صديقي محمد سالم ول اداه وألحاني، ودعيت كذلك إلى مهرجان أقامته جمعية الإحياء للثقافة والفنون لتمكين اللغة العربية ونصرتها في دار الشباب القديمة ولبيت الدعوة حيث غنيت فيها قصيدة "سمراء" للشاعر المرحوم فاضل أمين وغنيت كذلك نشيد "النور" في شفتي كلمات الشاعر السوري سليمان العيسى حيث النشيدان يمجدان اللغة العربية ويدعمانها، وقد كرمتني الجمعية في ذلك المهرجان أيضا.

كما قام المركز العربي الإفريقي والذي كان له فضل دعوتي إلى موريتانيا ومديره الأخ محمد سالم ولداه وكوكبة من الشباب الموريتاني المغترب في الولايات المتحدة والمغرب بدعوتي إلى مهرجان خاص في فندق الخاطر لتكريمي،حيث حضر التكريم جمع غفير من المثقفين وتم نقل الحفل تلفزيونيا وقدمت فيه وصلة غنائية وقدم لي المركز مجموعة من الهدايا التذكارية من الصناعات التقليدية وقدمت أنا للأخ محمد سالم هدية تذكارية مني من الصناعة السورية، كما قام السيد مدير الإذاعة الوطنية بدعوتي لحفل تكريم سبقته مائدة إفطار شهية، وقام باصطحابي والمدعويين إلى أقسام الإذاعة القديمة والحديثة حيث بدا لي الفرق بين ما كان وما هو حاصل الآن، وانتهى حفل التكريم بكلمة مفعمة بالحب والتقدير من قبل السيد المدير أعادتني إلى الأيام الأولى عندما قدمت كل شيء دون أن أطلب شيئا نعم أشعرني السيد المدير بأن ما قدمته باق في كيانه وفي أثاره وفي ذكريات الجميع وانتهى الحفل بتقديم مجموعة كبيرة من الهدايا التذكارية كلها من النوع القيمي المؤثر في النفس، كما قدم لي هدية كل أغانيّ موضوعة في فلاشتين وقد زاد عدد الأغاني عن عشرين أغنية قيمة كنت دائما أفكر فيها وأخاف ضياعها وسأبدأ بتوثيقها بعد تحويلها إلى فيديوهات يمكن حفظها في

اليوتوب والفيس بوك وغوغل وتكون بالتالي في متناول أيديكم إن شئتم، وهذا كسب فني كبير لي ولكم، ومن الأغاني عدة أغاني نسيت كلماتها ولحنها، لمرور أربعين عاما عليها دون أن أتعامل معها، يمكن أن بعض الأغاني تم عزله كأغاني مناسبات (أغنيتان لولي عهد الكويت، قصيدة وأغنية وأغنية تموز/ يوليو للمرحوم فاضل أمين وأناشيد أطفال)، وقد وجدت كل الأغاني بخير وقد كتبت في حلقة سابقة أني أظن أن الأغاني قد تلفت أو اتلفت وكان هذا بصراحة نتيجة لمعلومات خاطئة وصلتني من بعض العاملين في الإذاعة وأن تبقى عشرون أغنية بالحفظ والصون في إذاعة كانت إمكاناتها في السبعينيات متواضعة جدا من حيث التكييف وتأمين جو يحافظ على الأشرطة أمر يثير العجب، وهنا لا يسعني إلا أن أثمن عاليا دور المدير الحالي للإذاعة الذي قام بالأرشفة الحديثة ونقل المواد الموجودة في الأشرطة القديمة إلى أنظمة الحوسبة مع الحفاظ على الأشرطة القديمة دون إتلافها والشكر كل الشكر للسيد المدير الذي أشعرني بتمثيله الحقيقي للشعب ولجمهوري الفني، وقد أنساني ألم عبارة سابقة لمدير سابق قال لي يوما: "لو كنت مكانك لأخذت أشرطتي ووضعتها في ساحة الإذاعة وحرقتها." "لا يا سيدي فأشرطتي ليست ملكي بل هي ملك جمهوري الذي لم يقدم لي إلا كل خير." وهكذا كان ردي عليه يومها، وها هو ذا مدير يأتي بعد ست وثلاثين سنة يقدر قيمة الفن، ويعرف كنه عمله، كَبَانٍ وليس كمخرب مثل ذاك المدير، وستكونون في منتهى الفرح عندما تعرفون أن أغنية مشتركة بيني وبين ديمي رحمها الله ما زالت موجودة وهي سليمة معافاة، بعنوان "دوم يالله ذي الحيلة أنا والنختير"، من كلمات أحمدو مياح وألحاني وغنائي بمشاركة المرحومة ديمي.

كما فرحت وستفرحون عند سماع قصيدة صديقي الشاعر الخليل ولد نحوي مسرح المجد وسمعتها وأنا لم أغنها منذ ثمان وثلاثين سنة وستجدون ما أروع الكلام واللحن بل والغناء أيضا، وليس أقل منها قصيدة لغز الحياة لكابر هاشم، وستسمعون أو سيستمع أغلبكم هذه الأغاني للمرة الأولى في الفيسبوك واليوتوب وأقول للقنوات

الفضائية: "أهديها لكم ولكم الحق في نقلها إلى أرشيفكم وإذاعتها متى شئتم." هكذا بدأت وهكذا سأنتهي (المادة آخر شيء أفكر فيه) إنها وسيلة وليست غاية، نعم ستفرحون عندما تستمعون إلى نشيد "إفريقيين وعرب الاتنين "كلمات محمدن ولد سيدي إبراهيم ومن ألحاني وغنائي بمشاركة كل من سدوم ولد أيدة والمرحومة المحجوبة بنت الميداح، وإلى أغانٍ نسيتها أنا كأغنية "ما خالك شي كط هبته" كلمات أحمدو مياح وألحاني وغنائي، وأغنية "يامس شفت حبيبي" كلمات الأمين ولد السجاد ومن ألحاني وغنائي، وقصيدة "فلسطين" شعر علي محمود طه وألحان محمد عبد الوهاب وغناء فريد حسن، إضافة إلى "فرحة العيد" مع العود فقط، و"أنتِ موريتانية وأنا من حلب" على العود فقط، سوف تعيشون لحظات حلوة مع هذه الأغاني بعد تحويلها إلى فيديوهات، وسيكون لنا حوارات حول كل عمل منها.

كما أن رحلتي حصدت أشياء كبيرة كان على رأسها مرسوم فخامة رئيس الجمهورية بمنحي وسام الاستحقاق من مرتبة فارس والذي أتشرف بحمله، وأشكر فخامة الرئيس الذي أشعرني أيضا بأن ما قدمته لهذا الشعب الطيب نال التقدير في أعلى مقام في الدولة وجاءِ اليوم الذي يترجم التقدير إلى هذا الوسام.

وسوف تجدون في الحلقات القادمة كثيرا من المكاسب التي رافقت رحلتي الميمونة إلى بلد المليون شاعر بلد الأصالة والقيم بلد الشهامة والكرم مع أطيب تحياتي وكل عام وأنتم بخير !

××××

-54 -

رحلة موريتانيا نهاية عام 2016 م من 24 تشرين الثاني/ نوفمبر، 23 كانون الأول /ديسمبر:

بعيد قدومي من سورية في حزيران/ يونيو 2015 م إلى بروكسل كان لدي متسع من الوقت، إن لم أقل فائض منه لأتابع هوايتي المستجدة ألا وهي الكتابة، ولم أشأ أن أكتب فيما دأبت على ممارسته -الكتابة في التربية وعلم النفس- لأن الكتابة بالعربية هنا في بروكسل لن تكون مجدية، بل قد تكون مفيدة، لكني لا أعرف دهاليزها. أما النوع الآخر الكتابة للصحف: أيضا لم يشدني هنا في أوربا، وقد تكون الأقدار هي التي دفعتني إلى الكتابة في الفيسبوك، فقد كتبت من قبل كتابا من ستمائة صفحة عندما كنت في سورية بعنوان (حياتي) وقد كتبت فيه عن ستة عقود من حياتي، بدأتها بقصة حياتي متسلسلة زمنيا، ثم انتقلت إلى نوع آخر في مرحلة أخرى، وهو أسلوب الومضات، وقد اضطررت إليه كي لا أبذل كثيرا من الجهد والوقت لأكون صادقا مع ذاتي (هل هذا الخبر هو السابق أم ذاك وهو أمر في غاية الصعوبة وخاصة أني أكتب أحداثا لم أوثقها في حينها بل أكتبها بعد عشرات السنين من حدوثها) وأقصد بالومضات قصة أو حادثة وقعت معي في مكان ما في زمن ما وأحاول أن تكون الومضات متقاربة في الزمن، وقد ضمّنت الكتاب فترة وجودي في موريتانيا، لكني كتبتها بأسلوب يختلف عن أسلوبي في كتابة الحلقات التي عرفتموها.

ولم يكن الكتاب مثل كتبي العشرة الأخرى معدا للنشر بل طبعت نسخة واحدة على الورق وطبعت نسخا أخرى على الأقراص المدمجة تركتها لتقدم لكل ولد نسخة بعد رحيلي، ويبقى الكتاب الورقي في مكتبتي، ولم أتابع في كتابة العقد السابع بسبب ماحدث في سورية من مآسٍ.

كنت في سورية دائما أفكر أن أكتب كتابا خاصا عن ذكرياتي في موريتانيا، لأن فترة موريتانيا كانت بالنسبة لي الأكثر عطاء في الفن، ولأن عمري في تلك الفترة

وجسمي كانا أكثرشبابا وقوة فترة وجودي في موريتانيا، لذلك قررت عند قدومي إلى بروكسل أنه قد آن الأوان لفعل ذلك، أي لكتابة هذا الكتاب، وقد استبدلت تسمية الومضات التي استخدمتها في كتابي (حياتي) بتسمية جديدة هي الحلقات، وما كان مني إلا أن أعود إلى الفيسبوك الذي كنت أدخله نادرا في سورية قبل الأحداث، أما خلالها فلم تكن الكهرباء ولا النت متوفرين في المكان الذي اخترته سكنا خارج مدينة حلب، وقد خصصت بالواقع تلك الفترة للتعبد والتأمل والعودة إلى الطبيعة والبساطة من أجل نسيان وتجاهل ما كان يحدث وأنا هو من يعرف وبدقة متناهية أبعاده الإنسانية والفكرية والسياسية والاقتصادية بعيدا عن كل ما حملته تلك الفترة من أغلفة ملونة حسب رساميها، ومن إعلام يستطيع أن يؤثر في كثير من الناس، أما أنا كمتابع لأحداث العالم منذ أواخر خمسينيات القرن الماضي في الوطن العربي وإفريقيا وشرقي آسيا وجنوبها الشرقي ووسطها وفي أوربا شرقيها وغربيها وفي أمريكا اللاتينية والقارة الأميركية كلها، أعرف تتابع سير الأحداث بعيد الحربين العالميتين، وتتابع الأحلاف الاستعمارية أو المناهضة لها، فيكون الكذب عليّ في غاية الصعوبة.

عفوا لخروجي عن الموضوع لكنني أريد للقارئ أن يعيش أحاسيسي الآنية ويكون معي داخل أفكاري.

إذا لقد أردت أن أكتب مرحلة موريتانيا من حياتي بطريقة الحلقات، وكان ذلك عن طريق الفيسبوك.

في البدايات واجهت صعوبة هي أن الكثيرين من عشاق فني إما توفوا يرحمهم الله، أو أنهم كبروا عن الاستماع، أو أنهم اعتقدوا أن الكاتب باسم فريد حسن قد لا يكون هو فريد الذي يعرفون، فالبعض اعتقد أو سمع أنه توفي، وقد حاورني الكثيرون يومها وأرادوا مني أن أثبت لهم أنني حقا فريد حسن الذي عرفوه في موريتانيا.

كما أن الكثيرين جدا ممن يماثلونني سنا لا يستخدمون النت أو الفيسبوك وأذكر أن عدة أصدقاء على الفيس أسهموا معي وبذلوا مجهودات مشكورة ليؤكدوا للقراء أن

مخــاطبهم هــو فريــد حســن نفســه الــذي كــان معهــم في أواخــر الســبعينيات وأوائــل الثمانينيــات مــن القــرن الماضــي، وبــدأ عــدد الأصــدقاء يتزايــد يومــا بعــد آخــر ومــع كــل حلقــة جديــدة يهجــم العشــرات علــى الصــفحة طــالبين صــداقتي مــنهم أصــدقاء قــدامى مــن الواقــع الحقيقــي ومــنهم وهــم الأكثريــة أصــدقاء في الواقــع الافتراضــي، كثــيرون مــن أصــدقائي الحقيقيــين الــواقعيين كأحمــدو ولــد عبــد القــادر أوكــابر هاشــم أو أحمــد ولــد بيــاه أو أحمــدو ميــاح وعشــرات غــيرهم لم أتواصــل معهــم رغــم أني بحثــت عــنهم وســألت مــن يعــرف عــنهم وذلــك بســبب عــدم اســتخدامهم الفــيس أو النــت ولم أعــرف شــيئا أكيــدا عــنهم إلا خــلال وصــولي إلى نواكشــوط وســوف أحــدد بدقــة كيــف كــان لقــائي بكــل مــنهم في حلقــتي اللاحقــة، بينمــا تمكنــت مــن التواصــل منــذ البــدايات مــع بعــض أصــدقائي مثــل الحســن ولــد مــولاي علــي، ومختــار لســان الــدين، ومحمــد ســالم ولــداه، وقــد كانــت تعليقــات أصــدقائي الــواقعيين الحقيقيــين وأصــدقاء الواقــع الافتراضــي وحــواراتهم معــي بــل التواصــل علــى الواتســاب ســببا لتجديــد صــداقات قديمــة ونشــوء صــداقات فعلية جديدة.

وقــد كــان لصــديقي القــديم محمــد ســالم ولــد داه دور لا يمكنــني نســيانه في تعريــف ســعادة الســفير الموريتــاني في بروكســل بأنــني في بروكســل والــذي قــام بــدعوتي مــرارا إلى الســفارة الموريتانيــة في بروكســل بــل دعــوتي إلى منزلــه لمقيــل موريتــاني أصــيل، كمــا اســتمرت الاتصــآلات بيننــا ولحنــت لصــديقي محمــد ســالم أغنيتــين واحــدة في العــام الماضــي عــن المولــد (بشــرى لنــا في الموعــد شــهر النــبي محمــد)وقــد لحنتهــا ويــدي اليمــنى مكســورة وفيهــا الجــبص، مضــاف إليهــا أني كنــت خارجــا مــن أول عمليــة لشــبكتين في شــرايين القلــب، كمــا لحنــت مــن شــعره أغنيــة ثانيــة قبيــل قــدومي إلى نواكشــوط بعنــوان قصــيدة الشــوق (لقــد طــال عهــدي بكــم مــن ســنين وطــال البعــاد وطــال الحنــين) وهــي مــن الأغــاني الــتي ســجلتها في الفيســبوك بتــاريخ 20 تشــرين الثــاني/ نــوفمبر أي قبيــل ســفري إلى نواكشــوط بأربعــة أيام، وقــد وعــدني في بــدايات تواصــلنا وتجديــد مــا كــان بيننــا مــن صــداقة تعــود إلى عــام 1990م عنــدما جئــت إلى نواكشــوط في زيارة دامــت ثلاثــة

أشـــهر حينهـــا، وعـــدني قبـــل نيـــف وســـنة بأنـــه ســـيحاول جاهـــدا أن يـــؤمن لي دعـــوة لـــزيارة موريتانيـــا، وقـــد كـــان عنـــد وعـــده عنـــدما قـــام وبالتعـــاون مـــع مجموعـــة مـــن الشـــباب الموريتـــانيين في المغـــترب مـــن إرســـال بطاقـــة الطـــائرة، وقبلهـــا بقليـــل كنـــت قـــد تواصـــلت مـــع صـــديقي أحمـــد العبيـــد الشـــاعر الغنـــائي الـــذي لم يكـــن يســـتخدم الفيســـبوك، تواصـــلت معـــه قبـــل قـــدومي إلى موريتانيـــا بشـــهرين، وقـــد اتصـــل بـــه أخـــي محمـــد ســـالم وعـــرض أحمـــد العبيـــد أنـــه ســـيقدم لي الإقامـــة في فندقـــه المســـمى فنـــدق (الراحـــه) وهكـــذا تـــوفر النقـــل ذهـــابا وإيابا وتـــوفرت الإقامـــة بـــل زاد عليهـــا صـــديقي أحمـــد العبيـــد المواصـــلات فقـــد أبـــدى اســـتعداده لتـــأمين انتقـــالي طـــوال فـــترة وجـــودي في نواكشـــوط وهكـــذا صـــار كـــل شـــيء جـــاهزا كـــي أعـــود لرؤيـــة أهلـــي وجمهـــوري الغـــالي في موريتانيـــا مـــن جديـــد بعـــد أن غبـــت عـــنهم ربـــع قـــرن وإلى حلقـــة قادمـــة بإذن الله نتـــابع فيهـــا النـــزول في مطـــار أم التونســـي في نواكشوط وإلى ذلكم الحين أستودعكم الله.

××××

كنت بانتظار الدعوة التي ستصلني من المركز العربي الإفريقي، مرفقة ببطاقة الطائرة التي تكلف بها بعض الإخوة الموريتانيين في المغترب، وفعلا وصلتني الدعوة مع البطاقة في أواخر العشرة الثانية من شهر تشرين الثاني، نوفمبر، من عام 2016 م، وقد قيل لي أنني لا أحتاج إلى فيزا من السفارة الموريتانية في بروكسل، رغم ذلك فقد اتصلت وسألت لأتأكد من الموضوع، فقد سألت صديقي الملحق العسكري في السفارة وقال لي إنه لا حاجة للفيزا للسوريين فهي تعطى في مطار نواكشوط، لكنه أضاف ولا مانع من أخذ ورقة من السفارة الموريتانية تؤكد هذا الكلام وقد أخبرني في نفس المحادثة الهاتفية أنه قد أحيل إلى المعاش منذ أيام قليلة وصار الآن في نواكشوط مدنيا ونفس كلامه عن الفيزا قاله لي صديقي محمد سالم ولد داه حيث قال إن الفيزا تعطى في مطار أم التونسي في نواكشوط، ورغم ذلك قلت في نفسي: "أذهب إلى السفارة وأتأكد من الموضوع." فأخذت عنوان السفارة للذهاب بوسائط النقل العامة، حيث أني في مرات سابقة كنت أذهب مدعوا إلى السفارة حيث تأتيني سيارة السفارة لتنقلني من بيتي إلى السفارة أو بيت سعادة السفير، وذهبت ونزلت في مكان قريب من السفارة الموريتانية كما ذكر لي، لكنني تهت عن المكان رغم أنني سألت الكثيرين من العابرين للشارع وبقيت في البحث والتنقل من وسيلة نقل إلى أخرى أكثر من ساعتين عدا عن السير مشيا على الأقدام، ولم أصل إلى نتيجة إيجابية في الموضوع، وبعد أن تعبت دون جدوى بدأت أسأل عن خط الرجعة كي أعود إلى البيت، وبما أن لغتي الفرنسية ما زالت غير كافية للتحدث بطلاقة، كنت أنتظر قدوم شخص أعرف من مظهره أنه عربي لأساله كما فعلت عندما كنت أسأل عن مكان السفارة، فعلا وجدت امرأة صومالية أرشدتني إلى الباص الذي ينقلني إلى وسط المدينة حيث يكون تنقلي هناك طبيعيا وببساطة، ويومها بالذات لم أكن أحمل معي هاتفي النقال، لأني نسيته في البيت لسوء الصدفة، كما أني لم أحضر خريطة اعتدت أن أحملها عند الذهاب إلى أماكن جديدة، كنت أعتقد أن الاستدلال إلى

مكان السفارة سهل بعد زيارتي المتكررة لها (لكن بسيارة السفارة)، عدت إلى البيت وقلت في نفسي طالما أن الملحق العسكري وصديقي محمد سالم تطابق كلامهما بأنه لا حاجة للسوريين إلى فيزا في موريتانيا أتوكل على الله، ولن يحصل إلا كل خير. كان هذا في اليوم السابق للسفر، وفي يوم السفر في 24 من تشرين الثاني/ نوفمبر حيث كان موعد إقلاع الطائرة من مطار بروكسل هو الواحدة ظهرا، ومن المفروض أن نكون في المطار قبل ساعتين فقد ذهبنا قبل أربع ساعات حيث كان برفقتي ولداي (فارس) وهو ولدي الأكبر والذي يحمل الجنسية البلجيكية ويعيش في بلجيكا منذ ربع قرن تقريبا، وولدي (وفا) والمقيم حاليا في ألمانيا والقادم منها، ليودعني مع أخيه، ويساعداني في إجراءات السفر، وكنت أتوقع أن المسافة بين بيتي والمطار في السيارة الصغيرة لن تكون أكثر من نصف ساعة، لكنها أخذت من الوقت قرابة الساعتين، كون الطريق يومها كان مزدحما جدا بالسيارات القادمة إلى العاصمة من الأرياف في الصباح لنقل الموظفين وأصحاب الأعمال والطلاب المقيمين خارج العاصمة بينما يأتون كل صباح يوميا إلى أعمالهم في العاصمة.

وصلنا إلى المطار، فركن ولدي فارس سيارته في مرآب المطار وذهب لإحضار عربة نضع عليها حقائبي وعودي، ثم انطلقنا إلى قاعة المسافرين لإتمام إجراءات السفر وعند وصول دوري لوزن حقيبتين يسمح لي بهما، وثالثة أحملها على كتفي وعودي الذي أحمله بيدي كي أحافظ عليه من العطب، وقبل الوزن طلبت الموظفة أوراقي فقدمت لها جواز سفري البلجيكي وبطاقتي البلجيكية فقالت: "أين الفيزا على الجواز؟" فقال لها ولدي: "أليس من المفروض لحامل الجواز البلجيكي أنه يضع الفيزا في المطار الذي ينزل فيه؟" أجابته: "نعم فيما لو كان الجواز لمواطن بلجيكي وليس لمقيم مثل والدك."

هنا كان الموقف صعبا للغاية وأصبحنا في حيرة تائهين لا نعرف ماذا نفعل؟ وكان الوقت يطاردنا فنحن لدينا ساعتان فقط لموعد إقلاع الطائرة وولدي فارس لا يعرف الطريق إلى السفارة الموريتانية، ولا نعرف الوقت الذي ستستغرقه السيارة ذهابا وإيابا

إليهـــا، كمـــا أننـــا لا نعـــرف الوضـــع في الســـفارة وهـــل كـــل شـــيء ســـيكون فيهـــا علـــى مـــا يـــرام. اســـودت الـــدنيا أمـــام عيـــني وقلـــت في نفســـي:" أنتظـــر ربـــع قـــرن، وعنـــد اكتمـــال كـــل شيء أرجع إلى نقطة الصفر."

كـــان رأي ولـــدي فـــارس أن نعـــود إلى البيـــت ثم نحـــاول أخـــذ الفيـــزا ونحـــدد يومـــا آخـــر للســـفر ولم أكـــن أعـــرف قـــوانين الطـــيران الجديـــدة، لأن القـــوانين القديمـــة عنـــدما كنـــت أســـافر باســـتمرار بالطـــائرات، كانـــت تســـمح بإلغـــاء الســـفر وتأجيلـــه لوقـــت آخـــر دون أن ينـــتقص مـــن قيمـــة البطاقـــة أي مبلـــغ، أمـــا الآن فهـــل يجـــوز ذلـــك أم أن بطاقـــة الـــذهاب تكـــون قـــد فقـــدت قيمتهـــا بســـبب تراجعـــي عـــن الســـفر الـــذي أرغمـــت عليـــه؟ لقـــد خطـــر علـــى بالي خـــاطر: لمـــاذا لا أتصـــل بالســـفارة وأســـألهم علهـــم يقترحـــون علـــي حـــلا وســـطا، واتصـــلت فعـــلا بصـــديقي (يوســـف) الموظـــف في الســـفارة الموريتانيـــة، فقـــال إن الســـوريين لا حاجـــة لهـــم للفيـــزا إلى موريتانيـــا، وقـــال لي : "إذهـــب إلى الموظفـــة الـــتي حصـــلت معهـــا المشـــكله ودعـــني أكلمهـــا لنـــرى ماذاســـتقول." وفعـــلا عـــدنا إليهـــا بعـــد أن كـــدنا نصـــل أنا وولـــداي إلى مـــرآب المطـــار مـــع العربـــة الـــتي تحمـــل متاعنـــا الـــذي اتجهنـــا إليـــه لننتقـــل إلى الســـفارة أو لنعـــود إلى البيـــت حســـب الحاجـــة وحســـب القـــرار الـــذي سنصـــل إليـــه، كانـــت الموظفـــة قـــد انتهـــت مـــن جميـــع زبائنهـــا المســـافرين، حيـــث تفرغـــت لنـــا وهـــذه نقطـــة ايجابيـــة لصـــالحنا حيـــث صـــار بإمكان ولـــدي أن يقـــترب مـــن المكـــان وهـــو لـــيس مـــن المســـافرين ليتحـــدث معهـــا كمـــترجم بيـــني وبينهـــا، ناولتهـــا الهـــاتف لتتحـــدث مـــع صـــديقي يوســـف والـــذي كـــان مـــا زال علـــى الهـــاتف مـــن الســـفارة الموريتانيـــة في بروكســـل، فطلبـــت الموظفـــة منـــه بعـــد سمـــاع مـــا قالـــه لهـــا بأن الســـوريين لا يحتـــاجون إلى فيـــزا للـــدخول إلى موريتانيـــا، أن يتحـــدث مـــع مســـؤولي دائرتهـــا في مكتـــب يبعـــد عشـــرات الأمتـــار عـــن المكـــان الـــذي كنـــا فيـــه، حيـــث ذهبنـــا جميعـــا ومعنـــا الموظفـــة إلى هنـــاك وتم الاتفـــاق أنـــه لـــو كـــان المســـافر يحمـــل جـــواز ســـفر ســـوري، نعـــم يســـمح للمســـافر أن يغـــادر دون وجـــود تأشـــيرة موريتانيـــه بعـــد أن سمعـــوا مـــن الموظـــف شـــرحا مفصـــلا للقـــوانين الموريتانيـــة في الســـفارة بهـــذا الخصـــوص، ولحســـن الحـــظ كـــان جـــواز ســـفري الســـوري موجـــودا معـــي في إحـــدى الحقائـــب الـــتي كانـــت

في العربة مع ولدي وفا الذي بقي مع العربة والحقائب في مكان وزن الحقائب، فناديته مؤشرا له من بعيد أن يأتي إلينا، ناديته كي نخرج جواز السفر من الحقيبة فجاء، وكان الاتفاق بعد أخذ ورد من عدة مسؤولين في أمن المطار وبعد عدة اتصالات مع موظف السفارة الذي أقدم له الآن كل الشكر على موقفه الشهم حيث بقي يتحدث إليهم طوال الوقت إلى أن توصلوا إلى الحل الوسط وهو : أن أغادر بجوازي السوري إلى موريتانيا وأخرج به كذلك من موريتانيا، ثم أدخل بجوازي البلجيكي مع بطاقتي الشخصية البلجيكية إلى بلجيكا، وفعلا عادت معنا الموظفة بعد حسم النقاشات مع مسؤولي دائرتها على ذلك الرأي، عادت معنا إلى مكان الوزن ووزنت لنا الحقائب ووضعت عليها بطاقات نواكشوط مباشر، وأعطتني الجزء الآخر من بطاقات الشحن التابع للبطاقات التي وضعت على حقيبتي السفر المشحونتين إلى نواكشوط.

وهكذا انتهت مشكلتنا في مطار بروكسل فودعت ولديَّ، وتوجهت إلى إكمال الإجراءات الأخرى من تفتيش للمتاع المحمول باليدين، ثم الحصول على بطاقتين واحدة لركوب طائرة مطار بروكسل المتجهة إلى مطار قرطاج في تونس، وأخرى لركوب طائرة مطار قرطاج الدولي في تونس إلى نواكشوط في موريتانيا !

أقلعت الطائرة في الوقت المحدد تماما وحمدت الله على السلامة والانتهاء من تلك الأزمة التي حصلت والتي كادت أن تخلق لي مشكلة لم أكن أعرف كيفية الخروج منها.

مر بعض الوقت إذ بالمضيفة تحضر طعام الغذاء وما هي إلا ساعة بعد ذلك وقائد الطائرة يعلن الاستعداد للهبوط لأننا في أجواء تونس.

وإلى الحلقة القادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذن الله لنكمل رحلة الشوق بعد غياب ربع قرن.

××××

-56-

نحـــن الآن في الطـــائرة التونســـية مـــن بروكســـل إلى مطـــار قرطـــاج وســـتهبط الطـــائرة بعـــد قليـــل، لأتابـــع رحلـــتي إلى نواكشـــوط، حيـــث ينتظـــرني جمهـــوري الغـــالي الـــذي مـــا لبثـــت أعـــده بهـــذا اليـــوم، وأكـــدت لـــه الأمـــر منـــذ أيام عنـــدما صـــارت بطاقـــة الطـــائرة وورقـــة الـــدعوة في حـــوزتي، نزلنـــا مـــن الطـــائرة وتوجهنـــا إلى قاعـــة المســـافرين، وكـــان هنـــاك عـــدة منافـــذ تســـتقبل المســـافرين للإســـراع في عمليـــة تـــدقيق الأوراق والمســـتندات، وعنـــد وصـــولي إلى الموظفـــة المســـؤولة قالـــت لي بعـــد تـــدقيق أوراقـــي : "أنـــت عليـــك أن تـــذهب إلى ذاك الجنـــاح مشـــيرة إلى بوابـــة الترانزيـــت أو العبـــور." فاتجهـــت إلى هنـــاك، ودخلـــت لأضـــع حقيبـــتي وعـــودي علـــى منفـــذ التفتـــيش، لأفاجـــأ بالمســـؤولة هنـــا أيضـــا تقـــول لي: "راجـــع المكتـــب هنـــاك." الوقـــت المتبقـــي لوصـــول الطـــائرة ســـاعتان، لا بـــد مـــن الاصـــطفاف علـــى الـــدور لأن هنـــاك أشخاصـــا عديـــدين قـــد ســـبقوني إلى المكـــان، لا بأس فهـــم لا يتـــأخرون عنـــد الموظفـــة الـــتي ترســـلهم إلى كـــوة التفتـــيش بعـــد أن تعطـــيهم بطاقـــة ركـــوب جديـــدة للطـــائرة، ومـــاهي إلا عشـــرات الـــدقائق ويأتي دوري وأتـــنفس الصـــعداء لأني لـــن أبقـــى دون طـــائرة نواكشـــوط، ولا تكتمـــل الفرحـــة حـــتى أصـــدم بالصـــدمة الكـــبرى فقـــد حـــولتني الموظفـــة إلى موظـــف بيروقراطـــي آخـــر، ليكـــرر لي اســـطوانة مطـــار بروكســـل مـــرة أخـــرى : "أيـــن فيـــزا موريتانيـــا الـــتي تغـــادر إليهـــا ؟" قلـــت لـــه:" يا أخـــي أنا ســـوري وموريتانيـــا لـــيس بينهـــا وبـــين ســـورية فيـــزا !" قـــال لي : "هـــذا الكـــلام لـــيس فيـــه ورقـــة تثبتـــه عنـــدنا، فهـــل عندك أنت ما يثبته لنا ؟ "

كانـــت رائحـــة الســـجائر تمـــلأ المكـــان يزيـــد عليهـــا روائـــح عـــرق عشـــرات المســـافرين الـــذين خلعـــوا أحـــذيتهم ومـــنهم مـــن اســـتلقى علـــى المقاعـــد ليأخـــذ جرعـــة مـــن الراحـــة أو النـــوم، لم يكـــن الوضـــع طبيعيـــا هنـــاك والمشـــهد لا يـــدل أن الحضـــارة مـــرت مـــن هنـــا، كـــلام بصـــوت مرتفـــع، ضـــحكات مـــن هنـــا وهنـــاك، تلـــك الـــروائح، وذاك التـــدخين، ومـــزاح عـــدد مـــن الشـــباب وكـــأنهم في دار أهلهم،لأعـــرف فيمـــا بعـــد أننـــا في مكـــان هـــو أشـــبه بالســـجن مـــن

أن يكــون ترانزيــت، حيــث أن بعــض الحاضــرين في القاعــة بات لــه عــدة أيام هنــا ينتظــر أحــدا مــن بلــده الــذي غــادره أن يرســل لــه برقيــة أو فاكســا يحمــل فيــزا، كــان عليــه أن يحصــل عليهــا قبــل مغادرتــه المطــار الــذي ســبق مطــار قرطــاج هــذا، وقــد تعرفــت علــى ســوري شــرح لي كــل هــذه الأمــور عــن الأوضــاع في هــذه القاعــة المخصصــة للاعتقــال المؤقت كما بدا عليها.

القاعــة فيهــا مــاء، وفيهــا دورة ميــاه، ومــا عــدا ذلــك لا يوجــد شــيء، أعــود للموظــف الــذي لا أعــرف هــل كــان كــذلك قبــل أن يمــر عليــه الربيــع العــربي كمــا أراد أن يســميه البروفيســور بــرنارد ليفــي، أم أن الربيــع جعلــه جلفــا صــلبا كونــه شــم رائحــة زهــور هــذا الربيــع المميــز عــن كــل أشــكال الربيــع الــتي مــرت منــذ أن خلــق الله الخليقــة، لقــد قــال لي : "عليــك أن ترجــع مــع أول طــائرة عائــدة إلى بروكســل لأنــك لا تحمــل تأشــيرة دخــول مــن الســفارة الموريتانيــة." قلــت لــه: "يا أخــي إن علاقــتكم بســفري هــو أن تســمحوا لي بالمــرور وقــد مــررت عشــرات المــرات بمطــارات دوليــة دون أن يتــدخلوا بموضــوع التأشــيرة للمطــار الــذي أغــادر إليــه." قــال: "أتريــد أن تعلمنــا عملنــا؟" قلــت: "حاشــا لله فــأنتم أدرى بعملكم." قلت له : "هل عندكم ويفي كي أتحدث مع السفارة؟"

كــان في هــاتفي قليــل مــن الشــحن في البطاريــة، ولم يكــن لــدي نــت، قــال لي: "اِذْهــب إلى تلــك الزاويــه ففيهــا ويفــي عمــومي." اتصــلت بالســفارة الموريتانيــة فلــم يــرد علــي أحــد مــن العــاملين فيهــا، وقــد كــان الوقــت يقــارب الرابعــة عصــرا. اتصــلت بموريتانيــا بصــديقي محمــد ســالم ولــداه وبعــد عــدة محــاولات تمكنــت مــن شــرح مــوقفي في مطــار تــونس (قرطــاج الــدولي) وقلــت لــه إذا كانــت الفيــزا جــاهزة في المطــار فليرســل لي نســخة منهــا عــن طريــق اتصــالات يجريهــا مــع بعــض المعــارف، قــال لي محمــد ســالم أعطــني الهــاتف لأتكلــم مــع الموظــف وأشــرح لــه الأمــر، بالصــدفة كــان موظفنــا المحــترم يــتكلم مــع ســيدة جميلــة، فطلبــت منــه معتــذرا موضــحا أني تعبــت كثــيرا حــتى تمكنــت مــن التقــاط هــذه المكالمــة فليعــذرني ويــتكلم في الهــاتف، غضــب وقــال أنــه لــن يــتكلم حــتى لــو انتهــى مــن حديثــه الهــام جــدا مــع تلــك الســيدة الجميلــة، قــال لي محمــد ســالم: "لم لاتريــه كتــاب

الدعوة الرسمية الموجهة لك للحضور إلى موريتانيا؟" قلت له: "بحثت عنها لكنها لا تظهر لأن ملف الوسائط لم يعد موجودا." فبحث في هاتفه المحمول فوجدها فأرسل لي نسخة منها.

في هذه الفترة التي ضيعتها في البحث عن الويفي والتحدث العديد من المرات مع السفارة دون جدوى ومع صديقي محمد سالم كثيرا حتى وصلت إلى إيصال موقفي له، أقول في الفترة رأيت صاحبي الموظف يحضر مديرا ظهر لي أنه أعلى منه مرتبة وقد يكون مرجعيتهم ويتحدثان ثم يعودان ويشيران لي، مما يدل أن الحديث كان يدور حولي، فسألني: "ماذا حصل معك؟" قلت له: "لقد أرسلوا لي نسخة من الدعوه الموجهة من الدولة الموريتانية." وهي في الحقيقة ليست من الدولة بل من المركز العربي الإفريقي وكان واضحا بأن المدير قد أفهمه بالناحية القانونية من القضية، وقد قلت له: "إذا أعدمتموني فإني سأقاضيكم بسعر البطاقة التي كنتم سبب بطلاتها." فقال: "أرنا الموافقة." فنظر إليها من بعيد وأنا واثق لأنه لم يقرأ عشر ما فيها، بل رأى خاتما رسميا فيها فقال: "أرأيت الآن عملك صار قانونيا وصحيحا." وأومأ للموظفة التي أوراقي عندها بأن أكملي له الإجراءات وفعلا أعطتني بطاقة الصعود إلى الطائرة، وانتقلت للمرحلة التالية وهي تفتيش ما أحمل من حقيبة وعود الكترونيا للتأكد من الأمن والسلامة، وانتهينا من ذلك أيضا، وانتقلت إلى قاعة انتظار الطائرة المغادرة إلى نواكشوط وهناك التقيت ببعض الأصدقاء الذين أعرفهم في بروكسل وهم من سكان اكجوجت، ثم تزايد الركاب حتى امتلأت القاعة واتجهنا نحو الطائرة وكان الطقس ماطرا بين باص النقل إلى الطائرة وبين الطائرة، وتعرف إلي كثيرون من ركاب الطائرة وتحدثنا سويا عن رحلتي وكيف أن جمهوري ينتظر قدومي وهو سعيد جدا بذلك، وقد كان جاري في المقعد طبيبا من نواديبو، كما تعرفت على طبيب آخر في أحد مشافي نواكشوط موجودا مع عائلته وقد طلبوا هم وغيرهم من ركاب الطائرة مني أن يلتقطوا معي صورا تذكارية وقد حققت رغباتهم جميعا، والتف حولي مجموعة من محبي أغاني طالبين مني أن أسمعهم ولو مقطعا من أغنية، ولم

أرفض طلبهم وسجل الجميع المقطع بل وصوروه أيضا، بل نشره أحدهم على الفيس عكس ما وعدوني أن لا ينشروا شيئا من هذه الصور، وقد كانت المضيفات أيضا مسرورات فلم يعترضن على المخالفة التي يقوم بها البعض وهي الوقوف في الممرات والتجمع في مكان واحد، لكنني لم أطل المقطع حتى لا أسبب إحراجا لأحد، وجاء طعام العشاء والأشربة بعد العشاء، في هذه الأجواء الأخوية المفرحة وكعادة الموريتانيين التعارف السريع حيث يصبح الجميع أهلا وأصدقاء في بضع من الوقت الذي يمكن أن يكون أضعاف أضعافه غير كاف لغير الموريتانيين، في هذا الجو طبعا نسيت كل معاناتي في بروكسل في الصباح، وفي تونس عصرا وقلت (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) وما بعد الصبر إلا الفرج، طلب منا قائد الطائرة أن نشد الأحزمة لأننا نمر في منطقة تكثر فيها المطبات الهوائية، ثم تنتهي ليعلن بعدها القبطان أننا أصبحنا في سماء نواكشوط، لنتمتع بمنظر مطار أم التونسي الذي قرأت عنه الكثير بل باركت لأهلي في موريتانيا به فعلا، هو والطريق الواصل بينه وبين نواكشوط و البالغ عشرات الكيلومترات وهو اتوستراد (أي ذهابا وإيابا) منار من أوله إلى آخره بالطاقة الشمسية النظيفة والمجانية المفيدة.

نهبط من الطائرة ونتجه إلى قاعة إجراءات القادمين التي سأتحدث عنها في الحلقة القادمة، وإلى ذلكم الحين أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذن الله تعالى،

××××

هبطت الطائرة التي أقلتنا من تونس الخضراء إلى نواكشوط الغالية المحطة الأخيرة في تلك الرحلة التي لم أشهد رحلة أصعب منها في حياتي، إلا واحدة تلك التي جئتها من دمشق مع أسرتي عام 1978م عندما جئت وزوجتي وستة أطفال ومعي أوكي (حجز تام) إلى كازابلانكا فقط، والباقي من كازا بلانكا (الدار البيضاء) إلى لاس بالماس إلى نواديبو إلى نواكشوط لائحة انتظار فقط، أي ثلاث رحلات، على لائحة الانتظار (ويتنغ ليست) ولائحة الانتظار لشخص واحد تكون محلولة على الغالب فلا بد أن يتأخر واحد من المسافرين، بل أكثر من واحد عن أي رحلة، أماأنيتأخرثمانيه فذاك لا يحدث إلا نادرا، وقد تحدثت عن معاناتي في تلك الرحلة في قصاصة سابقة العام الماضي، أما رحلتي هذه وأنا لوحدي، وتحصل معي كل هذه الأمور! فعلا لو لم أكنأنا المعاني منها بذاتي لدخلني الشك من دقة هذا الكلام.

لم أكن أتوقع أني سألاقي في مطار نواكشوط أيضا نفس ما لاقيته في المطارين السابقين مطار بروكسل ومطار قرطاج الدولي، فقد سألوني أيضا في مطار نواكشوط أين الفيزا، فقد غيروا من طريقة تعاملهم مع السوريين، لأنهم لاقوا بعض المشاكل من بعض السوريين أو من يدخلون باسم السوريين، ورأيي الشخصي في الموضوع أن الخطأ في كل ما يحدث هو عدم التنسيق بين وزارة الداخلية والخارجية في موريتانيا نفسها، كما وبين الخارجية الموريتانية وسفاراتها، وأيضا بين الخارجية الموريتانية والمطارات حيث لا ترسل لهم قراراتها مكتوبة قي رسائل معنونة ذات أرقام صادرة ثم مستلمة كذلك بأرقام، كما هو حال كل أشكال التعامل الدولي حيث يكون الجميع في تصور واحد لكل القرارات والتصرفات، فأناسألت عن الفيزا قبل أن أسافر فقيل لي ليست موجودة بين سورية وموريتانيا إذا ماذا علي أنأفعل؟

إنني الآن في مطار نواكشوط حيث الأهل والأصدقاء والأحباب من جمهوري الغالي، وهنا كان صديقي محمد سالم رئيس المركز العربي الإفريقي الذي قام هو في الأصل بدعوتي إلى موريتانيا، والذي جاء لاستقبالي مع مجموعة من الأصدقاء والأهل من

نواكشــوط، وقــد تمكــن مــن الــدخول إلى قاعــة المســافرين حيــث تــدقيق الجــوازات واســتلام الحقائــب، وهنــا كــان الأمــر أكثــر ســهولة لأن هنــاك مــن تــتكلم معــه ويجيبــك دون تعــال وبيروقراطيــة ولعــب بالأعصــاب وتمســك بأدق القــوانين وأتفههــا، وكــان هنــاك أكثــر مــن موظــف مــن المــدافعين لــتلافي العقبــة، وكــان الجميــع مــع المســاعدة بعــد إجــراء بعــض الاتصــالات مــع الجهــات المســؤولة، وبعــد عنــاق وترحيــب الأخ محمــد ســالم، تم اســتلامه للموضــوع برمتــه، بينمــا تحولــت أنا إلى اســتلام الحقيبتــين مــن البســاط المتحــرك الــذي ترســل إليــه حقائــب المســافرين بعــد إنزالهــا مــن مخــزن الحمــولات في الطــائرة، طبعــا رغــم التــوتر الــذي عايشــته طــوال ســاعات النهــار في ثــلاث مطــارات دوليــة كانــت هنــاك بقيــة لأعصــاب تســاعدني علــى التخيــل والمقارنــة بــين المطــار القــديم عنــدما نزلــت فيــه أول مــرة عــام 1977 م والصــورة الــتي بقيــت راســخة عنــه، وبــين الصــورة هــذه لمطــار أم التونســي الــدولي مطــار نواكشــوط الــدولي، نعــم لقــد شــعرت بالفــرح إضــافة إلى فرحــة اللقــاء بعــد ربــع قــرن لأهلــي وأحبــابي وأصــدقائي في موريتانيــا شــعرت بفــرح لأن هنــاك تطــورا حضــاريا قــد حصــل، صــحيح أننــا تأخــرنا قلــيلا لكــني لم أكنأشــعر بالخــوف نفســه والقلــق نفســه الــذي شــعرته في المطــارين الســابقين فقــد أصــبحت بــين أهلــي وأصــدقائي وأحبــتي، انتهــت الإجــراءات وســلموني ورقــة إقامــة مؤقتــة عليهــا صــورتي الشخصــية، وخرجنــا مــن المطــار بعــد أخــذ بعــض الصــور التذكاريــة الــتي بقيــت مــع الأصــدقاء ذكــرى لهــذه المناســبة الغاليــة، كانــت هنــاك عــدة ســيارات وهــي الــتي بقيــت، والــتي تابــع أصــحابها الصــبر والانتظــار، لأن قســما مــن النــاس رجــع بســبب تأخــر الطــائرة ســاعة عــن الموعــد الــذي كتب على البطاقة والذي أخبرتهم به.

لم أكــن أعــرف أن المطــار بعيــد كــل هــذا البعــد عــن نواكشــوط فالمطــار القــديم كــان يبعــد عشــرات الأمتــار عــن الاكصــر الحــي القريــب مــن المطــار، بينمــا هــذا المطــار الجديــد يبعــد عشــرات الكيلــومترات! صــحيح أني أريــد الوصــول بأقصــى ســرعة لألتقــي بمــوطن أجمــل ذكــريات العمــر وأحــب النــاس إلي، أولئــك الــذين غــادرتهم منــذ ربــع قــرن، لكــن مــا أراه مــن طريــق جميــل منــار مــن الطــرفين طــول هــذه المســافة بالطاقــة الشمســية يعــبر عــن أشــياء

كثيرة فهو يدل أن هذا الشعب بدأ يغير نظرته إلى كثير من الأمور التي كانت تعيق تطوره السريع، فبعد أن خرج منه عشرات الآلاف ودرسوا في الخارج وعايشوا كل الحضارات في العالم صارت لديهم رغبة جامحة لأن يكونوا مثل تلك الشعوب التي تعلموا أو مارسوا أعمالا فيها، طريق يشعرك بالسعادة والأمان الذي لا تشعر به وأنت مغادر أو عائد من أي مطار آخر في العالم، فلقد انتقلت في حياتي من وإلى عشرات المطارات في العالم، أقول لم أجد مثل هذا الطريق آمنا لعدم وجود طرق تتقاطع معه ولعدم وجود حركة سير مزدحمة تكون مخيفة في بعض المطارات أو مخيفة جدا في بعضها الآخر، إنني أصف واقعا معيشا ليس إلا، فقد تكون تلك المطارات التي تشهد ازدحاما هائلا يكون أهلها يعيشون في رغد العيش من الغنى والتقدم، لكنهم يفتقرون إلى كثير من الأمور التي لها قيمتها في الحياة الإنسانية كالبساطة والهدوء والحياة الاجتماعية والتعاطف والتحابب إلخ

نعم ما هي إلا ساعة وكنا في فندق صديقي أحمد العبيد الذي حدثتكم عنه في عدة حلقات، وأحمد هو الذي غنيت من كلماته أغنية زين الشرك وزين كبله، وأغنية ترجيت، وأغنية عراد، وأغنية زينه وحياتك زينه، وأغنية متوحش موريتان التي لحنتها ولم أسجلها بعد والتي ستستمعون إليها في أسابيع قادمة إن شاء الله.

قلت: وصلنا إلى الفندق الذي خصص لي صديقي أحمد فيه أجمل غرفة هادئة بعيده عن الصخب أو الحركة ووضع فيها كل متطلبات الراحة من مكيف وتلفزيون بل وضع صينية كبيرة من الفواكه، كما وبخر الغرفة بأجمل أنواع البخور، وكان قد سألني عن أي طعام أحب إلي كي يصنعوه لي في الليلة الأولى عند وصولي، فقلت لقد اشتقت إلى كسكس البيضان (والشرح هنا : لغير الموريتانيين من العرب ففي المغرب العربي الجميع يعرفون الكسكس أما في مصر والمشرق فالغالبية لا تعرفه، وهو طعام يشبه البرغل الناعم لكنه مصنوع من دقيق معجون ثم مفتول كحبات ناعمة، والصناعي منه في المعامل لونه أبيض يشبه سميد المامونيه، أما الذي يصنع في البيوت فهو أسمر وهو مايسمى كسكس البيضان، والبيضان عبارة تطلق على الشعب

الموريتاني بشكل عام وبالأخص المنحدرين من أصول عربية قادمة مع الفتوحات الإسلامية من اليمن وبلاد الشام أو العراق) معذرة لخروجي عن الموضوع لأوضح طعاما لا يعرفه المشرقيون قاطبة فبعض مشاركيكم في قراءة حلقاتي هم من المشرق العربي ومن مصر.

لقد تعشينا وشربنا الشاي الأخضر الذي اشتقت إليه بالطريقة الموريتانية، رغم أني لم اتركه يوما واحدا منذ أربعين سنة بل كنت واحدا ممن كانوا سبب نشره في حلب حيث كان موجودا في دمشق بشكل محدود ولم يكن موجودا البتة في حلب قبل السبعينيات، حيث طلبت من بعض التجار أن يحضروه وخاصة أنها كانت بدايات لحضور الطلاب الموريتانين إلى حلب فقد كانوا قلة في البداية ثم أصبحوا في العشرات بعد ذلك، والذين كنت على اتصال مستمر بهم في كثير من المناسبات والأعياد والرحلات وحفلات التخرج وكان بيتي مفتوحا لاستقبال من يزورني منهم وكذلك مخزن بيع الألبسة الذي كنت أملك ومن بعده الروضة ثم المدرسة الخاصة التي أنشأت.

صحيح أني أصنع الشاي لكنني لم أكن يوما تياياً (صانع شاي أخضر خبير) والموريتانيون يسمون الشاي الأخضر (أتاي)، لكنني لم أنقطع عنه بل علمت أصدقائي وأقربائي في سورية شربه، كما كان لوسائل الإعلام دور كبير فهي التي نشرت عن فوائده حيث صار الكثيرون يقتنونه في بيوتهم للاستخدام اليومي أو في بعض المناسبات.

نعم شربنا الشاي الأخضر باثنتين من جيماته الثلاث (فالموريتانيون يقولون أتاي بجيماته الثلاث (جر، وجمر، وجماعة) وقلت أننا حققنا اثنتين فالجماعة كانت مجموعة طيبة من الأصدقاء، والجيم الثانية كانت الجر (وتعني البطء بين صنع الكؤوس) فهي ثلاثة كؤوس يجب أن يكون بينها زمن فأصل يملأ بأحاديث المتسامرين في مجلس أتاي هذا، لقد وجدت أن الجيم الثالثة طارت، ليس فقط في جلستنا تلك بل في أكثر الجلسات التي حضرتها بعد ذلك، فلا الجمر عاد

مستخدما بكثرة ولا الغاز الصغير كذلك عاد موضوعا على طاولة الشاي، وقد كانت تلك الجيم التي هي الجمر، طبيعيا من الفحم أو بديلا هو الغاز، كان لها كثير من المعنى والفوائد، فقد كانت تعطي السهرة شيئا من الدفء المادي في الشتاء والدفء المعنوي حيث تشترك حواس عدة في مشهد جلسة الشاي تلك عندما لم يكن التلفزيون موجودا بعد، إضافة إلى رؤية ومعايشة لصانع الشاي ومدى عنايته ونظافته وخبرته في صنع الشاي، هذه الجيم بدأت تخبو وأعتقد أنها ستزول وهكذا سيزول ذاك القول المأثور (أتاي بجيماته).

في مجلس أتاي ذاك تحدثت للحاضرين عن متاعب السفر لهذا اليوم الطويل وعن مشاعري تجاه كل ما صادفته في هذا اليوم المتميز في حياتي، وعن مشاعر الفرح وأنا أرى نواكشوط 2016م بعد غياب طال ربع قرن بجمالها الخارجي الذي سأبحث وأرى دونما بذل جهد عن كل التغيرات التي حصلت لنواكشوط في فترة غيابي الطويلة.

وإلى حلقة جديدة قادمة أستودعكم الله، على أمل اللقاء بكم الأسبوع القادم بإذنه تعالى وأنتم بألف خير.

××××

حكاية قصيدة سمراء للشاعر الكبير المرحوم فاضل أمين:

لقد لحنت القصيدة في أوائل عام 1988 م وسجلتها في ربيع ذلك العام وهي من الأغاني المظلومة التي تركتها يتيمة في إذاعة نواكشوط مع أخواتها العديدات دون أن أتمكن من توزيعها موسيقيا وعزفها مع فرقة موسيقية، كما فعلت لإحدى عشرة أغنية عزفتها فرقة موسيقية، وسجلت بأفضل استديوهات التسجيل ثم تم طبع ألف شريط ضمنها، ثم صورنا الأغاني تصوير فيديو، مالم أقم به لقصيدة سمراء ومثيلاتها مثل مسرح المجد للشاعر الكبير للخليل ولد نحوي، ولغز الحياة للشاعر الكبير كابر هاشم وأغاني عديدة كلماتها كيفان بالحسانية، وكي لا يساء الظن من قبل أحد، وبكل صراحة لم تكن في تلك الفترة ظروفي المادية تسمح بتوزيع وعزف فرقة وتسجيل ستوديو ضخم لكل أغاني، وفي الواقع كان ذلك يؤلمني ويحز في نفسي أن أميز بين لحن وآخر فالألحان بالنسبة للملحن كالأولاد كلهم في غلاوة واحدة، لكنني اخترت من الأغاني الأكثر حركة وإيقاعا والتي يمكن أن يحبها الجميع، وتركت تلك التي يهتم بها أصحاب الذوق الخاص المتابعين كثيرا للموسيقى العربية التي تتميز بهدوء أكثر، وفي النتيجة وقع الذي وقع، لكن لأسباب هي أكبر من إمكاناتي المادية، والفنانون في بلاد عندها الإمكانات الضخمة يقبضون ثمن اللحن مبالغ كبيرة وتسجل ألحانهم بواسطة فرق موسيقية ضخمة على نفقة الإذاعة بواسطة فرق خاصة بالإذاعة، أو على حساب المطرب الذي يبيع الأغنية أو الشريط لشركات فنية متخصصة بهذه الوساطة، لن أسهب كثيرا في هذا، لكنني أوضحت الحقيقة كي لا يلومني جمهوري الغالي، ويكفيني معاناتي في لومي أنا لنفسي، لكن العين بصيرة واليد قصيرة.

وأنا أعتبر جمهوري جزءا من كياني لذلك أشرح له كل شيء حتى يكون فهمنا للأمور واحدا ومشتركا.

وقد كان لجمهوري الغالي فضل لتحركي في مجال البحث عن أعمالي الفنية التي أبدعتها في موريتانيا.

وقد بدأت حكايتي مع الفيسبوك عندما قدمت إلى بلجيكا وفتحت حسابا جديدا، وبدأت التواصل مع جمهوري الذي بدأ قديمه وجديده يتزايد،ولم يكن في جعبتي عند خروجي من حلب إلا شريطا واحداً مسجلا لأغاني بالصوت فقط، فبدأت بتصوير تلك الأغاني بطريقة إضافة صور من موريتانيا أو لأشخاص أو مناظر، وكنت أنزلها واحدة تلو الأخرى على صفحات الفيسبوك، وقد شكل ذلك نوعا من العلاقة الوشيجة بيني وبين جمهوري، كما دعّم تلك العلاقة تلك الحلقات التي كانت تمثل لأهلي في موريتانيا سرداً محبباً لجزء من تاريخ بناء الدولة الموريتانية، حيث كانت الحلقة تشمل الكثير من الحوادث والأحداث التي صارت الآن جزءاً من تاريخ موريتانيا الحديث، ورغم أنني كنت قد تعبت وأنفقت على تصوير شريط فيديو يضم تلك الأغاني الإحدى عشرة ولأيام عديدة في عدة مناطق متباعدة في محافظة حلب، وفي مناطق متنوعة الجغرافيا والتضاريس والطبيعة، لكنني نسيت إخراج ذلك الشريط لما كنت أعانيه حينها من ظروف نفسية لا تتحملها الجبال، فقد خرج الأبناء على دفعات في البحر بالقوارب المطاطية والتي عشنا أسابيع نتابعهم ونتابع معاناتهم إلى أن يتمكنوا من ركوب القارب في تركيا، ثم الوصول إلى اليونان، ثم يتمكنوا من التحدث إلينا، ثم الانتقال من بلد لآخر عبر الجبال والغابات والأنهار، وكانت كل رحلة لواحد من الأبناء يمكن أن تكون قصة لفيلم سينمائي، ثم ليلقى القبض على الواحد منهم مع أسرته الصغيرة في النهاية، ويكون كلٌ في بلد، وليصبحوا أخيرا مشتتين، البعض منهم في ألمانيا، وغيرهم في بلجيكا، وآخر في السويد، وغيرهم في بريطانيا، وكنت أنا قد سبقتهم بالطائرة إلى بلجيكا.

وبعد الانتهاء من تلك المعاناة المؤلمة والاطمئنان على الجميع، كان هناك وقت فراغ ممل، وكان لا بد أن أملأ وقت فراغي الطويل هذا الذي لم أتعود عليه يوما، فقد دفعني ذلك إلى التسلي بالفيسبوك الذي وجدت فيه تنفيسا عن تلك الآلام التي هي

فوق ما يحمله البشر، وطن بنيناه لبنة لبنة يدمر، أهل وإخوة وأصدقاء يقتتلون فيقتل أحدهم الآخر، جوع، فقر، قتل، سرقات، ظلم، خطف، إذلال، فقدان لكل الضروريات ماء كهرباء وقود غذاء، غلاء لا يمكن وصفه، انقلاب في القيم والمفاهيم، تخل عن القيم ونسيانها إلخ.

أقول ومعذرة عن الشرود لكن دعوني أنقل لكم المشاعر التي أحس بها عندما أكتب دون تصنع أو زيادة، بل يمكن أن يكون هناك الكثير الذي لا أقوله، إذا لقد كانالفيسبوك متنفسي الأهم والأساسي، كي أنسى واقعي فأنا لا أدخن ولا أتعاطى أي منكر والحمد لله، وليس أمامي إلا الكومبيوتر، ولعل الكتابة تنسيني همومي وأحزاني، ففي كل يوم نبأ يتلوه نبأ أسوأ منه في اليوم الذي يليه، نعم كنت أشعر بسعادة بالغة عندما كنت أنسى واقعي المر في التواصل عبر الفيسبوك.

تمكنت من استحضار أغاني الشريط الذي تركته في حلب عن طريق الواتساب، ولم تكن الظروف سهلة حينها فالمعارك على أشدها والنت مقطوع في أكثر الأيام وإذا وجد فهو ضعيف جدا، حتى إن أكثر من أغنية جاءتني على دفعتين لضعف النت.

وبدأت أرسل إلى الفيسبوك في كل أسبوع أو أقل أحيانا، أغنية من أغاني الفيديو تلك، إضافة إلى حلقة من مذكراتي في موريتانيا، "رب ضارة نافعة" وكذلك "مصائب قوم عند قوم فوائد" ولأكون صادقا معكم ومع نفسي: فعلى الغالب أنني لم أكن لأفعل كل ما فعلته هذا لو كانت الأمور تسير كما في أيام الأمن والسلام في حلب، وصحيح أن القلب كان يتقطر دما على ما تعانيه بلادي، وفعلا هذا ما حصل لقلبي الذي أخفى على الجميع صبره وألمه، إلى أن قالت لي الطبيبة المشرفة على علاجي :"أن هناك شهرا واحدا فقط يمكن أن يعطى لك كمهلة قبل إجراء عملية فتح الصدر للقلب المفتوح حيث سدت أربع شرايين دون سابق إنذار أو معاناة."

لقــد تزايــد عــدد أصــدقائي علــى الفيســبوك باطــراد وقــد كــان لأصــدقائي بالــغ الأثــر في دفعــي للمزيــد مــن العطــاء، وقبــل العطــاء الجديــد لابــد مــن لمِّ الشــمل لمــا كنــت قــد لحنتــه وجمع ما كان موجودا منذ السبعينيات والثمانينيات.

وإلى حلقــة قادمــة في الأســبوع القــادم أســتودعكم الله علــى أمــل اللقــاء بكــم بإذنــه تعــالى لنكمل حكاية أغنية "سمراء".

××××

كنا في الحلقة السابقة نتحدث عن قصيدة "سمراء" وأخواتها المنسيات وكيف أني بدفع من جمهوري الحبيب وتشجيع منه بادرت إلى الإصرار على تجميع كل الأعمال مستخدما كل الوسائل والإمكانات:

فبشريط صغير وكومبيوتر محمول تمكنت من إحياء ماكان منقطعا بيني وبين جمهوري الحبيب في موريتانيا بعد غياب دام أكثر من ربع قرن، فقد حولت هذه الأغاني البسيطة إلى فيديوهات كانت تشد المئات بل الآلاف لمتابعتها ومتابعة الحلقات، ثم وصلتني الأغاني المصورة بالفيديو وبصعوبة بالغة عن طريق الواتساب واستمر التواصل بها أيضا ليتزايد عدد الأصدقاء وعدد من تصلهم هذه الأغاني من المواطنين العاديين ممن لديهم فيسبوك أو لا، ومن أصدقائي أو لا، وكان وضعي لهذه الأغاني على اليوتوب خطوة داعمة، كل هذا كان بلاتكال على الله ثم على نفسي وبمساعدة أحد أحفادي الذي له هواية بالكومبيوتر والذي كنت أوجهه إلى أسلوب العمل الفني، وأسميه أنا مدير أعمالي الفنية إنه حفيدي الجندي المجهول (حميد)، وفقه الله وحماه.

وبعد أن أنهيت الأغاني التي حملها الشريط الأوديو(الصوت) ثم الشريط الثاني الفيديو (الصورة مع الصوت) كان لا بد من استحضار باقيالأغاني التي كنت قد لحنتها في موريتانيا إضافة إلى ما يمكن تلحينه وغناؤه مجددا.

الأغاني كلها مسجلة عندي في حلب لكنها موزعة في عدة أماكن أحدها تأكدت من سرقة كل ما في البناء ويمكن أن تكون الأبواب والنوافذ أيضا ضمن المسروقات هذا إذا لم يكن الحجر قد تبع الممتلكات التي كانت بداخله حيث كان لي هناك عشرات الأشرطة لحفلات ومناسبات، إضافة إلى كمية متبقية من آلاف الأشرطة التي سجلتهم في شركة آسيا العالمية للإنتاج الفني (أوريجينال) لكن تبقى بعض الأشرطة الخاصة موجودة في مكانين آمنين آخرين لكن لا يمكن إحضارهم الآن، ثم تأكدت من سرقة كل ما في البيت في ذلك المكان.

واتصلت بكل الأصدقاء وأعلنت على صفحات الفيس طلب المساعدة ممن لديهم أغانيَّ؟ لكن كيف سيكون قد احتفظ أحدهم بأغان منذ أكثر من أربعين عاما؟

إلا صديق تمكن من تسجيل أغنيتين من الإذاعة، قبل قدوم المدير الجديد للإذاعة، هما أغنية "درسك يا غلانه" يشاركتني في الغناء المرحومة الأيقونه ديمي بنت آب، كما أرسل لي بعد فترة أغنية "بالي حالف يمين" يشاركني في الغناء الفنانة أبتي بنت شويخ، وأخبرني هذا الصديق أن الأغاني الأخرى قد أتلفت أو هي غير موجودة وقد تألمت كثيرا عندما سمعت الخبر بل كتبت نقدا للإذاعة لعدم الاهتمام بالتوثيق، لكنني بعد زيارتي لموريتانيا وجدت أن التوثيق موجود كما هو في كل دول العالم المتحضر والتي لا تقل عنها موريتانيا في شيء وبرغم الإمكانات المحدودة يقدم هذا الشعب خطوات على طريق التقدم الذي بدأه منذ عقود من الصفر.

وقد سألت أصدقائي على الفيسبوك ما إذا كان أحدهم لديه قصيدة سمراء التي أحفظ لحنها بشكل مقبول لأنني لم أغنها منذ خمس وثلاثين سنة لكنني لا أحفظ إلا عدة أبيات من كلماتها، وبعد اتصالات وكتابات عديدة أرسل لي صديقي الدكتور الشيخ معاذ سيدي عبدالله القصيدة مشكورا وقمت بغنائها وتسجيلها مضيفا إليها بعض الصور التي تناسب الأفكار التي تضمها القصيدة.

وكما هو معلوم القصيدة رمزية ظاهر كلماتها: أن شابا يخاطب حبيبته السمراء، وخاصة في أبياتها الأولى، لكن الحقيقة هي أنه يتغزل بلغته العربية لغة القرآن الكريم لغة محمد صلى الله عليه وسلم لغة أهل الجنة، وحاملة تاريخ هذه الأمة التي نشرت الحضارة وكانت منارة العالم في يوم من الأيام.

وقد سجلت القصيدة وبعثتها إلى صفحات الفيس وإلى اليوتوب، لكنني بعد أن زرت موريتانيا وحصلت كما ذكرت لكم سابقا على نيف وعشرين أغنية، كانت قصيدة سمراء إحداها طبعا، وقد وجدت أني قد لحنت تلك التي سجلتها لكم من أشهر سابقة لحنا بعضه مشابه للحن القديم وفيه البعض مغاير عنه، لذلك وجدت من المناسب إعادة تسجيلها والإبقاء على الشكلين القديم الحقيقي والجديد الذي

اضــطررت لــه، واتــرك لكــم الحكــم علــى اللحــن والصــوت والعــزف في كــل منهمــا، لكــن صــوتي في اللحــن الجديــد كــان متعبــا نوعــا مــا وصــوتي القــديم صــوت شــاب عمــره 33 عامــا بينمــا الصــوت الجديــد لكهــل عمــره 72 ســنه إضــافة لكــوني كنــت مريضــا في الآونــة الأخيرة خارجا من عملية قسطرة قلبية لعدة شرايين.

هــذه حكايــة قصــيدة سمــراء وأخواتهــا اللــواتي أرســل الله لهــم مــن ينقــذهم في اللحظــات الأخــيرة وإلا كــان النســيان ســيطويهم، ولســوف أعــرض علــيكم كــل أســبوع واحــدة مــن هذه الأعمال التي أحضرتها من إذاعة نواكشوط الحبيبة.

شــكرا لكــل مــن وقــف إلى جــانبي في إحيــاء هــذا الجــزء مــن الــتراث الفكــري والفــني بــدءا مــن فخامــة رئــيس الجمهوريــة الــذي جــاء قــراره في منحــي وســام الاســتحقاق بمرتبــة فــارس ليلــبي رغبــة شــعبه بكــل مكوناتــه، شــكرا لمــدير إذاعــة نواكشــوط وموظفيهــا وفنانيهــا، شــكرا لمــن كــان لهــم الفضــل في حضــوري إلى موريتانيــا : المركــز العــربي الإفريقــي وعلــى رأســه صــديقي محمــد ســالم ولــد داه، والأصــدقاء المغتربــون الــذين تكفلــوا بالنقــل مــن بروكســل إلى نواكشــوط والعــودة، شــكرا لصــديقي أحمــد العبيــد الــذي تكفــل بالإقامــة والتنقــل داخــل نواكشــوط، شــكرا لكــل الجهــات الــتي قــدمت في مجالهــا مــا تمكنــت أن تقدمــه، فوســائل الإعــلام لم تقصــر جميعهــا الخــاص منهــا والعــام، المرئــي منهــا والمســموع، هــذا الــتراث الــذيكان في مرحلــة بــدء وضــع الأســاس للدولــة الموريتانيــة، ولي الشــرف أني كنــت واحــدا مــن واضــعي أحجــار الأســاس في الجانــب الفــني والثقــافي ضــمن مــا تــوفر لي مــن عــزم وإمكانيــة، داعيــا الله أن يوفــق هــذا الشــعب الطيــب لمــا فيــه خــير الــبلاد وتطورهــا وعزتها.

××××

في الحلقة رقم 57 تحدثت عن استقبال أهلي وأصدقائي وجمهوري الغالي في نواكشوط لي في المطار، ووصولي إلى الفندق الذي سأقيم فيه طوال فترة وجودي في نواكشوط، كان ذلك في الساعات الأولى من صباح يوم 25 نوفمبر/ تشرين الثاني في فندق الراحة لصاحبه صديقي أحمد العبيد أطال الله في عمره والذي تربطني به صداقة منذ عام 1978م، ورغم تعبي الشديد جسميا ونفسيا سهرنا بعد تناول العشاء وشربنا الشاي الموريتاني الأخضر المنعنع (أتاي)، ولقد نسيت التعب وما عانيته من مشاكل في المطارات الثلاث بروكسل، وقرطاج، وأم التونسي (نواكشوط الدولي)، وأصر الأصدقاء على أن أرتاح فنذهب للنوم جميعا.

دخلت غرفتي : ولأول مرة منذ قرابة الربع قرن أضع رأسي على وسادة وأستلقي في سريري في ذاك البلد الذي طالما كان قلبي معلقا به منذ الأسابيع الأولى يوم وصولي إليه عام 1977م، وشتان بين ليلة وصولي الأولى عام 1977م وهذه الليلة عام 2016 م.

ففي عام 1977م أخذت فكرة قاتمة تكونت بدءا من المطار المتواضع يومها ومرورا بالمعلومات التي أعطيتها من قبل من سبقوني من الزملاء وكذلك زميلنا الملحق الثقافي، فقد تكونت لدي صورة محزنة لما يمكن أن ألاقيه فيه، يضاف إلى ذلك أني تركت حينها ثمانية أولاد في سورية مع أمهم، على بعد عدة الآلاف من الكيلومترات وصعوبة الاتصالات حينها، حيث كانت الرسالة أو الشريط المسجل يتأخران بين الأسبوع والعشرة أيام للوصول إلى هناك، ومثل تلك المدة وأزيد ليأتي الرد، والشريط أو الرسالة كانتا الوسيلة المتوفرة للتواصل حينئذ.

أما في ليلتي هذه عام 2016م وبعد أربعين ربيعا فالأمر مختلف فأنا مقدم على بلد صرت جزءا منه وصار جزءا مني، وجمهور عريض من محبي فني بانتظاري، وأنا متشوق للقائهم، وفي المنقلب الآخر حالة اليأس والحزن تملأ قلبي من خسارتي للكثير ماديا ومعنويا وإنسانيا، وخسارتي في مجال الوطن والأهل والأصدقاء في سوريا، لقد

كان قدرنا أن نعيش حالة الخدر النفسي في سورية والعراق واليمن وليبيا وغزة والضفة، هذا الخدر الذي ما زلت أكتب فيه عشرات الصفحات في كتابي الذي يحمل ذات العنوان، نعم : بالرغم من كبر المأساة وعظمها، فالكل في تلك البلدان يتابع حياته الإنسانية كما يجب أن تكون عليه، غير مدرك أنه يعيش حالة من الخدر تلك التي تجعله يبيع ويشتري ويأكل وينام بل ويتزوج ويتظاهر بالفرح والغناء والاحتفال بالمناسبات، ومن الناس من تخدر إلى حد نجده يستطيع فيه أن يمارس حياته الطبيعية كلها وكأن شيئا لم يكن، أما أنا فلم أستطع أن أكون من هؤلاء، وكم حاولت بل تمنيت أن أكون منهم، ولكن دون جدوى.

يقول الفيلسوف شوبنهاور (كلما ازداد الإنسان علما ازداد ألما) وأنا لا أدعي الزيادة في العلم، لكنني على الأقل لست كالخروف الذي يجر إلى المسلخ أو مكان ذبحه دون أن يدرك أن الموت ينتظره بعد قليل.

نعم لقد كانت المصيبة عظيمة لسورية عموما ولحلب خصوصا فما حصل من دمار وخراب وقتل وحرق وسرقة وخطف واغتصاب وظلم وجوع وحرمان ويتم وترمل وثكل إلخ، لم يحصل لا في هجمات المغول ولا التتار ولا الصليبيين ولا العثمانيين ولا الفرنسيين ولا الصهاينة، هذا لمن رأى الوقائع بأم عينه وأنا منهم، لقد استطاعت أيام ليست بالكثيرة بعد ليلة الرابع والعشرين من مارس / آذار (يوم وصولي في 23 آذار/ مارس إلى نواكشوط أول مرة عام 1977 م) أن تقلب الحزن إلى سعادة يوم انطلقت أشدو في إذاعة نواكشوط أجمل ألحاني وأغاني وكانت لي نواكشوط عكس ما صورها البعض في تلك الليلة الأولى أو ما رأيته أنا في تجوالي في اليوم الأول في نواكشوط، ولذلك جئت أبحث عن الترياق الذي وجدته عام 1977م عساه يكون فعالا لما أعانيه عام 2016م.

نعم أملت خيرا بأن يتمكن هذا الحب الكبير أن ينزع ذاك الألم واليأس والجزع من صدري.

كنت سعيدا جدا لوصولي بعد هذا الفراق الطويل لبلد أحببته وأحببت شعبه كما أحببت سورية وشعبها بل لم أشعر بفارق بينهما في يوم من الأيام، كنت أرغب في أعماقي أن لا أغادر نواكشوط في رحلتي الأخيرة، إلا وقد نسيت كل آلامي، كنت أحاول التظاهر بالخدر وبنسيان الواقع، لكن الواقع كان أقسى من أن ينسى، كان يقف أمامي ويمر أمام ناظري كشريط سينمائي يذكرني بمأساتي فتنهمر الدموع رغما عني، وحتما كلكم أوأكثركم تساءل لماذا لم أقم حفلة في العاصمة أو في غيرها، علما أنه وبعد تسع لقاءات تلفزيونيه وسبع لقاءات إذاعية كان الجمهور مهيئا جدا لحضور أمسياتي وليس أمسية واحدة، والحقيقة التي أردت أن تعرفوها كانت أنني لا أستطيع أن أمثل الفرح والبهجة وأناأرى بلدي وشعبي بل أقربائي وأصدقائي بل وأسرتي وما أصابهم، وبعد ذلك كله أغني لأدخل الفرح في النفوس وأنا أحمل قلبا نسي الفرح من سنوات ولم يعد فيه إلا الحزن والأسى، فقد خفت من عواقب ما يمكن أن يحصل لي وأنا على المسرح، لقد كان صعبا علي أن أمثل دور الطائر المذبوح الذي يرقص ألما.

نعم إن إقامة عدة حفلات كانت مفيدة لي من الناحية المادية والفنية وهي مطلب يبحث عنه أي إنسان أو فنان، وأحيطكم علما أن أصدقائي قد حجزوا لي (الستاد الرياضي) وتم تحديد اليوم الذي ستقام فيه الحفلة، وقد تم الحجز مجانا دون مقابل، وهل هناك كرم ومساعدة أكثر من هذا، لكني طلبت منهم وقبل أن أبدأ الإجراءات القانونية السابقة للحفل أن يلغوا الحجز، مدعيا لهم أن ظرفي الصحي لا يسمح، والحقيقة هي غير ذلك، لأن وضعي النفسي المنهار والذي يمكن أن يضر بوضعي الصحي الذي كنت غير متأكد من وصوله إلى بر الأمان، وجعلني ذلك أكتفي بلقاءات عابرة في التلفزيون والإذاعة ومناسبات عدة لقيت فيها جمهوري.

لقد سألني الكثيرون، وأعرف أن الجميع كان بوده أن يجد إجابة لتساؤل هو: "لقد وصلت إلى موريتانيا، وتحقق لك حلم لقائك بجمهورك دون أن تقف في حفلة طويلة كما كنت تفعل طيلة ست سنوات عندما كنت في موريتانيا في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات."

لقد كنت دائما صريحا وصادقا معكم ولا أريد أن تبقى هذه الحقيقة غائبة عنكم، ولن أتطرق لتفاصيل كثيرة جدا ومهمة، في معاناتي على المستوى الشخصي أو على مستوى الوطن، درءا للأقاويل والانتقادات وحفاظا على عينة من جمهوري أعرف أن لها موقفا آخر من الأزمة السورية وأنا لا أريد أن أتخلى عن جزء من جمهوري بسبب المواقف السياسية.

لكن الواقع لا يخفي نفسه و كثيرا بل أغلب ما يصلكم يصل مغلوطا أو معكوسا أو محرفا، وذلك ليس صلب حلقتي، بل صلبها أني عشت تسعا من السنين هي عمر الأزمة السورية أعايش مأساة من أشد المآسي الإنسانية إيلاما، وقد حاولت جاهدا أن أنسى وأن أنقص من حساسيتي المفرطة لكنني لم أستطع أن أتجاهل، وهذا ما كان سببا في عدم التقائكم في حفلات على مسارح نواكشوط أو باقي الولايات والمدن الموريتانية، على أمل أن تتحسن الأحوال في العام القادم في سورية وأدعو الله أن تتحسن ليس فيها فقط بل في كل الأقطار العربية وأكون بينكم فنعوض مافات بإذن الله ومشيئته.

وإلى أمل اللقاء بكم في حلقة الأسبوع القادم إن شاء الله أستودعكم الله العزيز القدير.

××××

هـــو نهـــاري الأول في نواكشـــوط اســـتيقظت، اســـتحممت بعـــد يـــوم متعـــب في المطـــارات وبعـــد ليلـــة حـــارة ذكـــرتني بليـــالي نواكشـــوط قبـــل ربـــع قـــرن أو ليـــالي حلـــب الصـــيفية ولكليهمـــا مكانـــة خاصـــة، صـــليت الصـــبح رغـــم أني نمـــت متـــأخرا لكنـــني مـــع هـــواء نقـــي قـــادم مـــن الصـــحراء أو المحـــيط حســـب اتجـــاه الـــرياح يشـــعرك بالاكتفـــاء مـــن النـــوم بســـاعات ولـــو كانـــت قليلـــة، ولا تـــنسَ أني في غايـــة الشـــوق لأرى أصـــدقائي وأهلـــي بـــل حـــتى معـــالم نواكشـــوط الـــتي باتـــت في يـــوم مـــن الأيام جـــزءا مـــن ذكـــرياتي أو جـــزءا مـــني، خرجـــت مـــن غـــرفتي متجهـــا إلى الخيمـــة المنصـــوبة في ســـاحة الفنـــدق وكـــان صـــديقي أحمـــد العبيـــد أيضـــا في انتظـــاري وقـــد أعـــد فطـــورا لا أقـــول أنـــه موريتـــاني لأنأكثـــر الموريتـــانيين لم يعـــودوا يتنـــاولون فطـــورهم التقليـــدي، لكـــن وجـــود الشـــاي الأخضـــر يجعـــل الفطـــور كلـــه موريتانيـــا فهـــو العنصـــر الوحيـــد الـــذي مـــا يـــزال قائمـــا عنـــد الإفطـــار والغـــذاء والعشـــاء، تبادلـــت أطـــراف الحـــديث علـــى مائـــدة الإفطـــار مـــع أحمـــد وتحـــدثنا فيمـــا يجـــب أن نفعلـــه أولا بأول، وكـــان أول عمـــل نقـــوم بـــه أن آخـــذ خطـــاً موريتانيـــا للموبايـــل وأعلنـــه عـــبر الفيســـبوك لجمهـــوري وأصـــدقائي، كمـــا أعلنـــت لهـــم في الفيســـبوك أني وصـــلت بعـــون الله إلى نواكشـــوط الليلـــة الماضـــية بخـــير، كمـــا أني وصـــلت هـــاتفي وكومبيـــوتري المحمـــول علـــى ويفـــي الفنـــدق، واتصـــلت بأســـرتي وأولادي في أنحـــاء أوربا وفي ســـورية أعلمهـــم بوصـــولي بالســـلامة إلى أرض شنقيط.

وبـــدأت وفـــود الزائـــرين والمهنئـــين علـــى الســـلامة تتقـــاطر إلى الفنـــدق وكـــذلك الاتصـــالات بالهـــاتف أو علـــى صـــفحات الفيســـبوك، وبـــدأت وســـائل الإعـــلام تحجـــز مواعيـــد لـــلأيام المقبلـــه، وكانـــت أول تلـــك القنـــوات هـــي قنـــاة الجزيـــرة مباشـــر، وأصـــدقكم القـــول أني تـــرددت كثـــيراً قبـــل الموافقـــة علـــى تصـــوير مقابلـــة مـــع الجزيـــرة مباشـــر، ومـــع احترامـــي لكـــل مـــن لـــه رأي آخـــر، لكـــن الجزيـــرة وأخواتهـــا كانـــت محـــرك الفتنـــة الـــتي ذهـــب ضـــحيتها ملايـــين الشـــهداء في ســـورية والعـــراق والـــيمن وليبيـــا، عـــدا ملايـــين المشـــردين وعـــدا عـــن الخـــراب والدمار إلخ.

كنــت أميــل إلى الاعتــذار عــن الموافقــة علــى المقابلــةو، لكنــني وزنــت الأمــر منطقيــا فوجــدت أن فيــه فائــدة شخصــية لي دون أن يكــون فيــه أي ضــرر علــى قضــية بلــدي أو على مبادئي الوطنية أو القومية.

تعــودت أن أضــعكم في صــورة كــل صــغيرة وكبــيرة حــتى مــن مشــاعري الداخليــة حــتى تصــبحوا جــزءا مــني يعــرف كنــه أي تصــرف أقــوم بــه ودوافعــه الحقيقيــة، واتفقــت مــع منــدوب الجزيــرة مباشــر أن يكــون اللقــاء مســاء يــوم 26 \11\2016م، وأن يكــون مكــان اللقــاء هــو قاعــة اســتقبال فنــدق الراحــة حيــث كنــت أقــيم، واتفقــت مــع الأخ المــذيع أن لا نتطــرق إلى أي موضــوع يقــترب مــن السياســة حفاظــا علــى مشــاعري ومشاعر المشاهدين على اختلاف مشاربهم.

وفي المســاء وفي الموعــد المحــدد حضــر منــدوب الجزيــرة مباشــر مــع المصــور وكــان اللقــاء الــذي دام أكثــر مــن نصــف الســاعة قــدمت فيــه أكثــر مــن أغنيــة وتحــدثت فيــه عــن تجــربتي الفنيــة وعــن مســيرتي الفنيــة والثقافيــة، وعــن اقتــدائي بالفــارابي فنــانا متميــزا في عصــره وفيلســوفا، بــذلت قصــارى جهــدي لأتمثلــه حيــث لحنــت العشــرات مــن الأغــاني حــازت العديــد منهــا علــى الفــوز كأجمــل لحــن في إذاعــة حلــب في الســتينيات وأوائــل الســبعينيات، ثم جــاء دور إذاعــة نواكشــوط لتكــون "كرســك يا غلانــه" أغنيــة خالــدة وكــذلك "زيــن الشــرك"، وكــذلك "كتائــب موريتــان" الــتي أختــير لحنهــا مقدمــة لنشــرة الأخبــار عــدة ســنوات واختــير لحنهــا ولحــن "إفــريقين وعــرب الاتنــين "كمقطوعــات أو مارشــات عســكرية تعــزف مــن قبــل الفرقــة العســكرية في المناســبات الوطنيــة ومراســم الحفــلات والاســتقبال، والعديــد مــن الأغــاني العاطفيــة والقصــائد الوطنيــة (فرحــة العيــد لأحمــدو ولــد عبــد القــادر، سمــراء للمرحــوم فاضــل أمــين، ومســرح المجــد للخليــل ولــد نحوي، وتموز لفاضل أمين، وصنهاجة لأحمدو ولد مياح).

المهــم في الأمــر أني اســتطعت في مجــال الفــن أن أصــل إلى تســجيل مــا يمكــن أن يخلــد في تاريــخ الفــن، كمــا أنــني فعلــت الشــيء ذاتــه في مجــال التربيــة (مجموعــة كتــب كيــف نــربي أطفالنــا) وفي علــم الــنفس الاجتمــاعي فقــد نالــت نظريــة الأيام المحــيرة في الغضــب

والعــدوان إعجــاب جامعــات دمشــق وحلــب وأســاتذة مــن جامعــة بروكســل وبــون، والــتي تأكــدت مــن جــدتها في عــدم وجــود موضــوعها بــين العنــاوين الموجــودة في مكتبــة الكــونغرس بواســطة الــدكتورة شــاديه حبــال الرفــاعي ابنــة أســتاذي وصــديقي الــدكتور نعــيم الرفــاعي، النظريــة الــتي تمــت برمجتهــا مــن قبــل كليــة الهندســة المعلوماتيــة في جامعــة حلــب وصــار ممكنــا باســتخدام الــبرنامج أن تتوقــع لعــدة أيام مقبلــة زيادة أو نقصــان نســبة الغضــب والأعمــال العدوانيــة مــن مشــاجرات وقتــل وانتحــارعن المعــدل العــام لــه في أي بلد تم تطبيق دراسة مماثلة لدراسة البرنامج.

أعــود للقــاء التلفزيــوني مــع الجزيــرة مباشــر، فقــد بــث التســجيل في اليــوم الثــاني أي في 27\11\2016م وتتالــت بعــده اللقــاءات مــع القنــوات الفضــائية المحليــة، وكــذلك مــع الإذاعــات الحكوميــة والخاصــة، والنــدوات وحفــلات التكــريم، وإلى حلقــة قادمــة أســتعرض فيهــا بعضــا مــن تلــك الأنشــطة وإلى ذلكــم الحــين أســتودعكم الله علــى أمــل اللقاء بكم بإذن الله.

××××

أنا الآن في اليـوم الثالـث مـن وصـولي إلى نواكشـوط، وقـت النـوم فقـط هـو الـذي أتركـه للراحـة التامـة، ومـا عـدا وقـت النـوم فلـيس ملكـي فمئـات طلبـات الصـداقة تنهـال علـي كـل يـوم ولم يعـد لـدي وقـت مـن أجـل الـتمعن فيهـا وتفحـص الأسمـاء و البلـد أو أصـدقاء طـالبوا الصـداقة ممـا سـرب عـددا مـن الأسمـاء الـتي بقيـت أعـالج فيهـا أسـابيع بعـد عـودتي مـن موريتانيـا إلى بروكسـل، حـتى تمكنـت مـن جعـل الصـفحة الثانيـة الجديـدة هـذه مماثلـة للصـفحة الأولى مـن حيـث اختيـار الأصـدقاءالذين يفتخـر ويعتـز الإنسـان بصـداقتهم، يضـاف إلى هـذا الـرد علـى عشـرات الهواتـف وقـد تصـل إلى المئـات مـن أصـدقاء ومعجبـين يسـلمون ويطمئنـون، وغـيرهم ممـن يطلبـون مواعيـد لـزيارتي، أو ممـن يسـألون عـن عنـوان الفنـدق لـزيارتي لأنهـم ضـلوا الطريـق إليـه، إضـافة إلى وسـائل الإعـلام الـتي يتصـل بي مراسـلوها أومنـدوبوها لحجـز مواعيـد للقـاءات التلفزيونيـة أوالإذاعيـة، أو لإجـراء حـوار مـع المواقـع الإلكترونيـة، ولا يسـعني هنـا إلا أن أشـكر صـديقي أحمـد العبيـد الـذي كـان يسـتقبل معـي ضـيوفي، أو يسـتقبلهم بـدوني عنـدما أكـون خارجـاَ يسـتقبلهم هـو وكـادر فندقـه في خيمـة الاسـتقبال الموجـودة في بهـو الفنـدق، أو في صـالة الاسـتقبال في الطـابق العلـوي، كمـا كـان يضـع سـيارته الخاصـة في خـدمتي مـن أجـل الانتقـال مـن وإلى الفنـدق لكـل زياراتي ولقـاءاتي ونشـاطاتي الاجتماعيـة أو الثقافيـة والفنيـة، وقـد كـان مثـالا في كـرم الضـيافة، بـل تعـدى كـرم الضـيافة في الوقـوف إلى جـانبي في كـل المواقـف الـتي تتطلـب مسـاعدة في أي مكـان وفي أي مجـال، وقـد شـاركه في هـذا الأمـر صـديقي محمـد سـالم ولـداه وقـد اسـتند كـل منهمـا علـى رصـيده الشخصـي مـن المعـارف والأصـحاب في كـل المسـتويات وكـل المجـالات : ففـي مجـالات الإعـلام، ووزارة الثقافـة، والهيئـات الثقافيـة، والحكوميـة الـتي لهـا علاقـة بالفـن أو بمـا يتعلـق بـزيارتي، وقـد قسـم أخـي محمـد سـالم وقتـه بيـني وبـين موضـوع ترشـحه لمنصـب نقيـب الصـحفيين، ومـا يحتـاج ذلـك مـن عمـل دعـائي واتصـالات مـع كـل جهـات المجتمـع الـتي يمكـن أن تـؤمن لـه غايتـه في الحصـول علـى دعـم زملائـه الصـحفيين في انتخـابات اختيـار نقيـب

الصحفيين التي كان موعد إجرائها محددا في تلك الفترة، ثم أجلت إلى بعد مغادرتي لأجل غير مسمى وهي لم تحصل حتى الآن على ما أعتقد وقد بذل الصديق محمد سالم مجهودا كنت أخاف فيه عليه أنينهار من شدة الإنهاك، ولم يكن تعبه في موضوع الانتخابات يثنيه عن متابعة الكثير من أمور تعني زيارتي وما يتعلق بها، وقد أثبت لي أنه فعلا من الرجال النوادر الذين يتجاوزون ذاتهم فيضحون بالذات أمام مبادئ الغيرية والمثالية، وهذه النفوس نادرة جدا في زماننا هذا، زمن طغيان المادة والمصلحة الشخصية على ما عداها من مبادئ، وأقول لزملائه في الصحافة تمسكوا به وادعموه فإن صفاته المتكاملة من شخصية قادرة على تحمل الصعاب والصبر، والحكمة في تدبر الأمور، والإخلاص للأصدقاء والثبات في المواقف، والتواضع وعدم الغرور، وخدمة الأصدقاء، يضاف إلى ذلك طبعا تمكنه من مقومات مهنة الصحافة، ولن أسهب لكني أردت أن لا أضيع الجهد الذي بذله صديقاي أحمد العبيد الملوكي، ومحمد سالم ولداه، حيث كانا معي وإلى جانبي في أغلب أنشطتي الثقافية والفنية حتى الاجتماعية منها، ولايعني حديثي عن صديقي هذين أنهما وحدهما من وقف إلى جانبي، بل هناك العشرات ممن أسهموا بأقلامهم ومواقفهم ودعمهم وسآتي على ذلك في حلقات قادمة كل في حينه.

وقد كان من أوائل أنشطتي الاجتماعية زيارتي أو عيادتي الفنان الكبير سيداتي ولد آب والد الفنانة الأيقونة المرحومة ديمي بنت آب، ذلك الرجل الذي كان بيته بيت كرم وضيافة لي ولكل محبي الفن، وفور سماعي أنه في حالة حرجة، بل إن البعض قال-لاسمح الله - قد توفي، اتجهت إلى مشفى القلب حيث يوجد فيه، ولم يكن مسموحا لأحد الدخول إليه لأنه كان في غرفة العناية المشددة، واستطعت أن التقي ولده سدوم الذي طمأنني على حالته وأنه بخير وسيخرج من المشفى في الغد أو بعد غد، وقد قمت فور عودتي إلى الفندق بطمأنة الجمهور على صحة الفنان الكبير عن طريق الفيسبوك، ثم زرته بعد ذلك مرات عدة في بيته بعد خروجه من المشفى لأطمئن على صحته (رحمه الله).

وقد قمت في أيام وصولي الأولى بعدة زيارات للأصدقاء القدامى، وسألت عن كل أصدقائي وعرفت مصير كل واحد منهم، فمنهم المريض ومنهم من يعيش في البادية ومنهم المسافر خارج موريتانيا للعلاج كصديقي الشاعر أحمدو ولد عبد القادر الذي قيل لي أنه ذهب إلى تونس ليعالج عينيه شفاه الله وعافاه والحمد لله أني التقيته في مهرجان دعم اللغة العربية الذي أقيم احتفاله المركزي في دار الشباب والذي أقامته جمعية الإحياء للثقافة والفنون يوم 18\12\2016 م ووجهت لي الدعوة لحضوره، حيث التقيت بالصدفة بصديقي الغالي والشاعر الكبير هناك حيث كان قد عاد من تونس منذ يومين، وكان لقاء حارا بين أخوين لم يلتقيا منذ عشرات السنين، واستعرض كل منا ذكريات الزمن الجميل، ذكرني بابنته الصغيرة التي كانت كل يوم أحد (يوم العطلة حينئذ) تطالبه بأن يأخذها إلى بيت فريد حسن ، كما أني ذهبت إلى بيت صديقي الغيثي ولد المم الذي عرفت أن بيته لا يبعد عن الفندق عشرات الأمتار، وهناك قيل لنا أنه في مسافر إلى أطار يومها، وشربنا الشاي عندهم حيث استقبلني وأحمد العبيد أفراد أسرته الكريمة، وقد عاد أخي الغيثي من أطار بعد أيام ليدعونا إلى وليمة ذبح فيها كبشا وملأت المائدة بأنواع من التمور والفواكه والأشربة كعادة أهل المم، وكل الموريتانيين في إكرام الضيف، وأهم إكرام أكرمني به هو إهداؤه لي كتابا نادرا من تأليفه (بعنوان : الإشراقات الجمة في سيرة وبعض أرحام أسرة أمم).

الكتاب الذي يتحدث عن سيرة العائلة وشجرة نسبها والأحداث التي مرت بها هذه الأسرة الكريمة، وقد قرأت الكتاب مرات عديدة وأعجبت بما حواه من معلومات قيمة نادرة.

ومن الزيارات للأصدقاء زيارتي لصديقي محمد بابا ولد أحمد يورا الذي دعاني برفقة صديقي أحمد العبيد أيضاإلى بيته وذبح كبشا وأكثر الخيرات ودعا على شرفي العديد من أصدقائه وأصدقائنا المشتركين وأمضينا مقيلا جميلا استعدنا فيه ذكريات صداقتنا

ورحلاتنا إلى بير التورس التي أحييت له في إحداها حفلة أحد أعراسه هناك في الثمانينيات.

وإلى حلقة قادمة بإذن الله نستكمل مزيدا من الأنشطة واللقاءات والزيارات والأحداث المتنوعة في رحلتي إلى موريتانيا في الأسابيع الأخيرة من عام 2016 م.

××××

نحـــن في اليـــوم الرابـــع مـــن زيارتي في تشـــرين الثـــاني/ نـــوفمبر عـــام 2016م والمصـــادف الاثنـــين في 28 نـــوفمبر ذكـــرى اســـتقلال موريتانيـــا والـــذي تعمـــدت أن يـــدرج ضـــمن زيارتي لأشـــارك إخـــوتي في موريتانيـــا أعيـــادهم في (الإســـتقلال، والمولـــد، وعيـــد المـــدن القديمـــة)، واليـــوم ينتظـــرني لقـــاءان تلفزيونيـــان الأول ظهـــرا مـــع تلفزيـــون الدولـــة الرسمـــي (في قنـــاة الموريتانيـــة، ضـــمن بـــرنامج الملحمـــة، الـــذي يعـــده ويقدمـــه الـــدكتور الشـــيخ معـــاذ سيدي عبد الله) والآخر مساء مع قناة (المرابطون الخاصة، ضمن برنامج المشهد).

لنبـــدأ باللقـــاء الأول في قنـــاة الموريتانيـــة في بـــرنامج الملحمـــة الجـــزء الثـــاني : إعـــداد وتقـــديم الـــدكتور الشـــيخ معـــاذ ســـيدي عبـــد الله، والـــذي حضـــره معـــي صـــديقي الشـــاعر الغنـــائي أحمـــد العبيـــد الملـــوكي الـــذي كتـــب لي الأغـــاني التاليـــة (ترجيـــت، عـــراد، زينـــه، زيـــن الشـــرك وزيـــن كبلـــه، ومتـــوحش موريتـــان الـــتي لحنتهـــا في فـــترة زيارتي الأخـــيرة ولم أســـجلها حـــتى الآن) وأحمـــد العبيـــد هـــو نفســـه الـــذي التقيتـــه أول مـــرة يـــوم كـــان شـــابا في مقتبـــل العمـــر عنـــدما زارني في الأيام الأواخـــر مـــن عـــام 1977م واتفـــق معـــي علـــى إقامـــة حفـــل باســـم فـــرع شـــباب أطـــار الـــذي جـــاءني يمثلـــه كأحـــد قياديـــه، وكـــان موعـــد الحفـــل في الأســـابيع الأولى مـــن عـــام 1978م، وكانـــت أول أغنيـــة بيننـــا في تلـــك الـــزيارة عنـــدما ذهبنـــا للاســـتجمام والنزهـــة إلى ترجيـــت برفقـــة كبـــار مســـؤولي أطـــار الحكـــوميين والسياســـيين بـــدءا مـــن الـــوالي وانتهـــاء بمســـؤولي فـــرع الشـــباب، وكتبهـــا لي في أجـــواء الفـــرح والنشـــوة تلـــك، الأغنيـــة الجميلـــة (ترجيـــت) والـــتي لحنتهـــا أيضـــا في نفـــس الوقـــت وغنيتهـــا في تلـــك الليلـــة، الثانيـــة مـــن ليـــالي في أطـــار حيـــث أقمـــت حينهـــا ثـــلاث ليـــال متتاليـــات عاشـــتها أطـــار وعشـــتها أنا مـــن أجمـــل ليـــالي العمـــر، وكـــان معنـــا في نفـــس اللقـــاء في بـــرنامج الملحمـــة هـــذا صـــديقي الحســـن ولـــد مـــولاي علـــي مـــدير إذاعـــة التنـــوير حاليـــا، والـــذي كـــان يـــوم قـــدومي الأول إلى موريتانيـــا قبـــل أربعـــين عامـــا مـــديرا للـــبرامج في الإذاعـــة الوطنيـــة في نواكشـــوط، والـــذي كـــان لـــه الفضـــل بحكمتـــه وحســـن إدارتـــه وحيويتـــه أطـــال الله في عمـــره، كـــان لـــه الفضل في ما حصل من عطاءات قدمتها لإخوتي في موريتانيا.

كـــان موعـــد الـــبرنامج الـــذي اتفقنـــا عليـــه مـــع صـــديقي الشـــيخ ســـيدي عبـــد الله هـــو الثانيـــة عشـــرة ظهـــرا، انطلقنابســـيارة أخـــي أحمـــد العبيـــد مـــن الفنـــدق الحاديـــة عشـــرة والنصـــف، ووصـــلنا قبـــل الموعـــد بوقـــت كـــاف إلى مبـــنى التلفزيـــون الـــذي لم أزره منـــذ نيـــف وربـــع قـــرن يـــوم ســـجلت فيـــه مقابلـــة وأغنيـــة جديـــدة حينهـــا، كانـــت قصـــيدة صـــنهاجة شـــعر أحمـــدو مياح عام 1990 م.

كـــان عمـــال التلفـــزة منهمكـــين في بـــرنامج آخـــر ولعلهـــم أعطـــونا موعـــدا قبـــل الوقـــت ليضـــمنوا عـــدم تأخـــرنا، فـــالبرنامج علـــى الهـــواء مباشـــرة، دخلنـــا الأســـتوديو الثانيـــة عشـــرة والنصـــف وبـــدأ كـــل يعـــد مـــا يخصـــه مـــن اســـتعدادات: توزيـــع المـــايكروفونات وبرمجتهـــا، الإنارة ومـــا يتعلـــق بهـــا، تجهيـــز المقـــاطع الصـــوتية الـــتي ستســـتخدم بـــين الحـــديث الحـــي، ودوزنـــة العـــود بالنســـبة لي (التطيـــاب)، كانـــت الحلقـــة متميـــزة بكثـــير مـــن الأمـــور : فبالإضـــافة إلى تميـــز مخرجهـــا ومعـــدها وفصـــاحته وســـرعة بديهتـــه، كـــان الموضـــوع مهمـــا للشـــباب الموريتـــاني، وقـــد كـــان مهمـــا بالنســـبة لي أكثـــر لأنـــه حـــاز علـــى أهـــم شـــاهد عاصـــر بـــل حقـــق كـــل المشـــاهد الـــتي ذكرتهـــا في حلقـــاتي وهـــو صـــديقي الأســـتاذ الحســـن ولـــد مـــولاي علـــي، بـــل إنـــه تطـــرق إلى تلـــك المشـــاهد الـــتي لم أوردهـــا في حلقـــاتي، بـــل وحلـــل وفسر وربط بين الأمور، مما جعل الحلقة وثيقة هامة في تاريخ الموسيقى الموريتانية.

كمـــا أن وجـــود صـــديقي أحمـــد العبيـــد الـــذي كـــان لـــه نصـــيب كبـــير في تأليـــف العديـــد مـــن أغاني والذي رافقني في كل حفلاتي في مدينة أطار ووديانها بحكم صداقتنا المتميزة.

والأهـــم مـــن كـــل هـــذا كـــون الحلقـــة في مقيـــل يـــوم الاســـتقلال ولمـــدة ســـاعتين، ممـــا حقـــق لهـــا نجاحا وصدى نادرا بين البرامج حيث اليوم عطلة واحتفالات.

وقـــد ركـــز معـــد الـــبرنامج ومخرجـــه بعـــد أن قـــرأ وتابـــع حلقـــاتي علـــى منحيـــين اثنـــين: الأول : ملخـــص علاقـــتي بالإذاعـــة الموريتانيـــة والـــتي كـــان وجـــود الحســـن مـــولاي علـــي كافيـــا وافيـــا للتحـــدث عنهـــا، أمـــا الاتجـــاه الآخـــر فهـــو الحـــديث عـــن الأغـــاني ومـــا رافقهـــا مـــن أحـــداث طريفـــة تشـــد انتبـــاه المشـــاهد، وخلاصـــة القـــول : لقـــد كانـــت الحلقـــة رائعـــة وفـــق كـــل

المقاييس أشكر من أسهم من معد ومخرج ومشارك (الحسن مولاي علي، أحمد العبيد) كما أشكر الجنود المجهولين من فنيين ومهندسي صوت وصورة وإضاءة.

أنتقل إلى اللقاء المسائي الذي كان في فضائية المرابطون : فقد أوصلني صديقي أحمد العبيد مشكورا وأعادني بعد الانتهاء من تصوير اللقاء إلى الفندق بسيارته، كان اللقاء في برنامج المشهد، وكان موضوع اللقاء (الفن الموريتاني بعيون عربية) أما المذيع المحاور فكان محمد فال ولد الشيخ، وقد جرى اللقاء على استعراض لمسيرتي الفنية، والسؤال عن أبرز الذكريات مع الفنانين الموريتانيين، ومع الأدباء والشعراء الموريتانيين، كما تطرقنا إلى موضوع تطوير الموسيقى الموريتانية ومقومات ذلك وركائزه، والطريق إلى ذلك، كما تحدثنا عن الشعر الموريتاني وأصالته وبقائه بعيدا عن التشويه الذي جرى في غير مكان من الوطن العربي للشعر، كما تضمن اللقاء حديثا عن العادات الموريتانية وعن الفرق بين ما كان في السبعينيات من القرن الماضي وبين ما هو حاصل الآن، كما سألني الأخ المذيع المحاور عما وجدته من فروق بين موريتانيا السبعينيات وموريتانيا العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، فأوضحت الفارق الكبير بين السبعينيات التي كانت بدايات بناء الدولة من لا شيء، وبين ماهو كائن الآن من كم هائل من المثقفين والأخصائين، والتطور العمراني والطرقي، والثقافي، والإعلامي، والحضاري في كل مجالات الحضارة ضمن إمكانات البلد والظروف الدولية والإقليمية التي تشكل في كثير من الأوقات عاملا ضاغطا يحد من التطور السريع بل حتى الطبيعي منه.

وإلى حلقة أخرى قادمة إن شاء الله أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذنه تعالى.

××××

أنا الآن في بداية الأسبوع الثاني من وصولي إلى نواكشوط في زيارتي الأخيرة، بعد الغيبة الأطول عنها (ربع قرن)، وقتي موزع بين زيارات الأصدقاء القدامى والجدد من شعراء وأدباء ومعجبين، وبين استقبال مئات طلبات الصداقة على الفيسبوك، وبين الرد على الهواتف متعدد الأغراض في الاتصال، وتلبية دعوات الأصدقاء والأصحاب إلى قضاء مقيل جميل معهم، حيث (مارو الحوت) وهو طعام يشبه ما يسمى في اللاذقية في سورية بالصيادية والذي قل أن تجد له مثيلا في العالم وبالأخص لنوع الأسماك الذيلا يوجد في العالم شاطيء يشبه الشاطيء الموريتاني في نقائه ونظافته من التلوث أيا كان نوعه، فمئات الكيلومترات من الشواطئ دون أن يصب فيها مجرى ملوث لمصنع أومجرير للصرف الصحي، وأن لم يكن مارو الحوت هو الوجبة في المقيل فاللحم المصنوع بالعديد من الطرق شويا أو سلقا أو طهيا مع الرز أو الكسكس (وهو طعام مصنوع من الحبوب) يشبه البرغل في بلاد الشام، ولا تخلو أي مائدة إفطار أو غذاء أو عشاء من الشاي الأخضر المنعنع الذي لا تجد له مثيلا في غير موريتانيا صنعا متقنا شهيا، ويسبق الطعام الأشربة يتصدرها حليب النوق الذي لا تراه بهذا الانتشار في الاستخدام إلا في موريتانيا أيضا، وقد تخصصت أحياء بكاملها بتامين الحليب الطازج الذي يحلب أمامك من الناقة، بل صار هنالك تكامل بين مربي الإبل وخدمة من يفدون لشرب حليب النوق الطازج، وبين شوائي اللحم وبين خدمة تأجير الخيام المخدمة والجاهزة للإقامة من فرش مناسب، وإنارة، ونظافة وتامين للبن النوق والشوي وصنع الشاي أو إحضار مستلزماته لمن يريد أن يصنعه بنفسه، وتأمين المياه والمشروبات الحلال طبعا، وماء غسل اليدين بعد هذه الوجبة الدسمة من المشوي، وقد شبهتها بالمقصبات في الربوة في دمشق أو مقصبات ديك الجن في حمص، أو الليطاني في لبنان، لكنك أمام نوع آخر من الجمال صحيح أن ماء البحر يبعد عنك عدة كيلومترات، لكنك أمام جمال الرمال الذهبية النقية النظيفة (على شكل هضبات تسمى محليا بالزيرات) التي لا تستطيع الحشرات

العيش فيها ولا يطير فوقها البعوض، وقد دعيت عدة مرات إلى شارع مسعود وهو واحد من أماكن بيع لبن النوق الطازج بل المحلوب أمامك.

وهذا الشارع جديد بالنسبة لي، لم يكن موجودا في فترة وجودي السابقة، وقد عرفت من أصدقائي أن هناك عدة أماكن مشابهة له في العاصمة، مررنا ببعضها على طريق أطار وفي أطراف تفرق زينه، وقد تكون موجودة في أماكن أخرى لم تسنح لي فترتي القصيرة بالتعرف عليها، فهي مشاريع خدمية رابحة وسهلة.

معذرة إن كنت قد أسهبت قليلا في فولكلور الطعام في موريتانيا فبعضه قديم وبعضه استحدث ليلبي متطلبات الحداثة، مقارنة بما لدى الآخرين من جمال في مناحي أخرى، ولا يقل جمال الصحراء عن جمال الغابات أو البساتين لأن لكل منها طعم خاص لا يعرفه إلا من ذاقه.

وليست موريتانيا بأقل مقومات للسياحة من كثير من البلاد السياحية إذ تمتلك شاطئا رمليا خاليا من كل أشكال التلوث بمئات الكيلومترات، لكنها مع الأسف تركته دون استغلال مناسب له، يضاف إليه الطقس الفريد في العالم من حيث الشمس الدائمة في كل فصول السنة والحرارة التي تتطلبها السياحة والسباحة، أن هذا الشاطيء نفسه بما فيه من مقومات لو كان موجودا عند أي من الدول المتقدمة لكان مقصدا لكل سياح العالم ولكان دخله السنوي بعشرات المليارات من الدولارات.

ناهيك عن أفضل أنواع السمك التي يذخر بها هذا الشاطيء البكر، كما يمكن الاستفادة من وجود الجمال والخيل والحمير في ركوب السياح عليها كما في مصر قرب الأهرامات، مع إضافة القوارب والطرادات السياحية والتزحلق على الأمواج التي يندر أن يوجد مثيل لها في أغلب الشواطيء في العالم، ويتكامل ذلك مع أجمل الواحات المنتشرة في وديان أطار تونكاد وأوجفت وترجيت وكصير الطرشان وتيارت وعين أهل الطايع وتجكجة والرشيد وتيشيت ووادان وكيفا والطين طان، ومعذرة من أهل الواحات الأخرى إذا كنت لم أذكرها سهوا مني ليس إلا.

إن موريتانيا تمتلك ثروات لاحصر لها لكنها تحتاج إلى من يعمل بها ويفكر في كيفية الاستفادة منها، ولم أتطرق إلى الثروات الباطنية الضخمة من حديد ونحاس وملح وذهب وراديوم ويورانيوم، ونفط، وغاز ، وثروات حيوانية مكونة من ملايين رؤوس الغنم والماعز والأبقار والجمال والزراعية لأرض بكر ونهر من أضخم الأنهار في العالم، كما أنني لم أتطرق للطاقة الشمسية التي يمكن أن تصدر إلى أوربا، وطاقة المد والجزر وطاقة الأمواج الضخمة لتوليد الطاقة الكهربائية.

معذرة لخروجي بعيدا عن الحلقة لكنني دائما أريد أن أشارك جمهوري الكريم في مشاعري وما يدور في رأسي من أفكار لحظة كتابتي للحلقة، نعم لقد مضت أيام عشر سجلت فيها لقاءات تلفزيونية مع قناة الموريتانية ومع قناة المرابطون ومع قناة دافا التي جاءت مصورة ومذيعة إلى الفندق الذي أقيم فيه وصورنا لقاء أذيع اليوم الجمعة في 9 ديسمبر، كما أذيعت لي مقابلة مطولة مع الإذاعة الوطنية حاورتني فيها المذيعة نورا سماويا وقد كانت مقابلة شاملة عن تجربتي الفنية في موريتانيا وعلاقتي بالإذاعة منذ الأيام القليلة بعد قدومي الأول إلى اليوم، كما سأجري الليلة لقاء في قناة الوطنية سيحضره معي كل من صديقي أحمد العبيد ومحمد سالم ولداه والفنان الصاعد مراد زيدان والذي أتوقع له مستقبلا واعدا يستحقه كونه يمتلك صوتا جميلا وعزفا مبدعا على التدينيت وابتكارا في التوزيع والعمل في تقنيات الصوت والصورة، وسيجرى اللقاء الثانية عشرة ليلا وسيستمر حتى ساعة متأخرة تزيد عن الثانية بعد منتصف الليل، وقد وعدت أن يذاع اللقاء يوم عيد المولد في المقيل أن أمكن وإلا ففي المساء، لكنه فعلا أذيع في مقيل يوم المولد وأعيد بثه بعد ذلك أكثر من مرة.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله، على أمل اللقاء بكم إن شاءالله.

××××

أنا اليـــوم في صـــباح العاشـــر مـــن ديســـمبر/ كـــانون الأول عـــام 2016م في أواخـــر الأسـبوع الثـاني مـن زيارتي إلى موريتانيـا، أمـامي اليـوم دعـوة أنا الأول إلى حفـل إعـلان ترشـيح صـديقي محمـد سـالم ولـداه إلى منصـب رئـيس نقبـة الصـحفيين الموريتـانيين في السادسـة عصـرا في فنـدق وصـال، وفي المسـاء دعـوة إلى احتفاليـة لنصـرة رسـول الله في فندق موري سانتر.

في السـبعينات لم يكـن في العاصـمة إلا فنـادق تعـد علـى أصـابع اليـد الواحـدة، كـان في مقـدمتها فنـدق مرحبـا الـذي مـايزال موجـودا وأعتقـد أن اسمـه تغـير ولا أذكـر اسمـه الجديـد، وفنـدق شـنقيط الـذي لم أره في زيارتي ولا أعـرف هـل مـازال بنـاؤه موجـودا وهـل بقـي كفنـدق أم تبـدل اسـتخدامه لغايـة أخـرى، وكـان هنـاك فنـدق النـواب الـذي استضـافتنا الدولـة فيـه مـع زملائـي المدرسـين السـوريين عنـد قـدومنا الأول، وأذكـر أنـه كـان هنـاك فنـدق يقـع جنـوب بلوكـات والسـوق القـديم وكـان متواضـعا أقـل مسـتوى مـن الثلاثـة الـتي ذكـرت، ولا أذكـر غـيرهم داخـل العاصـمة، ولم يكـن الموريتـانيون بحاجـة للفنـادق أصـلا في تلـك المرحلـة فكـل بيـت في نواكشـوط كـان يقـوم بهـذه المهمـة خـير قيـام بـل يجمـع معهـا مهمـة المطعـم والاسـتراحة والمقهـى وكـل ذلـك مجـانا، ولكـل مـن يقـول السـلام علـيكم، فـالأبواب لا تغلـق أصـلا دون أحـد، والأوقـات مفتوحـة وليسـت محـددة لاسـتقبال الضـيف أو الزائـر كائنـا مـن كـان، وبغـض النظـر عـن مـدى منطقيـة أوصـحة أو عـدم صـحة ذلـك، هـذا ماكـان حاصـلا في نواكشـوط، كمـا كـان هنالـك فنـدقان علـى شـاطيء البحـر ضـخمان وقـد أقمـت في كليهمـا العديـد مـن الحفـلات لوحـدي أو بمشـاركة كبـار الفنـانين، حيـث أقمـت حفلـة في فنـدق الصـباح الـذي كانـت تمتلكـه الكويـت كدولـة أو شـخص كـويتي لأن النـاس كانـت أحيـانا تـدعوه فنـدق الكويـت، والـذي أقمـت فيـه حفلـة بمشـاركة الفنانـة الكبـيرة المرحومـة ديمـي بنـت آب، وقـد كـان مـدير الفنـدق حينهـا شـاميا دمشـقيا مـن سـوريا أذكـر اسمـه (إياد البقـاعي) وقـد كـان داهيـة في الإدارة الفندقيـة فحـتى يشـغل الفنـدق ويحـرك السـكون الـذي كـان

عليه وقتئذ أقام تلك الحفلة وجعل لها دعاية إعلامية على شاشة عدة تلفزيونات افريقية في دول مجاورة السينغال وغيرها، إضافة إلى الإذاعة الموريتانية، حيث لم يكن التلفزيون الموريتاني قد وجد بعد، واستمرت الدعاية لفترة تزيد عن الأسبوع، وقد كانت تسعيرة بطاقة الدخول ألف أوقية، في حين لم يكن سعر بطاقة الدخول لأكبر حفلة تقام في نواكشوط يزيد عن مائتي أوقية، وكانت حفلة لم تشهد نواكشوط لها مثيلا من جميع النواحي.

كما أقمت حفلة مماثلة في فندق الأحمدي الذي كان أضخم من فندق الصباح بكثير في صالاته حيث كانت إحداها قاعة مؤتمرات مجهزة بمعدات للمؤتمرات الدولية، وكانت لي فيه حفلة لوحدي وأخرى بمشاركة الفنانة الكبيرة سكت بنت همد فال أطال الله في عمرها، وقد أقمت هذه الحفلات في هذين الفندقين بناء على طلب إدارتيهما من أجل تحريك عملهما الذي كان محدودا جدا في ذلكم الحين.

وقد ذكرت لكم في حلقة من أول حلقاتي كيف أننا أقمنا حفلة لفرقة الرشيد بقيادة المرحومة ديمي والأستاذ فريد وبإدارة البيضاوي رحمه الله في فندق الرشيد داخل العاصمة وكانت أول إطلالة لي على جمهوري في موريتانيا ولم يكن لي حينئذ من الوقت في نواكشوط إلا أسبوعين.

أسهبت قليلا لأقارن بين وضع الفنادق سابقا والذي لا يعرفه غالبية القراء الكرام لأنهم لم يكونوا قد كتبت لهم الحياة بعد.

ووضع الفنادق الآن والذي اطلعت أنا على بعضه في هذه العجالة فما شاء الله الفنادق صارت تقوم بالعديد من الأنشطة الاجتماعية والثقافية والسياسية والفنية إضافة إلى عملها لاستقبال من يرغبون المبيت من ضيوف على الدولة أو ضيوف على مؤسسات رسمية أو غير رسمية أو من يقدمون من خارج موريتانيا أو من داخلها من مدن أخرى في أعمال ومهام فردية خاصة، أو للترفيه وقضاء شهر عسل طازج أو قديم أو للاستجمام، أو مرافقة مريض تجرى له أعمال استطبابية في مشافي العاصمة إلخ من مهام تستدعي الحضور إلى العاصمة.

أقــول كنــت مــدعوا مســاء العاشــر مــن كــانون الأول عصــرا إلى حفلــة ترشــيح صــديقي وأخــي محمــد ســالم ولــداه لمنصــب نقيــب الصــحفيين الموريتــانيين في فنــدق وصــال، حيــث حضــر الحفــل المئــات مــن أصــدقاء ورفــاق صــديقي المرشــح وكانــت أمســية جميلــة التقيــت مــن خلالهــا بالعشــرات أو المئــات مــن أصــدقائي علــى الفــيس أو أصــدقائي القــدامى، والتقطــوا معــي صــورا تذكاريــة، وتخلــل الحفــل كلمــات لصــديقي محمــد ســالم أو أصــدقاء لــه يــدعمون ويؤيــدون ترشــحه، وعنــدما حــان موعــد صــلاة المغــرب خرجنــا لســاحة الفنــدق لنــؤدي صــلاة المغــرب وقــد أمنــا في الصــلاة صــديقي الحســن ولــد مــولاي علــي لنعــود بعــد آدائنــا للصــلاة لمتابعــة فقــرات حفــل إعــلان الترشــح تلــك، كمــا قــدمت في ختــام الحفــل أغنيــة لي بمرافقــة العــود كهديــة مــني لصــديقي ولجمهــور الحضــور، ومــن فنــدق وصــال انتقلنــا وانتقــل معنــا العشــرات ممــن كــانوا مــدعويين معنــا أصــلا إلى فنــدق مــوري ســانتر حيــث كــان هنــاك حفــل إقامــة اتحــاد نســاء موريتانيــا الــذي أقــيم لنصــرة رســول الله صــلى الله عليــه وســلم بمناســبة اقــتراب عيــد المولــد الــذي كنــا علــى أبوابــه والــذي ســيحل بعــد يــومين في يــوم الاثنــين الثــاني عشــر مــن ربيــع الأول شــهر الخــير والبركــة شــهر قــدوم ســيد الكــونين محمــد بــن عبــد الله صــلى الله عليــه وســلم، وهنــاك أيضــا ألقيــت عــدة كلمــات بهــذه المناســبة الغاليــة كمــا قــدمني عريــف الحفــل كــوني ضــيفا حاضــرا في الحفــل وكــون الكثــيرين سمــع بي دون أن يــروني مــن الأعمــار الصــغيرة، فقــد غنيــت في الحفــل قصــيدة صــديقي محمــد ســالم شــهر المولــد دون عــزف لأنــه احتفــال ديــني وانتهــى الحفــل بعشــاء علــى الطريقــة الموريتانيــة والعربيــة الحديثــة فكــان متنوعــا في مكوناتــه، وقــد الــتقط العشــرات معــي صــورا تذكاريــة وفي ســاعة ليســت متــأخرة غــادرنا الفنــدق برفقــة صــديقي محمــد ســالم وأحمــد العبيــد متجهــين إلى فنــدقي الــذي أقــيم فيــه فنــدق راحــة، لنتبــادل أطــراف الحــديث عــن رحلــتي في الغــد الــتي ســتكون وجهتهــا وادان حيــث ســيقام فيهــا مهرجــان المــدن القديمــة الــذي ســأحدثكم عنــه في الحلقــة القادمــة إن شــاء الله وإلى ذلكــم الحــين أستودعكم الله.

××××

إنــه صبـاح الحـادي عشـر مـن ربيـع الأول كمـا أنـه صـباح الحـادي عشـر مـن كـانون الأول (وكـان هـذا التوافـق بالتـاريخ بالصـدفة طبعـا)، في الغـد عيـدان : عيـد المولـد النبـوي الشريف، وعيد المدن القديمة في موريتانيا.

لقــد رغــب أصــدقائي مــن الشــباب الموريتــانيين أن أشــارك الشــعب الموريتــاني في هــاتين المناسـبتين، فــاقترحوا علــي أن أذهــب إلى مدينــة وادان : ووادان هــذه والكــلام هنــا موجــه لغــير الموريتــانين، فالموريتــانيون يعرفــون كــل شــيء عنهــا، أقــول إن هــذه المدينــة واحــدة مــن أربع مدن قديمة هي أقدم المدن الموريتانية وهي شنقيط، ووادان، وتيشيت، وولاته.

فكمـــا أني شـــاركت الشـــعب أفـــراح عيـــد الاســـتقلال فأجريـــت لقـــائين تلفزيـــونيين علـــى الهواء مباشرة الأول مع قناة الموريتانية الحكومية، والآخر مع قناة المرابطون الأهلية.

أقــول : وافقــت الشــباب علــى اقــتراحهم واجــروا اتصــالاتهم مــع المســؤولين قبــل أيام ومــع جهــة أو أكثــر وحصــلوا علــى الموافقــة، وقامــت وزارة الثقافــة مشــكورة بتــأمين ســيارة دفــع رباعــي نســميها في ســورية ســيارة جبليــه، مــع ســائقها، وكلفــت الســيارة مــع الســائق بمهمــة رسميــة مــدتها قرابــة الأســبوع، وزود الســائق بكتــاب خــاص لمحطــات الوقــود كــي تقــدم الوقــود للســيارة بموجــب هــذا الكتــاب (ثم تقــوم الــوزارة فيمــا بعــد بــدفع الحســاب)، كمــا أُرْسِلَ كتاب إلى فندق الدولة في وادان ليؤمن إقامتي.

كــان موعــدي مــع الســائق الــذي جــاءني أمــس لنتفــق علــى مكــان وزمــان الانطــلاق والأشخاص الذين سيرافقونني وأماكن صعود كل منهم إلى السيارة.

فقـد كلـف صـديقي محمـد سـالم صـحفيين اثنـين بمـرافقتي أحـدهما مصـور والآخـر كاتـب ليغطيــا الــزيارة إعلاميــا واتفقــت مــع الســائق أنيــأتي في الســابعة والنصــف صــباحا وأكــون أنا والصــحفي المصــور واسمــه أحمــد بانتظــاره في الفنــدق، أمــا الصــحفي الكاتــب واسمــه عبد الرزاق فينتظرنا على الطريق في مكان اتفقنا عليه مع بعضنا.

كــان الجــو إلى الأمــس قريبــا مــن الحــار وقــد شــعرت بفــارق كبــير بــين جــو بروكســل الــذي أنا فيــه منــذ عــام ونيــف حيــث أعلــى درجــة حــرارة في الصــيف ليــوم أو أيام قليلــة جــدا قــد

تتجاوز الثلاثين بقليل بينما هنا في نواكشوط ونحن في كانون الأول وقبل أربعينية الشتاء بأيام ودرجة الحرارة أعلى من حرارة الصيف في بروكسل، وهي إذا وصلت في الذروة ظهرا في بروكسل لكنها ماتلبث بعد قليل أن تعود إلى الاعتدال إن لم نقل للبرودة ليلا، على عكس نواكشوط حيث لا يستطيع المرء النوم لشدة الحرارة حتى في الليل.

نعم لقد استيقظت في صباح الحادي عشر من ديسمبر /كانون الأول لأجد أن اليوم مختلف عما سبقه فهو بارد بالمقارنة لما سبقه من أيام، ووصل المصور أحمد وهو يرتدي بنطالا قصيرا على غير عادة الموريتانيين في اللباس، لأنه كان قد اغترب فترة عن موريتانيا والمهم في الموضوع أنه كان يرتجف بردا لأنه لم يحتط من البرد، وقد أدى ذلك إلى معاناته من نزلة برد استمرت أياما في وادان بل أصبنا بعدوى منه نحن الثلاثة الآخرون أنا والسائق والصحفي الكاتب.

كنت قد جهزت أمتعتي في المساء وكذلك عودي وكل ما يتعلق باستعدادي للغناء في مهرجان وادان(مهرجان المدن القديمة) وبحضور المصور لم يعد أمامنا إلا وصول السائق الذي جاء فعلا على موعده، وانطلقنا من الفندق متوجهين إلى طريق مدينة أطار الذي سنسلكه والذي سينتظرنا في طريقنا إليه الصحفي عبد الرزاق.

وبصعود عبد الرزاق من النقطة التي كان ينتظرنا فيها اكتمل النصاب وانطلقت السيارة قاصدة وادان، كان الطريق فيه الكثير من الجديد بالنسبة لي، فرغم أني قد سافرت إلى أطار مرات كثيرة في السبعينات وحتى أول التسعينات، لكنني في هذه المرة وجدت توسعا كبيرا في البناء وتطورا في النوع نحو البناء العصري بدءا من الطريق داخل العاصمة إلى الطريق العام خارج العاصمة إلى حين وصولنا إلى مدينة اكجوجت حيث مناجم النحاس إضافة للحديد، بل كان التغير الأكبر في مدينة اكجوجت التي اتسعت كثيرا وتطور بنيانها وصار الطريق الواصل إليها من العاصمة طريقا دوليا بينما كان سابقا طريقا ضيقا سيء التزفيت إلى قبل المدينة بعشرات الكيلومترات حيث كان يستمر ترابيا إلى مدينة أطار، وحيث كانت تنتشر التلال

الرملية المتحركة والمتنقلة والتي كانت تتطفل على الطريق لتكون ضيفا ثقيلا عليه فتؤدي في كثير من الأحيان إلى مضايقات لمستخدمي الطريق بل إلى حوادث عندما يتفاجأ السائق بتلة من الرمال لم يكن يعهدها من قبل فيحاول الهروب عنها أو تجنبها ويصل إلى ما حصل لتلك السيارة الشاحنة الضخمة التي حدثتكم عنها في حلقة سابقة والتي انقلبت بسبب مرور عجلاتها اليسرى فوق أطراف التلة الرملية المتحركة التي تطفلت على الطريق، والتي نزل منها صاحبها يتفقد أحوال عشرات الركاب الذين كانوا يجلسون فوق البضائع من سكر ورز وشاي...ومواد تموينية كانت تنقلها إلى دكاكين وتجار أطار، ويوم لفتني قوله بعد أن اطمأن على عدم وجود خسارات في الأبدان بين الركاب الذين كانوا يجلسون على أخشاب فوق البضاعة يستمتعون بطيب الهواء ورخص التسعيرة بالمقارنة بالسيارات البيجو ذات السبع ركاب، عندما قال قولته التي أدهشتني: اصنعوا أتاي واستطرد براد ما يكفى اصنعوا برادين.

علما أن دواليب سيارته المنقلبة كانت ما تزال تدور في أعلى السيارة، المنقلبة عاليها سافلها وسافلها عاليها. لقد أصبح ذلك من الماضي فالطريق قد أصبح حضاريا وصولا إلى أطار.

استرحنا قليلا في اكجوجت وشربنا الشاي المنعنع ثم تابعنا سيرنا نحو مدينة أطار التي وصلناها بعيد الظهر.

أطار التي لم تعد أيضا أطار التي عرفتها فقد توسع عمرانها كما وتغير بناؤها نوعا ليصبح بناء اسمنتيا حديثا ولتصبح الشوارع بأكثريتها معبدة مزفته ولتنتشر المحلات التجارية الضخمة وأنواع جديدة من المحال المترافقة مع مستجدات العصر، وما لم يكن موجودا في زمان زيارتي لها منذ عشرات السنين.

لم نتوقف في أطار كي لا نضيع مزيدا من الوقت ورغبة في الوصول إلى وادان التي ما زال يفصلنا عنها عشرات الكيلومترات والتي سيكون القسم الأكبر منها ترابيا فما هي إلا كيلومترات خارج أطار وحتى وصولنا إلى السلسلة الجبلية وينتهي الطريق

المزفت ويبدأ الطريق الترابي الممهد لكن المليء بالحصى والأحجار إضافة إلى التراب الذي تحول إلى غبار تراه يحاول اللحاق بك ليعلق بك حبا بك، وتهرب أنت منه لكنك في كثير من الأحيان تقع في أحضانه وخاصة إذا مرت بك سيارة قد لحق بها مغازلها من الغبار في عكس سيرك، أوإذا سبقتك سيارة وصرت وراءها تتابع مشهد غزل الغبار المطارد لها رغبة اللحاق بها لكن دون جدوى، أما أنت وسيارتك فتكون قد وقعت في غرام ذلك الغبار العاشق لكل من يصادفه.

كانت السيارات التي تشاركنا نفس الطريق وفي نفس المهمة والغاية والمقصد كثيرة فالجميع سيأتي من هذا السبيل، فليس هناك من وسيلة أخرى غير الطائرة التي ستقل غدا رئيس البلاد، حتى الكثيرين من الوزراء جاءوا أيضا مستخدمين هذا الطريق، نقاط التفتيش كانت كثيرة من العاصمة ولم نكن نحتاج لإبراز أوراق مهمة السيارة التي زودتنا بها الدولة إلا ما نذر، فبمجرد قول السائق أننا برفقة ضيفنا الفنان فريد حسن حتى يرحب بمن هم على نقاط التفتيش ويفسحوا لنا مجال المتابعة.

وبعد قطعنا لكيلومترات قليلة على الطريق الترابي في المنطقة العالية المرتفعة وبعد تجاوزنا لأحد حواجز التفتيش بقليل انفجرت عجلة السيارة وكان لابد من تبديلها، وكانت تلك استراحة إلزامية حيث صلينا الظهر والعصر قصرا وجمعا كوننا مسافرين، واسترحنا وتعاون الشباب مع السائق لتبديل إطار السيارة، وتابعنا المسير، وأوقفنا حاجز آخر بعده من نوع جميل فهو موجود على أبواب معسكر مجمع تشكل من خيام ترفع الإعلام والزينة وعرفنا أن فيها ورشة لإصلاح أو صيانة السيارات التي تعطل فيها شيء، وكذلك لجماعة طبية إسعافية مهمتها مؤقتة في فترة المهرجان فقط، وسألنا الضابط الذي أوقف سيارتنا ما إذا كنا نحتاج لأي نوع من أنواع المساعدة، شكرناه وتابعنا طريقنا، وقلت للسائق لماذا لم تصلح العجلة المثقوبة التي بدلتها فقال إنه ما زال عنده عجلة احتياطة أخرى، والأفضل أن نجد السير حتى نصل ونقوم بإجراءات الإقامة، ثم يقوم هو بإصلاحها في وادأن التي يعرفها هو جيدا، لأنه من سكان أطار بالأصل، ماهي إلا ساعة وكنا في مشارف وادان.

نحن ما زلنا في اليوم الحادي عشر من كانون الأول لعام 2016 م والحادي عشر من ربيع الأول، وصلنا قبل قليل إلى مدينة وادان القديمة الأثرية والتي سيقام فيها بدءا من الغد احتفال المدن القديمة الذي يقام كل سنة في واحدة من المدن القديمة الأربع وادان وشنقيط وولاته وتيشيت، أسبوع من النشاطات الفنية والثقافية والاجتماعية بحضور رئيس الجمهورية الإسلامية الموريتانية وعدد من الوزراء وكبار المسؤولين في الدولة وسفراء العديد من الدول العربية والأجنبية ووفود إعلامية وضيوف مشاركين في أنشطة متنوعة من دول جارة أومن ولايات موريتانية.

الإعلام واللافتات التي تحمل عبارات الترحيب والفرحة بهذه المناسبة كانت تعلو وتحيط بالأبنية التي تطل من هضبة وادان على واحات النخيل في الواديين اللذين يحيطان بالمدينة القديمة والتي سميت أصلا على اسم الواديين الرائعي الجمال.

سألنا عن مكان الإدارةالذي يجب أن نراجعه بخصوص الإقامة، وعرفنا أن المكان يقع في قمة الرابية، وسط المدينة القديمة، فتوجهنا نحوه سائلين عن مسؤول تأمين الإقامة، وكان هناك أكثر من مكان داخل المدينة القديمة مخصص لهذه الغاية، ولم يكن لي اسم فيها، وبعد استعراض الفندق الأخير الموجود في مدخل المدينة الجديد وهو فندق مخصص لمسؤولي الدولة من وزراء وسفراء وجدنا أن اسمي موجود فيه، وهكذا توجهنا إلى هذا الفندق حيث استقبلنا المسؤولون عنه، لكن برزت مشكلة هي أنهم خصصوا لي غرفة بسرير واحد، أما السائق فعليه أن يبات في غرفة نوم جماعية للسائقين أما المرافقين الاثنين فلم يكونا موضوعين في الخطة أصلا، لم أستسغ تمزق الجماعة التي جاءت مترافقة، طلبت من المسؤول تأمين غرفة بثلاث أسرة للمرافقين والسائق، لكنه اعتذر لأن الغرف جميعها مشغولة وأن الضيوف جميعهم من كبار المسؤولين من وزراء وسفراء وثلاثة نواب، وكانت الغرفة المجاورة لغرفتي هي غرفة الفنانة اللبنانية هيام يونس وزوجها ومدير أعمالها، فكرت بسرعة أن أبحث عن حل، لم أجد حلا أفضل من أن نسكن جميعا في الغرفة الصغيرة المخصصة أصلا لي،

فعرضت الأمر على السيد وزير الثقافة الذي ترك لي الأمرإذاكان ذلك لا يضايقني، فوجدت أن إيجابيات الأمرأكثر بكثير من سلبياته، فالجميع موجود دائما ورهن الإشارة للانطلاق إلى أي جهة نريدها دون تضييع الوقت في تجميع الفريق أو البحث عن أحد الغائبين، كما أن الجميع محسوب علي فقد يخطئ أحدهم عندما يكون بعيدا عني، أما وأنا موجود معه فلن يفعل، وقد يغيب أحدهم في مكان ما وينشغل بالنا عليه وخاصة أن الاتصالات الهاتفية شبه معدومة، ولو كانت الغرفة واسعة لكان الأمر مقبولا أكثر، لكنها ليلتان أو ثلاث وتمضي ولا يبقى منها إلا الذكرى، طلبت للشباب ثلاث أغطية وثلاث وسادات من إدارة الفندق : فجاءوا بها جديدة مغلفة جميعها دلالة أنها لم تستخدم من قبل، وكان الشباب الثلاثة مثالا في الأدب والأخلاق والذوق تقاسمت معهم الغرفة واللقمة والأفراح والأتراح وكنا كإخوة يعرفون بعضهم منذ عشرات السنين، كان لدينا بعض الأعمال بعد أن انتهينا من طعام الغذاء الذي كان استثنائيا داخل الغرفة لأنه كان غير ذلك فيما بعد، كان مرافقي المصور أحمد مريضا لابد من مراجعة البعثة الطبية التي رافقه إليها السائق، والذي أصلح العجلة التي ثقبت معنا في الجزء الأخير من رحلتنا بين أطار ووادان، في المساء ذهبت لتناول طعام العشاء في صالون الفندق تلبية لدعوة مدير الفندق، الصالون كان قاعة كبيرة جدا مفروشة بالسجاد الفاخر يحيط به عدد من المقاعد المريحة العصرية، وفي صدر القاعة شاشة تلفزيونية ضخمة كانت من دواعي جذب رواد الفندق لمتابعةالأخبار والبرامج التلفزيونية الأخرى والسهر فيها، وفي نفس القاعة توضع مائدة كبيرة على الأرض للإفطار والغذاء والعشاء لكل ضيوف الفندق يجلس فيها الوزراء إلىجانب الولاة أو النواب إلى جانب الفنانين أو مرافقيهم دون تمييز بينهم، وهذه ظاهرة سبق لي التحدث فيها (ظاهرة انعدام الفوارق بسبب المنصب أو المال في موريتانيا) وقد تحدثت مع السيد وزير الثقافة بعد أن تعارفنا لأننا لم نكن قد التقينا قبل ذلك إلا مرة في حفل عام عند حضور وفود عربية وإسلامية لنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في نواكشوط، لكن هنا تحدثنا

مطولا عن الحفل في الغد وطبعا أول ما تحدثنا فيه مشاركتي وكان رأيه أن أشارك في الليلة الأولى أي غدا بأغنيةواحدة لأن هناك ازدحاما بالمشاركين وأن المخطط وضع قبل أن أضاف أنا إليه، ورأيت في كلامه الكثير من المنطقية، فقلت له: لا بأس أما الليلة الثانية فقال: لك أن تغني فيها بقدر ما تشاء، وهكذا أصبحت جاهزا وأصبح كل شيء واضحا بالنسبة لي على الأقلفأنا لم ألتق قبل ذلك بأحد من طرف الوزارة وأطرها للتحدث بأي شكل من أشكال التفاصيل فأصدقائي هم الذين رتبوا كل شيء مع الوزارة، وإلا كيف تخصص سيارة مع سائقها مع مهمة رسمية لها وللسائق ولمدة تزيد عن الأسبوع، إضافة إلى تأمين الإقامة وفي هذا الفندق بالذات والمخصص لكبار المسؤولين.

إذا حتى الآن كل شيء يسير طبيعيا جدا بل بشكل ممتاز، لا يمكن فيه إلا الشكر والتقدير لكل الجهات المعنية بالأمر، في صباح يوم عيد المولد النبوي الشريف والذي سيكون فيه عيد آخر هو عيد المدن القديمة والذي الدور فيه لوادان هذا العام.

وقد خرج الناس في كرنفال تقليدي: مئات من راكبي الجمال المزينة يصطفون على طرفي الطريق بانتظار قدوم رئيس البلاد وضيوفه بالطائرة التي ستهبط على مهبط ترابي في المدخل الغربي للمدينة وقد ذهبنا بسيارتنا لنشارك ونستمتع بهذا الاحتفال ووجدنا في نهاية فرقة الجمالة مجموعة من الناس تلعب بالكرة الحديدية وهي رياضة تقليدية ومن التراث في موريتانيا، الطريق ترابي والسيارات تروح وترجع والغبار يتصاعد من ورائها، مهرجانات كثيرة كانت تجري احتفاء بهذه المناسبة التي ترافقها مناسبة غالية مقدسة هي عيد المولد النبوي الشريف، وسيفتتحها رئيس البلاد، انطلقنا إلى الربوة العالية التي تتربع عليها وادان والتي كان الناس يتوافدون إليها من كل حدب وصوب من أهالي المدينة أو من جوارها أو من المدن البعيدة ولعدم إمكانية اتساع المدينة القديمة وضيق شوارعها منعت السيارات من الصعود إليها، واضطرت أصحابها أو سائقيها إلى تجميعها في الوادي القريب من المدينة، وكان صعودنا إلى الرابية سيرا على الأقدام، وصلنا إلى السرادق المخصص للاحتفال كانت

هنـــاك منصـــة مســـقوفة ضـــخمة مخصصـــة للضـــيوف تتســـع للمئـــات يقابلهـــا منصـــة صـــغيرة للخطابـــة كـــان مـــذيع الإذاعـــة والتلفزيـــون يعتليهـــا، ثم مالبـــث عريـــف الحفـــل أن اعتلاهـــا عنـــدما أعلـــن عـــن وصـــول رئـــيس الجمهوريـــة وبـــدأ الحفـــل في ضـــحى ذلـــك اليـــوم واســـتمر أكثـــر مـــن ســـاعة ألقـــى فيهـــا وزيـــر الثقافـــة ومـــدير المـــدن القديمـــة واختـــتم رئـــيس الجمهوريـــة بكلمتـــه، ثم انتقـــل الحضـــور يتقـــدمهم رئـــيس الجمهوريـــة وعـــدد مـــن الـــوزراء والســـفراء العـــرب وإلى جانـــب الافتتـــاح كانـــت هنـــاك فعاليـــات الاحتفـــال مـــن صـــناعات تقليديـــة وموجـــودات تاريخيـــة وأثريـــة وافتتـــاح مشـــاريع خدميـــة وإنتاجيـــة للمدينـــة إلى أن اقتربـــت القيلولة وذهب الناس يستريحون استعدادا لأنشطة المساء التي تنتظرهم.

ذهبنـــا إلى الفنـــدق وكـــان التلفزيـــون يعـــرض مشـــاهد الاحتفـــالات في وادان ثم بـــدأت قنـــاة الوطنيـــة تعـــرض اللقـــاء التلفزيـــوني الـــذي ســـجلته ليلـــة أمـــس الأول، واطمأننـــت لإذاعتـــه لكني لم أتابعه كي أستريح لأن هناك ما ينتظرني هذا المساء.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذن الله.

××××

نحـن اليـوم في الثـاني عشـر مـن ربيـع الأول عيـد مولـد الرسـول الكـريم، والمصـادف للثـاني عشـر مـن كـانون الأولعـام 2016م، ونحـن نعـيش إضـافة إلى فرحـة عيـد المولـد الشـريف فرحـة تخـص موريتانيـا وهـي احتفالاتهـا بمهرجـان المـدن القديمـة، والـذي كـان هـذا العـام في مدينـة وادان الأثريـة الجميلـة، بينمـا أكتـب الآن الحلقـة الثامنـة والسـتين، ذكـرني الفـيس بـوك بحلقـة كتبتهـا مثـل اليـوم مـن العـام الماضـي يـوم 14 نيسـان / أبريـل، بـرقم 35 وبالامـس حلقـة رقـم 34 وأمـس الأول حلقـة 33 و حلقـة 32 ولفـت انتبـاهي أنـني كنـت في تلـك الفـترة مـن العـام الماضـي أكتـب أحيـانا كـل يـوم حلقـة وبعـد النظـر إلى تـواريخ هـذه الحلقـات تأكـدت مـن كتـابتي لأربـع حلقـات في ثلاثـة أيام، حيـث كنـت أقضـي قسـما مـن النهـار وأكثـر سـاعات الليـل في الكتابـة وكـم مـن ليـال وأنا منهمـك في الكتابة وفجأة أنظر في الساعة لأرى أنها تشير إلى الخامسة صباحاً.

كـان في داخلـي دافـع خفـي يـدفعني كـي أفـرغ كـل مـا لـدي مـن ذكـريات عـن موريتانيـا خوفـا مـن قـدري الـذي قـد لا يسـمح لي بإتمامهـا وخاصـة بعـد معـرفتي بـواقعي الصـحي الـذي تـردى كثـيرا، ورغـم معـرفتي بأن هـذا السـهر يضـرني كثـيرا لكـن الشـعور الأول كـان يطغـى علـى الشـعور الثـاني فـلا أكـترث لوضـعي الصـحي وأسـتمر في الكتابـة عسـاي أنتهي من كتابة مذكراتي.

أعود ل حلقتي لهذا اليوم بعد هذا الخروج عن الموضوع قليلا:

لقـد تمتعنـا منـذ الصـباح بحفـل افتتـاح المهرجـان وقـد انتهـى حفـل الافتتـاح قرابـة ظهـر اليـوم، وبعـده ذهبنـا لنسـتريح ونسـتعد للاحتفـالات الغنائيـة والموسـيقية والخطابيـة والفنيـة الـتي سـتقام في المسـاء، بعـد الغـذاء والقيلولـة أرسـلت الشـباب المـرافقين لي ليبحثـوا في الإجـراءات ويعرفـوا مجمـل الأمـور المتعلقـة بالـبرنامج والتجهيـزات الإلكترونيـة والفنيـة المتـوفرة والمسـاعدة الـتي يمكـن الاسـتفادة منهـا، وفي المسـاء توجهنـا إلى الربـوة الـتي يحـيط بهـا الـواديان والـتي كانـت يومـا مـا مدينـة تضـج بالحيـاة والحضـارة، ولم يبـق منهـا إلا أثارها.

ركنا سيارتنا بالقرب من مكان الاحتفال وتوجهت إلى المنصة، جلست في مكان له إشراف وإطلالة على المنصة الصغيرة التي سيتم عليها عرض فقرات الحفل بعد أن قدمت شريطا يحمل موسيقى أغاني للفني المشرف على أجهزة التكبير وأوقفته عند أغنية زين الشرك وزين كبله التي سأغنيها لوحدها الليلة كما اتفقت مع السيد الوزير البارحة.

وما هي إلا دقائق حتى حضر راعي الحفل السيد رئيس الجمهورية والوفود المشاركة، وبدأت عريفة الحفل تقدم الفقرات تباعاً، وكان جلوسي في موقع متوسط خلف السفراء وفي الصف الذي أمامهم يجلس كبار المسؤولين والوزراء، اخترت مكانا في أول النسق كي يسهل علي الخروج عندما تأتي فقرتي، بعد دقائق من جلوسي جاء شابان أنيقان يظهر عليهما أنهما عاشا في الخارج فترات طويلة، جلسا بجواري وعرفني الأول على نفسه أنه مدير الإذاعة الوطنية ولد حرمة الله، لم أكن قد عرفته من قبل رغم أنني زرت الإذاعة قبل أيام وسجلت مقابلة مطولة مع المذيعة نورا سمان واستضافني حينها معاون المدير والمدير الفني وعدد من كوادر الإذاعة وتناولنا إفطارا شهيا ومشروبات متنوعة وقيل لي حينها إن المدير مسافر مع وفد الرئيس، وهأنذا ألتقيه صدفة هنا، وستجمعني به لقاءات عدة أهمها لقاء تكريم الإذاعة الذي سيأتي ذكره فيما بعد، أما الشخص الآخر الذي كان يرافقه فهو: أحمد ولد البو عرفت عنه فيما بعد أنه خريج أدب صيني يتقن العربية والفرنسية وهو إعلامي مشهور يشرف حاليا على الإنتاج الأدبي والفني الحساني، وكان لنا أحاديث جانبية بين الفقرات؛ والتي كانت أي الفترات بين الفقرات للتبديل بين فقرة وأخرى، وكانت تطول أحيانا أكثر من وقت الفقرة بالذات وهذه واحدة من السلبيات التي حصلت في الحفل حيث كان من المفروض تدريب الفرق على تجهيز نفسها قبل انتهاء الفقرة السابقة لهم بحيث يخرج الفريق المنتهي من فقرته ويحل مباشرة الفريق الآخر الجديد وفي هذا الوقت الضائع القصير جدا، يمكن للمذيعة أن تملأه بتعليق بسيط وقد كانت المذيعة مجيدة في الفواصل لكنها لم تكن مستعدة لفاصل يبلغ عددا ليس بالقليل من الدقائق

(علما أن الحفل يبث على الهواء إذاعيا وتلفزيونيا) وقد خلق هذا الأمر جوا من الارتجال والفوضى حيث دخل أشخاص لم يكونوا في برنامج الحفل وتحدثوا أو ألقوا شعرا فصيحا أوحسانيا، وأنصح أن يتلافى المسؤولون عن حفل العام القادم هذه السلبية الكبيرة التي سببت إحراجا للتلفزيون والإذاعة وتشويها للحفل، وفي كل الأعمال الفنية هناك شيء اسمه بروفا جنرال تقام قبل الحفل بساعات وتكون على المسرح وتكون بالعادة صورة طبق الأصل عما سيتم وقت الحفل لمعرفة ما يمكن أن يقع من أمور خاطئة من أجل تلافيها.

قالت مذيعة التلفزيون منذ بداية الحفلة إن هناك مفاجأة أو مفاجآت، واعتقدت أن تقديمهم لي هو ما يعتبرونه المفاجأة. كانت الفقرات تتتالى تباعا ولن أعلق على ما قدم من فقرات فقد كان فيها الغث والسمين، ولن أتطرق للتقييم أو النقد لأن ذلك لا يعنيني. وفي آخر كل فقرة كنت أظن أن فقرتي هي التالية، بعد أن اقترب وقت البرنامج على الانتهاء وجدت الأخ أحمد ولد البو الجالس بالقرب مني وبجانب مدير الإذاعة يذهب إلى المسرح وبعدها بقليل وجدته يناديني أن أحضر إلى المسرح فحملت عودي وتوجهت إلى كواليس المسرح وفي طريقي إلى الكواليس سمعت المذيعة تقول والآن مع الفقرة الأخيرة من هذا الاحتفال، وهي فقرة لفرقة أظن أنها كانت من مالي.

وهنا تدخل الأخ أحمد البو وغيره كثر من أجل تعديل الموقف، لكن المذيعة كانت قد قالت أن هذه هي الفقرة الأخيرة وعند انتهائها وقف السيد رئيس الجمهورية فوقف ضيوفه وانعطفوا يمينا باتجاه المخرج الذي دخلوا منه في أول الحفل، وفي حالة كهذه لم يعد مجال للتراجع.

وهنا لابد لي من شرح الموقف الذي تحدثت فيه الصحافة والناس كل كما يحلو له أو من فهم الموضوع: وللحقيقة والواقع أقول بما عرفتموه عني من صدق وصراحة ودون مجاملة لأحد: أولا السيد رئيس الجمهورية غادر دون أن يعرف أن هناك فقرة أخرى لأن المذيعة سبق وقالت إن هذه هي الفقرة الأخيرة وسيادته لم يرني وهو خارج لأني

كنت وراء الكواليس، وأقول هذا لأن هناك من كتب أو قال إن الرئيس غادر بينما أنا على المسرح بل أناالذي صعدت على المسرح بطلب من المذيعة التي لم تكن تدري بوجودي أصلا في وادان، ويمكن لو أنني جئت إلى الكواليس قبل فترة لكان الموقف تغير باتجاه آخر، لكنني وجدت أن مكانتي لاتسمح لي أن أنتظر دورا أستجديه إذا لم يكن موجودا، إذ سيادة الرئيس ليس له أي علم حتى لحظة خروجي إلى المسرح بوجودي في وادان.

ثانيا المذيعة كانت تقرأ ما هو مكتوب أمامها، ليس إلا.

ثالثا مسؤول تنظيم مهرجان المدن القديمة لم يطلب إليه أحد إضافة اسمي والبرنامج موضوع منذ فترة ليست بالقصيرة، أي قبل وصولي إلى موريتانيا، أو على الأقل قبل قرار مشاركتي الذي اتخذته الوزارة وتخصيص سائق وسيارة.

وفي الحلقة القادمة نتابع الموضوع الذي أثار جدلا حينها ولم أشأ التعليق عليه في حينه فبلدي الذي أحببت موريتانيا يكفيه ما فيه وليس من المحبة في شيء أن أكون أنا سببا لحساسيات ومشاكل قد تستغل، وهكذا بدأت بكتابة متمهلة للحلقات على الطريقة الموريتانية في معالجة الغضب فقد غضب أصدقائي كثيرا كما غضبت أنا أيضا، لكن على الجميع أن يقدروا كل الظروف التي سبقت ورافقت وأعقبت الموضوع.

إلى اللقاء في الحلقة القادمة بإذن الله.

××××

مـا زلنـا في وادان وفي مسـاء عيـد المولـد النبـوي الشـريف، وفي مسـاء حفلـة وادان ومـا زلـت في مكـان الحفـل، لم يكـن الموقـف الـذي أنا فيـه الآن موقفـا محببـا لي بـل كـان عكـس ذلـك، كنـت متضـايقا غايـة الضـيق، لكنـني لا أعـرف حقيقـة مـا حصـل ولا سـببه، ووضـعت حسـن الظـن قبـل السـوء بـه، وفي مواقـف كهـذه لا بـد للإنسـان أن يفكـر بسـرعة هائلـة كـي يتخـذ مواقـف لا ينـدم عليهـا، بـل يجـب أن تكـون هـذه المواقـف غـير قابلـة للتسـبب في أيـة إسـاءة لأي طـرف مـن الأطـراف، والبـدء مـني كطـرف أساسـي، ومـرورا بجمهـوري الـذي يتـابعني في التلفزيـون، والآخـر الـذي هـو معـي في مكـان الحفـل وقـد بقـي المئـات لم يغـادروا بـل رجـع الـبعض بعـد أن غـادروا كـي يسـتمعوا إلي، كمـا أن جمهـوري الواسـع الـذي حـتى لـو لم يكـن يتـابع التلفزيـون إلا أنـه يتـابع أخبـاري الفنيـة والشخصـية، عـن طريـق وسـائل الاتصـالات المتنوعـة ووسـائل الإعـلام المختلفـة، كمـا يجـب أن لا ننسـى المركـز العـربي الافريقـي الـذي كـان لـه الفضـل في دعوتي لزيارة موريتانيا فهو معني بما جرى.

كـان أمـامي خيـارات كثـيرة لكنهـا كانـت ستتسـبب لي أو للبلـد بـبعض السـلبيات الـتي لا أفضـلها ولا أرغـب بهـا. بالمناسـبة لم يكـن بيـني وبـين أصـدقائي وجمهـوري في نواكشـوط أي اتصـآلات بسـبب ضـعف النـت الشـديد، لكـن أصـدقائي كـانوا يتـابعونني في التلفـزة وانتظـروا الفقـرة الـتي سـأغني فيهـا ثم شـاهدوا ماحصـل وهنـا ثأرت تائـرتهم وكتـب الكثـيرون مقـالات تهـاجم المتسـببين في ذلـك، حـتى إن الـبعض اسـتخدم عبـارات جارحـة لم أكـن علـى علـم بهـا إلا في صـباح اليـوم التـالي عنـدما كنـا نتنـاول طعـام الإفطـار بصـحبة السـيد وزيـر الثقافـة والـوزراء الآخـرين والنـواب في فنـدق الضـيافة، أعـود إلى مكـان الحفـل حيـث اتفـق الحاضـرون وعلـى رأسـهم الـدكتور أحمـد ولـد البـو والمذيعـة ومـدير المهرجـانأن يقـدموني للجمهـور وأقـدم الأغنيـة الـتي كنـت أصـلا سـأقدمها وأن يكـون التعـويض في الغـد حيـث أغـني العـدد الـذي أرغـب مـن الأغـاني، وجدتـه حـلا وسـطا يحـل المشـكلة بشـكل هـادئ، دون خلـق مشـكلة تسـبب بأيـة سـلبيات،

وصـــعدت إلى المســـرح وغنيـــت أغنيـــة زيـــن الشـــرك وزيـــن كبلـــة وســـاحل موريتـــان لمـــن حضـــر وكـــانوا يقـــدرون بنصـــف الحضـــور الأصـــلي تقريبـــا، انتهيـــت مـــن الغنـــاء واتجهنـــا نحـــو الفنـــدق، وفي الطريـــق إليـــه وكـــذلك بعـــد وصـــولي برفقـــة المـــرافقين المصـــور والصـــحفي وكـــذلك الســـائق كـــان لكـــل مـــنهم رأي فيمـــا حصـــل، كـــان في ذهـــني ســـيناريو كنـــت متحمســـا لـــه وهـــو أنأغـــادر في الصـــباح البـــاكر إلى نواكشـــوط دون الاســـتمرار، لكنـــني كنـــت قـــد وعـــدت شخصـــا قـــد دعـــاني إلى تنـــاول الغـــذاء في بيـــت صـــهره الـــذي قـــام هـــو نيابـــة عنـــه بـــدعوتي، والشـــخص هـــو ســـيدي حامـــدينو وهـــو صـــحفي وسياســـي معـــروف ومكـــان الـــدعوة كـــان بيـــت صـــهره رجـــل الأعمـــال الســـيد محمـــد ولـــد الهيبـــة، وبمـــا أنـــني تعـــودت طـــوال حيـــاتي أن ألتـــزم بوعـــودي، قلـــت في نفســـي لـــن أتراجـــع عـــن مبـــدإ طالمـــا حافظت عليه وهو الوفاء بالعهود والوعود.

أصـــدقكم القـــول أنـــني تضـــايقت كثـــيرا لأني أصـــلا أتيـــت لأشـــارك ولـــيس لأتفـــرج والـــدليل هـــو الســـيارة المقدمـــة مـــع ســـائقها والمهمـــة المكتوبـــة المعطـــاة للســـائق وتأمـــين المبيـــت الممتـــاز والطعام كذلك.

ليســـت هـــي المـــرة الأولى الـــتي أصـــادف فيهـــا مثـــل هـــذه المواقـــف، فقـــد ســـبقها مـــرات عـــدة أجابـــه فيهـــا مواقـــف تظهـــر أنهـــا صـــدفة أو أمـــر عـــارض لكـــن الواقـــع أن وراء الأكمـــة مـــا وراءهـــا، وفي كـــل مـــرة أتجاهـــل الأمـــر ولـــيكن هـــذا أيضـــا مـــع كـــل تلـــك المـــرات، وكـــم مـــن مواقـــف تجاهلتهـــا ووقـــف أصـــدقائي وجمهـــوري معـــي ومســـحوا الموقـــف واســـتبدلوه بعكســـه تمامـــا، وهـــؤلاء الســـلبيون هـــم مـــن يفتعـــل هـــذه الـــوخزات، أو مـــن وراء هـــذه المواقـــف قلـــة نادرة أعرفهم، لكنني لا أكترث بهم لأن الأكثرية الساحقة معي وليست معهم.

لـــذلك قـــررت أن أبقـــى فـــألبي دعـــوة الأخ محمـــد ولـــد الهيبـــة في المقيـــل، ثم أغـــني في المســـاء في المهرجان، ثم قد نغادر في الغد أو بعد الغد إنكان هناك برامج تتطلب وجودي.

ومـــن طبيعـــتي الصـــحية أنـــني أمـــرض عنـــدما أتضـــايق كثـــيرا مـــن أمـــر مـــا، وقـــد اســـتيقظت وأناأشـــعر بانحطـــاط في كـــل قـــواي، ورغـــم ذلـــك توجهـــت إلى الصـــالون الكبـــير للفنـــدق

لتناول طعام الفطور مع السيد الوزير وعلى هامش الإفطار كان هناك حديث للسيد الوزير عن الحفل وما حصل وكنت أنا بانتظار مثل هذا التوضيح.

فبادر السيد الوزير قائلا: "إن صديقك محمد سالم ولد داه قد كتب فينا كذا وكذا." أجبته قائلا: "أنا هنا منقطع عن العالم فالنت غير موجود، حتى هاتفي الموبايل ليست فيه تغطية." وقلت له، "أنا لم أخبره بشيء بل علم الناس جميعا بكل ما جرى، ثم علمت بعد ذلك أن العشرات غيره أيضا قد كتبوا منتقدين بشدة ما حصل." وكان الضيق الشديد يظهر على ملامح وكلام السيد الوزير من هذه الكتابات فقلت له: "إنه " لا تزر وازرة وزر أخرى"، أليس صحيحا؟ فليس ذنبي أنا أنهم كتبوا ولاحكم لي عليهم في هذا الخصوص."

ثم طرحنا الموضوع بصراحة تامة مني ومنه فقلت له: " ألم نكن قد اتفقنا أنني سأغني في الليلة الأولى أغنية واحدة وفي الليلة الثانية عدة أغانٍ؟" قال: "نعم، لكن هناك أمر هو أنك لو غنيت فيجب أن نعاملك معاملة المطربة هيام يونس، فلقد دفعنا لها ولمرافقيها بطاقات طائرة درجة أولى ذهابا وإيابا، وخمسة عشر ألف دولار مكافأة، عدا عن تأمين الإقامة لها ولمرافقيها وهما اثنان زوجها ومدير أعمالها الفنية، والإقامة في وادان ونواكشوط لعدة أيام قبل وبعد الحفل في أرقى الفنادق، وهو قرار يحتاج إلى دراسات وموافقات من أكثر من جهة عليا." والسيد الوزير محق في هذا من جهة، لكنه لو قال لي هذا الكلام بالأمس لقلت له أني أتطوع بالغناء هدية مني للشعب الموريتاني الذي لا أعتبر نفسي إلا واحدا من أبنائه، وأردف قائلا: "لكننا سندعوك كما دعونا هيام يونس هذا العام سندعوك في العام القادم كمطرب عربي نقدم لك ما قدمناه للفنانة هيام يونس، وبإمكانك أن تغني الليلة لأن البرنامج البارحة كان مضغوطا." كان هذا الحوار على مائدة الإفطار في صالة الفندق الذي كان يستضيفنا في وادان، غادرت الفندق مع السائق متجها نحو البعثة الطبية كي أحصل على بعض الدواء لأني شعرت بانحطاط ووهن عام في جسمي، وذلك قبل أن يتفاقم ذلك وأنتقل إلى المرض الواضح، واستقبلنا أطباء البعثة الطبية التي رافقت ضيوف

المهرجـــان لمعالجـــة كـــل مـــا يطـــرأ مـــن مشـــاكل في مجـــال الصـــحة، وكـــان اســـتقبالهم حـــافلا وأعطـــوني العـــلاج المناســـب وكـــانوا يقومـــون بـــذلك لكـــل مـــن جـــاء حـــتى مـــن أبنـــاء المدينـــة أومـــن جاورهـــا، حيـــث كانـــت فرصـــة للنـــاس للاســـتفادة مجـــانا مـــن المعالجـــة والـــدواء، ثم رجعـــت للفنـــدق اســـتعدادا لمهمتـــين: المهمـــة الأولى تلبيـــة دعـــوة الســـيد محمـــد ولـــد الهيبـــة ظهرا، والغناء مساء في حفل اليوم الثاني لمهرجان المدن القديمة.

وإلى الحلقة القادمة بإذنه تعالى، أستودعكم الله.

××××

نحن اليوم في الثالث عشر من كانون الأول عام 2016م والثالث عشر من ربيع الأول، أي في اليوم الذي أعقب حفلة افتتاح مهرجان المدن القديمة في وادان والذي حصل فيه ما ذكرته في القصاصة السابقة لهذه الحلقة مباشرة، وذكرت نقاشي صباح هذا اليوم على مائدة الإفطار مع السيد وزير الثقافة، ثم مراجعتي للبعثة الطبية في وادان بسبب شعوري بوعكة صحية مع ترحيبهم بي وتقديمهم ما يجب من علاج مشكورين على حسن استقبالهم لي.

وما زلت على موعدين هذا اليوم، موعد مقيلي في بيت رجل الأعمال محمد الهيبة (الذي هو اليوم سفير موريتانيا في الإمارات) والذي دعاني نيابة عنه البارحة الأخ سيدي حامدينو، وموعد حفلة الليلة الثانية مساء على مسرح مهرجان المدن القديمة. اقترب الظهر طلبت من مرافقي أن يكونوا معي على دعوة الغذاء، اعتذر السائق لأنه سيصلح عجلة السيارة التي ثقبت يوم قدومنا ولم يجد ظرفا مواتيا لإصلاحها، أما الصحفي والمصور فقد أبديا موافقتهما على مرافقتي، جاء الأخ سيدي حامدينو بسيارته وانطلقنا نحو مكان الدعوة، وبالصدفة كان المكان لا يبعد عنا، لا بل وفي نفس الاتجاه وعلى امتداد طريق الفندق، وصلنا إلى البيت الذي دعانا صاحبه إلى المقيل عندهم: بيت ماشاء الله، وتبارك الله، كل مافيه يشع بالنور: البناء تبارك الله آية في الجمال، والأجمل من ذلك الحديقة الغناء التي تحوي عشرات أو مئات من أشجار النخيل، بكل أنواعه الموريتانية، بل والإماراتية والسعودية بل من أنحاء العالم الأخرى، وأشجار الفواكه المختلفة من خوخ ورمان وزيتون وبرتقال وزراعات للخضار والقمح والشعير والذرة إلخ. اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واجعلهم يرون كل الخير فيه.

إن الأخ محمد الهيبة من الناس الذين أنعم الله عليهم، ويتنعمون بنعمة الله عليهم بل يجعلون غيرهم يتنعم معهم، فكلما زار بيت إقامته الصيفي هذا لابد أن يكون الكثير من الضيوف يشاركونه فيما أنعم الله عليه فيه، والدليل على كلامي هو الخيمة

الكبـيرة والمزينـة والجميلـة وفرشـها المناسـبة، وبنـاء آخـر مبـني بالحجـارة الملونـة كمَضـافة كبـيرة واسـعة، محركـات لضـخ المـاء لسـقاية الواحـة الغنـاء وبـرك للمـاء، وعرفـت منـه، أن مسـكنه الـدائم هـو في نواكشـوط حيـث يـدير أعمالـه ومشـاريعه هنـاك، أمـا هـذا البيـت فهـو للكيطنـة وللاسـتراحة كلمـا سـنح لـه الوقـت بـذلك، أعـود وأقـول ماشـاء الله وتبـارك الله وبارك الله لـه فيمـا رزقـه وأعطـاه، فعـلا مكـان يـدخل السـرور والفـرح والهـدوء إلى النفس.

كـان مكـان المقيـل خيمـة لم أر لجمالهـا مثـيلا مـن الزخرفـة والاتسـاع، ولا يقـل عـن ذلـك مفروشـاتها الجميلـة، الطعـام كـان متميـزا جـدا، عمـوده الفقـري التمـر بأنواعـه ومشـتقاته والأطعمـة المصـنوعة منـه، إضـافةإلى ناقـة ذبحـت علـى شـرفي، وأنـواع كثـيرة مـن الأشـربة والألبـان الطازجـة مـن حليـب النـوق ومنتجـات زبـد وسمـن ولـبن رائـب، هنـاك أمـر أخفيتـه عـن مضـيفي وهـو مرضـي، حيـث كانـت بطـني تـؤلمني جـدا ممـا جعلـني لم أتنـاول إلا كميـات محـدودة جـدا وكنـت أتظـاهر بالأكـل حـتى لا يـؤثر ذلـك علـى طعـام الضـيوف الكثر الذين أولموا معي.

ورغـم أنـني مولـع بكبـد الجمـل وذروتـه وبالتمـر وحليـب النـوق فلـم أتنـاول إلا القليـل جـدا منهـا بسـبب المـرض وكنـت متألمـا جـدا علـى كـون ألـذ مـا أحـب أمـامي وأنا لا أسـتطيع تناوله.

كـان مقـيلا رائعـا حضـره معـي كوكبـة مـن أعيـان ادرار ووجهائهـا إضـافة إلى مفاجـأة خبأهـا لي الأخ محمـد الهيبـة: حيـث قـال لي: "لقـد دعـوت لـك شخصـا تحبـه وهـا هـو يـدخل إلى الـدار وأريـدك أن تتوقـع مـن هـو." ومـا هـي إلا دقـائق ويـدخل الخيمـة شـخص لـيس غريبـا عـني شـكله، بـل هـو جـزء مـن ذاكـرتي، لكـن بعـد الـزمن الـذي فصـلني عنـه وتغيـيرات هـذا الـزمن الطويـل في شـعره ووجهـه، ونظـارات لم يكـن أصـلا يضـعها علـى عينيـه، كـأنني أعرفـه جيـدا ولا أعرفـه، لم أتمكـن مـن تحديـد هويتـه إلا بعـد أن تحـدث فسـاعدني صـوته أن أعـرف أنـه صـديقي الفنـان سـدوم ولـد ايـده الـذي باعـدني عنـه زمـن يزيـد علـى خمـس وثلاثـين سـنة، فعـلا كانـت مفاجـأة سـارة قـدمها لي

أخـــي محمـــد الهيبـــة، كـــان مقـــيلا متميـــزا ســـاعات مـــن الفـــرح والســـعادة، وجـــوه نـــيرة مـــن وجهـــاء موريتانيـــا جمعتهـــا هـــذه الخيمـــة الجميلـــة، أحاديـــث مشـــوقة مـــن رجـــالات عركتهـــا الحيـــاة، فواصـــل غنائيـــة وعـــزف علـــى العـــود مـــني، صـــور تذكاريـــة رائعـــة تحـــت هـــذه الخيمـــة، وعـــبر الأشـــجار الوارفـــة الظـــلال، والمتنوعـــة فاكهتهـــا وخضـــرواتها، وأنـــواع الحبـــوب المزروعـــة، فعـــلا إن الـــزمن لا يقـــاس في الواقـــع بعـــدد الســـاعات أو الأيام أو الأشـــهر أو الســـنين بـــل بلحظـــات الســـعادة الـــتي يعيشـــها الإنســـان في حياتـــه، وبالنســـبة لي فقـــد اعتـــبرت هـــذه الســـاعات الـــتي تعـــد علـــى أصـــابع اليـــد الواحـــدة تزيـــد بقيمتهـــا عـــن أيام أو أشـــهر عشـــتها في أوقـــات أخـــرى غيرهـــا، وقـــد ذكـــرتني جلســـتنا هـــذه بالأيام الخـــوإلي في ســـبعينات وبدايـــة ثمانينـــات القـــرن الماضـــي، إضـــافة لكـــل مـــا ذكـــرت مـــن مقومـــات جميلـــة ومتميـــزة لمكـــان الضـــيافة، كـــان المضـــيف متميـــزا فهـــو لبـــق بشـــوش واســـع الاطـــلاع وخبـــير في كـــل مـــا زرع وعمل في أرضه وخبير في الحياة الاجتماعية خاصة.

والضـــيوف متميـــزون جـــدا فبيـــنهم الأمـــراء، والـــوزراء الســـابقون، ورجـــال الأعمـــال، والفنانون، والشعراء ووجهاء المنطقة.

إكـــرام لكـــل الضـــيوف، ولي بشـــكل خـــاص أشـــكر أخـــي محمـــد الهيبـــة علـــى كـــرم الضـــيافة ولباقتها، أدامه الله وأدام النعمة عليه وعلى أفراد أسرته الكريمة.

وأشـــكر صـــديقي ســـيدي حامـــدينو الـــذي كـــان صـــلة الوصـــل بيـــني وبينـــه فعـــرفني عليـــه، وأدعو الله أن يجمعني بهم في أوقات سعيدة مثل التي جمعتنا في وادان.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذن الله في الأسبوع القادم.

××××

ما زلنا في اليوم الثالث عشر من كانون الأول ديسمبر 2016 م، والثالث عشر من ربيع الأول واليوم الثاني من احتفالية المدن القديمة المقامة في مدينة ودان الأثرية، انتهينا من مقيل جميل متميز في بيت رجل الأعمال الأخ محمد الهيبة، تحدثت عنه في الحلقة السابقة، صلينا الظهر كما صلينا العصر في مكان مقيلنا وبعد الانتهاء من صلاة العصر استأذنت مضيفي بالمغادرة كي أستريح قليلا استعدادا لحفلة المساء، أوصلنا صديقي الأخ سيدي حامدينو بسيارته إلى الفندق، دخلت لأستريح وقد قدر مرافقي ظرفي ليتركوني أنام حيث ذهب السائق ومعه الصحفي والمصور لمتابعة الإجراءات الفنية المتعلقة بأمسية الليلة التي سيكون لي مشاركة متميزة فيها كما اتفقنا مع السيد الوزير !

اقترب المساء وبدأت استعداداتي للحفلة وفجأة وصلني خبر من مرافقي المتواجدين في مكان الحفل ضمن الاستعدادات والتهيئة للحفلة. كان خبرا صاعقا لم أصدقه في البداية، والخبر مفاده أن فقرتي الفنية التي سأقدمها قد ألغيت. لم أفهم الخبر وبدأت التحقق من صحته، فكيف أتفق في الصباح على تصحيح خلل البارحة مع السيد الوزير، ونعود إلى نقطة الصفر من جديد في المساء؟ وقد طلبت من المستخدم الخاص الذي يقوم بخدمة السيد الوزير في الفندق أن يخبره بأنني أريد مقابلته، وقد قال له الوزير أن أنتظره وأن لا أذهب للمسرح قبل أن ألتقيه.

كنت محتارا مما يحصل فمرة أقول في نفسي إن خطأ ما قد حصل؟ فيمكن أن يكون ما وصلني من خبر هو تصرف شخصي لبعض العاملين أوالمسؤولين عن المسرح، ثم أرجع للمنطق فأقول لا يمكن لأي موظف أن يتصرف بتصرف من هذا النوع دون أن يكون للسيد الوزير علم بذلك بل بتوجيه منه؟

اقترب الوقت بل بدأ الوقت يزيد عن موعد الحفل، أنا ما زلت في صالة الفندق الكبيرة أشاهد التلفزيون، لكنني في الحقيقة أعيش حالة من التوتر تتزايد كلما زاد الوقت واقترب موعد الحفل أو زاد عليه، بدأ عمال الفندق يعدون لطعام العشاء،

وأطل السيد الوزير وجلس بالقرب من مكان جلوسي، وكنت متلهفا إلى ما سيقوله، وكان ما قاله السيد الوزير ما يلي: "بإمكانك أن تذهب للحفل لتشاهد فقرات الليلة، لكن دون أن تشارك أنت فيها." طبعا كان كلاما غريبا من عدة جوانب:

الجانب الأول أننا اتفقنا بالأمس صباحا على أمر ثم ألغيناه (السيد الوزير من ألغاه من طرف واحد) لأسباب لم أقتنع أنا بها، لكنني أقنعت نفسي ظاهريا بالاقتناع لأنني لا أريد أن أسيء الظن بل أن يكون ظني حسنا بالنوايا، هذا بالأمس، أما اليوم فنحن اتفقنا في صباح هذا اليوم مرة أخرى جديدة وبعد تصفية الأمور وتوضيح الأسباب عما حصل في برنامج حفلة الليلة الأولى، وبعد أن تقبلت الظروف والأسباب ولو في الظاهر، أما الآن فماذا أقول لنفسي؟ الأمر الغريب الثاني: لماذا جئت أنا من نواكشوط ؟ هل جئت لأمتع ناظري بمشاهد فنية كثير منها كان يحتاج إلى كثير من الجهد لتبتعد عن الارتجال وتنظيم يجب إعادة النظر فيه؟ نعم كان يمكنني أن آتي للزيارة رغم وضعي الصحي الصعب وقطعي لمئات عديدة من الكيلومترات قسم منها ترابي مغبر وأنا في عمر يزيد عن السبعين بعامين، كان يمكن أن آتي للزيارة فقط، لكن أن أعرف ذلك وأنا في نواكشوط أنني ذاهب كناقد فني أريد أن أكتب تقييما لفقرات الحفل لا للمشاركة فيه.

الأمر الغريب الثالث: هو أن الوزارة خصصت سيارة وسائقا وإقامة في فندق ممتاز، وما يعنيه هذا حتما أنني مشارك ولست متفرجا.

والأمر الغريب الرابع: والأكثر غرابة هو كلام يقال في صباح اليوم ثم يحصل عكسه في المساء وليومين متتاليين. فعلا بقيت في حيرة في أمري، بل أصدقكم القول أني ما زلت لا أعرف جوابا لما حصل كي أكون دقيقا في نقل ما جرى وكي لا يبقى الحديث منقوصا فيؤدي ذلك إلى تشويه للحقيقة، فقد أضاف سيادة الوزير إلى طلبه مني أن أذهب إلى المسرح ليس للمشاركة بل للتفرج، بل أردف قائلا أن سبب إلغاء فقرتي كان، لأن كثيرا من الناس قد كتبوا في وسائل الاتصال والإعلام كلاما متنوعا ومزعجا عن الليلة الأولى.طبعا كان ردي هو الإصرار على ما قلته صباحا

بأنه لا علاقة لي بما قاله جمهوري أو أصدقائي، (والذين فعلوا ذلك نصرة لحق بيّن)، لكن فعلا لم يكن لي رأي فيما كتبوا، وكررت للسيد الوزير (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

طبعا كان ردي منطقيا جدا وبكل تهذيب قلت للسيد الوزير: "لقد أتيت لأشارك وليس لأتفرج." وقد اتصل بي بعض الأصدقاء بصعوبة ليعرفوا حقيقة ماحصل بالأمس وقد أخبرتهم بالوجه المتفائل فقط، وأخبرتهم أن الموضوع سوف يصلح الليلة، لكنني لم أجد ما أقوله لهم الليلة بعد ما سمعته من كلام، لم أستطع أن أجد لهم تبريرا له، وهنا حدثت أمور لم أطلع على كنهها لكني لمستها من تغيير جديد لموقف السيد الوزير مرة أخرى صباح اليوم الثالث حيث وعدني أن أكون في العام القادم مدعوا إلى حفل المدن القديمة في تيشيت وأكون أنا هو المدعو العربي من خارج موريتانيا كما كانت لعام 2016م الفنانة هيام يونس.

إن خبرتي في الحياة وطريقتي في الملاحظة والتحليل والتركيب والتأمل ودراساتي وكتاباتي في علم النفس كثيرا ما تفيدني في حل الألغاز، لكنها كثيرا ما تشعرني بألم شديد، كم تمنيت أن لا أمتلك هذه القدرات حتى لا أعاني ما أعانيه، فأتذكر قول فيلسوفي المفضل من الفلاسفة الغربيين شوبنهاور في مقولته المشهورة (كلما ازداد الإنسان علما ازداد ألما) طبعا لا أدعي العلم الزائد فأنا طالب علم ليس إلا، لكنني أحسن التأمل والملاحظة والتحليل والتدقيق فيها.

وإلى حلقة قادمة إن شاء الله أستودعكم الله.

××××

نحـــن في صـــباح يـــوم الرابـــع عشـــر مـــن كـــانون الأول/ ديســـمبر عـــام 2016م نحـــن جـــاهزون لمغـــادرة مدينـــة ودانالغاليـــة والـــتي طالمـــا حاولـــت زيارتهـــا وأختهـــا شـــنقيط، عنـــدما كنـــت أزور أطـــار لكـــن الظـــروف كانـــت دائمـــا تحـــول دون ذلـــك، وقـــد أردت أن تكـــون شـــنقيط هـــذه المـــرة ضـــمن زيارتي علـــى الأقـــل في طريـــق العـــودة مـــن وادان، لكـــن جاهزيـــة السـيارة حالـت دون ذلـك أيضـا، وشـبيه هـذا حصـل لي يومـا في (سـنة واحـد وتسـعين وتسـعمائة وألـف) عنـدما كنـت متجهـا إلى مدينـة النعمـة مـن مدينـة العيـون و تعطلـت السـيارة في منتصـف الطريـق وعـدنا أدراجنـا إلى العيـون لتصـليح السـيارة والعـودة منهـا إلى نواكشـوط، وموقـف آخـر أدبإلى العـودة مـن رحلـة كنـت قـد أعـددت لهـا كـل شـيء إلى بـير أم كـرين في الثمانينـات عنـدما تاهـت بنـا الطـائرة العسـكرية في الصـحراء بسـبب الغبـار الشـديد والـتي كـان يقودهـا الطيـار المرحـوم ولـد الطـاهر حيـث كنـا متجهـين حينهـا إلى بـير أم كـرين، لتضـاف بـير أم كـرين إلى النعمـة وإلتيشـيت وولاتـه وشـنقيط هـذه المـدن الغاليـة الـتي كنـت أتمـنى رؤيتهـا لأقـول بعـدها أني عرفـت كـل موريتانيـا مـن شمالهـا إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها؟

أعـود لرحلتنـا مـن وادان عائـدين إلى نواكشـوط فقـد انطلقنـا في الطريـق الـترابي والوحيـد متجهـين إلـأطـار الـتي سـنقيل فيهـا (لأننـا مـدعوون إلى الغـذاء في بيـت أهـل اعـل الشـيخ ولـد المـم رحمـه الله)وقـد اتفقـت علـى أن تكـون زيارتي لهـم في طريـق العـودة كـي يكـون لـدي متسـع مـن الوقـت، وكـي لا يلاحقـني الوقـت، وخاصـة أني سـأزور ضـريح شـيخي الجليـل الـذي توفـاه الله في فـترة غيـابي عـن موريتانيـا، والـذي لم أزره مـن أوائـل الثمانينـات، حيـث كنـت أزوره كلمـا جئـت إلـأطـار، الطريـق غايـة في الجمـال فجبـال النـور تحـيط بـك وتقـدم لـك هـواء علـيلا عـدا عـن الشـعور الخاصـالذي يـدخل نفـس الإنسـان عنـد الارتفـاع إلى الأعلـى فأنـت أعلـى مـن سـطح البحـر بمئـات الأمتـار، هـواء لا أنقـى منـه لأنـه بعيـد جـدا عـن كـل أشـكال الملـوثات الـتي تخلفهـا المـدن مـن ملـوثات شميـة أو سمعيـة أو بصـرية أو عضـوية، لـولا وجـود الغبـار الـذي يغمـرنا بـين الفينـة

والأخرى عندما تتجاوزنا سيارة أو نتجاوز نحن سيارة، أو نلتقي بسيارة متجهة عكس وجهتنا، صحيح أننا جميعا متهيئون للموضوع فالعمامة هنا لا تترك غير العينين ظاهرا من الرأس، وهناك آليات خاصة بهذا الموضوع تجر ورائها قطعة كبيرة من الخشب تمهد الأرض وتسويها ولتبعد كماً كبيرا من الأحجار التي هي أصلا من تكوين تلك التربة والتي يمكن أن تكون أشبه برصاص عندما تنطلق من تحت عجلة سيارة تمر بحافة عجلتها عليها، كما تكون سببا في عطب العجلات كما حصل معنا في ذهابنا إلى وادان، بل تكرر ذلك وفي مكان قريب من نفس المكان في طريق العودة، حيث اضطررنا إلى تبديل العجلة، وكانت فرصة لي أن أستريح وأنزل لأمتع ناظري بتلك الطبيعة الخلابة، ونلتقط بعض الصور التذكارية التي تشاهدون بعضها مع الحلقة، وما هي إلا ساعة ونكون في أطار، نحن الآن على أبواب أطار التي تغيرت كثيرا عما عرفتها في السبعينات وأوائل الثمانينات فالطرق جميعها كانت ترابية من قبل اكجوجت بعشرات الكيلومترات وإلى أطار وما بعد أطار، وهذا ينطبق على الشوارع داخلها حتما، فأكثر الشوارع الآن باتت مزفتة ولها أرصفة، وأبنية عصرية ومحال تجارية حديثة انتشرت على أطراف تلك الشوارع، وأنواع من الحرف المتعلقة بالتكنولوجيا كمحال الموبايلات وتوابعها والنت وكذلك الصحون اللاقطة، بل وحاجات البناء الحديث وتجهيز البيت بوسائل الترفيه التي كانت نادرة إلا عند من رحم ربي؟

نعم فالطريق إلى بيت شيخنا الجليل رحمه الله تغيرت عليّ ولولا أن سائقنا من أطار لاضطررنا إلى السؤال لمعرفة وجهة البيت فقد اتسعت أطار وكبرت وتغير كل شيء في هذه الخمسة والثلاثين عاما؟وصلنا إلى دائرة الشيخ الجليل وقد تغير الكثير من بنيانها أيضا حيث ازدادت ضخامة وفخامة وهيبة، باب ضخم تدخل منه السيارات والجمال على الشارع الرئيس، ومريدوا الشيخ عند الباب يستقبلون ويودعون الضيوف مع أبناء الشيخ وأبناءإخوته، وعند معرفتهم بوصولنا حيث كان أحد أولاد أخيه مع أحدأبنائه بانتظارنا للترحيب بنا ثم الطلب إلينا أن نترك سيارتنا ونرافقهما

بسيارة سوداء ذات دفع رباعي جبلية حديثة، وانطلقنا كما كنا متفقين على الهاتف أن أزور ضريح صديقي وشيخي الجليل رحمه الله أولا، لم يكن الضريح بالقرب من المدينة وأيضا ليس بالبعيد عنها فما هي إلاأقل من نصف ساعة وكنا هناك: مكان جميل تحف به أشجار النخيل وزيرات الرمل ومبنى جميل محاط بسور يمنع الدواب والصبية من الاقتراب من الضريح، ومفتاح مبنى الضريح مع أبناء الشيخ رحمه الله وأبناء إخوته رحمهم الله والذين لم يبق منهم إلاالغيثيأطال الله في عمره والذي زرته في نواكشوط قبل أن آتي إلى وادان كما أوردت تفاصيل الدعوة في حلقة سابقة؟

دخلنا إلى البناء الذي يحوي ضريح الشيخ الجليل اعل الشيخ ولد أمم، لقاء بعد غياب دام خمسا وثلاثين سنة وهكذا هي إرادة الله أن ألتقيك شيخنا الجليل وأنت راقد في برزخ الحق، شعور غريب جمع ذكرياتي عن اللحظات التي كانت تجمعني بهذا الولي الصالح، ورهبة المكان وساكنه، والحزن على فراقه والرضى بحكم الله وأننا جميعا على هذا الطريق لأنها سنة الكون؟

قرأنا الفاتحة ودعونا للمرحوم ولأمواتنا ولأنفسنا برفقة ابن أخيه وولده، ثم التقطنا بعض الصور التذكارية داخل مبنى الضريح وخارجه، وودعنا شيخنا قاصدين الدائرة حيث أهل اعل الشيخ بعض أبنائه وبعض أبناء إخوته ينتظروننا على الغذاء، تناولنا طعام الغذاء وشربنا الشاي الأخضرو كانت أحاديث شيقة حول جلسة الشاي أعادت إلى أذهاننا ذكرى شيخنا الطيبة عليه رحمة الله وغفرانه، صلينا الظهر والعصر قصرا وجمعا في بيت شيخنا رحمة الله عليه، ثم غادرنا البيت الطاهر مودعين بمثل ما استقبلنا به من حفاوة وتكريم، متجهين إلى اكجوجت، وكنت أرغب أن نصلح العجلة التي ثقبت بين وادان وأطار لكن السائق طمأنني أنه مازال عنده عجلة أخرى للاحتياط لأنه يحمل دائما عجلتين احتياطا، سرنا متوكلين على الله وعند الغروب حصل ما كنت أخافه حيث تعطلت عجلة جديدة وبقينا دون عجلة احتياط والله الحامي.

××××

أنا أعرف أنني تأخرت على جمهوري في كتابة هذه الحلقة وهناك من يعرف منهم دقتي في المواعيد ولهم تحديدا أقول إن السبب كان اهتمامي بانتخابات اتحاد الصحفيين وكتاباتي فيها وختمها بتهنئة الناجح فيها، ثم بعد ذلك مدونتي في مباركة شهر الخير رمضان المبارك ومن خلال تجربتي الخاصة فإن كتابة مدونة جديدة تعني مسح المدونة التي سبقتها، لأنه يندر أن يتابع القراء وبنفس المقدار وبنفس التواتر أية مدونة عندما تليها مدونة جديدة حيث تتجه الأنظار إليها.

أعود إلى موضوع الحلقة (73) فنحن مازلنا في رحلة العودة من وادان إلى أطار التي غادرناها قبل ساعتين متجهين إلى نواكشوط، حيث أصيبت العجلة الثانية بعطل وهكذا لم يتبق عندنا عجلة احتياط بعد أن بدلنا الثانية بعد خروجنا من أطار بساعة تقريبا أي مع المغيب، وصار من الضروري أن نصلح العجلتين المتعطلتين معا وليس أمامنا إلا مدينة اكجوجت وكنت أخاف أن نصلها بعد أن أقفلت المحلات أبوابها، وهنا قلت للسائق الذي كان يعيش في شبابه في اكجوجت: هل تستطيع أن تبحث عن بيت (الكومجي) وهي عبارة نستخدمها في سورية لاسم من يصلح إطارات السيارات، طمأنني بأنه سيفعل رغم أنه لا يرى حاجة ماسة لإصلاح عجلات الاحتياط فالطريق هنا جيدة ولاتصاب العجلات لجودة الطريق، وكان رأيي غير ذلك: أن لا نخرج من اكجوجت قبل إصلاح العجلتين، وانتهى قلقنا ونقاشنا عندما صرنا على أبواب اكجوجت ووجدنا معظم محلات السوق مفتوحة الأبواب ووقف السائق ابن المنطقة عند باب مصلح للعجلات ونزلنا من السيارة ليقول له: أخرج عجلتي الاحتياط لإصلاحهما وبينما كان يخرجهما وجد أن آخر عجلة ركبناها على السيارة فيها ثقب وأنها تنزل تدريجيا ولم يبق فيها إلا ثلث ما ينبغي أن يكون فيها من الهواء، وهنا قلت للسائق أرأيت لو عملنا برأيك وفرغ ما في العجلة من هواء ونحن في الطريق بين اكجوجت ونواكشوط ماذا كان سيحصل لنا.

الحمد لله أننا رأينا المتخصص في إصلاح العجلات وبدأنا بإصلاح العجلة الأساسية التي كانت مركبة أصلا على السيارة فوجد الفني أن العجلة الداخلية التي تملأ بالهواء ممزقة بشكل لا يمكن إصلاحه بل تحتاج إلى تبديل بأخرى جديدة وفعلا ذهب إلى محل مقابل يبيع العجلات فأحضر واحدة وركبها ووضعها مكان العجلة التي بدأت تفرغ مافيها من هواء وكانت هي الخلفية اليمينية، والتي بقدرة قادر كانت هي التي تتعطل دائما هي ذاتها في الأربع مرات؛ مرة في طريق الذهاب بين أطار وودان ومرة في العودة بين ودان وأطار والثالثة بين أطار واكجوجت والرابعة ونحن وقوف في اكجوجت، حتى إنني قلت لمصلح العجلات: أنظر هل ترى جنيا يجلس فوق هذه العجلة ليعطل كل عجلة تركب في هذا المكان ؟

فعلا كان أمرا محيرا موضوع تعطل أربع عجلات من مكان واحد هو اليمين الخلفي، أصلحنا عجلتي الاحتياط، وبذلك استراحت السيارة وأصلحنا العجلات، وارتحنا وشربنا الشاي الأخضر أيضا حول مائدة إصلاح العجلات؟ غادرنا اكجوجت متجهين إلى نواكشوط، نحن في ليلة النصف من ربيع الأول والسماء صافية كعادتها في أكثر أيام السنة في موريتانيا والقمر بدر في تمامه، الجبال المحيطة باكجوجت كلها المنار منها، والمظلم منها، تذكرني بمناجم النحاس الغنية بها، وزيرات الرمل تذكرني بتلك التي رأيت على حوافها قبل أربعين عاما كميات من لامع أصفر عندما نزلنا من سيارتنا لمساعدة ركاب السيارة الشاحنة الكبيرة المنقلبة، قلتها يوم لم يكن أحد يفكر في موضوع الذهب، قلتها وأعدتها كثيرا أن الذهب موجود في هذه المنطقة؟

اقتربنا من نواكشوط وكان مطار أم التونسي الذي تتلألأ أنواره من بعيد دليلا على ذلك، ودليل آخر هو خيام بيع حليب النوق على طرفي الطريق التي يرتادها هواة الجو الرومانسي الذي يذكرهم بحياة البادية؟

الهواء الرطب القادم من البحر دليل آخر أننا اقتربنا كثيرا من نواكشوط؟هاهي أنوار نواكشوط بدأت هي الأخرى تتلألأ، بعد دقائق سنكون على أبواب نواكشوط، دخلنا نواكشوط وكان لزاما أن نوصل كلا من مرافقي إلى بيته، فأوصلناهما إلى

بيتيهما وعدنا أدراجنا إلى الفندق حيث كان صديقاي أحمد العبيد ومحمد سالم ولداه ينتظراني هناك، لم نطل الحديث لأنهما يعرفان مدى تعبي من هذا السفر الطويل فقد خرجنا من وادان الساعة الحادية عشرة صباحا، والساعة الآن بعد الواحدة والنصف ليلا وعرفت منهما أن هناك أمورا هامة تنتظرني في الأيام القادمة وكان محمد سالم متعبا جدا بسبب التحضير للانتخابات حينها والتي كانت على الأبواب، لكنها أجلت بناء على طلب جميع الأطراف وقد اتفقنا جميعا على أن نذهب للنوم فقد تأخر الوقت لنلتقي في الصباح، وسنرى في الحلقات القادمة إن شاء الله بعضا من أحداث للثلث الأخير المتبقي من رحلتي للشهر الأخير من عام 2016م.

××××

نحـــن في يـــوم 15 ديســـمبر/ كـــانون الأول 2016 م اليومالتـــالي لوصـــولي مـــن رحلـــة وادان، اســتيقظت صــباحا وكـان علــي أنأفعـل الكثـير المؤجـل وخاصــة في مجـال النـت والفيسـبوك والواتسـاب فـرغم نـومي متـأخرا ورغـم تعـبي مـن يـوم سـفر أمـس أمضـيناه قـادمين مـن وادان إلى نواكشـوط، فقـد اسـتيقظت مبكـرا لأتصـل بعـائلتي الموزعـة بـين بروكسـل وألمانيـا والسـويد ولنـدن وحلـب لأطمئـنهم وأطمـئن علـيهم عـن طريـق الواتسـاب، ولأرد علـى الرسـائل الـتي وصـلت إلى هـاتفي حيـث كانـت تنتظـر الحصـول علـى النـت الـذي كـان معـدوما في رحلـتي الـتي دامـت أربعـة أيام إلى مهرجـان المـدن القديمـة في وادان؟أمـا الفيسـبوك فكـان يتطلـب مجهـودا خاصـا فطلبـات الصـداقة يوميـا بالمئـات ومـا جمـع في أربعـة أيام هـو قرابـة الألفـين، ناهيـك عـن الرسـائل القادمـة عـبر الفيسبوك؟

كمـا أنـني توقفـت في فـترة سـفري عـن اسـتعراض صـفحتي القديمـة والجديـدة والـتي أحـدثتها قبيـل سـفري إلى وادان عنـدما بلغـت صـفحتي الأولى الخمسـة آلاف، كمـا توقفـت عـن التـدوين علـى غـير عـادتي حيـث كنـت قبـل سـفري إلى وادان أعـرض يوميـا مـا سـأقوم بـه مـن أنشـطة أو تلـك الـتي قمـت بهـا، عـدا عـن الأغـاني الـتي كنـت أقـدمها هدية بمناسبة الأعياد وكذلك تصفح الصفحة العامة للفيس، وصفحتي الخاصتين؟

وبينمـا أنا منهمـك لتعـويض مـا فـاتني في النـت، إذ بصـديقي محمـد سـالم ولـداه يحضـر حـاملا لي بشـرى وهـي: أنـه سـيتم تكريمـي اليـوم بوسـام الاسـتحقاق مـن فخامـة رئـيس الجمهوريـة بمرتبـة فـارس، وأن أسـتعد للـذهاب بعـد الظهـر إلى وزارة الثقافـة حيـث سينوب السيد وزير الثقافة عن رئيس الجمهورية في توشيحي بالوسام.

اتفقـت مـع صـديقي محمـد سـالم ولـداه، وأحمـد العبيـد الملـوكي أن نـذهب سـويا إلى الـوزارة فقـد كـانا معـي منـذ مـا قبـل حضـوري إلى موريتانيـا وكـانا أول مـن اسـتقبلني في مطـار أم التونسـي وودعـاني فيـه إلى جانـب أصـدقائي كمـا كـانا معـي في كـل أمـوري وقـد قامـا بكـل مـا في وسـعهما للاتصـال بالجهـات الرسميـة والخاصـة الـتي لهـا علاقـة بـزيارتي

ولهما كل شكري وتقديري على ما قدماه لي، إذا اتفقنا على الذهاب سويا إلى الوزارة قبيل العصر، وفعلا كنا هناك مع أذان العصر وصلينا العصر جماعة خلف إمام في مسجد الوزارة ثم دخلنا إلى الوزارة حيث استقبلتنا الأمينة العامة وقد وعدتني هي الأخرى بأن أكون أنا المستضاف في العام القادم كفنان من خارج موريتانيا حيث كانت الفنانة هيام يونس لعام 2016 م، وأن أكون أنا الفنان المدعو لحضور احتفالات المدن القديمة في تيشيت للعام2017م، وبعد دقائق من وصولنا جاءت الفنانة هيام يونس التي ستكرم هي الأخرى معي وتقلد أيضا بنفس الوسام، وقد كانت وسائل الإعلام جاهزة هناك لتوثق الخبر فتصوره ليبث في نشرات الأخبار وفي البرامج المتعلقة بالحدث، وماهي إلا لحظات حتى أطل فيها السيد وزير الثقافة والسيدة الأمينة العامة للوزارة وموظفو الوزارة ليقوموا بإجراءات توشيحي بوسام الاستحقاق من مرتبة فارس، ثم توشيح الفنانة السيدة هيام يونس كذلك، وسام صاحبه مرسوم جمهوري مكتوب ينص على منح كل من الفنانين وسام الاستحقاق، وقد التقطت صور تذكارية للمناسبة، كنت قد وعدت بهذا قبل حضوري إلى موريتانيا، وأنا ممتن وشاكر لفخامة رئيس الجمهورية الذي قدر ما قدمته لموريتانيا في مجال الفن الموسيقي منذ أربعين سنة وإلى اليوم والتي نرى ثمارها اليوم في أشكال متنوعة من الأعمال الغنائية الوطنية منها والعاطفية، وقد رافق عطائي في مجال الفن الموسيقي كألحان جديدة تنبع من موسيقى قريبة إلى روح الإنسان الموريتاني معتمدا على دراسات قمت بها لطبيعة الفن الموريتاني بدءا من جذوره الأندلسية وانتهاء بكل الإضافات التي دخلته من بيئته الإفريقية وجواره العرب والأفارقة، لقد قدمت عشرات الأغاني الشعبية والقصائد، حيث غنيت لمولد الرسول صلى الله عليه وسلم وللوطن وللجيش وللمرأة وللطفل ولمدن موريتانيا ومناطقه وللمجتمع الموريتاني وللعمال، غنيت لأكبر شعراء موريتانيا وأدبائها: أحمدو ولد عبد القادر، إلخليل ولد نحوي، كابر هاشم، المرحوم فاضل أمين، محمد سالم ولداه، محمدن ولد سيدي إبراهيم، أحمد العبيد، أحمدو ولد مياح، بابا ولد هدار، اعل ول أنبيط، أمين ولد

السـجاد، والعديـد مـن الشـعراء العـرب القـدامى والمحـدثين، لقـد كـان هـذا التكـريم هـو التتـويج لتكريمـات كنـت أفتخرهـا مـن جمهـوري الكـريم الـذيكان يطلـب أغـاني في طلبـات المسـتمعين بعشـرات الطلبـات في كـل بـرنامج، والحفـاوة الـتي كـان يسـتقبلني بهـا في حفـلاتي والتصـفيق الـذي مـا زالـت أصـداؤه في أذني في لقـاء الجمهـور عـام 1977م، أو في كـل سـهراتي الفنيـة في نواكشـوط، ونواديبـو، وكونصـادو، وأطـار، وزويـرات، وفـديرك، ووديان أطـار، والعيـون، وكيفـا، وطـين طـان، وروسـو،وتجكجة، والرشـيد، واكجوجـت، وكيهيـدي، عـدا حضـوري لـدعوات أفـراح أو نـدوات في كـل بـوادي ومـزارع موريتانيـا وقراهـا ومـدنها الصـغيرة، لقـد كـان التكـريم ملازمـا لي مـن قبـل كـل الموريتـانيين أينمـا التقيـت بهـم داخـل موريتانيـا بـل حـتى خارجهـا، وهـذا مـا كـان يجعلـني أنسـى وأتجاهـل كـل أشـكال التعـب والمعـاناة والعرقلـة مـن قبـل الـبعض بـل أزداد إصـرارا علـى تقـديم كـل مـا أمكنـني مـن جهـود فنيـة أو ثقافيـة داخـل موريتانيـا وخارجهـا لصـالح تطـوير الحالة الفنية في هذا البلد الحبيب.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بعونه تعالى.

بالأمـــس 15، 12، 2016م كنـــا في حفـــل تكـــريم الســـيد وزيـــر الثقافـــة لتوشـــيحي بوســـام الاســـتحقاق بمرتبـــة فـــارس لفخامـــة رئـــيس الجمهوريـــة ، اليـــوم هـــو الجمعـــة 16\12 لم يكـــن لـــدي ارتباطـــات ذات أهميـــة لكـــني أخـــبرت بموعـــدين غـــدا الأول حفـــل تكـــريم في وقـــت الضـــحى مـــع الإذاعـــة الوطنيـــة، والثـــاني حفـــل تكـــريم أيضـــا في الخامســـة عصـــرا في المركز العربي الإفريقي:

حفـــل تكـــريم الإذاعـــة الوطنيـــة: فقـــد أرســـل لي الســـيد مـــدير الإذاعـــة ســـيارة الإذاعـــة لتقلـــني مـــن الفنـــدق إلىالإذاعـــة: ومـــع وصـــولي إلى الإذاعـــة كـــان هنـــاك الســـيد المـــدير ومعـــاونوه ورؤســـاء الأقســـام جمـــيعهم في اســـتقبالي قـــي مكتـــب الســـيد مـــدير الإذاعـــة، وقـــد أعـــدوا مائـــدة إفطـــار شـــهية، أفطـــرنا ورافـــق الإفطـــار أحاديـــث تتعلـــق بالإذاعـــة ومـــا طـــرأ عليهـــا مـــن توســـع في الحجـــم والنـــوع والتجديـــد والحداثـــة، كمـــا رافـــق الإفطـــار أحاديـــث إطـــراء مـــن الحاضـــرين وتقـــدير لمـــا قدمتـــه للإذاعـــة في النصـــف الأخـــير مـــن الســـبعينات والنصـــف الأول مـــن ثمانينـــات القـــرن الماضـــي، وقـــد كانـــت مفاجـــأة جميلـــة مخبـــأة لي هـــي اســـتدعاء الســـيد المـــدير لصـــديقي القـــديم المـــذيع أحمـــد ولـــد بيـــاه الـــذي كـــان لـــه معـــي موقـــف لـــن أنســـاه عنـــدما ســـجل لي برنامجـــا مـــن حلقتـــين: ضـــمنه حـــوارا معـــي عـــن مشـــاريعي وأعمـــالي الفنيـــة القديمـــة والجديـــدة يـــوم كانتالخلافـــات محتدمـــة بيـــني وبـــين الإذاعـــة عنـــدما رفضـــت الإذاعـــة تطبيـــق العقـــد الموقـــع بيـــني وبـــين الإذاعـــة وعنـــدما اقـــترح علـــي معـــاون المـــدير حينئـــذ أن أطلـــب أشـــرطتي وأضـــعها في ســـاحة الإذاعـــة وأقـــوم بحرقهـــا ردا علـــى رفـــض إعطـــائي حقـــوقي الـــتي كـــان يـــنص عليهـــا العقـــد، وقـــد اســـتخدم صـــديقي أحمـــد ولـــد بيـــاه الـــبرنامج الـــذي كـــان يقدمـــه للدعايـــة لي بشـــكل غـــير مباشـــر والإعـــلان عـــن البلـــدان الـــتي ســـأقوم بزيارتهـــا وأجـــري فيهـــا ســـهرات فنيـــة، وقـــد بلغـــني أن مـــدير الإذاعـــة أنبـــه علـــى مـــا فعـــل لأنـــه أعد لي دعاية أهم بكثير من الإعلانات؟

لقـــد كـــان لي لقـــاء ســـابق مـــع معـــاون المـــدير في الإذاعـــة عنـــدما ســـألته عـــن الـــزملاء والأصـــدقاء وحـــدثني عـــن أمكنـــتهم الجديـــدة، كمـــا كـــان لي لقـــاء مـــع الســـيد المـــدير في

وادان حيث جلس إلى جانبي في خيمة حفل الليلة الأولى ومعه الأخ أحمد ولد البو حيث تحدثت أمامه عن رغبتي الشديدة في الالتقاء بكل الأصدقاء والزملاء وسألته عن أحوالهم وما طرأ على كل منهم، وهذا مادفعه أن يتصل مع من يمكن إحضاره فأحضر أحمد ولد بياه ولم يتمكن من إحضار أحمدو ولد مياح، ووعدني أن يحضر الباقين يوم تسجيل لقاء إذاعي يجمع كل الأصدقاء والمذيعين والمسؤولين في الإذاعة يوم كنت أقدم فيها أعمالي الفنية والثقافية، لذلك فقد أنهينا الإفطار واصطحبني السيد المدير وبرفقته مجموعة الشباب التي كانت في جلسة الإفطار تلك، إلى أقسام الإذاعة الجديدة منها ما تم بناؤه، أوإحداثه، ومنها القديم في وظيفته لكن مع تحديث للأجهزة والبناء، وكانالأهم عندي هو الاطمئنان على أن الأرشيف مازال موجودا ولم يتلف منه أي شيء. كما ذكر لي بعضهم من قبل، وقد كلف السيد المدير الأخت مريم بنت الحبيب نسخ كل أغاني الانفرادية والمشتركة على فلاشات وتقديمها لي، وبعد انتهائنا من الجولة على كل الأقسام عدنا إلى مكتب السيد المدير حيث كانوا قد أعدوا مجموعة كبيرة من الهدايا، بدءا من نسخة من القرآن الكريم الذي تم تدقيقه وطباعته في موريتانيا بإشراف علماء موريتانيا المشهورين في حفاظهم على القرآن الكريم، وحفظه في الصدور وفي السطور، كما قدموا لي قطعا فنية عديدة من الصناعات التقليدية في موريتانيا، وصورة ضخمة لفخامة رئيس الجمهورية لها إطار خشبي مرصع بالنحاس والفضة، إضافة إلى نسخ كل أعماليالفنية وتقديمها لي، لقد كانت فرحتي لا توصف فها أنا ذا أستعيد الذكرى الطيبة فبعد أربعين عاما جاء من يمسح من ذاكرتي تصرف أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة أرادوا أن أتخلى عن مسيرتي في دعم الموسيقى الموريتانية وتطويرها، وها أنا أرى بأم عيني الفنانين وقد تابعوا في الطريق التي رسمتها لهم وعلى نفس الخطى، وقد ودعني السيد مدير الإذاعة بمثل ما استقبلني به من حفاوة ومعه كل العاملين بالإذاعة وأرسل معي سائقه ليوصلني إلى الفندق ولأرتاح وأستعد لتكريم المساء في المركز العربي الإفريقي ؟

وإلى لقاء في حلقة قادمة إن شاء الله أستودعكم الله.

ما زلنا في يوم 17 من كانون الأول / ديسمبر من عام 2016 م تحدثنا في الحلقة السابقة، عن نشاط الضحى والذي كان في الإذاعة الوطنية إذاعة نواكشوط، حيث قام السيد المدير العام للإذاعة بتكريمي، كان يوما مزدحما بالأحداث الجميلة والسعيدة فبعد تكريم الصباح كان هناك تكريم آخر ينتظرني في المساء من قبل المركز العربي الافريقي والذيكان له الفضل في دعوتي إلى موريتانيا ممثلا في مديره صديقي محمد سالم ولداه، الساعة تقارب الخامسة عصرا حيث توجهت برفقة صديقي أحمد العبيد الملوكي منطلقين من فندق الراحة حيث كنت أقيم والذي يملكه صديقي أحمد العبيد، وصلنا إلى فندق الخاطر: المكان الذي سيتم فيه حفل تكريمي من قبل المركز العربي الافريقي، حيث كان جمع غفير من الصحفيين والمثقفين والشباب ينتظرون بدء الحفل، كما حضره مصورو التلفزيون، حيث بدأ الحفل بتلاوة آي من الذكر الحكيم، ثم تقديم من عريف الحفل وكلمات من شخصيات ثقافية وإعلامية كبيرة في موريتانيا، ثم كلمة مدير المركز العربي الافريقي الذي تلا في نهاية كلمته نص شهادة تكريمي، ثم قدم لي شهادة التكريم مقرونة بمجموعة من الهدايا من الصناعة التقليدية، كما قدمت أنا وصلة غنائية من أغانيَّ الموريتانية بمرافقة عودي، كما تم التقاط صور تذكارية جمعتني مع كل من رغب في التقاط صور تذكارية معي، ومن هناك توجهنا إلى فندق موري سانتر حيث كنا مدعوين إلى حفل خطابي تقيمه منظمة نسائية لنصرة الرسول الكريم تخلل الحفل الخطابي حفل عشاء متميز، حضره حشد غفير من مثقفي ووجهاء وإعلاميي نواكشوط، وقد ألقيت فيه العديد من الكلمات التي تمثل شرائح كل المجتمع الموريتاني، كما قامت عريفة الحفل بإخبار الجمهور بوجودي بينهم، وذكرتني في خطابها بعبارات ترحيبية، طالبة مني أن أقدم أغنية تليق بالمناسبة: وقمت بشكر المنظمة على دعوتي، وعلى عملهن بنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قدمت أغنية شهر المولد من كلمات صديقي محمد سالم ولداه وألحاني

وغنـــائي، وقـــد كانـــت أمســـية هادئـــة جميلـــة بالفعـــل؟ ذكّـــرتني بحفلـــتي الأولى منـــذ أربعـــين عامـــا في فنـــدق شـــنقيط ضـــمن فرقـــة الرشـــيد للغنـــاء والنشـــيد بقيـــادة ديمـــي والأســـتاذ فريـــد، الفرقـــة الـــتي أبـــدعها المرحـــوم الراضـــي البيضـــاوي، وكـــذلك حفـــلاتي في فنـــدق الصـــباح بمشـــاركة المرحومـــة ديمـــي بنـــت آب، أو حفلـــة الأحمـــدي بمشـــاركة الفنانـــة ســـكتو بنـــت همـــد فـــال، وقـــد علمـــت بـــل عايشـــت في هـــذه العجالـــة الـــتي عشـــتها أخـــيرا في نواكشـــوط والـــتي لم تكمـــل الشـــهر، حفـــلات عـــدة في فنـــادق العاصـــمة الـــتي باتـــت تقـــوم بمهمـــة إضـــافية إلى اســـتقبال زبائـــن المبيـــت، اســـتقبال كـــل الحفـــلات بأنواعهـــا السياســـية والنقابيـــة والاجتماعيـــة والترفيهية؟

وقـــد تم التقـــاط عشـــرات الصـــور التذكاريـــة الـــتي رغبهـــا أشـــخاص أرادوا أن تجمعـــني معهـــم هـــذه الصـــور؟ كـــان يومـــا ممتعـــا: تخللـــه حفلتـــا تكـــريم كبيرتـــين، في الإذاعـــة صـــباحا، وحفـــل المركـــز العـــربي الافريقـــي عصـــرا، وكانالختـــام مســـكا حفـــل نصـــرة الرســـول الكـــريم صـــلى الله عليـــه وســـلم في أجـــواء مســـائية معتدلـــة الحـــرارة، ممتعـــة الحضـــور. اســـتمر الحفـــل حـــتى قبيـــل منتصف الليل حيث غادرت فندق موري سانتر؟

والقريـــب جـــدا مـــن فنـــدق الراحـــة الـــذي أقـــيم فيـــه، غـــادرت بصـــحبة صـــديقيّ أحمـــد العبيـــد ومحمـــد ســـالم ولـــداه وأكملنـــا ســـهرتنا في فنـــدق الراحـــة لتقيـــيم نهـــار أمضـــيناه والاســـتعداد لنهـــار الغـــد، ويغـــادرنا الصـــديق محمـــد ســـالم، ونـــذهب أنا وأحمـــد العبيـــد كـــل إلى حاســـوبه المحمـــول، لأقـــوم أنا باســـتعراض الفيســـبوك وأقـــوم بقبـــول الصـــداقات الـــتي كانـــت تنهمـــر بالمئـــات في تلـــك الفـــترة، بســـبب ازدحـــام اللقـــاءات التلفزيونيـــة والإذاعيـــة واللقـــاءات المباشرة في الاحتفالات أو بالحضور بالعشرات لزيارتي في الفندق.

وإلى لقاء في حلقة قادمة بإذن الله أستودعكم الله الذي لاتضيع ودائعه.

××××

نحـــن في صـــباح اليـــوم الثـــامن عشـــر مـــن كـــانون الأول إلى / ديســـمبر عـــام 2016 م حيـــث تفصـــلني عـــن يـــوم مغـــادرتي لنواكشـــوط عائـــدا إلى بروكســـل أربعـــة أيام ســـتكون عـــامرة بالأنشـــطة والـــدعوات الـــتي لم أتمكـــن مـــن تلبيـــة أكثرهـــا مـــع كـــل الأســـف رغـــم أنـــني كنـــت أتمـــنى أن لا أرد أيـــة دعـــوة لـــزيارة أو لقـــاء لأن الفـــترة قصـــيرة والأحبـــة كثـــر والحمـــد لله، ولقـــد حاولـــت جاهـــدا وعلـــى حســـاب راحـــتي، وعلـــى حســـاب تقصـــيري في زيارات كثـــيرة كنـــت أتمـــنى القيـــام بهـــا، حاولـــت أن ألـــبي كـــل دعـــوات وســـائل الإعـــلام المرئيـــة والمســـموعة الحكوميـــة منهـــا أو الخاصـــة والداخليـــة أو الخارجيـــة لأنهـــا تعتـــبر صـــلة الوصـــل بيـــني وبـــين جمهـــوري الغالي:فقـــد دعـــاني بالأمـــس أخـــي وصـــديقي الحســـن ولـــد مـــولاي علـــي، صـــاحب ومـــدير إذاعـــة التنـــوير لإجـــراء لقـــاء إذاعـــي ظهـــر اليـــوم في إذاعـــة التنـــوير، الحســـن هـــذا الرجـــل الـــذي كـــان لـــه فضـــل علـــي وعلـــى الإذاعـــة الموريتانيـــة وعلـــى الشـــعب الموريتـــاني، عنـــدما فـــتح لي أبـــواب الإذاعـــة علـــى مصـــراعيها أول قـــدومي إلى نواكشـــوط في آذار/مـــارس عـــام 1977م، والـــذي اســـتمرت صـــداقتنا مـــن يومهـــا منـــذ أكثـــر مـــن أربعـــين ســـنة، إلى اليـــوم، كنـــت ظهـــرا هنـــاك في إذاعـــة التنـــوير برفقـــة صـــديقي أحمـــد العبيـــد الملـــوكي، وبعـــد ترحيبـــه بنـــا والقيـــام بواجـــب الضـــيافة الموريتانيـــة، عـــرفني أخـــي الحســـن ولـــد مـــولاي علـــي علـــى أقســـام الإذاعـــة الصـــغيرة بحجمهـــا والكبـــيرة بعطائهـــا، في عمـــل يـــدل علـــى خـــبرة عريقـــة في العمـــل الإذاعـــي، كمـــا عـــرفني علـــى العـــاملين وخـــبرات كـــل مـــنهم ؟ومـــن ثم دخلنـــا اســـتوديو البـــث حيـــث كـــان الحـــديث عـــن تجـــربتي الفنيـــة في موريتانيـــا، وكـــذلك الحـــديث عـــن اللغـــة العربيـــة ودورهـــا في تكـــريس الثقافـــة العربيـــة والأصـــالة وعـــدم الانحـــلال أو الانصـــهار في ثقافـــات أخـــرى، لأن اللغـــة وعـــاء يحتـــوي حضـــارة الأمـــة ويحتـــوي علـــى جميـــع فـــروع ثقافاتهـــا، كنـــا في اليـــوم العـــالمي لـــدعم اللغـــة العربيـــة ضـــمن فعاليـــات الأمـــم المتحـــدة في دعـــم اللغـــات الأم لكـــل الشـــعوب، لـــذلك انتهـــز صـــديقي الفرصـــة ليكـــون الحـــوار منصـــبا علـــى هـــذه المناســـبة الهامـــة في حيـــاة الـــدول العربيـــة جميعهـــا وعلـــى بلـــد المليـــون شـــاعر بخاصة.

كان اللقاء على الهواء مباشرة أدار الحوار الأستاذ الحسن ولد مولاي علي الإذاعي الذي بات له قرابة النصف قرن في هذا المجال، والذي يمتلك صوتا متميزا وأداء وبديهة ولغة وذكاء وثقافة متميزة أطال الله في عمره، نعم أدار الحوار داخل الاستوديو وخارجه، وكان لقاء جميلا استرجعت فيه ذكريات الزمن الجميل زمن لقاء الجمهور وحفلاتي في دار الشباب في العاصمة وباقي الولايات وفي دور السينما والفنادق وحتى في أبسط الأماكن عندما لا يتوفر المكان المناسب لقدكان الرجل في رحلتي الأخيرة هذه معي في كل لقاءاتي في التلفزة الموريتانية، وفي حفل تكريم المركز العربي الافريقي، وفي تقديمي لشرح نظرية الأيام المحيرة في الغضب والعدوان في مركز الدراسات (مبدأ) في بناء موريسانتر من الجهة الشرقية، وكذلك في اللقاء الإذاعي في طاولة مستديرة في الإذاعة الوطنية حيث جمعت تلك الطاولة كل الكوادر الإذاعية التي كانت في فترة وجودي القديمة، والتي سأخصص لها حلقة خاصة، إنه الإخلاص الذي يتميز به رجال الزمن الجميل، ولا يمكنني أن أنكر أيضا ما قدمه الدكتور الشيخ سيدي عبد الله إضافة إلى صديقي أحمد العبيد الذي لم ينفصل عني في كل لقاءاتي، وكذلك صديقي محمد سالم ولداه نقيب الصحفيين الموريتانيين.

كان لقائي في إذاعة التنوير لقاء ممتعا وغنيا، قدمت في ختامه مجموعة أغاني الموريتانية بتسجيلها الجديد هدية لهذه الإذاعة، عرفانا مني بالجميل الذي قدمه لي صاحبها، لتكون كل أعمالي الفنية التي قدمتها في موريتانيا في مكتبة هذه الإذاعة، تقدمها لجمهور موريتانيا الحبيب كلما كان الموقف يتطلب ذلك.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذنه تعالى وأنتم بخير.

××××

متابعة لأنشطتي الفنية التي قمت بها خلال زيارتي الأولى بعد غياب ربع قرن عن موريتانيا عام 2016 م.

وأنا الآن بعد ظهر يوم الثامن عشر من كانون الأول/ ديسمبر الذي يصادف يوم اللغة العربية لغة القرآن الكريم، اليوم الذي حددته الأمم المتحدة للغة العربية كلغة أم، ضمن تحديد احتفاليات ليوم لكل لغة أم في العالم، وقد كان موضوع لقائي ظهر اليوم الذي ذكرته في الحلقة السابقة مع إذاعة التنوير يدور حول هذا الموضوع، كما كانت جمعية الإحياء قد دعتني إلى حفل كبير عصرا تقيمه في دار الشباب القديمة يحضره كبار مثقفي موريتانيا وقد ذهبت رفقة صديقي أحمد العبيد الملوكي، وقد كانت فرصة سعيدة لألتقي هناك بصديقي الذي طالما بحثت عنه وقيل لي حينها إنه مسافر للعلاج في تونس أطال الله في عمره ومده بالصحة والعافية حيث كان قد عاد بالأمس من تونس، إنه صديقي وحبيبي وحبيب الشعب الموريتاني الشاعر العربي الموريتاني الكبير أحمدو ولد عبد القادر، صاحب أجمل أغاني موريتانيا: فرحة العيد أيقظت ذكرياتي التي لحنتها وغنيتها، وأغنية ريشة الفن التي لحنها المرحوم سيمالي وغنتها أيقونة الفن المرحومة ديمي بنت أب، وأغنية في الجماهير تكمن المعجزات التي لحنها المرحوم سيمالي وغنتها الفنانة أبتي بنت شويخ، ودواوين كتبها من الشعر الذي باتت قصائد منه تدرس على مستوى الوطن العربي، نعم التقيت به في تلك الاحتفالية وجلست بجواره نتذاكر أطيب الذكريات كلما كان هناك فاصل واستراحة بين نشاطين يقدمان للجمهور، سألته عن ابنته صديقتي الصغيرة التي كانت تصر على أبيها أن يحضرها لبيتنا لتزورني كل يوم عطلة للمدرسة، وقال لي إنها بخير وإنها صارت امرأة تعمل في مضمار الثقافة، في هذا الحفل شارك العديدون من كبار مثقفي موريتانيا في فقراته، والذي غصت به دار الشباب القديمة، تلك الدار التي كانت إطلالتي الأولى منها في لقاء الجمهور والذي كانت تنقله الإذاعة الموريتانية على الهواء مباشرة، عام 1977م أي قبل أربعين سنة خلت، والتي قدمت بعدها

وعلى مسرحها هذا العديد من الحفلات وعلى رأسها حفلة عام 1980 م والتي حضرها كبار مسؤولي الدولة وعدد من السفراء والتي كانت يومها الرد الذي جاءني من جمهوري الحبيب على ما قام به البعض لحصاري وإبعادي عن الساحة الفنية بل عن الساحة الموريتانية، حيث امتلأت الدار فيتمام الساعة التاسعة والربع، واضطررت إلى الاعتذار من كل من جاء بعدها وكانوا أكثر بكثير ممن حضروا مبكرا لأن الناس كانوا قد اعتادوا في حفلات الفنانين الآخرين الحضور بعد العاشرة وليس قبلها لكني كنت قد عودت جمهوري أن أبدأ في تمام التاسعة ولو بأغان أعيدها مرة ثانية خلال الحفل، أقول شريط من الذكريات مر سريعا أمامي أعادني عقودا إلى الوراء،إلى ذلك الزمن الجميل، قطع الشريط هذا تقديم عريف الحفل الذي قدمني كضيف إلى الجمهور الحبيب، تحدثت بإيجاز عما قدمته أنا في مجال اللغة من أغان وهي نشيد النور للأطفال والكبار من كلمات الشاعر السوري الكبير سليمان العيسى وألحاني وغنائي.

وأغنية سمراء الرمزية للشاعر الموريتاني الكبير المرحوم فاضل أمين والتي يتحدث فيها عن تاريخ بدأ من سد مأرب، ومر بالأندلس عابرا تدمر وكل الحضارات العربية الأخرى، وقد غنيت الأغنيتين للشباب الذين كانوا حاضرين في الحفل والذين لم يسمع أكثرهم بهاتين الأغنيتين من قبل، كونهم لم يكونوا قد ولدوا بعد عندما سجلتهما وقد قدمت لي الجمعية كتاب تكريم بهذه المناسبة أضيفه إلى كتب وشهادات التكريم العديدة التي قدمت لي في هذه الزيارة المباركة.

انتهى الحفل مع صلاة المغرب وبقيت بعد الحفل دقائق طويلة أحاول جاهدا الخروج من الدار بسبب الازدحام الشديد من حولي للشباب الذين يريدون التقاط صور تذكارية معي أو للتحدث إلي للمرة الأولى أو ليذكروني بأنفسهم أنهم كانوا من طلابي في السبعينات أو الثمانينات. خرجنا من الدار متجهين إلى فعالية من شكل آخر إنها تلبية لدعوة للعشاء في بيت صديقي أحمد ولد آب شقيق المرحومة الأيقونة ديمي بنت أب.

حيث كان قد أولم على شرفي مجموعة من محبي الفن من رجالات المجتمع الموريتاني، ومن الفنانين من أهل زوجته الفنانة الكبيرة صاحبة الصوت الرخيم منى منت دندني حيث حضر إخوتها وقدمنا جميعا سهرة من ليالي العمر بعد تناولنا لعشاء موريتاني عصري، في بيت من بيوت الفن والكرم وحسن الضيافة، وقد قدم لي أحد الضيوف كتابا قيما ونادرا عن الفن الموريتاني بعنوان: معالم الأدب الحساني، دراسة تحليلية لتجليات الشعر والموسيقى عند البيظان والعوامل المؤثرة فيها، من تأليف الباحث المبدع نجاح يوسف، كتاب ضخم من 351 صفحة من القطع الكبير، وهو من منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتنمية، وهو كتاب علمي موضوعي أنصح كل من يحب الغناء الموريتاني أن يقتنيه، وقد استمرت سهرتنا إلى الساعات الأولى من الصباح لتضاف صفحة مضيئة إلى صفحات كتاب الذكريات في موريتانيا الغالية.

وإلى حلقة قادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم بإذنه تعالى وتصبحون على خير.

××××

نحـــن اليـــوم في التاســـع عشـــر مـــن كـــانون الأول / ديســـمبر عـــام 2016م ، وعنـــدي موعـــدان لهـــذا اليـــوم: أحـــدهما صـــباحي مـــع إذاعـــة كوبني مـــع الشـــيخ ولـــد آب الإعلامـــي الفنـــان، حيـــث ذهبـــت إليـــه وأجرينـــا لقـــاء علـــى الهـــواء مباشـــرة، وقـــد تنـــاول الحـــديث بيـــني وبـــين الشـــيخ تجـــربتي الفنيـــة في موريتانيـــا، حـــوار دار أكثـــر مـــن ســـاعة لكنـــه وعنـــد تـــرك الميكرفـــون للجمهـــور ليطـــرح مـــا يشـــاء مـــن أســـئلة أو تســـاؤلات ومـــع ورود ســـؤالين أو ثلاثـــة مـــع الإجابـــة عليهـــا انقطـــع التيـــار الكهربائـــي عـــن الإذاعـــة ولا أعـــرف إن كـــان الانقطاع عاما أو محليا في شارع تواجد الإذاعة، المهم أن اللقاء لم يكن قد انتهى.

انتظـــرنا قلـــيلا عســـى أن يعـــود التيـــار لكـــن دون جـــدوى، غـــادرت وأنا متأســـف علـــى حظـــي وحـــظ الشـــيخ ول أب بـــل وحـــظ الجمهـــور فيمـــا حصـــل، ســـألني الشـــيخ هـــل تستطيع أن تأتي في المساء لنطلع على الهواء مرة أخرى؟

قلـــت لـــه نعـــم لكـــن بعـــد أن انتهـــي مـــن حـــوار حـــول نظـــريتي في علـــم الـــنفس الاجتمـــاعي الأيام المحـــيرة في الغضـــب، في مركـــز الدراســـات (مبـــدأ) الكـــائن في بنـــاء موريســـانتر مـــن الجهـــة الشـــرقية منـــه عصـــر هـــذا اليـــوم، وهـــذا مـــا حصـــل فعـــلا حيـــث جـــاء موعـــد مناقشـــة النظريـــة مـــع نخبـــة مـــن مثقفـــي موريتانيـــا وإعلامييهـــا وحضـــور لضـــيوف مـــن طـــرفي، دعـــوتهم لحضـــور النـــدوة، وضـــيوف مـــن رواد المركـــز أو ممـــن دعـــاهم المركـــز لهـــذه الغايـــة، حضـــر مـــن طـــرفي الـــدكتور الشـــيخ معـــاذ ولـــد ســـيدي عبـــد الله، والحســـن ولـــد مـــولاي علـــي، وأحمـــد العبيـــد الملـــوكي، ومحمـــد ســـالم ولـــداه، وآخـــرون عديـــدون مـــن أصـــدقائي، وقـــد صـــورت النـــدوة تلفزيونيـــا وبثـــت لقطـــات منهـــا، وقـــد كانـــت نـــدوة ناجحـــة بمـــا للكلمـــة مـــن معـــنى حيـــث وصـــل جميـــع الحاضـــرين إلى فهـــم تام لمضـــمون النظريـــة وأسســـها وموضـــوع دراســـتها ومراحـــل التأكـــد مـــن صـــحة الفرضـــيات، والنتـــائج الـــتي توصـــلت إليهـــا النظريـــة، وبرمجـــة النظريـــة مـــن قبـــل كليـــة الهندســـة المعلوماتيـــة في حلـــب، والفوائـــد المرجـــوة مـــن برمجـــة النظريـــة للمجتمع والأفراد بل للإنسانية جمعاء حيث يستفاد من تطبيقها.

وقد كان لتفاعل جميع الحاضرين للندوة ومستواهم الثقافي دورا كبيرا في خلق تصور واحد مشترك في هذه العجالة لمفاهيم ومكونات النظرية، وقد أعقب النظرية حوارات متفرقة بيني وبعض الحاضرين خارج موضوع النظرية، كما التقطت صور تذكارية من قبل العديد من الحاضرين، ثم غادرت المركز كما استقبلت عند وصولي إليه بالترحيب، وأنا بدوري أشكر إدارة المركز التي تساهم في عملية التنوير والتثقيف في موريتانيا وبالمستوى العالي من العمل والثقافة والتنظيم.

وبعيد خروجنا من المركز اتصل بي المشرف على إذاعة كوبني من أجل متابعة لقاءنا الإذاعي الذي تسبب انقطاع التيار الكهربائي في بتره، فتوجهت إلى الفندق كي أصطحب عودي وأتجه إلى إذاعة كوبني (وبالمناسبة قد يلتبس على بعض إخوتي السوريين أو العرب تسمية الإذاعة (كوبني) فهو يماثل اسم مدينة عين العرب السورية على الحدود التركية والتي جرت فيها معارك دامية أدت إلى تحريرها من قبل سكانها من أيدي داعش) وموجب هذا الشرح أن كثيرا من القراء هم من السوريين أو العرب ولابد لي من توضيح ما قد يشغل تفكيرهم بالالتباس بهذا الاسم المشترك. وقد توجهت إلى مبنى إذاعة كوبني وتابعنا ما كنا قد بدأناه في صباح ذلك اليوم إصلاحا للخلل الذي سببه انقطاع التيار الكهربائي، وقد عوضنا ما فاتنا في الصباح واستطعنا أن نرد على كل التساؤلات التي طرحها الإخوة المستمعون، وفي نهاية اللقاء شعرت أن الكل قد ارتاح إلى تصحيح الخلل الذي وقع في الصباح، وأنصح في هذا الصدد كل الدوائر الهامة كالإذاعات والفضائيات والبنوك والمستشفيات والمقرات الحكومية الهامة أن يكون لديها محركات كهربائية احتياطية تعمل تلقائيا عند انقطاع التيار وهي ليست غالية الثمن وقد لا يحتاج إليها المرء إلا مرات قليلة في السنة، لكنها عند انقطاع التيار تكون مساوية لأضعاف ثمنها البسيط، هذا حسب خبرتنا ومعايشتنا للموضوع في سورية أيامالأزمة التي ألمت ببلدنا.

وإلى الحلقة القادمة أستودعكم الله على أمل اللقاء بكم وأنا وأنتم بخير بإذنه تعالى.

××××

اليوم هو الثلاثاء، العشرون من كانون الأول/ ديسمبر عام 2016م، ومازال يفصلني يومان عن مغادرة موريتانيا عائدا إلى بروكسل، اتصل بي السيد مدير الإذاعة ليحدد لي مساء اليوم موعدا للقاء الإذاعي على طاولة مستديرة تضم كل أصدقاء الزمن الجميل الذين كانوا هم من يسيرون أمور إذاعة نواكشوط يومئذ وعلى رأسهم مدير البرامج الحسن ولد مولاي علي الذي كان له الفضل علي، وعلى الفن في موريتانيا، وعلى الثقافة الموريتانية، عندما فتح لي باب الإذاعة على مصراعيه أنى شئت، وقد كان من الحاضرين الشاعر الكبير كابر هاشم الذي كان مديرا مساعدا للبرامج العربية والذي كان هو أيضا ممن يقدمون لي الدعم في التسجيل، وقد لحنت من شعره قصيدة لغز الحياة، كما كان من الحاضرين للطاولة المستديرة أحمد ولد بياه الذي حدثتكم عنه في حلقات سابقة وكيف أنه وقف إلى جانبي عندما تآمر مجموعة من الناس لحصاري ماديا عندما رجعت عام1980م وتم هضم مبالغ من المال كانت في حسابي من ناتج عقد بيني وبين الإذاعة، بينما قام غيرهم لحصاري في وزارة التربية كي يمنعوها من التعاقد معي بعقد داخلي، يومها قام أحمد ولد بياه هذا بإجراء مقابلة معي: بثت في حلقتين على أسبوعين متواليين كانت كلها دعاية عن حفلاتي التي سأقيمها في نواكشوط وباقي الولايات الموريتانية ومدحا بي وتذكيرا بإنجازاتي، وقد تم لفت نظره من قبل مدير الإذاعة آنذاك، أو تم عقابه لكنه أخفى علي ذلك لشهامتهكما حضر الطاولة المستديرة أيضا صديقي الصحفي المختار لسان الدين الذي ودعني يوم أنهيت عقدي الأخير مع وزارة التعليم عام 1982م بمقابلة إذاعية بثت أيضا على حلقتين ولأسبوعين في برنامج له عن الأدب والفن الموريتاني، وكان من الحاضرين على الطاولة المستديرة كذلك صديقي أحمد العبيد الملوكي ذاك الصديق الذي استمرت صداقتنا منذ عام 1978م يوم جاءني ممثلا لفرع الشباب في أطار ليدعوني إلى زيارة أطار ورؤية جمهور أطار في حفلات عدة، كما وقف إلى جانبي وقفة أخ وصديق في زياراتي لأطار قبل تطوعه في الجيش،

وتابع في وقفاته الرجولية العام الماضي عندما استقبلني في فندقه ووضع نفسه وسيارته في خدمتي ونقلي إلى كل اللقاءات والزيارات كما لم يقصر في كل ما أمكنه من دعم على كل المستويات، نعم الصديق الوفي وهم قلة في هذا الزمان، وأخيرا كان معنا على الطاولة المستديرة الصديق القديم والوفي كذلك أخي وصديقي محمد سالم ولداه نقيب الصحفيين ورئيس المركز العربي الافريقي الذي تولى موضوع دعوتي التي جمعتني بجمهوري الغالي بعد غياب ربع قرن عن موريتانيا لقد أدلى الحاضرون في تلك السهرة الفنية الفريدة كل بدلوه متحدثا عن ذكريات الزمن الجميل التي جمعتنا، وعن مراحل وخطوات الأعمال الفنية التي قدمتها لموريتانيا وما رافقها من ردود فعل إيجابية، إلا عند بعض المتضررين أو المعادين لتقارب موريتانيا من أصولها العربية، ساعة ونيف من الوقت مرت سريعة أعادتنا إلى تلك الأيام الجميلة تلك التي كانت حول تلك الطاولة التي قلنا عنها مستديرة لكن حتى أكون صادقا كانت بيضاوية مجهزة بالعديد من الميكروفونات الثابتة والمخصصة لمثل هذه اللقاءات. انتهى لقاء الطاولة البيضاوية وخرجت من ذاك الاستوديو الرئيس، لأتجه إلى استوديو آخر كان ينتظرني بناء على موعد مع إذاعة الشباب وقد كان اللقاء شبابيا حيث سجل ليلا ليذاع صباحا ولم ننته منه إلا في منتصف الليل تقريبا، وقد كانت مديرة إذاعة الشباب بانتظاري مع بعض موظفيها حيث أعدت لي ولبعض مرافقي استقبالا حافلا وضيافة موريتانية متميزة بالكرم وحرارة الاستقبال، وكان باقي مجموعة أصدقاء الطاولة البيضاوية ينتظرونني في أحد مكاتب الإدراة إلى أن أنهيت لقائي مع إذاعة الشباب حيث انطلقنا معا لالتقاط بعض الصور التذكاريةو كان أجملها ونحن في ساعات الصباح الأولى أمام الإذاعة حيث استعرضنا ما حصل من تطور عمراني وتنظيمي على الإذاعة وعلى الأبنية المجاورة والقريبة من منطقة الإذاعة، وأجمل ما فيها كان تلك اللوحة التي تعلو الإذاعة لتدل عليها والتي كتبت باللغة العربية بعد أن كانت مكتوبة بالفرنسيةسابقا رغم تأخر الوقت ليلا وفراغ الشارع من الناس ورغم تعبي الجسدي نظرا لما بذلته من جهد منذ الصباح لكنني كنت أشعر بسعادة ما بعدها سعادة.

إنها الحلقة قبل الأخيرة من الحلقات التي تغطي نشاطاتي الفنية التي قمت بها في رحلتي التي دامت قرابة الشهر بعد غياب طال عن موريتانيا ليبلغ الربع قرن، وهو زمن طويل للفراق بين الأحبة؟

فبعد عشر لقاءات تلفزيونية لقنوات فضائية محلية رسمية وخاصة وأخرى خارجية، وسبع لقاءات إذاعية أربع منها للإذاعة الوطنية وثلاثة لإذاعات خاصة؛ لقاء للتنوير ولقاءان لإذاعة كوباني، وحضور عدد من الأنشطة الفنية كان على رأسها الاحتفال بعيد المدن القديمة في وادان، والاحتفال بعيد اللغة العربية في دار الشباب القديمة، وحفلين في فندق موري سانتر لنصرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وحفل لإعلان ترشيح صديقي محمد سالم ولداه، وحفل لتكريمي في المركز العربي الافريقي، ونشاطات فنية مع الفنانين، كانأحدها مع الفنانة منى منت دندني وإخوتها في بيت الصديق أحمد ولد آب زوج الفنانة منى وشقيق الصديقة المرحومة الفنانة الخالدة ديمي بنت آب، ونشاط فني في بيت الفنانة مياسة بنت الصديق الفنان المرحوم سيمالي ولد همد فال، ونشاط فني اجتماعي في بيت الأخ محمد ولد الهيبة في وادان، ونشاط فني في بيت الصديق الفنان مراد ولد أحمد زيدان، ونشاطات ثقافية: كنشاط التوشيح في وزارة الثقافة لوسام رئاسة الجمهورية للاستحقاق برتبة فارس، ونشاط مناقشة نظرية الأيام المحيرة في الغضب والعدوان في مركز الدراسات (مبدأ) الموجود في بناء موري سانتر في الجهة الشرقية منه والذي حضره كبار مثقفي موريتانيا.

ناهيك عن النشاطات الاجتماعية العديدة التي كنت ألبي فيها دعوات لولائم، أو أقوم بعيادة المرضى من الأصدقاء، أو أزور أصدقاء الزمن الجميل في بيوتهم، أو في أمسيات شرب لبن النوق في شارع مسعود أو ما ماثله في المهمة، واليوم هو الأربعاء الواقع في 21 كانون الأول / ديسمبر عام 2016م سأقوم بآخر نشاط قبل أن أغادر مساء الغد راجعا إلى بروكسل حيث أقيم منذ عام 2015م، النشاط هو لقاءان تلفزيونيان في قناة شنقيط الفضائية الخاصة، واللذان سيجريهما معي المذيع

المتألق عبد المجيد إبراهيم، لقد طلب مني أن يجري معي لقاء تلفزيونيا ووافقت كما وافقت للجميع من قبله، قيل لي إنه داهية وصريح جدا وسيدخلك في مواقف محرجة، لذلك اتفقت معه مسبقا على أن لا نتحدث في غير الفن ووافق على ذلك حيث لن يفوقني معرفة بعملي كعادتي لا أسأل المذيع عما سيسألني فأنا جاهز للرد عن كل تساؤل، وإلى هنا الأمور ممتازة، اتفقنا على هذا الموعد منذ أيام عديدة، لم أكن أعلم أنه طلب الموعد قبل فترة طويلة ليحضر للحلقة أو الاثنتين كما حصل فيما بعد وقد ظهرت لي عند بدء الحلقة التي كانت تبث على الهواء مباشرة أمور لم أكن أتوقعها فالرجل قرأ حلقاتي التي كانت قد صدرت إلى ذلكم الحين وكان عددها خمسين بتمعن ودقة شديدين واختارأسئلته منطلقا من هذه الحلقات، وقراءة مائتين من الصفحات وبدقة وفهم للمضمون أعتقد أنه ليس بالأمر السهل ورغم وعده لي بأن لا يخرج عن موضوع حياتي الفنية، لكنه خرج عدة مرات وطرح أسئلة سياسية لادخل لها بالفن، والمشكلة أننا كنا على الهواء مباشرة، كما أنه كان يطرح الأسئلة بطريقة ذكية جدا بحيث لا يمكنني التهرب من الإجابة عليها: وقد استطعت أن أجيب إجابات دبلوماسية لا تغضب أحدا وهذا هو هدفي: فأنا فنان للجميع ولا أريد أن أخسر واحدا من جمهوري الفني فكيف إذا تحدثت بكلام يفرح جماعة لكنه قد يغضب جماعات أخرى، وأظن أن كلامي كان خاليا من إغضاب أي أحد. لقد ظهر لي من خلال الحوار أنه لم يكتف بقراءة الحلقات بل بحث واستقصى على الطريقة المخابراتية ليكون عني فكرة متكاملة، وفي هذا السياق أنصح كل من يريد أن ينجح في عمله أيا كان العمل أن يفعل كما فعل عبد المجيد، لقد شعرت أنه بذل جهدا كبيرا جدا ووقتا طويلا كي ينجح في عمله هذا وأهنئه فعلا على ما يمتلك من مثابرة وإتقان وسرعة بديهة وطلاقة في الحديث رغم عدم وفائه بوعده الذي قطعه لي في عدم خروجه عن موضوع الفن. لقد كانت أسئلته حتى في إحراجها محببة إلى نفسي لطريقته الشيقة.

إن المـذيع النـاجح هـو مـن يـدير ويحـرك ويفعـل الحـوار لا العكـس كمـا يفعـل بعـض المـذيعين الـذين تـراهم مـدفوعين خلـف محـاورهم ينتظـرون منـه أن يـنجح لهـم الحـوار، لقـد كـان يعـرف عـن كـل أغنيـة مـن هـو كاتبهـا ومـتى لحنتهـا والظـرف الـذي رافـق تلحينهـا وهـذا يعـني أنـه لم يكتـف بالحلقـات بـل قـرأ حكـايات كـل أغنيـة وعـددها بالعشـرات، لقـد كـان هـو المعـد للـبرنامج وهـو المـذيع وهـو المخـرج، فعـلا أهنئـه علـى عزيمتـه الـتي يمتلكهـا وعلـى حبـه لعملـه وإخلاصـه لـه وتفانيـه فيـه. لقـد اسـتعرض في حـواره كـل المراحـل الـتي مـر بهـا عملـي الفـني في موريتانيـا ومـا رافـق ذلـك مـن تطـورات في شـتى مجـالات الحيـاة في موريتانيـا وأنصـح كـل مـن لم يشـاهد الحلقتـين أن يعـود إليهمـا في اليوتـوب فهمـا ممتعتـان فعـلا وإلى لقـاء في حلقـة قادمـة إن شـاء الله، وإلى ذلكـم الحـين أستودعكمالله.

××××

إنها الحلقة الأخيرة من مذكراتي الفنية في موريتانيا، وبذلك أكون قد غطيت كل فترات وجودي في موريتانيا عدا جزء صغير هو رحلة عام 1990م من حلب إلى نواكشوط والتي دامت شهرين تقريبا وكنت قد خصصت لتلك الزيارة كلا من الحلقتين 51 و52 اللتين تجاوزتهما حيث قفزت من الحلقة رقم 50 والتي كتبتها قبل سفري الأخير عام 2016م إلى موريتانيا إلى الحلقة 53 مباشرة، تاركا تلكم ال الحلقتين، لكتابة أحداث تلك الفترة فيهما، وقد بقيت في تردد بين أن أقوم بذلك أو عدمه، وأخيرا قررت أن أترك ذلك للزمن ولا أتطرق لتلك الفترة لأن أحداثا لا أريد التطرق إليها كان لها كبير الأثر في مجريات الأمور في تلك الزيارة، وبالرغم من أن تلك المدة القصيرة بزمنها كانت حافلة بالأحداث وزرت فيها الشرق الموريتاني كله عدا النعمة وزرت كبله و الساحل بأكملهما، ورغم أن ذكرياتي في هذه الفترة أكثر قربا وأكثر غزارة، لكنني آليت أن لا أتطرق إلى هذه الفترة استمرارا مني في طريقة تعاملي مع كل ما لاقيته دون أن أكثر من الأخبار كما يقال في الحسانية (كثرة الأخبار)، حيث عشت منذ الأيام الأولى لزيارتي القصيرة تلك وفي بدايتها غدرا وطعنا من الخلف من قبل مجموعة تظاهرت بالتعاون معي لكنها ركزت على إفشالي نتيجة ثقتي بها ونجحت إلى حد ما في ما هدفت إليه في نواكشوط، لكني عوضت عن الخسارة التي لحقتني في نواكشوط: عوضتها في حفلات أطار ونواديبو وزويرات ثم في العيون وكيفا والرشيد، ولأنني كنت مضطرا إلى عدم المكوث لفترة أطول في موريتانيا لأن أعمالا ومشاريع كانت تنتظرني في حلب حيث كنت في فترة تأسيس مدرستي الخاصة التي كانت قيد الإنشاء وقتئذ.

صحيح أني قد حجبت بعض المعلومات وأني أعترف بذلك، لكن في المقلب الآخر: فقد قدمت كل ما قدمت من حلقات بكل دقة وصدق لكل معلومة قدمتها لكم، وكان هدفي من ذلك أن لا أتسبب في إحراج أي شخص أو أذكر اسمه رغم كل ما سببه لي البعض من إيلام وإحراج، وأتركهم لبارئهم يقتص منهم لأني لم أقم بإيذائهم

ولا إيذاء غيرهم في يوم من الأيام، لكن بعض بني البشر فطروا على الحسد والغيرة وعلى حب الخير لذاتهم دون غيرهم بل إذا حل الخير بغيرهم تألموا من ذلك.

وبهذا يمكن اعتبار عدد الحلقات التي احتوت مذكراتي الفنية في موريتانيا: ثمانين قصاصة فقط بعد حذف رقم 51و 52 واللتين لم تستخدما فعليا، وكان حجم كل حلقة يتراوح بين الثلاث والخمس صفحات أحيانا، وهكذا صار عدد صفحات الحلقات الثمانين يقارب الثلاثمائة صفحة.

وقد اقترح علي الكثيرون أن أجمعها في كتاب يوثق حقبة تاريخية من حياة موريتانية في مجال الثقافة والفن الموريتاني. وكم كنت أتمنى لو كنت في ظروف تسمح لي بالقيام بتلك المهمة بنفسي. ولكنني أترك الباب مفتوحا لمن يرغب أن يقوم بذلك أن يتصل كي أجهز له الكتاب ويتولى هو الطباعة.

أعود إلى الحلقة الأخيرة: اليوم هو الخميس 22 كانون الأول/ ديسمبر عام 2016م وهو اليوم الأخير لي في موريتانيا حيث ستغادر طائرتي منتصف هذه الليلة مطار نواكشوط متوجهة إلمطار قرطاج التونسي حيث ودعت في النهار كل الأصدقاء وجاء أصدقاء آخرون في المساء لتوديعي منهم من ودعني حسب ظرفه في الفندق ومنهم من رافقني إلى المطار.

إنها الحياة هكذا تمر أحداثها كحلم عاشه الإنسان وهكذا مرت كحلم أحداث شهر قطفت فيه ثمار تعب عشرات السنين من النضال الفني كنت أتمنىأن يتخلل الشهر حفلات ألتقي فيها جمهوري الحبيب، لكن ظروفي النفسية بسبب أوضاع سورية المأساوية حينها وما سببته لي من تشريد وتدمير وخسارات، كانت حالتي تلك تمنعني من الغناء بل من الكلام في اللقاءات التلفزيونية أحيانا.

أنا الآن في مطار أم التونسي في نواكشوط وبعد قليل ستطير الطائرة متوجهة إلى مطار قرطاج الدولي في تونس.

لقد تأخرت الطائرة في إقلاعها من مطار نواكشوط، وزاد ذلك عن الساعة والنصف وعرفنا فيما بعد أن هناك عطلا في المحرك كان هو السبب في ذلكم التأخر، لا بأس

لولا أن العملية ستؤثر في ساعة الوصول إلى تونس والتي قد تجعلني أتأخر عن طائرة بروكسل التي سأستقلها بعد وصولي إلى مطار قرطاج، وكان هذا هاجسي إلى أن وصلنا إلى المطار ودخلت الترانزيت ذلك المكان المشؤوم الذي كاد يعيدني إلى بروكسل عندما كنت قادما إلى نواكشوط، لكنه هذه المرة لم يكن لديه ما يفعل فأنا عائد إلى بروكسل التي كان سيعيدني هو إليها.

جاءت الطائرة التونسية التي ستنقلنا إلى بروكسل في موعدها وصعدت مع كل من كان قاصدا بروكسل إلى الطائرة وماهي إلاساعات قليلة كنا بعدها في مطار بروكسل حيث كان ينتظرني أبنائي الذين ودعوني قبل ثلاثين يوما (واللي يصيفط يتلكا) كما يقال في موريتانيا.

وهكذا انتهت هذه الفترة القصيرة بزمنها الكبيرة بأثرها عليّ وعلى أحبائي في موريتانيا، وإلى زيارة أخرى إن أحياني الله وأراد لي ذلك أستودعكم الله ودمتم لفنانكم فريد حسن.

××××

الطبعة الأولى: دجنبر 2019
ISBN : 978-2-37711-095-7